

سلسلة التأصيل العلمي
(٢)
الإبداع العلمي
هذا الكتاب حشوته بقواعد
غرّ ليصبح للعقول شعاعا
سفر نفيس فيه كل فريدة
فلأجل ذا سميته (الإبداعا)
تأليف
أ.د. أحمد بن علي القرني
قرأ الكتابَ وقرّظه طائفةٌ من أعلام العصر



كتابي يا ذَوِي العِرْفانِ هـذا　　خُلاصَةُ كُلِّ قولٍ قد تَسامَى

سَمَحتُ به إلى القُرّاءِ دَوْمًا　　وحَـقُّ الطَّبْـعِ مَبـذولٌ دَوَامَـا

النشرةُ الرابعةُ

جمادى الأولى ١٤٤١ هـ

مَزِيدَةٌ ومُنقَّحَةٌ

للتواصل مع المؤلِّف

على البريد الشَّبَكي

daL1388@gmail.com



بَـــدَاءَة

أُبَـارِكُ فِـي النَّـاسِ أَهْـلَ الطُّمُـوحِ ... ومَـــنْ يَسْـــتَلذُّ رُكُـــوبَ الخَطَـــرْ

وَمَـنْ لّا يُحِـبُّ صُـعُودَ الجِـبَالِ ... يَعِــشْ أَبَـدَ الـدَّهْرِ بـينَ الحُفَـرْ

إذا مَــا طَمِحْــتُ إلــى غَـايَـــةٍ ... رَكِبْــتُ الــمُنَى ونَسِيتُ الحَــذَرْ

ومَـنْ لَـم يُعَانِقْـهُ شَـوْقُ الحَيَـاةِ ... تَبَخَّـــرَ في جَوِّهَـــا وانْـــدَثَرْ

فـلا الأُفْـقُ يَحْضُـنُ مَيْـتَ الطُّيُـورِ ... ولا النَّحْــلُ يَلْــثِمُ مَيْــتَ الزَّهَــرْ

هُـوَ الكَـوْنُ حَـيٌّ يُحِـبُّ الحَيَـاةَ ... ويَحْتَقِــرُ الــمَيْتَ مَهْمَــا كَبُــرْ

كَـذلِكَ قَالــتْ لــيَ الكَائِنَــاتُ ... وحَـــدَّثَنِي رُوحُهَـــا الـــمُستَتِرْ

وَأُعلِـنُ في الكَـوْنِ أَنَّ (الطُّمُـوحَ) ... لَهِيــبُ الحَيَــاةِ وَرُوحُ الظَّفَــرْ

أبو القاسم الشابي






بسم الله الرحمن الرحيم



المُقَــدِّمَةُ[1]

الحمدُ للهِ بديعِ السماواتِ والأرضين، وإلهِ الأوّلينَ والآخِرين.

والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الأنبياء والمرسَلِين، نبيِّنا محمدٍ، وعلى آلِه وأصحابِه أجمعين.

اللهمَّ هَيِّئْ لنا الخيرَ، واعزِمْ لنا على الرُّشْدِ، وآتنا مِن لدُنْكَ رَحْمةً، واكتُبْ لنا السَّلامةَ في الرأْيِ، وجَنِّبْنا فِتنةَ الشيطانِ أنْ يَقْوَى بها فنَضْعُفَ، أو نَضْعُفَ لها فيَقْوَى، ولا تَدَعْنا مِن كَوكبِ هِدايةٍ منكَ في كلِّ ظُلْمةِ شَكٍّ منّا، واعْصِمْنا أنْ تكونَ آراؤُنا في الحقِّ البيِّنِ مكانَ الليلِ مِن نَهارِه، أوْ تنزلَ ظُنُونُنا مِن اليقينِ النَّيِّرِ مَنزلةَ الدُّخَانِ مِن نارِه؛ نَدعوكَ بأفئدةٍ عَرَفَتْكَ حِينَ كَذَّبَ غَيرُها فأَقَرَّتْ، وآمنتْ بكَ فزُلْزِلَ غَيرُها واستَقَرَّتْ[2].

---

(١) تنوير: كَسْرُ الدَّال في كلمة (المقدّمة) هو الأظهرُ.

قال الزمخشريُّ: «الْمُقدّمَة: الْجَمَاعَةُ الَّتِي تتقدَّمُ الْجَيْشَ، مِن قَدَّم بِمَعْنى تَقدَّم. وَقد استُعيرتْ لأوّل كلِّ شَيْءٍ، فَقيل مِنْهُ: مُقَدِّمَة الْكتاب ومُقدِّمة الْكَلَام، وَفَتْحُ الدَّال خَلْفٌ». الفائق في غريب الحديث (١/ ٤٦).

قلتُ: الخَلْفُ: الرَّدِيءُ مِنَ الْقَوْلِ، كما في مختار الصحاح (ص/ ٩٥).

لكنْ خالفَ في هذا الشوكانيُّ وغيرُه فأجازوا الكَسْرَ والفَتْحَ. انظر تحريرَ ذلك في «التعريف بآداب التأليف» للمؤلِّف.

(٢) هذا طَرَفٌ من كلام الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مقدمة كتابه العظيم «تحت راية القرآن» (ص/ ٦).

أمّا بعدُ،

-١-

فلا شَكَّ أنَّ (الإبداعَ) -بكلِّ ما يَحمِلهُ هذا الـمُصطلحُ من معانٍ كبيرةٍ، ودلالاتٍ خطيرة- مَطْلَبٌ مُهمٌّ لكلِّ محبٍّ للتألُّق والتفوّق والنجاح؛ بل إنَّه من أسمى الغاياتِ للأفرادِ، بَلْهَ المجتمعاتِ والمؤسساتِ والدولِ؛ لأنه من الـمُشْتَرَكِ الإنسانيِّ الذي يَنشُدُهُ الجميعُ.

بَيْدَ أنه لا يُنالُ بسهولةٍ، ولا يُحصَّل بيُسْرٍ؛ إذْ هو بعيدُ المنالِ، صَعْبُ الـمُرتقى، كثيرُ الأعباءِ والكُلَف، لا يَصِل إليه إلا أقلُّ القليل!

وإنَّ سِيادةَ الأقوامِ فاعلمْ لها صُعَداءُ مَطْلَعُها طَويلُ!

و(الإبداعُ) -رُغمَ قلّةِ من يَصِلُ إليه ويُحصِّلُه، ورُغمَ وضوحِ مفهومِه واطِّرادِ نَسَقِهِ- أصبحَ في عصرنا هذا مُصْطلَحًا فَضْفاضًا؛ أُدخلَتْ فيه أنماطٌ كثيرةٌ ليستْ من بابَتِه ولا مِن جِنسِه، يُسمِّيها أربابُها إبداعًا، وهي ليست كذلك، بل هي أقربُ إلى ضعفِ الذَّوقِ، وسُوءِ الفهمِ، وقلَّةِ التوفيقِ؛ منها إلى الإبداع!

والإبداعاتُ (الحقيقيّةُ) في دُنيا الناس شتّى، لكنّ أعظمَها وأهمَّها وأعلاها شأنًا هو «الإبداعُ العلميُّ»؛ أيًّا كان ذلك العلمُ.

غيرَ أنّ العلومَ - كما لا يخفى - تتفاوت رُتَبُها ومنازلُها، تَبَعًا لتفاوت نفعِها وفائدتِها؛ فتعظُم قيمةُ الإبداع أو تصغُر تَبَعًا لذلك.

وطُلَّابُ العلم وشُدَاتُهُ، أحوجُ ما يكونون - اليومَ - إلى معرفةِ أُسُسِ الإبداعِ العلميِّ وركائزِه ومكوِّناتِه ومعوِّقاتِه.... إلخ؛ ذلك لأنّ الأمةَ الإسلاميةَ

في هذا العصر، بحاجة ماسّة إلى المبدِعين المتميِّزين من أبنائها، في شتّى العلوم والمعارف النافعة؛ وذلك للخُروج من الذِّلّة والضعف والتخلُّف الذي ضرب عليها بجِرَانِه منذُ أمدٍ بعيدٍ.

- ٢ -

إنّ الإبداعَ العِلميَّ أصبح اليومَ ضَرورةً لا بُدّ منها على جميعِ المستوياتِ؛ فالحضارةُ الإسلاميَّةُ الغابرةُ لم تأْتِ من فراغٍ، وإنما اتّبعتْ مناهجَ[1] وخِطَطًا أوصَلتْها إلى القيادة والرِّيادة بين الأمم على كافّة الأصعدة، طِيلةَ قرونٍ عِدّةٍ.

لذا؛ فإنّ الأفرادَ والأُممَ إذا ما أرادوا الوصولَ إلى أهدافهم الكبرى، فلا بُدّ أن يتّخذوا مَنهجًا عِلميًا دقيقًا يَسيرونَ عليه، يُعيدُ صِياغةَ الإنسان، ويُفجِّرُ طاقاتِ العقل. فلِئنْ كانت الأُمَمُ في السابق قد اهتمّتْ بالثروة الماديَّة اهتمامًا كبيرًا، فلقد أصبحتْ اليومَ تَهتمُّ بصناعة الإنسان قبلَ كلِّ شيءٍ، وتُولِيهِ العنايةَ الفائقةَ، بعدَ أنْ أدركتْ أهميةَ العقل والمعرفة في بناء الحضارات[2].

---

(١) مِن ذلك مثلًا: أنّ الحضارةَ الإسلاميّةَ اتبعتْ المنهجَ الاستقرائيَّ، وهو المنهجُ ذاتُه الذي تقوم عليه الدولُ الصناعيةُ الكُبرى اليوم.
كما اتّبعتْ المنهجَ الاسْتِرْدَاديَّ - الذي يُسمَّى المنهجَ التاريخي - الذي كان من ثمراته: علمُ الجرح والتعديل، وعلمُ مُصطلح الحديث.

(٢) على حينِ نَجِدُ أنهم قد حاربوا المنهجَ الاستنباطيَّ، وهو ما كانوا يُسمُّونه: المنهجَ القياسيَّ، وقالوا: إنه لا يُؤدِّي إلى عِلمٍ، ولا يُمكنُ أن يُكوِّنَ طالبًا، أو يَصنعَ عالِـمًا!

- ٣ -

إنَّ شأنَ العلمِ عَجيبٌ؛ فهو لا يُعطيكَ بعضَ شيءٍ، حتى تُعطيه كلَّ شيءٍ! وهو لا يَخدمُكَ حتى تَخدمَه!

وقديمًا قيل: «مَن خَدَمَ المحابرْ، خَدَمَتْه المنابرْ».

واعتَبِرْ ذلك بحالِ علمائِنا السابقين؛ فإنهم لمّا خَدَمُوا العلمَ خَدَمَهُم العلمُ، بل أخضعَ لهم الأُمَمَ! فكان طُلّابُ العلم وراغبو المعرفة يأتون إلينا زُرافاتٍ ووُحْدانا - من الصِّين شرقًا إلى فرنسا غربًا - لتلقِّي العلمِ؛ من لغةٍ، وأدبٍ[١]، وطبٍّ، وهندسةٍ، وطبيّعياتٍ... وغيرِ ذلك، في الأمصار الإسلامية المختلفة - لا سيّما بغدادُ، ودمشقُ، والقاهرةُ، والأندلسُ-[٢]، كما اعترف

---

(١) من ذلك مثلًا: فنُّ المقامات، فقد قال عنه الدكاترة زكي مبارك: «فنُّ المقامات الذي ابتكره الهمذانيُّ وأجاده الحريريُّ قد انتقل إلى اللغة الفارسية، واللغة العِبْرية، واللغة السُّريانية، فهو من الفنون العربية التي وصل تأثيرُها إلى ما جاورها من اللغات». مجلة الرسالة: العدد ٣١٣ (ص/ ١٢٩٣).

(٢) هذه وثيقةٌ من الوثائق التي حفظها التاريخُ شاهدًا على سَبْق المسلمين الحضاري والعِلمي للغرب، ورغبة الغرب في اقتباس العلم منهم، وهي رسالةٌ من جُورْج الثاني ملك انكلترا والغال والسويد والنرويج إلى هشام الثالث (٤١٨ - ٤٢٢ هـ) خليفة المسلمين في الأندلس. وهذا نصُّها:

مِن جُورْجْ الثاني مِلك انكلترا والغال والسويد والنرويج، إلى الخليفةِ، ملِكِ المسلمين في مملكة الأندلس، صاحبِ العَظَمَة: هشام الثالثِ، الجليلِ المقام.

بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعْنا عن الرُّقِيِّ العظيمِ الذي تتمتَّعُ بفيْضِه الصافي معاهدُ العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردْنا لأبنائِنا اقتباسَ نماذجَ من هذه الفضائل، لتكونَ بدايةً حسنةً في اقتفاءِ أثرِكم؛ لنشرِ أنوارِ العلم في بلادنا التي يَسُودُها الجهلُ من أركانها الأربعة!

=

بذلك مؤرِّخُوهُم[١].

فلمّا تخلّى المسلمون في العهود المتأخِّرة عن خدمة العلم، وقام به أولئك، انقلبَ الحالُ، فأصبحْنا نحنُ الذين نَرحلُ لأخْذِ العلمِ عنهم![٢]،

=

ولقد وَضَعْنا ابنةَ شقيقنا الأميرةَ «دُوبانتْ» على رأس بعثةٍ من بنات أشراف انكلترا؛ لتتشرَّفَ بلَثْم أهداب العَرْش، والتماس العطف؛ لتكون مع زميلاتها موضعَ عنايةِ عظمتِكم، وحمايةِ الحاشيةِ الكريمةِ، وحَدَبٍ من اللواتي سيتوفَّرْن على تَعليمهنّ...

ولقد أرفقتُ مع الأميرة الصغيرة هديةً مُتواضعةً لمقامكم الجليل، أرجو التكرُّمَ بقبولها مع التعظيم والحبّ الخالص ،،،،

من خادمكم المطيع: جورج. م. أ.

كواشف زُيوف: لعبد الرحمن الميداني (ص/ ٤٠ - ٤١).

وقد ذُكر في مصادرَ أخرى أنّ الخليفةَ هشامًا وافق على طلب ملك انكلترا تدريسَ أفراد البعثة، وبعثَ له ببعض الهدايا من (صناعة) أهل الأندلس.

تنوير: هذا هو السرُّ - واللهُ أعلمُ - في وجود آلاف الكلمات العربية في اللغات الأوربية! حيثُ كان الأوربيُّ المبتعَثُ إلى الشرق الإسلامي للتعلُّم، يَخلِطُ كلامَه - إذا عاد إلى قومه - بكلماتٍ شتّى من العربية؛ لِيُظهِرَ تميّزَه عليهم! فتداولتْها ألسنُ القوم حتى أصبحتْ جزءً من لغاتهم!

وقد ألقى الأستاذُ الدكتورُ/ ف. عبد الرحيم - ذاتَ مرةٍ في نادي المدينة الثقافي الأدبي - محاضرةً قيّمةً بعنوان: **(أوربا تتكلّمُ العربية)**!!

(١) **طالعْ لذلك كتابَ**: «حضارة العرب» لجوستاف لوبون، و«شمس العرب تسطع على الغرب» لزيغريد هونكه، و«العرب في التاريخ» لبرنارد لويس ، و«حضارة الإسلام» لجوستاف جروينباوم.

(٢) كانت الأمةُ الإسلاميّةُ مرشَّحةً لدخولِ العَصْرِ الصِّناعيّ - الذي مَنْ امتلكه فقد امتلك القوَّةَ - بدلًا من أوربّا؛ لأنّ شهادةَ البكالوريا عندَهم كانت تُعطَى في العصور الوُسْطى - في جامعة باريس مثلًا - لما يُعادِلُ الشهادةَ الابتدائيّةَ عندنا اليوم! وما كانوا يعرفونَ الصِّفْر! ولا يعرفونَ من العددِ أكثرَ من عشرين!

=

وصِرْنا كما قال الشاعرُ هاشمُ الرِّفاعيّ:

وما فَتِئَ الزَّمانُ يَدورُ حتى ... مضى بالمجد قَومٌ آخَرونَا
وأصبحَ لا يُرى في الرَّكْبِ قَومي ... وقد عاشُوا أئمتَه سِنينَا
وآلمنِي وآلمَ كُلَّ حُرٍّ ... سُؤالُ الدهر: أينَ المسلمونَا؟!
تُرَى هَلْ يَرْجِعُ المَاضِي فَإِنِّي ... أَذُوبُ لِذَلِكَ المَاضِي حَنِينَا[١]

هذا مع ما في السفر إلى بلادهم من مفاسدَ ومخاطرَ كثيرةٍ لا تخفى، ولا يَظلِمُ ربُّك أحدًا.

- ٤ -

* **إنّ من أعظمِ ألوانِ الجهادِ، وأقوى أسلحتِه، وأشدِّها مَضاءً في الوقت الحاضر: التفوّقَ العلميَّ** في جميع المجالات[٢].

= وكانت أوربّا وقتَها لا تَستطيعُ تعلُّمَ أيَّ علمٍ إلّا إذا تعلّموا اللغةَ العربيّةَ! كما هو حالُنا اليومَ لا نستطيعُ تعلُّمَ أيَّ علمٍ من علومهم إلّا إذا تعلَّمنا لغتَهم!
ولكنّ الأمةَ - وا أسفى - ضلّتْ الطريقَ!!

(١) ديوان هاشم الرفاعي (المجموعة الكاملة) (ص/ ٣٨٣).

(٢) قال الإمامُ ابنُ قيِّم الجوزيّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنما جُعِلَ طلبُ العلم من سبيل الله؛ لأنّ به قِوامَ الإسلام، كما أنّ قِوامَه بالجهاد، فقِوامُ الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهادُ نوعين: جهادٌ باليد والسِّنان؛ وهذا المشاركُ فيه كثيرٌ.
والثاني: الجهادُ بالحُجّة والبيان؛ وهذا جهادُ الخاصّة من أتباع الرسل، وهو جهادُ الأئمة، وهو أفضلُ الجهادَيْن؛ لِعظم منفعته، وشِدَّة مُؤْنته وكثرة أعدائه». مفتاح دار السعادة (١/ ٢٧١).
- وقال أيضًا: «الفُرُوسيَّةُ فُرُوسيَّتان: =

وما وَصَلَتِ الأمةُ إلى ما وَصَلَتْ إليه اليومَ من ضعفٍ وهوانٍ، جَرَّ عليها الوَيْلاتِ، وجَرَّأَ عليها الأعداءَ، وجعل مَوارِدَها وخَيراتِها نَهْبًا للقاصي والداني - إلا بسببِ التخلُّفِ العلميِّ؛ سواءٌ في مجال العِلْمِيَّات، أو في مجال العَمَليّات؛ كالطبِّ[(١)]، والهندسةِ، والفيزياءِ، والفلَك، والذَّرَّة، وغيرِها.

=

فُرُوسيَّةُ الْعلم وَالْبَيَان، وفُرُوسيَّةُ الرَّمْي والطِّعان.

ولمَّا كان أصحابُ النبيِّ ﷺ أكملَ الخلق في الفُرُوسيَّتَيْن فتحُوا القلوبَ بالحجَّةِ والبرهان، والبلادَ بالسَّيْفِ والسنان.

وما النَّاسُ إلَّا هؤلاءِ الفريقانِ، ومَن عداهما فإن لّم يكن رِدْءًا وعَونًا لهما فهو كَلٌّ على نوعِ الْإِنْسَان!

وقد أَمر اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ رسولَه بجِدال الكفَّار والمنافقينَ، وجِلاد أعدائه المشاقِّين والمحاربين، فعِلْمُ الجِدال والجِلاد، من أهم الْعُلُوم وأنفعها للعباد في المعاش والمعاد، ولا يَعْدِلُ مِدادَ العلماء إلَّا دَمُ الشُّهَدَاء.

والرِّفعةُ وعُلُوُّ المنزلَة في الدَّاريْنِ إنما هي لهاتين الطَّائِفَتَيْنِ وسائِرُ الناس رَعِيَّةٌ لَهما، مُنقادون لرؤسائِهما» الفروسية (ص/ ١٥٧).

- وقال الشيخُ ماءُ العيْنيْن بنُ مَامَيْن (ت ١٣٢٨ هـ): «العلمُ أفضلُ الأعمال، والاستنصارُ به أفضلُ استنصار، والاستبصارُ به أفضلُ استبصار». المرافق على الموافق (١/ ٢٥).

- وقال أحمد شوقي:

رَفَعوا على السيفِ البِناَء فلمْ يَدُمْ ... ما للبناءِ على السيوف دَوامُ

أبقى الممالكِ ما المعارفُ أُسُّهُ ... والعدلُ فيهِ حائطٌ ودِعامُ

فإذا جرى رُشْدًا ويُمْنًا أمرُكم ... فامشوا بنورِ العلمِ فهْو زِمامُ

الشوقيات (ص/ ٥٤٥).

(١) كان الإمامُ الشافعيُّ يَتَلَهَّفُ على ما ضيَّع المسلمون من علم الطبّ، ويقول: «ضيَّعوا ثلثَ العلم، ووَكَلُوه إلى اليهود والنصارى!».

=

ولله دَرُّ أحمدَ شوقي:

بـالعِلْمِ سـادَ النـاسُ في عَصْـرِهِمْ ... واخترقُـوا السـبعَ الطِّبـاقَ الشِّـدَادْ

أيَطْلُـبُ المجـدَ ويَبْغِـي العُـلا ... قَـومٌ لسُـوقِ العِلْـمِ فـيهمْ كَسَـادْ؟

مـا أصْـعَبَ الفِعـلَ لِـمَنْ رَامَـهُ ... وأسْـهلَ القَـولَ علـى مَـنْ أرادْ![1]

بلْ إنّ تخلُّفَنا العلميَّ اليومَ من أعظم أسباب صَدِّ الناس عن الدخول في

=

وقال: «إنَّ أهلَ الكتاب قد غلبونا على الطبّ».

وقال: «لا أعلمُ عِلمًا بعدَ الحلال والحرام أنبلَ من الطبّ».

وقال: «إنما العلمُ علمان: علمُ الدين، وعلمُ الدنيا، فالعلمُ الذي للدين هو: الفقهُ، والعلمُ الذي للدنيا هو: الطبُّ. وما سوى ذلك من الشِّعْر ونحوه، فهو عَناءٌ وعبثٌ!». **وفي لفظٍ**: «وما سوى ذلك فَبُلْغَة مجلس».

ولذا كان أولَ المبادرينَ لتعلُّمه، قال الذهبي: «كان الشافعيُّ مع عظمته في علم الشريعة وبراعته في العربية، بصيرًا بالطبّ!».

انظر: آداب الشافعي ومناقبه: للرازي (ص/ ٢٤٤)، وحلية الأولياء: للأصبهاني (٩/ ١٣٦)، ومناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١١٤)، والطب النبوي: للذهبي (ص/ ٢٢٧)، وتوالي التأنيس بمعالي ابن إدريس: لابن حجر (ص/ ١٥٣).

- وقال الغزّالي: «كَمْ مِن بلدةٍ ليس فيها طبيبٌ إلّا من أهل الذمّة - ولا يجوزُ قبولُ شهادتِهم فيما يتعلَّقُ بالأطبّاء من أحكام الفقه - ثم لا نرى أحدًا يشتغلُ به! ويتهاتَرون على علم الفقه، لا سيّما الخلافيّات والجدليّات! والبلدُ مشحونٌ من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليتَ شِعري كيف يُرخِّصُ فقهاءُ الدين في الاشتغالِ بفرض كفايةٍ قد قام به جماعةٌ، وإهمالِ ما لا قائمَ به؟!» إحياء علوم الدين (١/ ٢١).

قلتُ: لقد صَدَقا فيما قالا؛ فإنّ المتصفّحَ لكتب تراجم الأطبّاء، ككتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء» لابن أبي أُصيبعة مثلًا، يجد أنّ مُعظمَ المترجَمين فيه من اليهود والنصارى!!

(١) الشوقيات (ص/ ١٨٧).

الإسلام، شَعَرْنَا بذلك أمْ لمْ نَشْعُرْ! يقول أحدُ الدُّعَاةِ: «عَرَضْتُ الإسلامَ على أحد علماء اليابان، فقال لي: هل تريدُ أن أدخلَ في دينكم؛ لأُصبحَ مُتخلِّفًا مِثلَكُم؟!».

بلْ إنه أحدُ أسبابِ ضعفِ تمسُّكِ البُسَطاءِ من المسلمينَ بدينِهم؛ وتقليدِهم لأعدائِهم؛ لأنهم إذْ يَرَوْن الغَلَبَةَ والتفوُّقَ للكافرين - وهم غيرُ مُتديِّنينَ - يظنُّونَ أنَّ التمسُّكَ بالدِّين سببُ تخلُّفِهم! فيَضعُفُ تمسُّكُهم بالدِّين - إنْ لم نَقُلْ: تحلُّلُهُم منه - تَبَعًا لذلك! والمغلوبُ مُولَعٌ أبدًا بالاقتداء بالغالب في شِعارِه وزِيِّه ونِحْلتِه وسائرِ أحوالِه وعَوائدِه كما يقولُ ابنُ خَلدُون[١].

وتأمَّلْ معي مَلِيًّا ما ذَكَرهُ المَقَّرِيُّ عن المنصور بن أبي عامر -أحدِ ملوكِ الأندلس- حيثُ قال: «مِنْ أعجبِ ما وَقَعَ له: ما رأيتُهُ بخِزانة فاسٍ في كتاب ألفه صاحبُهُ في الأزهار والأنوار، حكى فيه في ترجمة «النَّيْلَوْفَرِ»[٢]: أنّ المنصورَ لما قدِم عليه رسولُ ملِك الروم - الذي هو أعظمُ ملوكهم في ذلك الزمان - ليطّلعَ على أحوالِ المسلمين وقوَّتِهم، فأمر المنصورُ أن يُغرَسَ في بِرْكةٍ عظيمةٍ ذاتِ أميالٍ نيلوفرٌ على ما تَسَعُ، ثم أمر بأربعة قناطيرَ من الذهب، وأربعة قناطيرَ من الفضة، فسُبِكَتْ قِطَعًا صِغارًا على قَدْر ما تَسَعُ النيلوفرةُ، ثم

---

(١) في مقدّمته (ص/ ١٧٦).

(٢) **النَّيْلَوْفَرُ** - ويقال: النَّيْنَوْفَرُ -: ضَرْبٌ من الرَّياحين ينبت في المياه الرَّاكدة، فيه أنواعٌ تَنبتُ في الأنهار والمناقِع، وأنواعٌ تُزرعُ في الأحواض لورقِها وزهرِها، ومن أنواعه: اللوطس، أي: عرائس النّيل، وتسمّى: البشنين.
انظر: القاموس المحيط (ص/ ٤٨٦)، والمعجم الوسيط (٢/ ٩٦٧).

ملأ بها جميعَ النيلوفرِ الذي في البِرْكَة، وأرسل إلى الرُّوميِّ، فحضر عندَه قبلَ الفجر في مجلسه السامي بالزاهرة، بحيث يُشْرِفُ على موضع البِرْكَة، فلما قَرُب طُلوع الشمس، جاء ألفٌ من الصقالبة، عليهم أقْبِيةُ الذهب والفضة، ومناطقُ الذهب والفضة، وبِيَدِ خمسِ مئةٍ أطباقُ ذهبٍ، وبِيَدِ خمسِ مئةٍ أطباقُ فضةٍ، فتعجّبَ الرسولُ من حُسْنِ صُورِهم وجمال شارَتِهم، ولم يَدْرِ ما المرادُ؟ فحين أشرقت الشمسُ ظهر النيلوفرُ من البِرْكَة، فبادروا لأخذ الذهب والفضة من النيلوفر! وكانوا يجعلون الذهبَ في أطباق الفضة، والفضةَ في أطباق الذهب، حتى التقطوا جميعَ ما فيها، وجاؤوا به فوضعوه بين يَدَيْ المنصور، حتى صار كُوَمًا بين يديه، فتعجَّبَ النصرانيُّ من ذلك وأعْظَمَه، وطلب المهادنةَ من المسلمين، وذهب مُسْرِعًا إلى مُرسِله، وقال له: لا تُعَادِ هؤلاءِ القومَ؛ فإني رأيتُ الأرضَ تَخدُمُهُم بكُنوزِها!! انتهى.

وهذه القضيّةُ من الغرائب، وإنها لَحيلةٌ عجيبةٌ في إظهار عِزِّ الإسلام وأهلِه، وكان المنصورُ بنُ أبي عامر آيةَ الله سبحانه في السَّعْدِ ونُصْرةِ الإسلام»[(١)].

- ٥ -

ينبغي أنْ نعلمَ أنّ هذا العَصْرَ هو **عَصْرُ القوّة**، وأن العالَم اليومَ لا يَستنيمُ إلى قوّةِ الحقِّ، وإنما إلى حَقِّ القوّة![(٢)]، ولذا قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا

---

(١) نفح الطيب (٣/ ٨٥).

(٢) وقد صوَّرَ ذلك معروفٌ الرُّصَافيُّ أحسنَ تصويرٍ، فقال:

أرى الحــقَّ لــم يَغْــشَ الــبلادَ وإنمــا ... مشـى ضـاربًا في الأرض تَلْفِظُـهُ الطُّـرْقُ!

=

ﭐﺳۡﺘَﻄَﻌۡﺘُﻢ ﻣِّﻦ ﻗُﻮَّﺓٖ﴾ [الأنفال: ٦٠](١).

فيُصـبحُ في أرضٍ ويُمسـي بغيرِها وَحِيدًا فما يُؤْوِيهِ غَرْبٌ ولا شَرْقُ!

تَوطَّنَ قَفْرَ الأرضِ مُبتعِدًا بها إلى حيثُ لا إنسٌ ولا طائرٌ يَزْقُو

وقد يَهبطُ الأمصارَ وهْوَ مُحجَّبٌ ويَظهرُ أحيانًا كما أوْمضَ البَرْقُ

ومِنْ عَجَبٍ أنَّ الورَى يدَّعونهُ وهُم مِن قديمِ الدهرِ أعداؤُه الزُّرْقُ!

أعدُّوا له في البرِّ والبحرِ قوةً إذا ظهرتْ يَنْسَدُّ مِن دُونها الأُفْقُ

وطاروا بطيّاراتِهم يُمطِرونَه قذائفَ من نارٍ كما أمطرَ الوَدْقُ

يقولون: إنّ الحقَّ في الخَلْقِ قُوّةٌ تَذِلُّ لها الأعناقُ قَهْرًا، وتَنْدَقُّ

فما بالُه يُمسِي ويُصبحُ شاكيًا ولا يتحاشى عن ظُلامتِه الخَلْقُ؟!

إلى الله نشكو الأمرَ مِن مَدَنيّةٍ تَعارَضَ في أوصافها الكِذْبُ والصِّدْقُ!

ديوان الرُّصافي (ص/ ٤٤٢).

(١) قال العلّامةُ السعديُّ في تفسير هذه الآية: «أيْ كلّ ما تقدِرون عليه من القوّة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة ونحو ذلك مما يُعِينُ على قتالهم، فدخل في ذلك: أنواعُ الصناعات التي تُعملُ فيها أصنافُ الأسلحة والآلات، من المدافع، والرشّاشات، والبنادق، والطيّارات الجويّة، والمراكب البَرِّيَّة والبحريّة، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأْيُ والسياسةُ، التي بها يتقدّم المسلمون ويندفع عنهم به شرُّ أعدائهم، وتَعَلُّمُ الرَّمْيِ، والشجاعةُ والتدبيرُ. ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «أَلَا إِنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ».

ومِن ذلك: الاستعدادُ بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ وهذه العلةُ موجودةٌ فيها في ذلك الزمان، وهي إرهابُ الأعداء، والحُكْمُ يدور مع عِلّته.

فإذا كان شيءٌ موجودٌ أكثرَ إرهابًا منها، كالسيارات البرِّيَّة والهوائيّة، المعدَّةِ للقتال التي

فلا مكانَ اليومَ للضَّعَفَة البطّالِين، ولا للمتواكِلين المتخاذِلين، ولو طَفَرتْ منهم العَبَرَات، وعَلَتْ منهم الزَّفَرَات، فشِعارُ العالَمِ اليومَ: **إمّا أنْ تَعملْ، وإمّا أن ترحلْ! إمّا أن تَطَأَ على قدميْك، وإمّا أن تَطَأَ الأقدامُ عليْك!**

ولقد أبدعَ الشاعرُ المِصْريُّ محمد عوض محمد (ت١٣٩١هـ) حيثُ يقول[(١)]:

أَتَحْنُـو عليـكَ قلـوبُ الـوَرَى	إذا دَمْـعُ عينيْـك يومًـا جَـرَى؟!
وهـلْ تَـرحَمُ الحَمَـلَ الـمُستَضَامَ	ذِئـابُ الفَـلا وأُسُـودُ الشَّـرَى؟!
ومـاذا يَنـالُ الضـعيفُ الذليـلُ	سـوى أنْ يُحقَّـرَ أو يُـزْدَرَى؟!
لَقَـدْ سَـمِعَ النَّسْـرُ نَـوْحَ الحمَـامِ	فَلَـمْ يَعْـفُ عَنـهَا ولَـمْ يَغْفِـرَا
بَـلِ انْـقَـضَّ (قُدْمـًا) لِيَغْـتَالَها	وأَنْشَـبَ فـي نَحْرِهـا المِنْسَـرَا
ومَـا رَدَّ عنْهَـا الأذَى ذُلُّهَـا	ولا أَنَّهَـا مَـا جَنَـتْ مُنْكَـرَا
فَكُـنْ يـابسَ العُـودِ، صَلْبَ القَناةِ	قـويَّ المِـرَاسِ، مَتِـينَ العُـرَى!

=

تكون النكايةُ فيها أشدَّ، كانت مأمورًا بالاستعدادِ بها، والسعيِ لتحصيلها، حتى إنها إذا لم تُوجدْ إلا بتعلُّم الصناعة، وَجَبَ ذلك، لأنّ ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به، فهو واجبٌ». تيسير الكريم الرحمن (ص/ ٣٢٤).

وقال أيضًا: «في قاعدة اللّازم: أنّ ما لا تتمُّ الأمورُ المطلوبةُ إلّا به فهو مطلوبٌ. وهذا يدلُّ على أنّ تعلمَ الصناعات والمخترعات الحادثة من الأمور المطلوبة شرعًا، كما هي مطلوبةٌ لازمةٌ عقلًا، وأنها من الجهاد في سبيل الله» القواعد الحسان في تفسير القرآن (٣/ ٤٢٧ – ٤٢٨) من مجموع مؤلفاته، دار الميمان.

(١) مجلة الرسالة: العدد ٢ (ص/ ١٦)، ودليل الإعراب والإملاء (ص/ ١٣٠).

ولا تَتَطَامَنْ لبَغْيِ البُغَاةِ	وكُنْ كاسرًا قبلَ أنْ تُكْسَرا
وأَوْلَى لِمنْ عاشَ مِثْلَ الثَّرَى	ذَلِيلًا، لوِ احْتَلَّ جَوْفَ الثَّرَى
إذا كنتَ ترجو كِبارَ الأُمورِ	فأَعْدِدْ لها هِمّةً أكْبَرَا!
طريقُ العُلا أَبَدًا للأَمَامِ	فويحكَ، هل ترجعُ القَهْقَري؟
وكُلُّ البَرِيَّةِ في يَقْظَةٍ	فوَيلٌ لمنْ يَستطيبُ الكَرَى!

- ٦ -

كما ينبغي أنْ نعْلَم أننا نعيشُ اليومَ في عصرِ ثورةٍ عِلْميةٍ ومعلوماتيةٍ هائلةٍ، فإذا كان صِدَّيق حسن خان في كتابه «أبْجَد العُلوم»، ومن قبْلِه طاشْ كُبْرِي زَادَه في «مفتاح السعادة»، وحَاجِي خَلِيفة في «كشف الظنون» قد ذكروا بِضْعَ مئاتٍ من الفُنون، فإنّ الفُنونَ والتَّخصُّصاتِ في هذا العصر تُعدُّ بالآلاف!![1].

---

(١) حتى إنّ من الطريف هنا أنْ نذكرَ أنّ (القُمامةَ) قد أصبحت عِلْمًا يُدرَّسُ في جامعات الدول الصناعية المتقدّمة!!

وذلك لما يُفيدُه إعادةُ تدويرها من مَردودٍ ماديٍّ كبيرٍ، ولهم في ذلك أيضًا مآربُ أخرى!

قال الدكتور/ عبيد بن سعد العبدلي: «لا تستغربْ يومًا اذا قابلتَ شخصًا وعرّفك بنفسه أنه الدكتور فلان في عِلم القُمامة!!

فعِلمُ القُمامة (**GARBOLOGY**) عِلمٌ ليس جديدًا، فهو يُدرَّس بالعديد من الجامعات في العالم!

وهو عِلمٌ يهتمّ بدراسة وتحليل القُمامة وأنواعها ومكوِّناتها، وهو مرتبطٌ بسلوك المستهلك.

ويقال: إن قمامة الشخص تعطي انطباعًا عن سلوكه، ومشربه، ودخله ونمط حياته! وتعطي دلالةً على منتجاته المفضَّلة وأسمائها! ويُستخدم عِلمُ القُمامة في دراسة صحة البيئة والأعمال الاستخبارية!......

=

ولذا يقولُ جُبران خَليل جُبران:

أتـى هـذا الزمـانُ بـألفِ لـونٍ ... جديـدٍ في الفنـونِ وفي العلـومِ!

وقال الزَّهَاوِيُّ[١]:

إِنمـا الكـونُ آخِـذٌ في التَّرقِّـي ... والـوَرَى يَنْمُـو عِلْمُهـمْ ويَزيـدُ

بينَ حالِ الأسلافِ في الزمنِ الخا ... لـي وحـالِ ابـنِ العَصْرِ بَوْنٌ بَعيـدٌ

فَلْنَسِـرْ مثلمـا يَسِـيرُ سِـوَانَا ... نَسْـتفِدْ مِثلَمـا الـوَرَى يَسـتفِيدُ

-٧-

إنَّ من اللّازم على أرباب العلم والفكر وأصحاب الغَيْرة في هذه الأمة، أن يَنْهَدُوا لمعالجة هذا الخَلَل، ورَدْم هذه الفجوةِ في واقع الأمة - لا سيّما في هذا العصر؛ عصر العَوْلَمة- كيما يتسنّى للأمة العودةُ إلى سابقِ عِزِّها، وسالفِ مجدها، وليس ذلك بعزيزٍ؛ إذا ما تظافرتِ الهِممُ والعزائمُ، وتلاحمتْ الأيدي والقلوب، لكنّ الأمر يحتاج إلى جُهودٍ كبيرةٍ، ومؤسساتٍ كثيرةٍ، وأموالٍ وفيرةٍ؛ نظرًا لبعد حال الأمة عن واقع العصر.

=

وعِلمُ القُمامة يساعد الشركاتِ لكشف أسرارك. وقد قيل: أرني قمامتكَ أعرفْ من أنتَ؟!
تقول الاحصائيات إنّ حجم إنفاق السعوديين على الغذاء يفوق (٥٠) بليون ريال سنويًا!
السؤال كم من هذا المبلغ يكون مصيرَه القُمامة؟
في صناديق القُمامة تكمُنُ أسرارُ الناس فيما يُحبّونه، وما يأكلونه. الناسُ في المجتمعات قد يبالغون في تضخيم أنفسهم ولا يُعطون شركاتِ الأبحاث المعلوماتِ الحقيقية، ولكنّ صناديقَ قمامتهم لا تكذب؛ فهي معيارٌ صادقٌ عن سلوكهم!».

(١) كما في مجمع الحكم والأمثال: لأحمد قبّش (ص/ ٣٣٩).

وا حَسْرَتاهُ تقضَّى العُمْرُ وانصَرمَتْ ساعاتُـهُ بيـنَ ذُلِّ الـعَجْزِ والـكَسَلِ
والنَّاسُ قد أَخَذُوا دَرْبَ النَّجَاحِ وَقَدْ سَارُوا إلى المَطْلَبِ الأعْلَى عَلَى مَهَلِ

«إنَّ بمَقْدُورِ علماءِ المسلمينَ الصادقينَ، الذين أمكنهم التحقُّقُ بأدقِّ الاختصاصاتِ التِّقنية، واعتلاءِ أرقى المنابر العلمية- تحقيقَ كسْبٍ جيّدٍ لأمّتهم، من خلال توظيف هذه التخصّصات واستثمارها في خدمة العقيدة والدعوة وصناعة الحضارة، خصوصًا في هذا العصر الذي أصبح العلماءُ والتِّقنيُّون فيه هم الذين يَحكُمُون العالَمَ فعلًا، كما أنّ الذين يحتلُّون مراكزَ البحث العلمي والأكاديمي -في الدول المتقدِّمة- هم صانعو القرار السياسي في نهاية المطاف؛ لأن القراراتِ السياسيةَ لم تَعُدْ تنشأُ من فراغٍ كما كان مِن قبلُ، وإنما هي ثمرةٌ لما تُقدِّمُهُ مراكزُ البحوث والمعلومات.

إنّ مُعضِلةَ التخلُّف العلميّ والتِّقنيّ التي نُعاني منها اليومَ، لا تُحَلّ بكثرةِ الشكوى والنُّوَاحِ على الماضي، والبكاءِ على الأطلال، خاصةً عندما ينقلب البكاءُ إلى لونٍ من ألوان التداوي والتخدير، ولا يَصِلُ بصاحبه إلى مرحلة القَلَقِ الحضاريِّ الذي يؤدِّي إلى استشعار التناقض والتحدِّي بين الواقع القائم والمثال المأمول، ويُبصِّرُ بالسبيل المحقِّق للهدف، ولن تُحَلّ المشكلةُ أيضًا بمزيدٍ من المواقف الخطابية العاطفية، أو الحماس والتوثُّب فقط! بعيدًا عن فقه آياتِ القرآن، وهدْي النبوّةِ، وسيرةِ السلفِ العمليةِ: كيف تعاملوا مع الأسباب، وأدركوا عِلَلَ الأشياء، وسُنن التغيير، وقوانين التَّسخير.

وإنما لا بدّ من الإدراك الكامل لمشكلة التخلُّف، ودراسة المناخ الذي مكّن لها، ومعالجة الأسباب، وما يقتضيه ذلك من الصبر والدَّأب والمراجعة،

وعدم الاقتصار على الإحساس بالظواهر والأعراض...»[(١)].

إنَّ السِّـــيادَةَ والرِّياســـةَ والعُلَـــى   أعْبــاؤُهُنَّ كمــا عَلِمْــتَ ثِقَــالُ!

-٨-

إنّ إنسانَ المستقبلِ -كما يقول الدكتور/ أحمد زُويْل[(٢)]-: هو ابنُ المعرفةِ التي تُحقِّقُ التقدُّم العلميَّ، والاقتصاديَّ، والسياسيَّ، والاجتماعيَّ، ولولا التفكيرُ والإبداعُ ما تميّز الإنسانُ عن الحيوان، ولَتساوى معه، كما تساوى معه جِينيًّا بنسبة ٩٩.٩ ٪ فالفرقُ الوحيدُ لصالح الإنسان هو رغبتُه في المعرفة.

ولذا؛ فقد عَدَّ الشيخُ العلّامةُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ ضَعفَ مَيْل الشباب إلى الابتكار إحدَى النقائصِ في حياتنا العِلمية الحاضرة![(٣)].

-٩-

وأخيرًا؛ فإنّ هذه المعاني والأفكارَ التي ذكرتُها في هذا الكتاب - والتي استوحيتُها من غِمار التجارِب، واستلهمتُها من دواوين العلم وسِيَرَ العلماء وأحوالهم- إنما أردتُ أنْ تكون تذكرةً للنابهين من أهل العلم، والنابغين من طلابه، والتذكرةُ تَنفع العُقلاءَ. قال الإمامُ الشافعيُّ لتلميذه الرَّبِيع بن سليمان الـمُرادي: «**الموعظةُ للعوامّ، والنصيحةُ للإخوان، والتذكرة للخَوَاصِّ منهم-**

---

(١) مقتطفاتٌ - مع شيء من التصرُّف - من مقدمة الأستاذ/ عمر عبيد حَسَنَه لكتاب: «قضية التخلّف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر»: للدكتور/ زغلول راغب النجّار.

(٢) الدكتور/ أحمد زُويْل هو العالم المسلم - الوحيد حتى الآن! - الذي نال جائزة نوبل في تخصّصٍ عِلميٍّ مُهمٍّ، هو كيمياء الفيمتو.

(٣) **انظر** آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١/ ١٥٤).

فرضٌ افترضَه اللهُ على عُقلاء المؤمنين»[١].

راجيًا أن تكون أيضًا سببًا لإيقاظ الأمة من رَقْدَتِها، وسبيلًا لانتشالها من وَهْدَتِها، بعد أن طال ثَوَاؤُها، واستشرى داؤُها، وعَزَّ دواؤُها، واللهُ المستعانُ!

وإنَّ جَسِيماتِ الأمورِ مَنُوطَةٌ بمُستَودَعَاتٍ في بُطُونِ الأسَاوِدِ!

-١٠-

وقد ارتأيتُ أن يكونَ ترتيبُ الكتاب على النَّسَق التالي:

* الفصلُ الأوّلُ: معنى الإبداع.
* الفصل الثاني: حقيقةُ الإنسانِ المبدِع.
* الفصل الثالثُ: أنواعُ الإبداع.
* الفصل الرابعُ: أقسامُ الإبداع.
* الفصل الخامسُ: أُسُسُ الإبداعِ العلميّ.
* الفصل السادسُ: مقوِّماتُ الإبداعِ العلميّ.
* الفصل السابعُ: حوافِزُ الإبداعِ العلميّ.
* الفصل الثامنُ: عوائقُ الإبداعِ العلميّ.
* الفصل التاسعُ: الإبداعُ وعَلاقتُهُ بالدين.
* الفصل العاشرُ: انحرافُ الإبداعِ العلميِّ عن مسارِه الصحيح.
* الفصل الحاديَ عَشَرَ: نجومٌ مضيئةٌ في سماءِ الإبداعِ العلميّ.
* الخاتمةُ، وفيها أهمُّ النتائجِ والتوصياتُ.
* كما ذيَّلتُ الكتابَ بملحقٍ خاصٍّ سمّيتُه: (قالوا عن الإبداع).

---

(١) مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٤٨).

-١١-

ولا يفوتُني هنا أن أتقدَّم بجزيل الشُّكْر لكلّ مَنْ أسهم في هذا الكتاب برأيٍ، أو نُصْحٍ، أو نَقْدٍ، أو عِنايةٍ، بعد أنْ لاقى - بحمد الله - صدىً طيّبًا بين العلماءِ والفُضَلاءِ وطلّاب العلم، وتقبّله جُمهورُ الناس بقبولٍ حسنٍ، ودُعِيتُ بسببه لإلقاءِ دوراتٍ في شرحِه والتعليقِ عليه في بعضِ الجامعاتِ والمراكزِ العلميّة، حَضَرَها مئاتُ الطلّاب، فللّه تعالى الحمدُ والمنّةُ.

كما أشكرُ العلماءَ الفُضَلاءَ الذين وقفوا على الكتاب فأُعجبوا به وقَرَّظُوه، سواءٌ منهم مَن كتب عنه في (الشَّابِكَة)(١)، أو أرسل إليّ بذلك رسالةً خاصةً. **وقد أفردتُ لتقاريظهم مُلْحَقًا خاصًّا في آخرِ الكتاب**؛ نظرًا لكثرتها من جهةٍ، وجَرْيًا على سَنَنِ بعضِ العلماءِ في وضْعِهِم التقاريظَ في نِهاية العملِ من جهةٍ ثانيةٍ(٢).

والشكرُ مَوصولٌ للأساتذة النُّبَلاء الذين قرَّروا الكتابَ على طلّابهم في الدراسات العليا، أو عَقَدُوا له حَلْقات نقاشٍ في عددٍ من الجامعات؛ فلهم مني جميعًا وافرُ الشكر، وعظيمُ التقدير.

---

(١) **الشَّابِكَة**: هو التعريبُ الأوفقُ عندي لكلمة (الإِنترْنِتْ)، أو ما يُسمّى بـ (الشبكة العنكبوتيّة). ولقد أجاد مَن نَحَتَ من الثاني كلمةَ: **(الشَّنْكَبُوتيّة)!**

(٢) **كما فعل**: السَّهارنُفُوري في كتابه «**بذل المجهود في حَلِّ أبي داود**»، والسيدُ نعمانُ آلوسي زاده في **ثَبَته** المطبوع بالمطبعة الميرية بمصر سنة (١٣٠١ هـ)، والشيخُ ماءُ العيْنيْن بنُ مَامَيْن في كتابه «**المرافق على الموافق**»، والشيخُ أحمدُ بنُ يحي اليماني في «**منظومة أجود الأحاديث المسلسلة**»، والعلّامةُ الكتّانيُّ في «**فهرس الفهارس والأثبات**»، وغيرُهم.

بَيْدَ أني أخصُّ بالذِّكْر هنا:

فضيلةَ الشيخِ الدكتور/ **محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدَّم**، الذي قام بشرحِ الكتابِ في دروسِه العلميّةِ النافعةِ بأرضِ الكِنانةِ.

والدكتورَ/ **أحمد بن علي الحُذَيْفي** - من المدينة المنورة - ، والشيخَ/ **أمين بن يوسف قادري** - مِن الجزائر - على ملاحظاتِهما القيّمة التي أفدتُ منها كثيرًا في تقويمِ الكتاب وتحبيرِه.

كما أنّ من دواعي غِبطتي وسُروري، أنْ يَسَّر اللهُ صُدورَ الأخِ الشقيقِ لهذا الكتاب، ألا وهو: «التأصيلُ العلميُّ» الذي هو كالمقدِّمة لهذا الكتاب، وهما معًا كجَناحَيْ الطائر؛ والطائرُ لا يَطيرُ بأحَدِ جَناحَيْهِ!

- ١٢ -

وختامًا، فقد حاولتُ في هذه الدراسة جاهدًا، أن أمزِج القديمَ بالجديد، والتراثَ بالمعاصرة؛ لمعالجة هذه القضيةِ المهمّةِ؛ قضيةِ الإبداعِ العلميّ، راجيًا أن أكون قد وُفّقت في شيءٍ من ذلك. وأمَلي في القرّاء الكِرام «أنْ يتناولوا الكتابَ، مُنْعِمِينَ مُفْضِلِينَ، بنقد خَطَئِه، وعَدْل عِوَجِه، وبيان ما يبدو لهم من مواطن ضَعْفِه. وقديمًا قال إبراهيمُ الصوليُّ: المتصفِّح للكتاب أبصرُ بمواقع الخَلَل فيه من مُنْشِئِه»[(١)]. ذلك؛ «لأنّ جودةَ العلم لا تتكوّنُ إلا بجودة النقد، ولولا النقدُ لَبَطَلَ كثيرُ علمٍ، ولاخْتلطَ الجهلُ بالعلم اختلاطًا لا خلاصَ منه، ولا حِيلةَ فيه»[(٢)].

---

(١) الأعلام: للزِّرِكْلي (١/ ٢٢).
(٢) المتنبِّي: لمحمود شاكر (ص/ ٤٦٧).

سائلًا المولى جَلَّ وَعَلَا -بعدَ حمْدِه وشُكْرِه والثناءِ عليه- أنْ يَنفعَ بهذا الكتاب، وأنْ يَجعلَه ذُخْرًا لي في العُقْبى، وسببًا لديه من أسبابِ الزُّلْفى. كما أسألُه تعالى أنْ يجعلَه مَنَارًا يُضِيءُ للسائرين هذا الطريقَ الطويلَ؛ طريقَ **(الإبداع العلميّ)**، وأنْ يكونَ كما قال القائلُ:

فانظرْ لجَمْعٍ أتى في مُفردٍ جُمِعتْ ... فيه المحاسنُ حتى صارَ كالمَثَلِ

واغْنمْ، ومتِّعْ به ما شِئتَ مِن بَصرٍ ... ومِن فُؤادٍ ومِن سَمْعٍ؛ لِتدْعوَ لي

وللهِ الحمدُ بَدْءًا وخِتامًا، ولنبيِّه أُهْدِي صَلاةً وسَلامًا.

وكتب

أحمدُ بنُ عليٍّ بنِ أحمدَ القَرْنيّ

في المدينة النبويّة المشرّفة، أمَّنَها المولى بِمَنِّه، وحَرَسَها من شياطينِ إنْسِهِ وجِنِّه

العنوان البريدي

Dal1388@qmail.com




يا مَنْ سَما لمراقِي المجْدِ مَقْصِدُه | فنفسُه بنفيسِ العِلمِ قد كَلِفَتْ
هَذي رياضٌ يَروقُ العقلَ مَخبَرُها | هي الشِّفَا لنُفُوسِ الخَلْق إنْ دَنِفَتْ
يُجنَى بها زَهَرُ التكْريم أو ثَمَرُ التَـ | ـتعْظيم، والفَوزُ للأيْدِي التي قَطَفَتْ
أبدتْ لنا مِن سَناها كلَّ واضِحةٍ | حِسانُه دُونَها الأطماعُ قد وَقَفَتْ

الشاطبي






الفصلُ الأوّلُ

مَعْنى الإبداعِ



الفصلُ الأوّلُ
مَعْنى الإبداعِ

عندما نقول: «إنسانٌ مُبدِعٌ»، أو «عَمَلٌ إبْداعيٌّ»، فما المقصود بذلك؟ وما معنى هذا؟

ولِتجلية هذا الأمر لابدّ أن نعرفَ معنى الإبداع في اللغة والاصطلاح.

فأما الإبداعُ في اللغة:

فيقول الإمامُ ابنُ فارس: «الباءُ والدالُ والعينُ أصلانِ؛ **أحدُهما**: ابتداءُ الشيء وصُنْعُه لا عن مثالٍ، **والآخَرُ**: الانقطاعُ والكَلَالُ؛ فالأولُ قولُهم: أبدَعتُ الشيءَ قولًا أو فِعلًا: إذا ابتدأتَه لا عن سابقِ مثالٍ، والله بديعُ السماوات والأرض، والعربُ تقولُ: ابتَدَعَ فلانٌ الرَّكِيَّ: إذا استنبطَه...»(١).

وقال ابنُ منظور: «البديعُ: الـمُحْدَثُ العجيبُ، والبديعُ: الـمُبْدِعُ، وأبدعتُ الشيءَ: اخترعتُه لا عن مثالٍ، ورجلٌ بِدْعٌ: إذا كان غايةً في كلِّ شيءٍ؛ كان عالـمًا أو شريفًا أو شُجاعًا»(٢).

---

(١) مقاييس اللُّغة (١/ ٢٠٩) مادة: (ب د ع).

وبالمناسبة: فإن كتابَه هذا يُعدُّ عملًا إبداعيًا في اللغة، وهو نافعٌ إلى الغاية؛ لأنه يُلخِّص جميعَ معاني الكلمة - مهما كثُرتْ - في أصولٍ قليلةٍ.

وانظر ما يأتي عند الحديث عن ابن فارس في الفصل الحادي عشر.

(٢) لسان العرب (٨/ ٦-٧) مادة: (ب د ع).

وقال أبو شامة: «أصلُ هذه الكلمة: من الاختراع، وهو الشيءُ يَحدُثُ من غير أصلٍ سَبَقَ، ولا مثالٍ احتُذيَ، ولا أُلِفَ مثلُه، وهذا الاسمُ يدخل فيما تخترعُه القلوبُ، وفيما تنطق به الألسنةُ، وفيما تفعله الجوارحُ»[(١)].

إذن: نخلُص إلى نتيجة مؤدَّاها: **أنَّ الإبداعَ في اللغة**: هو الإتيانُ بجديدٍ لم يُسبَقْ إليه المُبْدِعُ، ولم يتقدَّمْ عملَه عملٌ يُشبهُه كيْما يَحتذيه. ولذا قال الكَفَويُّ: «**الإبداعُ لُغةً**: عِبارةٌ عن عَدمِ النَّظِير»[(٢)].

وأمَّا من حيثُ الاصطلاحُ:

فإنّ الإبداعَ مصطلحٌ قديمٌ، استعمله العلماءُ في عباراتِهم؛ فقد قال الأصمعيُّ في بيتِ أبي ذُؤيبٍ الهذليِّ:

والنّفسُ راغبةٌ إذا رغّبتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقنعُ

هذا أبدعُ بيتٍ قالتْه العربُ![(٣)].

وقال الثعالبيُّ في بديع الزمان الهَمَذَاني: «وكان يُترجِم ما يُقتَرَحُ عليه من الأبيات الفارسيَّة، المشتملة على المعاني الغريبة بالأبيات العربية، فيجمع بين الإبداع والإسراع!»[(٤)].

---

(١) الباعِثُ على إنْكَار البِدَع والحوادِثْ (ص/ ٨٦) ناقلًا عن الطرْطوشي.

(٢) الكلِّيات (ص/ ٢٩).

(٣) انظر: الشعر والشعراء: لابن قتيبة (١/ ٦٦)، والمجالسة وجواهر العلم: للدينوري (٥/ ٢٩٤).

(٤) يتيمة الدهر (٤/ ٢٥٧).

وقال أيضًا في شعر ابن لَنْكَك: «وكذلك ابنُ لَنْكَك إذا قال البيتَ والبيتين والثلاثةَ أغربَ =

وقال الخالديَّان: «وهذان الشَّرِيجان[١] هما اللذان فتحا للمُحْدَثِينَ بابَ المعاني فدخلوه، وأنْهَجُوا لهم طرقَ الإبداع فسلكوه»[٢].

وقال الموفَّقُ عبدُ اللطيف في ابن الجوزي: «وأما السجْعُ الوعظيُّ فله فيه مَلَكَةٌ قويةٌ، إن ارتجل أجاد، وإن روى أبدع!»[٣].

و يُطلق الإبداعُ عند البلاغِيِّين ويُرادُ به شيئان:

أحدُهما: أنْ يَخترع المتكلِّمُ معانيَ لم يُسبَقْ إليها.

والثاني: أنْ يأتيَ في البيت الواحد من الشعر، أو في القطعة الواحدة من النثر، أو في الكلمة الواحدة: عدّةَ ضُروبٍ من البديع، ومتى لم يكن كذلك فليس بإبداع؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [هود:٤٤] فإنها اشتملت على ثلاثةٍ وعشرين نوعًا من البديع![٤].

أما في العصر الحاضر: فقد كثُر الخلافُ والجدلُ حول وضع حَدٍّ لهذا المصطلح، لا سيّما في الغَرْب - لأنهم قد سبَقونا إلى بحثه وتقديم الدراسات

=

بما جلب، وأبدعَ فيما صنع». المصدر نفسه (٢/ ٤٠٧).

(١) الشَّرِيجَان: لونانِ مختلفانِ من كلِّ شيءٍ. انظر: تهذيب اللغة (١٠/ ٢٨٤)، والمخصّص (١/ ٢٠٦)، وتاج العروس (٦/ ٦١).

والمرادُ بهما هنا: القُدَماءُ والـمُخَضْرَمون من الشعراء.

(٢) الأشباه والنظائر (١/ ١).

(٣) تاريخ الإسلام (٤٢/ ٣٠٣)، وذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٤٨٤).

(٤) انظر تفصيل ذلك في: خزانة الأدب: لابن حجة (٢/ ٢٩١)، وأنوار الربيع في أنواع البديع: لابن معصوم (ص/٣٢٨)، وتحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر: للعدواني (ص/ ٦١١)، والاتقان: للسيوطي (٢/ ٩٣٧).

فيه - فعلى سبيل المثال: أُقيمت في جامعة وِلاية (يُوْتَا)[١] مُؤتَمرات عِدّةٌ حول موضوع الإبداع، طُرِحَ فيها أكثرُ من مئة تعريف للإبداع!![٢].

وإذا كان لا بُدّ من وضع تعريفٍ للإبداع فإنني أقول: إنّ الإبداعَ هو: مَلَكَةٌ فَائقةٌ، يتأتّى من خِلالها اكتشافُ شيءٍ جديدٍ، لم يُسبَقْ إليه الـمُبدِعُ[٣].

والخُلاصةُ: أنّ المعنى الكليَّ للإبداع لابدّ أن تتوفّر فيه ثلاثُ صفاتٍ أساسيةٍ؛ هي:

١- **الجِدَّةُ**: فالـمُنْتَجُ الإبداعيُّ لابدّ أن يكون شيئًا مختلفًا عن المألُوف.

٢- **الفاعِلِيّةُ**: فالـمُنْتَجُ الإبداعيُّ - بصرف النظر عن نوعه - لا بدَّ أن يُحقِّقَ هدفًا على أرض الواقع؛ وهذا الهدفُ قد يكونُ عِلْميًّا أو جَماليًّا، وقد يكون ماديًّا.

٣- **الالتزامُ الخُلُقيُّ**: فالإبداعُ ينبغي أن يلتزم بالقواعد الأخلاقية؛ فلا يُستخدمُ مصطلحُ الإبداع لوصف السلوك الهدَّام، أو الجرائم المروِّعة، أو الحروب المدمِّرة، وما أشبه ذلك. **أي**: أنه لا إبداعَ في الشرِّ[٤].

---

(١) جامعةُ ولايةِ (يُوْتَا): تأسّستْ عامَ (١٨٥٠ م) في (سُوْلْتْ لِيكْ سِيتي) بولاية (يُوْتَا) بالولايات المتّحدة الأمريكيّة، وتَضمُّ الجامعةُ كلِّيّاتٍ كثيرةً، وتَمنحُ شهادةَ الماجِستير والدُّكتوراه. راجعْ (ويكيبيديا) الموسوعة الحُرَّة.

(٢) **انظر**: الإبداع في الفن والعلم: للدكتور/ حسن أحمد عيسى (ص/ ١٧).

(٣) **إنما قلنا**: ملَكَة؛ لأن الملَكَةَ هي الصِّفة الرَّاسخة في النفس، أو الاستعداد العقلي الخاصّ، لتناول أعمالٍ مُعيَّنةٍ بحِذقٍ ومهارَةٍ.

(٤) «الإبداع في التربية والتعليم» لآرثر كروبلي ترجمة: د. إبراهيم الحارثي ومحمد مقبل (ص/ ١٠-١١) بتصرّف.

وانظر: «سيكولوجيّة الخُرافة والتفكير العلمي» للدكتور: عبدالرحمن عيسوي (ص/ ٧٠).

قال العلَّامةُ عبدُ الرحمن السعدي: «إنّ هذه المخترعات - حيثُ خلتْ من روح الدين ورحمته وحكمته - صارت نكبةً عظيمةً على البشر بما ترتَّب عليها من الحروب التي لا نظير لها والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعَجَزَ ساستُها وعلماؤُها أن يُنظِّموا للبشر حياةً مستقرةً عادلةً طيبةً، بل لايزالون ينتقلون من شقاءٍ إلى شقاءٍ آخر، وهذا أمرٌ حَتْمٌ لا بدّ منه، وجريانُ الأحوال يدلُّ عليه، فالخيرُ كلُّه في الدين الصحيح، والشرُّ كلُّه في الإنكار والجحود»[١].

وقال حافظ إبراهيم[٢]:

الْعِلْمُ إِنْ لَمْ تَكْتَنِفْهُ شَمَائِلٌ ... تُعْلِيهِ كَانَ مَطِيَّةَ الإِخْفَاقِ

لا تَحْسَبَنَّ الْعِلْمَ يَنْفَعُ وَحْدَهُ ... مَا لَمْ يُتَوَّجْ رَبُّهُ بِخَلاقِ

كَمْ عَالِمٍ مَدَّ الْعُلُومَ حِبَائِلًا ... لِوَقِيعَةٍ وَقَطِيعَةٍ وَفِرَاقِ!

وقال معروفُ الرُّصافي[٣]:

وليس الغِنَى إلا غِنَى العِلمِ إنه ... لَنُورُ الفتى يَجلُو ظَلامَ افتقارِهِ

ولا تَحسبنَّ العِلمَ في الناسِ مُنجيًا ... إذا نَكَّبَتْ أخلاقُهم عن مَنارِهِ

وما العِلمُ إلا النُّورُ يَجلو دُجَى العَمَى ... ولكنْ تَزوغُ العينُ عند انكسارِهِ

فما فاسدُ الأخلاقِ بالعِلمِ مُفْلِحًا ... وإنْ كان بَحْرًا زاخِرًا من بِحارِهِ

---

(١) الأدلة القواطع والبراهين (ضمن مجموع مؤلفاته) (٦/ ٤٣).
(٢) الديوان (١/ ٢٨٠).
(٣) الديوان (ص/ ٣٣٢).




أمّا عُشّاقُ العلمِ؛ فأعظمُ شَغَفًا به وعِشْقًا له مِن كلِّ عاشقٍ بمَعشُوقِهِ، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُه عنه أجملُ صُورةٍ من البَشَر!

ابنُ القيّم






الفصلُ الثَّاني

حقيقةُ الإنسان المُبدعِ



الفصلُ الثَّاني
حقيقةُ الإنسان المُبدِع

ظلَّ الناسُ لفترة طويلة من الزَّمن ينظرون إلى المبدع على أنه إنسانٌ يَتميَّزُ بقُدُراتٍ خَارِقةٍ واستعداداتٍ عقليَّةٍ جبَّارةٍ تُميِّزُه عن سَائِرِ البَشَر.

وقد طَرَح عُلماءُ النَّفْس هذا التَّصوُّرَ جانبًا، وبدأوا يَنظُرون إلى قُدُرات المبدعين نَظْرتَهم إلى سائر القُدُرات والاستعدادات التي يَتَّصِف بها سائرُ الناس؛ مثلُ الذَّكاء، والميُول، وسِمات الشخصيَّة(١).

ذلك لأنَّ الناسَ يَمْتلكُون جميعًا القُدُراتِ والمُؤهِّلاتِ، ولكن بِقَدْرٍ يتفاوت من شخصٍ إلى آخر، فالفُروقُ الموجودةُ هي فُروقٌ كِمِّيَّةٌ وليست كيفيَّةً، لكنها تختلف وتَمايز فيما بينها من شخصٍ لآخر، من حيثْ الكميَّةُ وحُسْنُ الاستغلال والقُدْرةُ والنُّضجُ... إلخ.

ولهذا نجدُ أنَّ بعضَ العلماء قد يَنبُغُ في عِلمٍ دون عِلمٍ، ويُبرِّزُ في فنٍّ دون فنٍّ؛ لأن العلومَ ليستْ سواءً؛ فهناك فنٌ يحتاج إلى الحِفْظ أكثرَ من الفَهْم، وهناك فنٌ عكسُه، وهناك فنٌ يحتاج الأمرين جميعًا، وآخرُ يحتاج إلى الملاحظة والتأمُّل، وآخرُ يعتمِدُ على الاستقراء والتتبُّع... وهكذا.

---

(١) انظر: الإبداع في الفن والعلم: للدكتور/ حسن أحمد عيسى (ص١٦)، وسيكولوجيّة الخُرافة والتفكير العلمي: للدكتور/ عبد الرحمن عيسوي (ص/ ٨٣).

وإنْ كانت العلوم في الجملة تعُود إلى الأصليْن الأساسيْن: **الحفظ أو الفَهْم، أو إليهما معًا**[١].

فعلى هذا: ينبغي للإنسان - وإنْ كان قليلَ العِلم، أو ضعيفَ القابليَّة له، أو محدودَ المواهِب والمُؤهِّلات - ألّا ييأسَ ولا يَستسلِمَ للإحباط ويَقْنَطَ، بلْ عليه أن يَجدَّ ويَجتهِدَ، ويُثابرَ ويعملَ بعزيمةٍ وتصميمٍ، فإذا لم يجد نفسَه في علمٍ فليبحثْ عن نفسه في علمٍ آخرَ، وإن لم يجد نفسَه في مجالٍ فليبحثْ عنها في مجالٍ آخر، حتى وإنْ كان ذلك العِلمُ أو المجالُ أقلَّ من غيره!

وفي هذا يقول الصُّوليُّ[٢]: «ليس يجبُ لمن صَفَر في هذه العُلوم أن يدَع التَّعلُّم آيِسًا من الاستفادة، مُولِّيًا عن الاستزادة، فربما كان الإنسانُ مهيَّأً الذِّهن لحمل العِلم، قريبَ الخاطر، مُتَّقِدَ الذَّكاء، فيُضِيعُ نفسَه بإهمالها، ويُميتُ خواطرَه بترك استعمالها، **فيكونُ كما قال عليُّ بنُ الجَهمِ**:

والنَّارُ في أحجارِهَا مخبُوءةٌ ... ليست تُرى إن لم تُثِرْهَا الأَزنُدُ»

كما ينبغي للإنسان أن يُحاول جَهْدَه ما استطاعَ، ولا ينظُرَ للنتيجة؛ **كما قال أبو رياش القيسيُّ**[٣]:

عليَّ التقلُّبُ والاضْطرابُ جَهْـ ... ـدي، وليس عَليّ النَّجَاحُ

(١) الحفظُ والفهمُ هما أعظمُ وأهمُّ طرق تحصيل العلم، وقد تكلَّمتُ عنهما بالتفصيل في كتابي «التأصيل العلمي».
(٢) في أدب الكُتَّاب (ص/ ٢٧).
(٣) كما في معجم الأدباء: للحموي (١/ ١٨٤).

وهناك كثيرٌ من العلماء تحوَّلوا من فنٍ لم يُفلِحوا فيه إلى فنٍّ آخرَ، فنبَغوا وبرَّزوا؛ إذ الشأنُ هنا هو في اكتشاف الإنسان نفسَه، ومعرفتِه مواهبَه وقُدُراتِه مُبكِّرًا، وذلك بتأمُّل حاله، واستشارة غيره، لا سيّما أساتذتُهُ وخواصُّ أصحابِهِ، كما حصَل للأصمعي مع شيخه الخليل بن أحمد الفَرَاهِيدي؛ فإنَّ الأصمعيَّ رُغمَ أنه من علماء اللغة الكبار، ومن رُواة الشعر المشهورينَ إلّا أنه لم يُفلِحْ في عِلم العَروض! فنبَّههُ الخليلُ إلى أنه لا يصلُح لهذا العِلم تنبيهًا لطيفًا؛ فانصرفَ عنه(١).

(١) وذلك أنه لما يئس الخليلُ من فهمه العَروضَ، قال له: يا أبا سعيد، كيف تُقَطِّع قولَ الشاعر:

إذا لم تَسْتطعْ شيئًا فدَعْهُ ... وجاوِزْه إلى ما تَستطيعُ؟

ففطِن الأصمعيُّ إلى أنّ الخليلَ قد تأذّى بعدم فهمه علمَ العَروض، فلم يُعاوِدْه فيه.

انظر: الخصائص (١/ ٣٦٢ - ٣٦٣)، ونزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص/ ٩٢).

وفي: التذكرة الحمدونية (٨/ ٣١٢)، ومحاضرات الأدباء (١/ ٦٧) جاءت القصةُ منسوبةً ليونس النحوي مع الخليل، وليس للأصمعيّ، فلعلّها تكرّرت.

- والبيتُ المشارُ إليه هو من معصوب الوافر، وهو لعمرو بن معد يكرب، وقصتُه - كما روى أبو عبيدة - أنّ الصِّمَّةَ بنَ الحارث بن ربيعة من بني معاوية ابن بكر بن هوازن أغار على بني زَبيدٍ، فسبى ريحانةَ بنتَ معد يكرب أختَ عمرو بن معد يكرب فنادتْه ليستنقذها، فقال:

أَمِنْ ريحانَةَ الداعِي السَميْعُ ... يُؤَرِّقُني وأَصحَابِي هُجُوعُ

يُنادي مِنْ براقِشَ أَو معينٍ ... فأَسمَعَ وأتلأبَّ بِنَا مَليعُ

وقَدْ جاوزْنَ مِنْ غُمْدانَ دَارًا ... لأبوالِ البغالِ بهَا وَقيعُ

إلى أن قال:

إذا لم تَسْتطعْ شيئًا فدَعْهُ ... وجاوِزْه إلى ما تَستطيعُ

=

وقد لا يصلُح الإنسان للعِلم النَّظَري، لكنه يصلُح للعِلم العَمَلي؛ أو العكسُ، كما حصل لتُوْمَاسْ أدِيسُونْ[١] - أشهرِ مخترعٍ أمريكيٍّ - مثلًا، فقد فُصِل من المدرسة لأن مُدرِّسيه قالوا: إنه أَبْلَهُ، ضعيفُ العقل، لا يَصلُح للتَّعلُّم، وتكهّن الأطباءُ بجُنونه نظرًا لشكل رأسه الغريب! فترك المدرسة قَسْرًا، عِلمًا بأنه لم يبقَ في التعليم الرسميِّ سوى ثلاثة أشهر فقط! ثم اتّجه للعمل الميكانيكيِّ فنبَغ فيه، حتى سُجّل باسْمه ما مجموعُه (١٠٩٣) اختراعًا!![٢].

=

انظر: الأصمعيّات (ص/ ١٧٢)، والعفو والاعتذار: للرقّام البصري (٢/ ٥٠٢).

لطيفة: حصل نحوُ ذلك لبعض طلّاب الشيخ العلّامة محمد بن الأمين الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد كان هذا الطالبُ يَدرُس على الشيخ علمَ النحو ليُحْرِزَه لكنْ دون جدوى، فقال له الشيخُ الأمينُ ذاتَ يومٍ: أعربْ هذا البيتَ:

إذا لم تَسْتطعْ شيئًا فدَعْهُ وجاوزْه إلى ما تَستطيعُ!

فأخذ الطالبُ يُحاولُ إعرابَه، ولم يتفطّن لمقصود الشيخ كما تفطّن الأصمعيّ!!

(١) فائدة: الاستشهادُ بأخبارِ غير المسلمين والنقل عنهم -بضوابطه المعلومة- لا ضيرَ فيه. قال العلّامةُ المعلّمي في معرِض دفاعه عن إمام المغازي ابنِ إسحاق: «فأمّا نقلُه عن اليهود والنصارى وتسميتُه إيَّاهم أهلَ العِلم الأوَّل، فلا عَيبَ فيه». آثار الشيخ العلّامة المعلّمي (٢٤/ ٢٣٦).

(٢) منها: مُشَغِّل الأسطوانات، والمِصباح الكهربائي الذي أضاء العالَم ، وبطّارية السيّارة ، ومسجِّل الصوت، وأُسلوبٌ مبتكرٌ لعملِ المطَّاط الصناعيِّ من النباتات ذات القُضْبان الذهبية ، وتصميمُ محطَّةٍ كهربائيةٍ، هي الأُولى في العالَم.
إضافةً إلى ذلك، فإنه حَسَّنَ اختراعاتِ الآخرين، ومنها: الهاتف، والآلة الكاتبة، والمولِّد الكهربائي، والقِطار الكهربائي. وكاد يَخترع المذياعَ، وتنبَّأ باستعمال الطاقة الذَّريّة.
انظر: الموسوعة العربية العالمية (١/ ٤٢٤)، وهكذا علمني وردزورث، لابن عقيل الظاهري (ص/ ١٣٥).




لَعَمْرُكَ إِنّ الدهرَ يَجري لغايةٍ   فإِنْ شِئْتَ أنْ تَحْيا سعِيدًا فجارِهِ

لقد فازَ مَنْ بارَى جَدِيدَيْهِ جِدَّةً   وخابَ الذي في جِدِّهِ لمْ يُبارِهِ

ولَيْسَتْ حياةُ الناسِ إِلّا تَجدُّدًا   معَ الدهرِ في إِيباسِهِ واخْضِرارِهِ

وما الناسُ إِلّا الماءُ يُحيِيهِ جَرْيُهُ   ويُرْدِيهِ مُكْثٌ دائمٌ في قَرارِهِ

معروفُ الرُّصافي






الفصلُ الثَّالِثُ

أنواعُ الإبداعِ



الفصلُ الثَّالِثُ
أنواعُ الإبداعِ

الإبداعُ نوعان:

النوعُ الأولُ: تأسيسُ شيءٍ عن شيءٍ، أي: تأليفُ شيءٍ جديدٍ عن عناصرَ موجودةٍ سابقًا؛ كالإبداع في العلم مثلًا.

النوعُ الثاني: إيجادُ شيءٍ مِن لّا شيءٍ؛ كإبداع البارئ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو ليس بتركيبٍ ولا تأليفٍ، وإنما هو إخراجٌ من العَدَم إلى الوجود؛ كما في قوله وتعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١٧]؛ أي: خالِقُهما لا عنْ مثالٍ سابقٍ.

فإبداعُ المخلوق كُلُّه من النوع الأول؛ وهو تأسيسُ الشيء عن شيءٍ سابقٍ، **وأمَّا الثاني**: فمن خصائص البارئ عَزَّوَجَلَّ التي لا يُشاركُه فيها أحدٌ؛ ولهذا كان من أسماء الله جَلَّوَعَلَا الإضافية: «بديع السماوات والأرض»؛ كما مَرَّ في الآية السالفة[١].

لذا فإنَّ مِحوَر حديثي سينصبُّ على النَّوع الأول؛ وهو الذي في طَوْق المخلوق وقُدرتِه؛ ومنه: (**الإبداعُ العِلميُّ**).

وأرى لِزَامًا عليّ - حينئذٍ - أنْ أُفرِّق بين مصطلَحاتٍ قد تَلتبِسُ، وقد

---

(١) **انظر**: معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى: للتميمي (ص/ ١٩٠).

تَداخلُ مع الإبداع؛ مثلُ: **العَبقريَّةِ، والابتكارِ، والاختراعِ.**

وهذه المصطلحاتُ بين معانيها وبين معنى الإبداع تقارُبٌ، بيْدَ أنَّ منها: ما هو أخصُّ من الإبداع، ومنها: ما هو أعمُّ.

فالعَبقريّةُ مثلًا: بينها وبين الإبداعِ عُمومٌ وخُصوصٌ مُطلَقٌ، فكلُّ إبداعٍ عَبقريَّةٌ، وليس كلُّ عبقريَّةٍ إبداعًا – بالضَّرورة –؛ لأنّ العبقريّةَ نِسبةٌ لوادي عَبْقَر، وهو موضعٌ تزعم العربُ أنه من أرض الجنّ، ثم نسبوا إليه كلَّ شيءٍ تعجَّبوا من حِذْقِه أو جَودة صنعته وقُوّته، فقالوا: عَبْقَرِيٌّ[(١)].

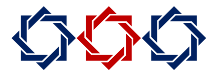
والابتكارُ: أخصُّ من الإبداع؛ لأنّ الابتكارَ هو السَبْق إلى الإبداع؛ مثلُ: ابتكار الخليل بن أحمد علمَ العَروض؛ فإن الخليل لم يَسبِقْهُ أحدٌ إلى ابتكار هذا العلم، لكنْ عندما جاء الأندلسيُّون وطوَّروا هذا الفنَّ واختَرعوا الموشَّحَات، لم يكن عملُهم هذا ابتكارًا؛ لأنه قد سبقَهُم إلى ذلك الخليلُ، فيكون عِلْمُ الخليل ابتكارًا وإبداعًا معًا، وعِلْمُ الأندلسيّين الذين اخترعوا الـمُوشَّحَات إبداعًا فقط؛ فالابتكارُ أخصُّ من الإبداع، والإبداعُ أعمُّ، فيكونُ بينهما عُمومٌ وخصوصٌ مُطلَقٌ أيضًا.

والاختراعُ: أَخَصُّ من الإبداع أيضًا؛ لأنه إيجادُ شيءٍ جديدٍ لم يكُنْ، أما الإبداعُ: فقد يكون بإيجاد شيءٍ جديدٍ، وقد لا يكونُ –كما سيأتي بعد هذا–،

---

(١) **انظر**: الصّحاح: للجوهري (٢/ ٧٣٤).

فيكونُ مُرادِفًا للإبداع من وجهٍ، مُغايِرًا له من وجهٍ؛ فعلى هذا يكونُ بينهما عُمومٌ وخصوصٌ وَجْهِيٌّ[١].



(١) وقد نَظَمتُ هذه المعاني بقولي:

إيجـــادُ شـــيءٍ اِســـمُهُ: اختـــراعُ ... والكَشْـــفُ عـــن أمـــرٍ هـــو: الإبـــداعُ

ومَـــنْ أتـــى بمُـــدْهِشٍ: فـــالعَبقَريْ ... وحَـــدُّهُ هـــذا حكـــاه الجَـــوهَريْ

والابتكـــارُ: السَّـــبْقُ للمُبتَـــدَعِ ... فجملـــةُ الأقســـامِ ذي، فـــاحفظْ وَعِ

وكُلُّهـــا قَريبـــةٌ في المعْنَـــى ... فكُـــنْ بهـــذا الأمْـــرِ ممَّـــن يُعْنَـــى




أُعِـدَّتِ الراحَـةُ الكُبْـرى لِـمنْ تَعِبَـا ... وَفـازَ بِـالحَقِّ مَـن لّـم يَأْلُـهُ طَلَبَـا

إِذا طَلَبْـتَ عَظيمًـا فَاصـبِرَنَّ لَـهُ ... أَو فَاحْشُـدَنَّ رِماحَ الخَـطِّ وَالقُضُـبَا

وَلا تُعِـدَّ صَـغيراتِ الأُمـورِ لَـهُ ... إِنَّ الصَـغائِرَ لَيسَـتْ لِلعُـلا أُهُبَـا

وَلَـن تَـرى صُـحبَةً تُرْضَـى عَواقِبُها ... كَالحَقِّ وَالصَبرِ في أَمـرٍ إِذا اصْطَحَبَا

قَـد فَـتَّحَ اللهُ أَبوابًـا لَعَـلَّ لَنـا ... وَراءَهـا فُسَـحَ الآمـالِ وَالرُحَبَـا

أحمد شوقي






الفَصلُ الرَّابِعُ

أقسامُ الإبداع



الفصلُ الرَّابعُ
أقسامُ الإبداع

يَنقسم الإبداعُ أقسامًا كثيرةً، وذلك يعود لاعتباراتٍ عديدةٍ.

* فينقسم الإبداعُ باعتبار العمل ذاته إلى خمسةِ أقسامٍ:

الأولُ: أن يكون ابتكارًا لشيءٍ لم يَسبِقْ له نظيرٌ.

وهو الـمَقْصِدُ الأولُ والأعظمُ من مقاصدِ التأليفِ التي لا ينبغي للعاقل أنْ يُؤلِّف إلّا فيها(١)؛ كاختراع الخليلِ (عِلْمَ العروض)، وأدِيسُون (المصباحَ

---

(١) مقاصدُ التأليف هي:
١- إمَّا شيءٌ يَخترعُه لم يُسْبَقْ إليه.
٢- وإمَّا شيءٌ ناقصٌ يُتمُّه.
٣- وإمَّا شيءٌ مستَغلِقٌ يَشرحُه.
٤- وإمَّا شيءٌ طويلٌ يختصِرُه، دونَ أن يُخِلَّ بشيءٍ من معانيه.
٥- وإمَّا شيءٌ متفرِّقٌ يَجمَعُه.
٦- وإمَّا شيءٌ مُختلِطٌ يُرتِّبُه.
٧- وإمّا شيءٌ أخطأ فيه صَاحبُهُ يُصلِحُه.
انظر: رسالة في فضل الأندلس: لابن حزم (ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي ٢/ ١٨٦)، وكشف الظنون: لحاجي خليفة (١/ ٣٥)، وأزهار الرياض: للمقّري (٣/ ٣٥)، وإضاءة الراموس: لابن الطيب (٢/ ٢٨٨)، والمعيد في أدب المفيد والمستفيد: للعَلْمَوي (ص/ ١٦٧).
وقد نَظمَها العلامةُ أحمد بن عبدالعزيز الهلالي المالكي بقوله:
=

الكهربائيَّ).

الثاني: أن يكون تطويرًا لشيءٍ موجودٍ وتحديثًا له.

=

في سبعةٍ حصَروا مقاصد العُقَلاَ ... من التآليفِ فاحفظها تَنلْ أمَلاَ

أبدِعْ، تمامَ، بيانٍ، لاختصاركَ، في ... جمعٍ، ورتِّبْ، وأصلِحْ يا أخي الخلَلاَ

انظر: «متن ألفية الحافظ العراقي» للشيخ عبدالله الحكمي (القسم الدراسي) (ص/ ٢٥)؛ كما نَظَمَها بعضُهم بقوله:

ألا فاعلمنْ أنَّ التآليفَ سبعةٌ ... لكلِّ لبيبٍ في النصيحة خالِصِ

فشَرْحٌ لإغلاقٍ، وتَصحيحُ مُخطِئٍ ... وإبداعُ حَبْرٍ مُقْدِمٍ غيرِ ناكِصِ

وترتيبُ مَنثورٍ، وجَمْعُ مُفرَّقٍ ... وتَقصيرُ تَطويلٍ، وتَتْميمُ ناقصِ

انظر: أزهار الرياض (٣/ ٣٥)، وإضاءة الراموس (٢/ ٢٨٨).

وزاد الإمامُ أبو حيان الأندلسي على هذه المقاصد السبعة ثامنًا ، وهو: ما هو مُبهمٌ فيُعَيَّنُ.

انظر: التذييل والتكميل له (١/ ١١).

وقد نظمَ ذلك أخونا الدكتور/ أحمدُ الحُذيفي فقال:

وزاد أبو حيانَ إيضاحَ مُبهمٍ ... فحقِّقْ أصولَ العِلمِ تحقيقَ غائِصِ

وزِدتُّها تاسعًا وعاشرًا، هما: تَمييزُ الـمُهْمَل، وإظهارُ الـمَكْنُون، ونظمتُها بقولي:

وتاسعُها يا صَاحِ: (تَمييزُ مُهْمَلٍ) ... لِيُصبحَ مَعلومًا لدى كلِّ فاحِصِ

و(إظهارُ مكنونٍ) تطاولَ دَفْنُهُ ... فهذِي تَمامُ العَشْرِ غَيرِ نَواقِصِ

وقد أفردتُ هذه المقاصِدَ العشرةَ مع شَرْحِها والكلامِ عليها، في «التعريف بمقاصد التأليف»، يسّرَ اللهُ تَمامَه وطَبعَه.

كتحسين أديسون جهازَ الهاتف؛ لأنّ المخترع الأصلي للهاتف هو الْكسَنْدَرْ غراهامْ بِيلْ.

وهكذا سائرُ المخترعاتِ؛ فإنها تَبدأُ متواضعةً ثمّ تتحسَّنُ.

الثالثُ: أن يكون تفسيرًا لشيءٍ غامضٍ، أو حَلًّا لشيءٍ معقَّدٍ.

كـ (النظريّة النِّسْبيّة) لأَلْبِرْتْ انشْتايْن.

ويدخلُ فيه تفسيرُ الأحاجي والألغاز، وقد ألّف فيها العلماءُ مؤلَّفاتٍ كثيرةً في شتّى الفنون[1].

الرابعُ: أن يكونَ إعادةً لترتيب شيءٍ مألوفٍ بطريقةٍ جديدةٍ مبتكَرةٍ.

وهذا يوجد في الأشياء النظريّة والأشياء العمليّة، لكنه في الأشياء العمليّة أكثرُ.

ومن الأشياء النظريّة: إعادةُ الحافظِ ابنِ حجرَ ترتيبَ علمِ مُصطلح الحديث في كتابه الفذِّ «نُخْبة الفِكَر».

---

(١) منها:

- «طِراز المحافل في ألغاز المسائل»: لجمال الدين الأسنوي. وهو في الألغاز الفقهية.
- «حِلية الطِّراز في حَلّ مسائل الألغاز»: لأبي بكر الجراعي. وهو في الألغاز الفقهية.
- «الطِّراز في الألغاز»: لجلال الدين السيوطي. وهو في الألغاز النحوية.
- «اللفظ اللائق والمعنى الرائق»: لشهاب الدين أحمد بن هارون المكي. وهو في الألغاز اللغوية.
- «الألغاز النحوية في علم العربية»: لخالد الأزهري.
- «مجمع الألغاز»: لخير الدين شمسي باشا.

وكلُّها - بحمد الله - مطبوعةٌ.

الخامسُ: قد يَنتجُ عن النظر إلى شيءٍ معتادٍ - لكنْ من جهةٍ مختلِفةٍ - عملٌ إبداعيٌّ.

كما سيأتي في ترجمة الخليل بن أحمد الفراهيدي، فإنّ الذي أوحى إليه علمَ العَروض هو سماعُه لدقِّ مطارق الصفَّارين في سوق النُّحَاس!

وكما سيأتي في ترجمة الحريريِّ أيضًا، فإنّ سببَ وضعِهِ للمقامات هو مرورُ أحدِ الشَّحَّاذين الفُصَحاء - ويُكْنى أبا زيدٍ من سَرُوج - بمسجده ببني حَرَامٍ؛ فعملَ المقاماتِ الخمسينَ وعزاها إلى أبي زيدٍ السَّرُوجِيِّ!

وهذا يكثُر عند الأُدباء والشعراء خاصةً[1]، كما يُوجدُ أيضًا في المجالات العَمَليّة؛ فاكتشافُ إسحق نُيوتُن (قانونَ الجاذبيَّة بين القمر والأرض) إنما كان

---

(١) وهو ما يُسمَّى عند علماء البديع: سلامة الاختراع، وهو: أن يخترع الشاعرُ معنًى لم يُسبَقْ إليه. كقول عَنترة في وصف الذُّباب:

وخَلا الذُّبابُ بها فليسَ بنازِحٍ ... غَرِدًا، كفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ

هَزِجًا يَحُكُّ ذِراعَه بِذِراعِهِ ... قَدْحَ المُكِبِّ على الزِّنادِ الأجْذَمِ

هذا المعنى إذا تأمَّله المتأدِّبُ وتخيَّله في فكره يجده غريبًا في بابه، فإنه قال: إنّ هذا الذبابَ لما خلا بهذه الروضة - التي أعاد الضمير إليها في قوله: (بها) - صار هَزِجًا مُترنِّمًا يَحُكُّ ذراعَه بذراعِه من الطَّرَب الذي اعتراه، فشبَّهه عَنترةُ برَجُلٍ أجْذمَ قاعدٍ يَقدحُ زنادًا بذراعيْه، **والأجذمُ**: المقطوعُ اليد. **والتقديرُ في البيت**: قَدْحَ الأجذمِ المُكِبِّ على الزناد.

ومنه قولُ عديّ بن الرقّاع في تشبيه قَرْن الخِشْف (ولد الظبي):

تُزْجِي أغَنَّ كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِهِ ... قَلَمٌ أصَابَ مِنَ الدَّواةِ مِدَادَهَا

انظر: تحرير التحبير: للعدواني (ص/ ٤٧١)، وخزانة الأدب: لابن حجة الحموي (٢/ ٣٦٢)، ونهاية الأرب: للنويري (٧/ ١٦٤).

عن طريق مشاهدة سقوط تفاحةٍ من الشجرة![1]، فسقوطُ تفاحةٍ أمرٌ مألوفٌ، لكنه نظَر له من زاويةٍ خاصةٍ؛ فدلَّه على شيءٍ مختلفٍ؛ هو قانون الجاذبيَّة.

ولذا يقول قَيْصر: «للمصادفة أثرٌ كبيرٌ في الحرب، ولكنّ أثَرها أكبرُ في الاكتشافات العلمية والأحداث السياسية»[2].

(١) دَرَسَ الفَلَكيُّون القُدماءُ حركةَ القمر والكواكب، لكنّ هذه الحركة لم تُفسَّر بشكلٍ صحيحٍ إلا في أواخر القرن السابع عشر، عندما أوضح العالم الإنجليزي إسحق نُيوتُن: أن هناك ارتباطًا بين القوى الجاذبة للأجسام نحو الأرض وأسلوب حركة الكواكب.

بنى نُيوتُن دراستَه على الدراسة الدقيقة لحركة الكواكب التي قام بها اثنان من الفلكيين في أواخر القرن السادس عشر الميلادي وأوائل القرن السابع عشر الميلادي، وهما: تيخو براهي الدانمركي، و يوهانز كيبلر الألماني.

فعندما كان نُيوتُن في الثالثة والعشرين من عمره، أثار سقوطُ تفاحةٍ سؤالًا في ذهنه عن مدى قوة الجاذبية، وقد تبين له أنّ نفسَ قوة الجذب التي سببت سقوطَ التفاحة هي التي يمكن أن تحافظ على وضع القمر في مداره حول الأرض.

ومن القوانين التي اكتشفها كيبلر أوضح نُيوتُن كيف أن قوة الجذب للشمس لا بد أن تقل بزيادة المسافة، وافترض أن قوة جذب الأرض لا بد أن تسلك ذات السلوك، فتمكَّن من حساب القوة التي تجذب القمر إلى الأرض عند سطحها. وقد ظهر أن هذه القوة هي ذاتُ القوة التي أكسبت التفاحةَ سرعةَ السقوط إلى سطح الأرض. الموسوعة العربية العالمية (٨/ ١١٠). وانظر: قصة الحضارة: لديورَانت (٣٣/ ٢٣٧).

تنبيه: يرى بعضُ الباحثين أنّ ابنَ سينا هو الذي اكتشف قانونَ الجاذبية الأرضية قبل إسحق نُيوتُن بسبعة قرون!

وقال الأستاذُ مالكُ بنُ نبي: «ربما اتضح لنا ذاتَ يومٍ أنّ (تفاحةَ نُيوتُن) التي اكتشف بها عالِمُ الفَلَك قوةَ الجاذبية الأرضية، ذاتُ اتصالٍ معيَّنٍ بما قام به (ابنا موسى) من أعمالٍ علميةٍ». وجهة العالم الإسلامي (ص/ ٢٩).

(٢) مجلة الرسالة العدد (٤٨) (ص/ ٩٤١).

وقال تشيمبرز: «قد تؤدّي حادثةٌ صغيرةٌ جدًا إلى نتائجَ عظيمةِ الشأن، وأحيانًا تُسبِّبُ أروعَ النكبات!»[(١)].

*** أقسامُ الإبداع باعتبار الغاية والهدف:**

ينقسمُ الإبداعُ من حيثُ هدفُه وغايتُهُ، **قسمين:**

الأول: إبداعٌ نافعٌ؛ وهو ينقسم قسمين أيضًا:

أ- إبداعٌ عامٌ؛ وهذا القسم شاملٌ لجميع الإنسانية؛ كاختراع الحاسب الآلي، ووسائل الاتصالات والمواصلات، ومعظم الأمور الحاجيَّة والتَّحسينيَّة.

ب- إبداعٌ خاصٌ؛ وهذا القسم خاصٌّ بفئةٍ معيَّنةٍ من الناس؛ كالأطبّاء والمهندسين، ونحوِهِم.

والثاني: إبداعٌ ضارٌّ؛ وهو ما يعودُ بالضَّرر على الإنسان في العَاجِل أو الآجِل؛ مثلُ: الإبداع في بعض الأمور المحرَّمة؛ كصناعةِ التماثيل ونحتِها، وصناعةِ الآلاتِ الموسيقيّةِ والعَزْفِ بها، ونحوِ ذلك؛ فإنَّ هذا شرٌّ كلُّهُ.

ومثلُها الإبداعُ في دراسة عُلوم ما وراء الطبيعة الباطلة، أو ما يُسمَّى بـ (المِيتافِيزِيقا)، التي اشتغل بها بعضُ العلماء؛ كأبي نصر الفارابي - الملقَّب بالمعَلِّم الثاني بعد أرسطُو الملقَّب بالمعلِّم الأول! -، الذي نبغَ في عددٍ كبيرٍ من العلوم؛ كما كان يعرف سبعينَ لسانًا! وكان خبيرًا بأنواع الغِناء والموسيقى[(٢)]...

---

(١) المرجع نفسه.

(٢) قال عنه شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «كان بارعًا في الغِناء الذي يُسمُّونه الموسيقى، وله فيه =

=
طريقةٌ عند أهل صناعة الغِناء، وحكايتُه مع ابن حمدان مشهورةٌ؛ لـمّا ضربَ فأبكاهم، ثم أضحكهم، ثم نوّمهم، ثم خرج!». مجموع الفتاوى (١١/ ٥٧٠).
والحكايةُ المشارُ إليها ذكرها بتمامها ابنُ خَلِّكان في: وَفَيَات الأعيان (٥/ ١٥٥-١٥٦)، فقال: «رأيتُ في بعض المجاميع، أنّ أبا نصرٍ لما وَرَدَ على سيف الدولة، وكان مجلسُه مجمعَ الفضلاء في جميع المعارف، فأُدخل عليه وهو بزِيِّ الأتراك، وكان ذلك زِيُّه دائمًا، فوقف، فقال له سيفُ الدولة: اقعدْ، فقال: حيثُ أنا أم حيثُ أنتَ؟ فقال: حيثُ أنتَ، فتخطَّى رقابَ الناس حتى انتهى إلى مِسْنَدِ سيف الدولة، وزاحمه فيه حتى أخرجه عنه! وكان على رأس سيف الدولة مماليكُ، وله معهم لسانٌ خاصٌّ يُسَارُّهُم به قَلَّ أن يعرفَه أحدٌ، فقال لهم بذلك اللسان: إن هذا الشيخَ قد أساء الأدبَ، وإني مُسائلُه عن أشياءَ إن لم يُوفِ بها فاخْرقوا به، فقال له أبو نصرٍ بذلك اللسان: أيها الأميرُ، اصبرْ فإن الأمورَ بعواقبها، فعجِبَ سيفُ الدولة منه، وقال له: أتُحسِنُ هذا اللسان؟ فقال: نعم، أُحسِنُ أكثرَ من سبعين لسانًا! فعَظُمَ عنده. ثم أخذ يتكلَّم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فنٍّ، فلم يزلْ كلامُه يَعلُو وكلامُهُم يَسْفُل حتى صمت الكُلُّ وبقي يتكلَّمُ وحدَه، ثم أخذوا يكتبون ما يقوله!
فصَرَفَهم سيفُ الدولة وخَلَا به، فقال له: هل لك في أن تأكلَ؟ فقال: لا، فقال: فهل تشربُ؟ فقال: لا، فقال: فهل تسمعُ؟ فقال: نعم، فأمر سيفُ الدولة بإحضار القِيان، فحضر كلُّ ماهرٍ في هذه الصناعة بأنواع الملاهي، فلم يحرِّكْ أحدٌ منهم آلتَه إلا وعَابَه أبو نصرٍ وقال له: أخطأتَ، فقال له سيفُ الدولة: وهل تُحسِنُ في هذه الصناعة شيئًا؟ فقال: نعم، ثم أخرج من وَسَطِه خريطةً ففتحها وأخرج منها عِيدانًا وركَّبها، ثم لعب بها، فضحك منها كلُّ مَن كان في المجلس! ثم فكَّها وركَّبها تركيبًا آخرَ وضرب بها فبكى كلُّ مَن في المجلس! ثم فكَّها وغيَّر تركيبَها وحرَّكها فنام كلُّ مَن في المجلس حتى البوّاب! فتركهم نِيامًا وخَرَجَ!».
وقد ذكر ابنُ خَلِّكان أنّ من اختراعاته الآلةَ الموسيقيّةَ المسماةَ بـ (القانون).
ضميمة: قلتُ: ويُشبهُهُ في هذا؛ شمسُ الدين محمدُ بنُ كُرٍّ المصري، فقد قال عنه ابنُ فضل الله العُمَري: «غنَّى فأضحك، وغنَّى فأبكى، وغنَّى فأنام! فرأيتُ بعيني منه ما سمعتْه أذناي عن الفارابي، فصدَّق الخُبْرُ الخَبَر، وحقَّق العينُ الأثر، ورأيت منه واحدًا، سبحانَ من وهبه ما لا هو في قدرة البشر». مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (١٠/ ٦٤٩).

فمثلُ هذا لا شكَّ أنه مُبدِعٌ، لكنْ في مجالِ الشرِّ![1].

ومِن الإبداع في الشرّ أيضًا: اختراعُ (أسلِحة الدَّمار الشَّامل)، تلك الأسلحةُ العَمْياءُ الصَّمَّاءُ التي تُهلِكُ الحَرْث والنَّسْل، ولا تُفرِّق بين المحارِبِ وغيرِه، ولا بين صغيرٍ وكبيرٍ!

وهناك إبداعٌ في أمورٍ تافِهةٍ لا فائدةَ من ورَائِها، أقلُّ ما يُقال فيها: إنها مَضْيَعَةٌ للوقت والجهد بلا طائلٍ؛ كمِثْل صَنيعِ ذلك الرَّجل الذي دخل على الخليفة هارون الرشيد، فقال: «إني أصنع ما تعجز الخلائقُ عنه! فقال الرشيدُ: هاتِ؛ فأخرج أنبوبةً فصبَّ منها إبَرًا عِدّةً، ثم وضع واحدةً في الأرض، وقام على قدميه، وجعل يرمي إبرةً إبرةً من قامته، فتقع كلُّ إبرةٍ في عين الإبرة الموضوعة، حتى فَرَغَ دَسْتُهُ؛ فأمر الرشيدُ بضربه مئةَ سوطٍ، ثم أمر له بمئة دينار! فسُئل عن جمعه بين الكرامة والهوان؟ فقال: وَصَلْتُه لجَوْدَة ذكائه، وأدَّبتُه لكي لا يَصْرِفَ فَرْطَ ذكائه في الفُضُول!»[2].

فالمقصودُ: أنَّ هذا فيه نوعُ إبداعٍ، لكنه فيما لا يَنفعُ ولا يُجْدِي.

* أقسام الإبداع باعتبار القوّة والتمكُّن:

ينقسم الإبداع من حيثُ القُوَّةُ والتمكُّنُ **قسمين أيضًا**:

---

(١) قال الذهبي: «له تصانيفُ مشهورةٌ، مَن ابتغى الهدى منها ضلَّ وحارَ، منها تخرَّج ابنُ سينا، نسأل اللهَ التوفيقَ!». سير أعلام النبلاء (١٥/ ٤١٧).

(٢) مجاني الأدب في حدائق العرب (٢/ ١٤٩).

قلتُ: ومن هذه البابَة: ما يفعلُه لاعبو (السِّيْرْك)، وأصحابُ الحَرَكات (البَهْلَوانيّة)، فما أحراهم بسَوْط هارونَ من صاحب الإِبَر!!

الأول: إبداعٌ عسيرٌ.

والثاني: وإبداعٌ يسيرٌ.

فالإبداعُ العسيرُ: يكون في الأمور التي يكون فيها إبداعٌ وابتكارٌ معًا؛ كالإنسان الذي يَسبِقُ إلى شيءٍ لم يَسبقْ إليه غيرُه؛ كما تقدّم في الكلام عن اختراع علْم العَروض، والمصباح الكهربائي.

والإبداعُ اليسيرُ: كالذي يُرتِّب أشياءَ موجودةً سلَفًا، فيتوصَّلُ بذلك إلى اختراع شيءٍ جديدٍ؛ وهذا الإبداعُ سمّيناه يسيرًا بالنظر إلى قَسِيمِه الأوّلِ؛ وإلاّ فكُلُّ إبداعٍ هو وليدُ مُعاناةٍ وجُهْدٍ.

* أقسام الإبداع باعتبار المصْدَر:

ينقسم الإبداعُ باعتبار المصْدَر **قسمين**:

الأولُ: إبداعٌ عامٌّ.

والثاني: إبداعٌ خاصٌّ.

فالعامُّ: هو الذي لا يقتصر ابتكارُه على شخصٍ بعينِه، وإنما يُنسب لفئةٍ أو طائفةٍ أو أُمَّةٍ، كما يُقال مثلًا: أبدع المسلمون حضارةً راقيَةً في الأندلس، فليست هذه الحضارةُ منسوبةً لشخصٍ واحدٍ، وإنما هي عامّةٌ.

وكما يُقال: اليابانيُّون مُبدعون في برامج التكنولوجيا والحاسبات الآلية... وهكذا.

والخاصُّ: هو ما كان منشؤُه مِن شخصٍ بعينِه؛ كإبداع الشافعيِّ في علم الأصول، وإبداع الخليل في علم العَروض، ونحو ذلك.

والخُلاصةُ: ينبغي التنبيه هنا على خمسة أمور:

الأولُ: أنَّ هذه التقسيمات هي ما أوصلَني إليها اجتهادي؛ وإلّا فإن هناك اجتهاداتٍ أُخرى في التقسيم، ولكلِّ تقسيمٍ منها موردُه واعتبارُه:

فبعضُهم: يُقسِّم الإبداعَ إلى إبداعٍ فِعليٍّ، وإبداعٍ كامنٍ.

وبعضُهم: يجعل مستوياتِ الإبداع **خمسَ مستويات**: التعبيريَّ، والإنتاجيَّ، والاختراعيَّ، والإبداعيَّ، والبُزُوغِيَّ.

الثاني: لا يلزم من الإبداعِ في علمٍ مَّا الإبداعُ في جميع العلوم، حتى ولو كانتْ تلك العلومُ مترابطةً، بل لا يلزم الإبداعُ في جميع مبَاحث العلم الواحدِ للشخصِ الواحدِ؛ كتخصُّصات علم الطب أو الهندسة مثلًا؛ فقد يُبدِعُ الإنسان في علمٍ دون علمٍ، وقد يُبدعُ في جانبٍ واحدٍ من ذلك العلمِ فقط!

فالنوويُّ لم يُفتَحْ عليه في علم الطِّب، والغزاليُّ في علم النحو، وابنُ حزم في الهندسة والعَدَد....[1].

والسُّيوطيُّ يُعَدُّ مُبدِعًا في علومٍ كثيرةٍ، لكنه لم يُفلِحْ في علم الحساب، **حتى قال عن نفسه**: «أمّا علمُ الحساب: فهو أعسرُ شيءٍ عليَّ، وأبعدُه عن ذهني، وإذا نظرتُ في مسألةٍ تتعلّق به فكأنما أُحاولُ جبلًا أحمِلُهُ!»[2].

وهناك مَن كان إمامًا في فنِّه؛ كالفقه، والقراءات، والنحو... إلخ، لكنه ضعيفٌ في عِلمٍ آخرَ، وهم كُثُرٌ[3].

---

(١) **انظر**: ابن حزم: لمحمد أبو زهرة (ص/ ٩٥) وحلية طالب العلم: لبكر أبو زيد (ص/ ٥٨).

(٢) حسن المحاضرة (١/ ٣٣٩).

(٣) **منهم**: أبو حنيفة من أئمة الفقه، وعاصمُ ابنُ أبي النَّجَود وأحمدُ بنُ محمد البَزِّي من أئمّة =

وحتى في الفنونِ المتلاحِمَةِ التي يَجمعُها رِباطٌ واحدٌ، قد يُبدِعُ الإنسانُ في فنٍّ منها دون فنٍّ!

فالأصمعيُّ في حفظِ اللغة آبِدِها وشارِدِها والتفنُّنِ في علومها يُعَدُّ مبدِعًا، لكنه لم يُفلِحْ في علم العَروض ـ كما تقدّم ـ وهو أحدُ عُلوم اللغة!

وأبو مسلم النَحْوي كان من أعيان النحاة؛ فلما أحدثَ الناسُ التصريفَ، لم يُحسِنْه، وأنكرَه!(١)

=

القراءات، لكنهم كانوا جميعًا ضعفاءَ في الحديث!

وفي هذا يقول الحافظُ الذهبيُّ: «كَمْ مِن إمامٍ في فَنٍّ مقصِّرٍ عن غيره، كسيبويه مثلًا إمامٌ في النحو ولا يدري ما الحديثُ، ووكيعٌ إمامٌ في الحديث ولا يَعرف العربيةَ، وكأبي نواسٍ رأسٌ في الشِّعْر عَرِيٌّ من غيره، وعبدُ الرحمن بنُ مهدي إمامٌ في الحديث لا يَدري ما الطبُّ قطْ، وكمحمد بن الحسن رأسٌ في الفقه ولا يَدري ما القراءاتُ، وكحفصٍ إمامٌ في القراءة تالفٌ في الحديث». وللحُروب رجالٌ يُعرَفُون بها.

وفي الجملة: وما أُوتوا من العلم إلا قليلًا، وأما اليومَ: فما بقيَ من العلوم القليلة إلا القليلُ في أناسٍ قليل، ما أقلَّ مَن يَعمل منهم بذلك القليل، فحسبنا اللهُ ونعم الوكيل». تذكرة الحفاظ (٣/ ١٥٧).

(١) ذكرتْ المصادرُ أنه قال يَذُمّ علمَ الصَّرْف:

قـد كـانَ أَخْـذُهُمُ فِـي النَّحْـوِ يُعْجِبُنِـي ... حتَّـى تعـاطَوْا كَـلَامَ الـزِّنْجِ والـرُّومِ

لمَّـا سَـمِعْتُ كلَامـا لسـتُ أَفهمُـهُ ... كأَنَّـه زَجَـلُ الغِرْبـانِ والْبُـومِ

تَرَكْـتُ نَحْـوَهُمُ واللهُ يَعْصِـمُنِي ... مِـنَ الـتَّقَحُّمِ فِـي تِلْـكَ الْجَـرائِمِ!

فأجابه معاذُ بنُ مسلم الهرَّاء:

عايَنْتَهـا أَمْـرَدَ حتَّـى إذا ... شِـبْتَ وَلَـمْ تَعـرفْ أَبَـا جادِهـا

=

و«حُكِيَ أنّ الخليلَ بنَ أحمد مع تقدُّمه في اللغة، ومهارته في العربية، واختراعه علمَ العَروض، الذي هو ميزانُ شعر العرب، لم يكنْ يتهيّأُ له تأليفَ الألفاظ السهلة لديه، الحاصلةَ المعاني في نفسه على صورة النظم إلّا بصعوبةٍ ومشقَّةٍ! وكان إذا سُئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول: «يأْباني جيِّدُهُ وآبَى رَديئَهُ» مُشيرًا بذلك إلى أنّ طبعَه غيرُ مساعدٍ له على التأليف المرضيّ الذي تَحسُنُ نسبتُه إلى مثله.

وقيل للمفضَّل الضبِّي: ألا تقولُ الشعرَ وأنت أعلمُ الناس به؟

فقال: عِلْمي به يمنعُني من قوله! وأنشد:

أبى الشعرُ إلّا أنْ يَفِيءَ رَدِيئُهُ ... عليَّ، ويأْبى منه ما كان مُحْكَمَا

فيا ليتني إنْ لّم أجِدْ حَوْكَ وَشْيِهِ ... ولمْ أكُ مِن فُرسانِه كنتُ مُفْحَمَا!

وأنشد أبو عُبيدةَ خَلَفًا الأحمرَ شِعْرًا له فقال: اِخْبَأْ هذا كما تَخْبَأُ السِّنَّوْرَةُ حاجتَها! مع ما كان عليه أبو عُبيدةَ من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يَجري مجرى ذلك من موادِّ تأليفِ الكلامِ ونظْمِه»[١].

بل وفي الملَكَة الواحدة، أو الفنّ الواحد، قد يُبرِّزُ الإنسانُ في جانبٍ دون

=

سَمَّيْت مَن يَعْرِفُها جاهِلًا ... تُصْدِرُها مِن بَعْدِ إيرادِها

سَهَّل مِنْهَا كُلَّ مُسْتصْعَبٍ ... طَوْدٌ عَلاَ أقْرانَ أطْوادِها

انظر: تاريخ العلماء النحويين: للتنوخي (ص/ ١٩٥- ١٩٦)، وطبقات النحويين واللغويين: للزبيدي (ص/ ١٢٥)، وبغية الوعاة: للسيوطي (٢/ ٢٩٠-٢٩٢).

(١) صبح الأعشى: للقلقشندي (٢/ ٣١٨ - ٣١٩).

جانبٍ؛ كما قال الشَّعبيُّ: «دُهاةُ العرب أربعةٌ: معاويةُ، وعمرٌو، والمغيرةُ، وزيادٌ، فأمَّا معاويةُ: فللأناة والحلْم، وأمَّا عمرٌو: فللمُعضِلات، وأمَّا المغيرةُ: فللمُبادَهَة، وأمَّا زِيادٌ: فللصغير والكبير!»[(١)].

وقال الفرّاءُ: «مات الكسائيُّ وهو لا يُحسن حَدَّ (نِعْمَ) و(بِئْسَ) و(أنَّ المفتوحةِ) و(الحكايةِ)، ولم يكن الخليلُ يُحسِنُ (النداءَ)، ولا سيبويه يَدري حَدَّ (التعجُّب)!»[(٢)].

وقال أيضًا: «أموتُ وفي نفسي شيءٌ مِن (حتى)؛ لأنها تخفض وترفع وتنصِب!»[(٣)].

وقال ابْنُ رَشِيقٍ عن محمد بن حبيب التنوخي: «شاعرٌ حَاذِقٌ في المقطَّعات، عَاجزٌ عَن التَّطْوِيل»[(٤)].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر (ص/ ٦٩٠) وأسد الغابة: لابن الأثير (٤/ ١٨١) والسير: للذهبي (٣/ ٥٨) والنجوم الزاهرة: للأتابكي (١/ ٧٢).

(٢) بغية الوعاة (٢/ ١٦٣).

(٣) نور القبس: لليغموري (ص/ ٣٠١)، وإنباه الرواة: للقفطي (٤/ ١٥)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٣/ ٤٠).

تنبيه: جاء تعليلُ ذلك في تاج العروس (٤/ ٤٨٩)، قال: «لأنَّ القواعدَ المقرَّرَةَ بين أَئمّة العربيّة أَنّ العواملَ الّتي تعملُ في الأَسماءِ، لا يُمكنُ أَن تكونَ عاملةً في الأَفعال ذلك العملَ ولا غيرَهُ، ولذلك حَكَموا على الْحُرُوف العاملة في نوعٍ بأَنّها خاصّةٌ به، فالنّواصبُ خاصَّةٌ بالأَفعال، كالجوازم لا يُتَصَوَّرُ وِجْدانُها في الأَسماءِ، كما أَنّ الْحُرُوفَ العاملةَ في الأَسماء كحروف الجَرّ، وإنّ وأَخواتِها خَاصَّةٌ بالأَسماءِ، لا يُمْكِن أَن يُوجدَ لها عملٌ في غيرها، و(حتّى) كأنها جاءَتْ على خلاف ذلك، فعَمِلت الرّفعَ والنَّصْبَ والجَرَّ في الأَسماءِ والأَفعالِ، وهو على قواعد أَهل العربيّة مُشْكِلٌ».

ثمّ بيّنَ عدمَ إشكال ذلك.

(٤) الوافي بالوفيات: للصفدي (٢/ ٢٣٩).

وكان يُقال في منصور الفقيه: إذا رمى بزوجيّةٍ (أي بيتيْن) قَتَلَ. وكذلك ابنُ لَنْكَك إذا قال البيت والبيتين والثلاثة أغرب بما جلب وأبدع فيما صنع، فأمَّا إذا قَصَّدَ القصيدَ فقلَّما يُفلِحُ ويُنْجِحُ![1].

وقال لسانُ الدين ابنُ الخطيب عن الشاعر أبي بكر المخزومي الموروري: «كان أعمى، شديدَ القِحَة والشرّ، معروفًا بالهجاء، مسلَّطًا على الأعراض، سريعَ الجواب، ذكيَّ الذهن، فَطِنًا للمعاريض، سابقًا في ديوان الهجاء، فإذا مَدَحَ ضَعُفَ شعرُه!»[2].

وعكسُه البحتريُّ، فقد قال عنه ياقوت: «وللبحتريِّ تصرُّفٌ حسنٌ في ضُروب الشعر سوى الهجاءِ فإنه لم يُحسِنْه، وأجودُ شعره ما كان في الأوصاف»[3].

وصرّح أديسُون بأنه لا يَفهمُ نظريَّةَ النِّسبيّة![4].

---

(١) يتيمة الدهر (٢/ ٤٠٧).

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (١/ ٤٢٤).

ومن اللطائف أنّ عليَّ بنَ أضحى القاضي قال للمخزوميِّ هذا: كم تقعُ في الناس! فقال: أنا أعمى وهم حُفَرٌ فلا أزال أقعُ فيها! قال: فأعجبني كلامُه على قُبْحِه! المصدر نفسه (١/ ٤٢٧).

(٣) معجم الأدباء (٦/ ٢٧٩٦).

(٤) عدَّ ضياءُ الدين ابنُ الأثير هذه الظاهرةَ من الغرائب، فقال: «كثيرًا ما رأينا وسمعنا من غرائب الطِّباع في تعلُّم العلوم، حتى إنَّ بعض النَّاس يكون له نَفَاذٌ في تعلُّم علم مُشكِلِ المسْلكِ صَعبِ المأخذِ، فإذا كُلِّف تعلُّمَ ما هو دونه من سَهْلِ العُلوم نَكَصَ على عَقِبَيْه ولم يكن له فيه نَفَاذٌ!

وأغربُ من ذلك أنّ صاحبَ الطبع في المنظوم، يُجيد في المديح دون الهجاء، أو في الهجاء =

ولا شكَّ أنّ هؤلاء جميعًا في عِداد المبدِعين.

الثالث: كما لا يلزم من العَبْقرية الإبداعُ، فلا يلزم في المُقابِل أن يكون المبدِعُ عَبْقريًا في جميعِ أحوالِه وأمُورِه، بحيث يكون خاليًا من العُيوب الذِّهنيّة؛ كسوء الحفظ، أو الغفلة، أو غير ذلك.

فقد يكون العالمُ مبدعًا في فنٍّ مّا، لكنه ضعيفُ الحفظ مثلًا، أو فيه غفلةٌ، أو له طِباعٌ غريبةٌ مستَنكَرَةٌ لا تليق بشخصٍ في مثل منزلته؛ ولذا قيل: إنَّ بين العَبْقريَّةِ والجُنونِ شَعَرَةً! وقال سنيكا: «ليستْ العبقريّةُ خالصةً بلا مسٍّ من الجنون!»[1].

ومن أمثلة ذلك: شرفُ الدين إسماعيلُ ابنُ أبي بكرٍ المعروف بابن المقرئ، (ت ٨٣٧ هـ) مؤلِّفُ كتاب «عنوان الشَّرف الوافي»[2]، **فقد قال عنه**

= دون المديح! أو يُجيد في المراثي دون التهاني، أو في التهاني دون المراثي!

وكذلك صاحبُ الطبع في المنثور؛ هذا ابنُ الحريريِّ صاحبُ «المقامات»؛ قد كان– على ما ظهر عنه من تنميق «المقامات» – واحدًا في فنّه، فلما حضر ببغدادَ ووُقِف على مقاماته، قيل: هذا يُستَصلَحُ لكتابة الإنشاء في ديوان الخلافة، ويَحسُنُ أثرُه فيه، فأُحضِرَ، وكُلّف كتابةَ كتابٍ، فأُفْحِمَ، ولم يَجْرِ لسانُه في طَويلةٍ ولا قَصيرةٍ!!». المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (١/ ٢٧).

(١) موسوعة روائع الحكم: لحسين الطويل (ص/ ٢٦٢).

(٢) هو مجلدٌ واحدٌ ذَكَرَ فيه خمسةَ علوم؛ هي: الفقهُ، والتاريخُ، والنحوُ، والعَروضُ، والقوافي، بطريقةٍ فريدةٍ عجيبةٍ، ومِن فضل الله أن الكتابَ طُبع بنفس الترتيب – تقريبًا – الذي وضعه عليه مؤلِّفُه، بعناية الشيخ/ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابنُ العماد: «هو كتابٌ حسنٌ لم يُسبَقْ إلى مثله، يحتوي على خمسة فنون، وفيه يقول بعضُهم: =

=

لَهــذا كتـــابٌ لا يُصـــنَّفُ مِثلُـــهُ ... لصــاحبِهِ الجُــزءُ العظــيمُ مــن الحَــظِّ

عَــروضٌ، وتــاريخٌ، ونحــوٌ محقَّــقٌ، ... وعلـمُ القَـوافِي، وهْـوَ فِقهُ أُولِـي الحِفظِ

فأعجِــبْ بــه حُســنًا وأعجَــبُ أنَّــهُ ... بَطِـينٌ مـن المعنَى خَمِيصٌ مـن اللَّفظِ!

وذكر السخاويُّ عن سبب تأليفه أنّ مؤلِّفَه كان يطمعُ في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازي صاحب (القاموس)، ويتحامل عليه، بحيث إن المجدَ عَمِلَ للسلطان الأشرف صاحب اليمن كتابًا، أولُ كلِّ سطرٍ منه ألفٌ، فاستعظمه السلطانُ، فعمل الشرفُ كتابَه هذا، والتزم أن يَخرجَ من أوله وآخره وأوسطه علومٌ غيرُ الفقه الذي وُضع الكتابُ له، لكنه لم يتمَّ في حياة الأشرف، فقدَّمه لولده الناصر، فوقع عنده وعند سائر علماء عصره ببلده موقعًا عجيبًا.

لذا فقد قلَّده طائفةٌ من العلماء وحَذَوْا حَذْوَه فيه، منهم:

- الحافظُ السيوطيُّ، حيثُ ألّف - وهو في العشرين من عُمره بمكة - كتابًا، ضمّنه: النَّحْوَ والعرُوضَ والمعاني والبديعَ والتاريخَ! قال عنه: «عملتُ كُرّاسةً على نمط «عنوان الشرف» في يومٍ واحدٍ! وكفى بالله تعالى من رقيبٍ على ذلك وشاهد.... فلذلك سمّيتُه: النفحة المسكيّة والتحفة المكيّة». **انظر**: مقامات السيوطي - جمْع سمير الدروبي - (١/ ٢٢٢)، وبغية الوعاة (١/ ٤٤٤).

- وصنَّف القاضي بدرُ الدين محمد بن محمد، المعروف بابن كُمَيْل الدِّمياطي (ت ٨٧٨ هـ) على نمط: عنوان الشرف، بزيادة عِلْمَين.

- وشَرَعَ يوسف بن أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني المقدسي الشافعي، ثم الصالحي الدمشقي (ت٨٨٠ هـ) في عمل كتابٍ على نمط «عنوان الشرف الوافي» بزيادة علم الهندسة، فكتب منه أوراقًا وتركه.

- وألَّف أحمدُ بنُ عبد الرزاق بن محمد المغربي الرشيدي (ت ١٠٩٦هـ) أيضًا: «تيجان العنوان»، وهي منظومةٌ على نمط «عنوان الشرف الوافي».

- كما صنَّف أحمد بن عبد الله السلمي الأصابي المتوفى بعد (١١١٨هـ) كتابَ: «الإعلان، بنعم الله الوهاب الكريم المنان» على منوال: «عنوان الشرف الوافي».

- ولعبد الله بن محمد الأقحصاري، الرومي، المعروف بقاضي عسكر إيران، الملقَّب بوصاف (ت ١١٧٤هـ) رسالةٌ في الفقه والحكمة والمنطق والكلام والنحو وغيرِ ذلك،

=

الخَزْرَجيُّ: «كان يَتوقَّدُ ذكاءً»[(١)].

وقال الشَّوكانيُّ: «مُتفرِّدٌ بالذكاء وَقُوَّة الْفَهم وجَودة الْفِكر، وله في هذا الشَّأْن عجائبُ وغرائبُ لا يَقدر عليها غيرُهُ، وَلم يَبلغْ رتبتَه فِي الذكاء واستخراج الدقائق أحدٌ من أَبنَاء عصره، بل ولا مِن غيرِهم»[(٢)].

قال: «ومع كونه بهذه المنزلة من الذكاء كان غايةً في النسيان، حتى قيل: إنه لا يذكر ما كان في أول يومِه! ومن أعجب ما يُحكَى في نسيانه، أنه نسيَ مرةً ألفَ دينارٍ، ثم وقع عليها بعد مدة اتّفاقًا، فتذكَّر ذلك! مع عدم توسُّعه في الدنيا، بل مع مزيد حاجته إلى ما هو أقلّ من ذلك»[(٣)].

ومنهم: عليُّ بنُ عيسى الرَّبَعيُّ (ت ٤٣٠ هـ) - أحدُ النُّحاة الكبار، صاحبُ كتاب «البَديع» في النحو، وشارحُ «كتاب سيبويه» بما لم يُشرحْ بمثله، ووارثُ عِلْم أبي علي الفارسي؛ حيث لازمه عشرينَ سنةً - قال عنه الجواليقي: «كان يحفظُ الكثيرَ من أشعار العرب ممّا لم يكن غيرُه يقوم به، إلا أنّ جُنونَه لم يكن يدعْه يتمكنُ منه أحدٌ في الأخذ عنه!».

=

وضعها على نمط «عنوان الشرف الوافي».

انظر: شذرات الذهب (٩/ ٣٢١)، والمنهل الصافي (٢/ ٣٨٧)، وكشف الظنون (٢/ ١١٧٥)، والبدر الطالع (١/ ٣٣١)، والأعلام (١/ ١٤٥) و (١/ ١٦٢) و (٨/ ٢١٥)، ومعجم المؤلفين (٦/ ١١٠).

(١) العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة (٢/ ٢٦٤).

(٢) البدر الطالع (١/ ١٤٤).

(٣) المصدر نفسه.

وانظر: الضوء اللامع (٢/ ٢٩٥).

ومِن خَبَرِه: أنّ بعضَ بني رضوانَ سألَه يومًا في مجلسه عن مسألةٍ، فأجابه، فنازعه في الجواب، فقام من فَوْره مُغضَبًا، ودخل بيتَه، وأخذ شرحَه لكتاب سيبويه وغَسَلَه، وصار يَلْطِمُ بورقه الحيطانَ، ويقول: لا أجعل أولادَ البقّالين نُحاةً![1].

وكذلك: أبو علي الشَّلَوْبِين - إمامُ عصره في العربية غير مُدافَع - فقد كانت فيه غَفلةٌ، قعدَ يومًا إلى جانب نهرٍ فسَقَط فيه كُرّاسٌ، فجرَّه بآخر فتَلِفَا جميعًا![2].

ومنهم: عليُّ بنُ الحسن بن عنتر، أبو الحسن النحويُّ، اللغويُّ، الشاعرُ، المعروفُ بشُمَيْم الحِلّي (ت ٦٠١ هـ)[3].

---

(١) ومِن لطيفِ خَبَرِه: أنه كان مُبتلىً بقتل الكلاب!!
فقد سأل يومًا أولادَ الأكابر الذين يَحضرون مجلسَه أن يَمْضُوا معه إلى كَلْوَاذَى (ناحيةٌ قُرْبَ مدينة بغداد)، فظنوا أنّ له حاجةً، فركبوا خيولًا وخرجوا، وخرج ماشيًا ومعه كِساءٌ وعصًا إلى كلبٍ هناك، فعَدَا نحوَه، والكلبُ يَثِبُ عليه تارةً، ويهربُ منه أخرى، حتى أعياه، وعاونوه حتى أمسكوه، وعَضَّ الكلبَ بأسنانِهِ عَضًّا شديدًا، والكلب يستغيثُ ويَزْعَقُ، فما تركه حتى اشتفى! وقال: هذا عَضَّني منذُ أيام، وأردتُ أن أخالفَ قولَ الأوّل:

شاتَمَني كلبُ بني مِسْمَعٍ ... فَصُنْتُ عنهُ النَّفسَ والعِرْضَا
ولَمْ أُجِبْهُ لاحتِقَاري لهُ ... مَنْ ذا يَعَضُّ الكلبَ إن عَضَّا؟!

انظر خبرَه في: معجم الأدباء: للحموي (٤/ ١٨٢٩)، والبُلغة: للفيروزآبادي (١/ ٤٥)، وبغية الوعاة: للسيوطي (٢/ ١٨١).

(٢) بغية الوعاة: للسيوطي (٢/ ٢٢٥).

(٣) قال عنه ابنُ النجّار: «كان أديبًا مبرِّزًا في علم اللغة والنحو، وله مصنَّفاتٌ وأنشادٌ وخُطَبٌ =

قال بعضُ العلماء: «وَرَدْتُ إلى (آمِدَ) سنةَ أربعٍ وتسعينَ فرأيتُ أهلَها مُطْبِقينَ على وصف هذا الشيخ، فقصدتُه إلى مسجد الخَضِر، ودخلتُ عليه، فوجدتُ شيخًا كبيرًا قَضِيفَ الجسم[1] في حُجْرةٍ من المسجد، وبين يديه جَمْدانٌ[2] مملوءٌ كتبًا من تصانيفه، فسلَّمتُ عليه وجلستُ، فقال: مِن أينَ أنتَ؟ قلتُ: من بغدادَ. فهشَّ بي، وأقبلَ يسألُني عنها، وأُخبِرُهُ، ثم قلتُ: إنما جئتُ لأقتبسَ من علومك شيئًا. فقال: وأيُّ علمٍ تُحِبُّ؟ قلتُ: الأدب. قال: إنّ تصانيفي في الأدب كثيرةٌ؛ وذاك أنَّ الأوائلَ جمعوا أقوالَ غيرهم وبَوَّبوها، وأنا فكُلُّ ما عندي من نتائج أفكاري، فإنني قد عَمِلْتُ كتابَ «الحماسة»، وأبو تمام جمع أشعارَ العرب في «حماستِه»، وأنا فعَمِلْتُ حماسةً من أشعاري، ثم سبَّ أبا تمام! وقال: رأيتُ الناسَ مُجْمعينَ على استحسان كتاب أبي نواس في وصف الخمر، فعَمِلْتُ كتابَ» الخَمْريّات «من شعري، لو عاش أبو نواسٍ، لاسْتَحْيَى أنْ يَذْكُرَ شعرَه! ورأيتُهم مُجْمعينَ على خُطَب ابن نُباتَة، فصنَّفتُ خُطَبًا ليس للناس اليومَ اشتغالٌ إلّا بها! وجعل يُزْرِي على المتقدِّمين، ويصفُ نفسَه، ويُجهِّلُ الأوائلَ! ويقول: ذاك الكلبُ! قلتُ: فأنْشِدْني شيئًا. فأنشدَني من «الخَمْريّات» له، فاستحسنتُ ذلك، فغضبَ وقال:

= ومقاماتٌ، ونثرٌ ونظمٌ كثيرٌ، لكنه كان أحمقَ، قليلَ الدِّين، رَقيعًا، يَستهزئُ بالناس، لا يعتقدُ أنَّ في الدنيا مثلَه، ولا كان ولا يكونُ أبدًا!!». تاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٤٠).

(١) القَضِيفُ: هو النَحِيفُ. مختار الصحاح (ص/ ٢٥٥).

(٢) الجَمْدان، وبالفارسية (جَامَدَان): حقيبةُ الملابس. انظر: تكملة المعاجم العربية: لدوزي (٢/ ٢٦٧).

ويلَكَ؛ ما عندكَ غيرُ الاستحسان؟! فقلتُ: فما أصنعُ يا مولانا؟ قال: تصنعُ هكذا، ثم قام يَرقُصُ ويُصفِّقُ إلى أنْ تعبَ!! ثم جلسَ وهو يقولُ: ما أصنعُ ببهائمَ لا يُفرِّقونَ بين الدُّرِّ والبَعْر!!»[(١)].

وهذا حَجِّيُّ بنُ موسى الشافعيُّ (ت ٧٨٢ هـ) كان غوّاصًا نقَّالًا عارفًا بحلِّ المشكلات، صحيحَ الفهم، سريعَ الإدراك، ومع ذلك فقد كان ساذَجًا في أحوال الدنيا، لا يعرف صِحَّةَ عشرةٍ من عشرين، ولا يُحسِن بُرَايةَ قلمٍ، ولا تكويرَ عِمامةٍ![(٢)].

وقال هشامُ بنُ محمد بنِ السائب الكَلْبي: «حفظتُ ما لم يحفظْ أحدٌ ونسيتُ ما لم ينسَه أحدٌ، كان لي عمٌّ يعاتبني على حفظ القرآن، فدخلتُ بيتًا وحلفتُ أن لّا أخرجَ منه حتى أحفظَ القرآنَ! فحفظتُه في ثلاثة أيامٍ، ونظرتُ يومًا في المرآة فقبضتُ على لحيتي لآخذَ ما دونَ القبضةِ فأخذتُ ما فوقَ القبضةِ!!»[(٣)].

وكان عبدُ الله بنُ بَرِّي المقدِسي المصري، نحْويًا، لُغويًا، شائعَ الذِّكر، مشهورًا بالعلم، حتى قال القاضي الأكرم في «أخبار النحاة»: «شاع ذكرُه واشتهرَ، ولم يكن للمصريين ممّن تقدّم أو تأخّر مثلُه!».

---

(١) تاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٤١).

(٢) الدرر الكامنة: لابن حجر (٢/ ٦).

(٣) الكامل: لابن عدي (٧/ ٢٧٥)، وتاريخ بغداد: للخطيب (١٦/ ٦٩)، والأنساب: للسمعاني (١١/ ١٣٥)، ونزهة الألباء: للأنباري (ص/ ٧٦).
وفي الوافي بالوفيات (٣/ ٧٠): «حفظتُ القرآنَ في ستةِ أيامٍ أو سبعةٍ».

قال ياقوتُ: «وكان مع علمه وغزارة فهمه ذا غَفلةٍ وسلامةِ صدرٍ، وكان وَسِخَ الثوب، زَرِيَّ الهيئة واللِّبسة، يَحكي المصريُّون عنه حكاياتٍ عجيبةً، منها: أنه اشترى لحمًا وخُبزًا وبَيْضًا وحطبًا، وحمل الجميع في كُمّه، وجاء إلى منزله، فوجد أهله قد ذهبوا لبعض شأنهم والبابَ مُغلقًا، فتقدّم إلى كُوَّةٍ هناك تُفْضي إلى داره، فجعل يُلقي منها الشيءَ بعد الشيء، ولم يفكِّر في كَسْر البَيْض، وأكلِ السنانيرِ اللحمَ والخبزَ إذا خَلَتْ به!

وحدّثني بعضُ المصريّين قال: كنتُ يومًا أسيرُ مع الشيخ أبي محمد بن بَرِّي وقد اشترى عِنبًا، وجعله في كُمِّه، فجعل يُحادثُني وهو يَعبثُ بالعِنب ويَقبضُه حتى جرى على رِجْليْه، فقال لي: تُحِسُّ المطرَ؟! فقلتُ: لا. فقال لي: فما هذا الذي يَنقُطُ على رِجْليَّ؟ فتأملتُه فإذا هو ماءُ العِنب! فأخبرتُه، فخَجِل واستحْيا ومضَى.

ويَحكون عنه من الحِذْقِ وحُسْن الجوابِ عمّا يُسأل عنه، ومواضعِ المسائلِ من كتب العلماء ما يُتعجَّبُ منه، فسبحان الجامع بين الأضداد!»[١].

ومِن المبدِعين: عَبقريُّ الأدباء - كما يُسمَّى - فُولْتير، كان لا يبدأ الكتابةَ إلّا عندما يضعُ أمامَه مجموعةً من أقلام الرَّصاص لا تقِلُّ عن اثنيْ عشرَ قَلَمًا، وبعد أن ينتهي من الكتابة يُكسِّرُها ويلُفُّها في الورقة التي كان يكتُبُ عليها ويضعُها تحت وسادتِه عندما ينام!

---

(١) معجم الأدباء (٤/ ١٥١٠).

وكذلك: الشاعرُ شِيلّي كان يأكلُ وينسى أنه أكلَ، ويغلبُه النُّعاسُ في النهار، فينامُ في أيِّ مكانٍ كالطفل!

ومثلُهُ: أديسون، فقد كان ينسى اسمَه، وينسى أنه أكلَ!

ومثلُه: شَارْلِز دِيكِنْز- القاصُّ الإنجليزيُّ المشهورُ - كان يُغادرُ منزلَه في وسَط الظلام، ويَتِيه في شوارع لندن كالمجنون، قاطعًا مسافةَ خمسةَ عشر إلى عشرين ميلًا دون مأرَبٍ![1].

فالمقصود: أنه لا يلزم أن يكون المبدعُ عبقريًا في جميع شؤونه، أو أن يكون مُتَّزِنًا فيها كلِّها.

الرابع: لا يلزم أن تظهر علاماتُ التفوُّق في الشخص منذُ الصِّغر، فقد ينبُغُ الشخصُ على حينِ كِبَرٍ، وهذا يطغى فيه جانبُ العقل المسموع على جانب العقل المطبوع؛ كما سيأتي قريبًا.

فالكسائيُّ مثلًا تعلَّم النحوَ ونبغَ فيه بأَخَرَةٍ من عُمُره؛ وذلك بسبب أنه لُحِّنَ في كلمةٍ! فأَنِفَ من ذلك، وقام من فَوْرِه بالطلب والتحصيل، وجدَّ وثابرَ، حتى صار إمام النحويّين في الكوفة[2].

وكذا النابغةُ الذُّبياني والنابغةُ الجَعْدي - الشاعران المشهوران - لم يُلقَّبا بهذه الألقاب إلا لنبوغهما المتأخِّر![3].

---

(١) **انظر** النماذج الأربعة الأخيرة في كتاب: هكذا علمني وردزورث: لابن عقيل الظاهري (ص/ ١٣٣).

(٢) **انظر**: بغية الوعاة (٢/ ١٦٣).

(٣) **انظر**: الشعر والشعراء: لابن قتيبة (ص/ ٨٣)، والأعلام (٧/ ٢٠٧).

وهذا الكاتبُ الرُّوسيُّ الشهيرُ (تُولِسْتُوي) فَشِلَ في دراسته صغيرًا، وعَجَز مُدرِّسوه الخُصوصيُّون عن إدخال أي علمٍ في جُمجُمته، ثم نبَغ بعد الثلاثين![١].

الخامس: أنَّ المبدِعين المتميِّزين في تاريخ الأمم والحضارات هم أقلُّ القليل، فإذا ما تأمَّلنا مثلًا كتبَ السيَر والتراجم، وجدْنا أنّ طُلَّابَ العلم فيها يُعدُّون بالآلاف[٢]، لكنَّ النّوابغَ الذين أخرجتهُم تلك المدارسُ يُعدُّون بالمئات فقط، ثم إذا ما اطَّرَحت منهم الحُفَّاظَ والنَّقلَةَ الذين تجرَّدوا عن التجديد والابتكار والإبداع لم يبقَ معك إلا النَّزْرُ اليسيرُ!

وهذا ما أشار إليه الحديثُ الشريفُ الذي رواه مسلمٌ عن ابن عمر مرفوعًا: «تَجِدُونَ النَّاسَ كَإِبِلٍ مِئَةٍ، لَا يَجِدُ الرَّجُلُ فِيهَا رَاحِلَةً»[٣].

---

(١) هكذا علمني وردزورث (ص/ ١٣٥).

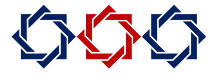
(٢) ربّما بلغ عددُ المدارس في بعض المدن الإسلامية في العصر الإسلامي الزاهر خمسَ مئةِ مدرسة!!

(٣) الجامع الصحيح، كتاب: فضائل الصحابة، باب قوله ﷺ: «الناس كإبل مئةٍ...» ٤/ ١٩٧٣(٢٥٤٧).

وفي معنى الحديث يقول الزمخشريُّ: «يريد أن المرضيَّ المنتَخبَ في عِزَّة وُجوده كالنجيبة التي لا تُوجد في كثيرٍ من الإبل».

وقال القاضي عياض: «معناه لا تكاد تَجد في مئة إبلٍ راحلةً تصلحُ للركوب وطيئةً سهلةَ الانقياد، فكذا تَجدُ في مئةٍ من الناس مَنْ يَصلحُ للصحبة فيُعاونُ صاحبَه ويُلينُ له جانبَه». فيض القدير (٢/ ٥٦٢).

ولو تصفَّحتَ كتابًا مثلَ (تاريخ دمشق) لابن عساكر[١]، أو (تاريخ الإسلام) للذهبي[٢]، أو كتاب (الوافي بالوَفَيَات) للصَّفَدي[٣]: وَجَدْتَ صِدقَ ما أقولُ.



---

(١) المطبوع في ٨٠ مجلَّدة!
(٢) المطبوع في أكثر من ٥٠ مجلَّدة!
(٣) طُبع منه نحوُ ثلاثينَ مجلَّدًا!




ليسَ كُلُّ مَنْ قَرأ النحوَ والأدبَ، صنَّف مثلَ «الكَشّاف»، ولا كُلُّ مَنْ قَرأ الأُصولَ والجدلَ، ركبَ بحرَ الدَّقائِقِ الرَّجَّاف!

ومَــا كُــلُّ دَارٍ أقْفَــرتْ دَارُ عَــزَّةٍ ... وَلا كُـلُّ بَيْضَـاءِ التَّرائِـب زَيْنَـبُ!

ابن الوزير






الفصلُ الخامسُ

أُسُسُ الإبداعِ العلميّ



لا شكَّ أنّ الإبداعَ العلميَّ لـه أُسسٌ يقـومُ عليهـا، وركـائزُ يرتكـزُ عليهـا، وهذه الأُسُسُ والركائزُ لا بُدّ مـن وجودهـا في كـلِّ شـخصٍ مبـدِعٍ، ولا يُتصـوَّر وجودُ مبدع دونَها، وهي:

أ- القُوَّةُ العَقليَّةُ.

ب- القُوَّةُ النَّفسيّةُ.

جـ- القُوَّةُ الجسَديَّةُ.

وإليك الكلامُ عليها بالتفصيل:

أ- القُوَّةُ العقليّةُ:

القوةُ العقليةُ هي أهمُّ الأُسُس كلِّها، والبقيَّة تَبعٌ لها، فلا بُدّ من توفُّر هذه القُدْرة في الإنسان المبدِع، وعلى قدرها يتميَّز العملُ الإبداعيُّ قُوَّةً وضَعفًا.

والعبقريةُ هي أعلى المستويات من القدرات العقليـة المعرفيـة، أو بتعبيرٍ آخرَ: هي أعلى درجات الذكاء بالإضافة لمكوِّناتها، وقد وضـع علمـاءُ التربيـة مستوياتٍ متدرِّجـةً للـذكاء، تبـدأُ مـن المعتـوه (أقـلّ مـن ٢٠ درجـة)، وتنتهـي بالعبقري (أعلى من ١٤٠ درجة).

والعبـاقرةُ أيضًـا لهـم درجـاتٌ، وأعلـى درجـةٍ للعبقريـة سُـجّلتْ -حتـى الآن- هي (٣٠٠ درجة)![1].

(١) الطريق إلى العبقرية: مقداد يالجن (ص/ ١٧-١٨) بتصرّف.

وهناك تفسيراتٌ عِدّةٌ لهذه القوّة ـ أعني: العبقريّةَ ـ بعضُها فيه نوعُ غرابةٍ.

فمنهم من يقول: إنَّ العبقريةَ حالةٌ مرضيَّةٌ شاذَّةٌ تصيب بعض الأفراد!

ومنهم من يرى: أنها محاولةٌ لتعويض جانب النَّقص في الإنسان بطريقٍ غيرِ مُباشِرٍ!

ومنهم من يَرى: أنها خاضِعةٌ لعواملَ متعدِّدةٍ؛ هي العواملُ: البيئيةُ، والوِراثيةُ، والشخصيَّةُ. وهذه النظريةُ - كما يرى الدكتورُ مقدادُ يالجِن - هي أصحُّ نظريَّةٍ قِيلت في تفسير العبقرية حتى الآن(١).

فهي وِراثيَّةٌ بالدرجة الأولى، كَسْبِيَّةٌ بالدرجة الثانية، ومعنى (كسبيَّة)، أي: أنها تُنال بالتحصيل والمثابرة.

فعاملُ الوِرَاثة هو ما يُسمَّى عند المتقدِّمين: (العقلَ المطبوعَ)، أو(الغريزيَّ)، وعاملُ الكسب هو ما يسمَّى عندهم: (العقلَ المسموعَ)، أو (المستفادَ).

وقد جمعهما بعضُهم(٢) بقوله:

رأيتُ العقلَ عَقلَيْنِ ... فمَطْبوعٌ ومَسْموعُ
ولا يَنفع مَسْموعٌ ... إذا لم يكُ مَطْبُوعُ

---

(١) المرجع نفسه (ص/ ١٨-١٩).

(٢) تُنسبُ هذه الأبياتُ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فالله أعلم.

انظر: إحياء علوم الدين: للغزالي (١/ ٨٦)، والذريعة إلى مكارم الشريعة: للأصفهاني (ص/ ٩٣-٩٤)، وأدب الدنيا والدين: للماوردي (ص/ ٣٥)، وغذاء الألباب: للسفاريني (٢/ ٤٦٩).

كمــــا لا تنــــفعُ الشـــــمسُ وضَـــوءُ العــــين ممنــــوعُ!

والمعنى: أنَّ الشمسَ كما لا يَنتفعُ بها الأعمى، فكذلك لا يَنتفع الإنسانُ بالعقل المسموع إذا تجرَّد عن العقل المطبوع[١].

فالعقلُ المسموعُ هو ما يكتسبه الشخصُ بجِدِّه واجتهادِه الشخصيِّ، وذلك بالمُثابرة على طلب العلم، والقراءة الواسعة المركَّزة[٢]، ومجالسة العلماء، وتأمُّل سِيَرِهم وأحوالِهم، وهذا أمرٌ واضحٌ؛ ولذا قال أديسون: «واحدٌ من المئة من العبقريّة نبوغٌ وإلهامٌ، وتسعةٌ وتسعون في المئة عَرَقٌ وجهادٌ»[٣].

وقال هاملتون: «العبقريّةُ ثمرةُ الجهاد الشاقّ، والتفكير العميق»[٤].

وهذا كلُّه يزيد في العقل المسموع جودةً وصفاءً وقوَّةً، لكنّ ذلك لا يَتمُّ إلا باختيار العلم الذي يُناسب الشخصَ، كما قال ابنُ حزم: «العلومُ الغامضةُ

---

(١) وانظر زيادةَ إيضاحٍ لذلك في صبح الأعشى: للقلقشندي (٢/ ٣١٧) فما بعد.

(٢) يرى الدارسون أنَّ القُدُراتِ الإبداعيةَ تتناسب طَرْديًا مع معدَّلاتِ القراءة، إذْ إنّ القراءةَ تُمكِّنُ الفردَ من التفكير بشكلٍ غيرِ مألوفٍ، وتُمكنّه أيضًا من الإتيان بما هو غيرُ مسبوقٍ؛ نظرًا لتجدُّد أُفقِه الثقافيِّ والفكريِّ المستمرِّ نتيجةَ القراءة والاطلاع.

وقد ربط العديدُ من المختصّين بالصحّة العقلية مدى تطوّرِ القدراتِ الإبداعيةِ لدى الأفراد بمعدَّلاتِ القراءةِ والمطالعةِ.

وتُعدُّ القراءةُ من أكثر الأنشطة التي تحفِّزُ الدماغَ للقيام بمهامِّه، كما أنها تُطوِّرُ القدراتِ الدماغيةَ التواصليةَ والتحليليةَ، خصوصًا لدى الأطفال واليافعين، كما تقوّي عملَ الوَصْلاتِ العصبيةِ الموجودةِ في الدماغ.

(٣) موسوعة روائع الحكم: لحسين الطويل (ص/ ٢٦٢)، والموسوعة العربية العالمية (١/ ٤٢٤).

(٤) موسوعة روائع الحكم: لحسين الطويل (ص/ ٢٦٢).

كالدواءِ القويِّ يُصلِحُ الأجسادَ القويَّةَ، ويُهلِك الأجسادَ الضعيفةَ، وكذلك العلومُ الغامضةُ، تَزيد العقلَ القويَّ جَودةً وتصفيَةً من كلِّ آفةٍ، وتُهلِك ذا العقلِ الضعيفِ!»[(١)].

وأهمُّ عاملٍ من القُدُرات العقلية في عملية الإبداع: هو قوَّةُ التفكير والتأمُّل؛ **ذلك لأنَّ الدماغَ يجمعُ ثلاثَ قُوىً:**

* **القوةَ الحافظةَ:** وهي استحكامُ المعقول في العقل.

* **القوةَ الذَّاكرةَ:** وهي محاولةُ العقل استرجاعَ المعلومات.

* **القوةَ المفكِّرةَ:** وهي محاولةُ العقل الرَّبطَ بين المقدِّمات والنتائج[(٢)].

وأهمُّها - في عمليّة الإبداع - القوةُ المفكِّرةُ، وبقيّةُ القوى الأخرى ما هي إلّا عواملُ مساعدةٌ فحسبُ.

وبما أنَّ العقلَ بِقسْمَيْه المطبوعِ والمسموعِ يتبوأُ هذه المنزلةَ في العملِ الإبداعيِّ، فقد ضَلَّ مَن ضَلَّ بسبب غُلُوِّهم فيه، وجَعْلِهم إيّاه في منزلةٍ أعلى من المنزلة التي جعله اللهُ فيها، حتى وصل الأمرُ ببعضهم أنْ ألّهَ العقلَ ثَمَّ

---

(١) مداواة النفوس (ص/ ٢٣).

(٢) **انظر:** التوقيف على مهمات التعريف: للمناوي (ص/ ٥٩٢)، والكلّيات: للكفوي (ص/ ٦٧).

وقد اختلف العلماءُ من قديمٍ في محلّ العقل: هل هو في القلب، أو في الدماغ، أو أنه يتعلق بهما معًا؟

والصَّوابُ: القولُ الثالثُ؛ كما فصَّل ذلك ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والله أعلم.

انظر: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٣)، والأُمنيّة في إدراك النيّة: للقرافي (ص/ ١٧)، وشرح الكوكب المنير: لابن النجّار (١/ ٨٣) فما بعد، وفي حواشيه مصادرُ المسألة.

عبَدَه! أو اتّخذه نبيًا وإمامًا، وجعل له السّيادةَ المطلَقةَ! وقدّمه على كل شيءٍ! حتى على نصوص الوحييْن! كما هو الشأنُ في فِرَق الاعتزال والتَّجهُّم وغيرها، وكذلك فعل الفلاسفة، سواءً المتقدِّمون منهم أم المتأخِّرون، حتى إنَّ أبا العلاء المَعرِّي، يقول[1]:

أيُّها الغِرُّ إنْ رُزِقْتَ بعَقْلٍ ... فاسْألَنْهُ فكُلُّ عقلٍ نَبِيُّ!!

وقال أيضًا[2]:

يَرْتجي الناسُ أنْ يقوم إمامٌ ... ناطقٌ في الكتيبةِ الخرْسَاءِ

كذَب الظَّنُّ لا إمامَ سوى العقل ... مُشيرًا في صُبْحِهِ والمساءِ!

ولله دَرُّ أبي إسحاقَ الإلبيري إذْ يقولُ[3]:

إذا مَا لَمْ يُفِدْكَ العِلمُ خيرًا ... فَخيرٌ مِنْهُ أَن لَّوْ قد جَهِلْتَا

وَإِنْ أَلْقَاكَ فهمُكَ فِي مَهَاوٍ ... فليتَكَ ثمَّ ليتَكَ مَا فَهِمْتَا!

وقد رَكِبَ هذا التيارَ وروّجَ له ثُلَّةٌ من الوضَّاعين، فوضَعوا على لسان المصطفى ﷺ أحاديثَ تُشِيدُ بالعقل، وترفع منزلتَه، حتى قال الحُفَّاظُ-

---

(١) اللزوميات (٢/ ٦٤٢).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٦).

وارْجعْ - إنْ شئت المزيدَ - إلى كتاب (قصَّة الفَلْسفة) لديُورَانت، أو (العقل والمادَّة) لراسْل، أو كتاب (نافذَة على فلسفة العصر) لزكي نجيب محمود، تجدْ أن هناك من يُؤلِّه العقلَ! عِياذًا بالله من ذلك.

(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ص/ ٢٧).

كالإمام ابن حِبّانَ، والدارقطنيِّ، والعُقَيْليِّ، وأبي الفتح الأزديِّ، وابنِ القيمِ، والعراقيِّ، وعليٍّ القاري، وغيرِهم-: إنه لا يصحُّ في العقل حديثٌ مُطلقًا[1].

والذي ينبغي معرفتُه هنا، هو: أن الإسلامَ يحترم العقلَ، ويحترم جميعَ الطاقاتِ والـمَلَكَاتِ التي وهبَها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الإنسانَ، وجعلها في بدنه؛ لأنها نعمةٌ مِن الله جَلَّ وَعَلَا، لكنه يضعُها في مكانها المناسب؛ فلا يَبخسُها حقَّها، ولا يُعطيها أكثرَ من قدْرِها.

ولهذا احترم الإسلامُ العقلَ، فجعله مناطَ التكليف، ففي كثيرٍ من الآيات - كآيات القصاص، والطلاق، وتحريم الخمر والمَيْسِر، وغيرِها - نجِدُ أنها تُختَم بقوله: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾، أو ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾، أو ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، إلى غير ذلك.

كما حدَّد مجالَه أيضًا وَفْقَ قُدرته وطاقته؛ فوجَّهه إلى التأمُّل في ملكوت السموات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١][2].

كما أنه لم يُعطِّلْه كما عطَّلَه مَنْ لّا عقلَ له؛ كالصوفيَّة، ومتعصِّبة الفقهاء مثلًا؛ فالإسلامُ وقَفَ موقِفَ التوسُّط، بين مُفْرِطٍ ومُفرِّطٍ؛ فأولئك غَلَوْا فيه

---

(١) **انظر**: المنار المنيف: لابن القيم (ص/ ٦٦)، والأسرار المرفوعة: للقاري (ص/ ٤٢١)، والفوائد المجموعة: للشوكاني (ص/ ٤١١).

(٢) **انظر**: منهج التربية الإسلامية: لمحمد قطب (١/ ٧٦) فما بعد.

وألَّـهُوه، أو جعلوه نبيًا، أو جعلوا له السِّيادةَ الـمُطلَقةَ، وهؤلاء ألغَوْهُ تمامًا، وجعلوا استعمالَه فيما خُلِق له جُرْمًا لا يُقبَل، وذَنْبًا لا يُغفَر![1].

ب- القوَّةُ النفْسِيَّة:

هذه الصِّفةُ هي الأساسُ الثاني من أسس الإبداع العلمي التي يجب أن تكون مركوزةً في الإنسان المبدِع؛ إذْ لا بُدَّ أن يَتَّصِف المبدعُ بقوة النفس العِلْمية والعَمَلية، والمرادُ بها: قوَّةُ الثبات والإرادة والتصميم، والمثابرةُ والنُّزوعُ إلى الكمال.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «النَّفْسُ لها قُوَّتان: قُوةٌ عِلْميةٌ نظريةٌ، وقُوةٌ إراديةٌ عَمَليةٌ؛ فلا بُدَّ لها من كمال القوّتين لمعرفة الله وعبادته»[2].

وقريبٌ منه قولُ ابن القيم: «إنَّ الكمالَ: أن يكون الشخصُ كاملًا في نفسه، مُكمِّلًا لغيره، وكمالُه بإصلاح قُوَّتيْه العِلْمية والعَمَلية؛ فصلاحُ القوة العِلْمية بالإيمان، وصلاحُ القوة العَمَلية بعمل الصالحات...»[3].

وهذه القُوى النفسيّة[4] ناتجةٌ عن صِفاتٍ ضروريةٍ لا بُد أنْ تتّصفَ

---

(١) وسيأتي مزيدُ بيانٍ عندَ الحديث عن إغلاق باب الاجتهاد!

(٢) مجموع الفتاوى (٩/ ١٣٦).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٦).

(٤) نظم ابنُ سِينا القُوى النفسيّةَ بقوله:

تِسْعُ قُوىً تُحسَبُ للنفسيّة ... الخمسُ منها للقُوى الحِسِيّهْ

السمعُ والإبصارُ ثم الشَّمُّ ... والذوقُ واللّمسُ الذي يَعُمُّ

وقوةٌ في العَضَلات واصِلَهْ ... بها يُحرّك الفتى مفاصِلَهْ

=

النفسُ بها؛ حتى تتكوّن تلك القوى، وبقدرِ تلك الصفات تكونُ قوةُ النَّفْس وضَعْفُها، كما أنها ناتجةٌ أيضًا عن دوَافعَ وصفاتٍ تدفع النَّفْسَ إلى مَزيد جِدٍّ واجتهادٍ، ومثابرةٍ وتَصميمٍ.

* ومنْ أهمِّ تلك الصِّفات والدوافع: **حُبُّ الشيء، والرَّغبةُ الشديدةُ فيه، واستحكامُ الإرادة في طلبه؛** ولذا قال الإمامُ الخطَّابيُّ: «مَنْ صدقتْ حاجتُه إلى شيءٍ كَثرتْ مسألتُه عنه، ودام طلبُه له حتى يُدرِكَهُ ويُحكِمَهُ»[(١)].

وقد أدركَتْ هذا المعنى أُمُّ سفيان الثوري عندما قالت له: «اذهبْ فاطلُبِ العِلْمَ حتى أَعُولَكَ بمِغزَلي هذا، فإذا كتَبْتَ عِدَّة عشرةِ أحاديثَ، فانْظُرْ: هل تَجِدُ في نفسك زيادةً فاتْبَعْه؛ وإلا فلا تَتَعنَّ»[(٢)].

وكما أدْركَه أيضًا يحيى بن مجاهد الفَزاري الزَّاهدُ حينما قال: «هذا أوَانُ طَلَبي للعلم؛ إذْ قَوِي فَهْمي، واسْتحكَمتْ إرادتي»[(٣)].

فقد جعل استحكامَ الإرادة بدايةً للطلب النَّاضِج، وهذا هو أوانُ الطَّلَب على التحقيق.

=

وقـــــوةُ تَخيُّــــــلِ الأشـــــــياءِ فيهـــا كمـــا يكـــون في المَرَائـــــي
وقـــــوةٌ بهـــــا يكـــــون الفِكْــــرُ وقـــــوةٌ بهـــــا يكـــــون الـــــذُّكْرُ

الأرجوزة في الطب (ص/ ٩٩) ضمن كتاب: «من مؤلفات ابن سينا الطبية».
ولا يخفى أنّ مرادَه قوى الجسم كلها، وليس هذا مرادي هنا.

(١) معالم السنن (٤/ ٢٨٨ - ٢٨٩).
(٢) السير: للذهبي (٧/ ٢٦٩).
(٣) جذوة المقتبس: للحميدي (ص/ ٦٠٥).

* ومن تلك الصفات: **الشجاعةُ الأدبيّةُ**:

فلا بُدّ أن تكون لدى المبدع الشجاعةُ الكافيةُ؛ لأنَّ الإبداعَ - في حدِّ ذاته - شيءٌ جديدٌ على الناس، والشيءُ الجديد لا تألفُه النُّفوسُ، ولا تَقبلُه العقولُ إلّا بعد جُهدٍ ومشقّةٍ ووقتٍ طويلٍ، وهذه هي طبيعةُ الأشياء المبتَكَرَة الجديدة؛ كما قال أحمد شوقي[(١)]:

والنـــاسُ في عـــداوةِ الجديـــدِ   وقَبضـــةُ الأوهَـــامِ مـــنْ حَدِيـــدِ!

فالخليلُ لمَّا اخترع عِلمَ العَروض، واجَه استغرابًا شديدًا حتى من أقرب الناس إليه! فقد رُوي عنه أنه خَلا في بيتٍ، ووضع بين يديه طَسْتًا أو ما أشبهَ الطَّستَ، فجعل يَقرعُه بعُودٍ ويقول: فَاعِلُنْ/ مُستَفعِلُنْ/ فَعُولُنْ، قال: فسمعه أخوه، فخرج إلى المسجد، فقال: إنّ أخي قد أصابه جُنونٌ! فأدخلهم عليه وهو يَضربُ الطَّسْتَ، فقالوا: يا أبا عبد الرحمن، ما لَكَ؟ أصابكَ شيءٌ؟ أتحبُّ أن نعالجكَ؟! فقال: وما ذاكَ؟ قالوا: أخوك زعمَ أنكَ قد خُولِطتَ؟! فأنشأ يقول:

لـو كنـتَ تعلَـمُ مـا أقـولُ عَـذَرْتَني   أو كنـتُ أجهـلُ مـا تقـولُ عَـذلتُكا
لكـنْ جهِلـتَ مقـالتي فعَـذَلْتَني   وعَلمـتُ أنـك جاهـلٌ فعَذَرْتُكَا[(٢)]

ولـمّا اخترع جَالِيلْيُو التِّلِسْكُوبَ وتمكّن به من رؤية الكواكب والأبراج

(١) في دول العرب وعظماء الإسلام (ص/ ٢٨).
(٢) انظر: معجم الأدباء (٣/ ١٢٦٩).

السماوية، وجد فيه ما يؤيِّد نظريّة كُوبَرْنِيكُوس (ت ١٥٤٣م) حول النظام الشمسي، وأنّ الأرضَ تدور حولَ الشمس، قَولةً رأت الكنيسةُ أنها تخالف الدينَ[١]. وكان كُوبَرْنِيكُوس قد طبع كتابًا حول النظرية دونَ أنْ يَحملَ اسمَه خشيةً من بطْش الكنيسة؛ لأنه خالف ما دَرَجَتْ عليه.

فما كان من الكنيسة إلا أنْ حاكمتْ جَالِيلْيُو وخيّرتْه بين الموت أو التنصُّلِ من دعواه، فآثَرَ الحياةَ، لكنه قضى بقيةَ عمره مُعتزِلًا مهمومًا، ومات وهو يردِّدُ: ولكنّها تدور! أمّا رفيقُه بُرُونُو فرفض التنصُّلَ، فقُتِلَ حَرْقًا بالنار!![٢].

أبى أن يُجاري النَّاسَ واختارَ خِطَّةً كمــا شــاءَهَا إذْ شــاءَهَا لا يُقلِّــدُ
وطَبْعُ الـورى طَبْـعُ القَطيـعِ، يَسـرُّهُ خُضوعٌ، ويُؤذيهِ الجَسُورُ المُجدِّدُ

---

(١) لا يَعنينا هنا تحريرُ الصواب في هذه المسألة، فقد ظهرتْ بعد ذاك نظريّاتٌ أخرى مخالفةٌ لنظريّة كُوبَرْنِيكُوس، لكنَّ الأمرَ على أيّةِ حالٍ لا يستدعي القتلَ والإحراقَ كما فعلتْ الكنيسةُ!!

(٢) انظر: مقدِّمة لتاريخ التفكير العلمي في الإسلام: د/ أحمد سليم سعيدان (ص/ ١٠٦).
- ويُشبهُ هذا؛ ما حَصَلَ لمخترع الهاتِف (ألكسَنْدر جِراهَام بِلْ)، فإنه عَرَضَ اختراعَه هذا على شركة (وسترن يونيون) لتتولّى تصنيعَه، لكنها تجاهلتْه تمامًا!
ثم عَرَضَه على مكتب البريد في لندن، فردَّ عليه المكتبُ: تَملِكُ انجلترا عددًا كبيرًا من الأولاد العاملين في توزيع البريد!
وحينَ شارك في معرضٍ دوْليٍّ للاختراعات لقيَ تجاهُلًا من الزُّوّار، فصرخَ فيهم: «أيها السادةُ، أنتم حميرٌ!!» فانتبه له حينَها العالَم! وأصبح الهاتفُ اليومَ جُزءًا أساسًا من حياة معظمِ الناس على هذا الكَوْكَب!
وسيأتي مزيدُ بيانٍ لهذا الأمر في الفصل التاسع: الإبداع وعلاقته بالدين.

وهل يستريحُ الناسُ إلا إذا قَضَوْا على كلِّ فَذٍّ حيثُما يَتفرَّدُ[(١)]

وكما أنَّ الشجاعة ضرورية في العمل ذاته؛ فإنَّ البحثَ والتَّنْقيبَ والاجتهادَ مرَّةً تِلْوَ مرَّةٍ، يحتاج إلى شجاعةٍ معنويةٍ، تقطعُ التردُّدَ، وتنفي الخوفَ والوَجَلَ، وتُعلِّم الإقدامَ والـمُضِيَّ في العمل إلى النهاية، حتى وإنْ واجهَ صُعوباتٍ أو مُعضِلاتٍ في بداية الطريق، فلا ينبغي أن يتخلَّى عن عمله حتى يبلُغَ الغايةَ المرْتجَاةَ؛ لأنَّ إبداعَ العمل يحتاج إلى وقتٍ طويلٍ، وعملٍ دَؤُوبٍ.

وربّما انقطع الإنسانُ في وَسَط الطَّريق إذا لم يكُن متحلِّيًا بهذه الشجاعة، فعادَ عليه ذلك بالأَسَى والحُزْن إنْ كان من ذَوِي الإحساس المُرهَفْ، بل ربما قتَلَه الغَمُّ فمات كَمَدًا!

كما حصل لجماعةٍ من العلماء، **منهم:** سيبويه -فيما يُحكَى عنه[(٢)]- عَقِبَ مناظرتِه الكسائيَّ في (المسألة الزُّنْبُوريّة) فقد قَتَلَه الغَمُّ، مع أنَّ الصواب في تلك الـمُنَاظرة كان معه[(٣)].

---

(١) ديوان حديقة الغروب: لغازي القُصيبي (ص/ ٣٠).

(٢) لأنّ الحافظَ الذهبيَّ قد حكم عليها بأنها كذبٌ! كما في السير (٨/ ٣٥١)، فاللهُ أعلم.

(٣) قال العلّامةُ ابنُ هشام: «أمّا سُؤالُ الكسَائيِّ فجوابُه ما قاله سيبويْه وهو «فَإِذا هُوَ هِيَ» هذا هو وجهُ الكلام، مثل ﴿فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ﴾ ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ﴾ وَأما «فَإِذا هُوَ إِيَّاهَا» إِنْ ثَبتَ فخارجٌ عن الْقيَاسِ وَاسْتِعْمَالِ الفصحاء، كالجزم بلن وَالنّصب بلم والجر بلَعَلَّ، وسيبويه وَأَصْحَابُه لا يَلتفتون لمثل ذلك، وإنْ تكلّم بعضُ العرب به». مغني اللبيب (١/ ٩١).

وانظر: معجم الأدباء (٥/ ٢١٢٥).

ولمعرفة تفاصيل المناظرة انظر كتاب: النحو والصرف في مناظرات العلماء ومحاوراتهم: للزاكي (ص٦٦-٧٨).

=

وكما حدَث لأبي بكرٍ الخُوَارزْمِيِّ مع بديعِ الزمانِ الهمَذَانيِّ(١).

=

ضميمة: لحازم القرطاجنّي قصيدةٌ بديعةٌ ذكر فيها المسألة الزنبورية، منها قوله عن سيبويه:

فظلَّ بالكرب مكظومًا وَقد كَرَبتْ ... بِالنَّفسِ أنفاسُه أَنْ تبلغَ الكَظَما

قضتْ عليه بغير الحقِّ طَائِفَةٌ ... حتى قضى هَدَرًا ما بَينهم هَدَما

مِن كلِّ أجْوَرَ حُكمًا من سَدُومَ قضى ... عَمْرُو بنُ عُثْمَان مِمَّا قد قضى سَدَما

حُسَّادُه في الورى صَمَّتْ فكلُّهُمُ ... تُلْفيه منتقدًا للقول منتقِما

إلى أنْ قال:

وَلَيْسَ يَخْلُو امْرُؤ من حَاسِدٍ أضِمٍ ... لولا التنافسُ في الدُّنيا لما أَضِما

فكم مُصِيبٍ عزا مَن لم يُصِبْ خطأً ... له، وكم ظَالِمٍ تَلقاهُ مُظَّلَما

والغَبْنُ في الْعلم أشجى محنةٍ عُلِمتْ ... وأبرحُ النَّاس شَجْوًا عَالِمٌ هُضِما!

انظر طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٩/ ٢٩٧)،

(١) انظر بعضَ ما وقع بينهما في: معجم الأدباء (١/ ٢٣٩) فما بعد.

ومما يُستلطَفُ من خبرهما: أنهما كانا في بعض مجالس الرؤساء، فقال الرئيس: قُولَا على هذا النَّمَط:

بَرَزَ الربيعُ لنا برونق مائِه ... فانظرْ لمنظرِ أرضِه وسمائِه

والتُّرْبُ بين مُمسَّكٍ ومُعنبرٍ ... مِن نَوْره بل مائه وروائِه

فقال بديعُ الزمان في معارضتها أبياتًا، منها قولُه:

والماءُ بين مُصندَلٍ ومُكفَّرٍ ... في حُسْن كُدْرته ولون صفائِه

=

=

والطيـرُ مثـلُ المحصَنـات صَـوادحٌ مثـلَ المغنّـي شـاديًا بغنائِـه
زمـنَ الرّبيـع جلبـتَ أزكـى متجـرٍ وجلـوتَ للـرائين خيـرَ جلائِـه
مـا البحـرُ في تَزْخـاره، والغيـثُ في أمطـارِه، والجـوُّ في أنوائِـه؟

وقال الخُوارزميُّ تسعةَ أبياتٍ. قال بديعُ الزمان: جمع فيها بين إقواءٍ، وإكفاءٍ، وأخطاءٍ، وإيطاءٍ؛ ورَدَدْنا عليه بعد ذلك عشرين ردًا، ونقدنا عليه فيها كذا نقدًا.

ثم قلتُ لمن حضر من وزيرٍ ورئيسٍ وفقيهٍ وأديبٍ: أرأيتم لو أنّ رجلًا حلف بالطلاق الثّلاث لا أُنشد شعرًا قطّ، ثم أنشد هذه الأبيات فقط، هل كنتم تطلِّقون امرأتَه عليه؟ فقالت الجماعة: لا يقع بهذا طلاقٌ!

ثم قلتُ: انقدْ عليّ فيما نظمتُ، واحكم عليّ كما حكمتُ؛ فأخذ الأبياتِ وقال: لا يُقال: نظرتُ لكذا، وإنّما يقال: نظرتُ إليه؛ فكفتني الجماعةُ إجابتَه؛ ثم قال: لِـمَ شبّهتَ الطيرَ بالمحصَنات؟ وأيُّ شبهٍ بينهما؟ فقلتُ: يا رقيع، إذا جاء الربيع، كانت شوادي الأطيار تحت ورق الأشجار، فَيكنَّ كالمخدَّرات تحت الأستار؛ ثم قال: لم قلتَ: مثل المحصَنات، مثل المغني؟ فقلتُ: هنّ في الخِدر كالمحصَنات، وكالمغنّي في ترجيع الأصوات؛ ثم قال: لم قلتَ: زمنَ الربيع جلبت أزكى متجرٍ؟ وهلّا قلتَ: أربح متجرٍ؟ فقلتُ: ليس الربيعُ بتاجرٍ يجلُبُ البضائعَ المربِحةَ؛ ثم قال: ما معنى قولك: الغيث في أمطاره؟ والغيثُ هو المطرُ نفسُه، فكيف يكون له مطرٌ؟ فقلتُ: لا سقى اللهُ الغيثَ أديبًا لا يعرف الغيثَ؛ وقلتُ له: إنّ الغيثَ هو المطرُ، وهو السَّحابُ، كما أنّ السماءَ هو المطرُ وهو السحابُ؛ فقالت الجماعةُ: قد علِمنا أيَّ الرجلين أشعرُ، وأيَّ الخصمين أقدرُ، وأيَّ البديهتين أسرعُ، وأيّ الرويّتين أصنعُ؛ فقال أبو بكر: فاسْقوني على الظَّفَر؛ فقالوا: كفاك ما سقاك.

فقام البديعُ وقبَّل رأسَ الخُوارزمي ويدَه، وقال: اشْهَدوا أنّ الغَلَبَةَ له– قال ذلك على سبيل الاستهزاء– وتفرّق الناسُ، واشتغلوا بتناول الطعام، وأبو بكر الخوارزمي ينطق عن كبدٍ حَرَّى، والوزيرُ يقول للبديع: ملكتَ فأسجحْ.

فلما قام أبو بكر أشار إلى البديع، وقال: لأتركنّكَ بين الميمات، فقال: ما معنى الميمات؟ فقال: بين مهدومٍ، مهزومٍ، مغمومٍ، محمومٍ، مرجومٍ، محرومٍ! فقال البديع: لأتركنّكَ بين الهيامِ، والسَّقامِ، والسامِ، والبِرسامِ، والجُذامِ، والسِّرسامِ! وبين السِّينات: بين منحوسٍ،

=

وكما حصَل أيضًا للسَّعْد التفْتَازاني بعد مُناظرة الشريف الجُرجَاني[(١)]، وغيرُهم كثيرٌ.

بل إنَّ الأديبَ اليابانيَّ (ياسْواري كابَانا) انتحر؛ لأنه لم يُنجِزْ أعمالَه الأدبيةَ، فهو صاحبُ أكبر إنتاجٍ غيرِ متكملٍ![(٢)].

وفي هذا يقول إلياس قُنْصُل[(٣)]:

جَرِّدْ مِن العَزْم سَيْفًا تَستعينُ به ... إنَّ التردُّدَ بابُ الضَّعْفِ والكَسَلِ

=

ومنخوسٍ، ومنكوسٍ، ومعكوسٍ! وبين الخاءات: بين مطبوخٍ، ومسلوخٍ، ومشدوخٍ، ومفسوخٍ، وممسوخٍ! وبين الباءات: بين مغلوبٍ، ومسلوبٍ، ومصلوبٍ، ومنكوبٍ!

فخرج البديعُ وأصحابُ الشافعي يعظِّمونه بالتقبيل والاستقبال، والإكرام والإجلال، وما خرج الخوارزميُّ حتى غابت الشمسُ، وعاد إلى بيته، وانخزل انخزالًا شديدًا، وانكسف بالُه، وانخفض طرفُه، ولم يَحُلْ عليه الحولُ حتى خانه عمرُه، وذلك في شوال سنة ثلاث وثمانين وثلاث مئة!!

انظر: معجم الأدباء (١/ ٢٤٢)، ومسالك الأبصار في ممالك الأمصار: للقرشي (١٢/ ١٠٦)، والصبح المنبي عن حيثيّة المتنبّي: للبديعي (١/ ٢٥) بتصرّف.

(١) قال الشوكاني عن السَّعْد التفْتَازاني: «كان قد اتّصل بالسلطان الكبير الطاغية الشهير تيمورلنك المتقدِّم ذِكرُه، وجرتْ بينه وبين السيد الشريف الجُرجاني المتقدِّم ذكره مناظرةٌ في مجلس السلطان المذكور في مسألة (كون إرادة الانتقام سببًا للغضب، أو الغضبُ سببًا لإرادة الانتقام) فصاحب الترجمة يقول بالأول، والشريفُ يقول بالثاني، قال الشيخُ منصورُ الكازروني: والحقُّ في جانب الشريف.

وجَرَتْ بينهما أيضًا المناظرةُ المشهورةُ في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة:٧]. ويقال: بأنه حَكَمَ بأنّ الحقَّ في ذلك مع الشريف، فاغتمَّ صاحبُ الترجمة، ومات كَمَدًا، والله أعلمُ». البدر الطالع (٢/ ٣٠٥).

(٢) هكذا علمني وردزورث (ص/ ١٣٦).

(٣) رباعيّات مختارة (ص/ ٨١).

والسَّعْيُ حتّى وإنْ أفْضَى إلى خَطأٍ خَيرٌ من الجُبْنِ والتَّشكيكِ والوَجَلِ
ساءَ الفُتُورُ ولو سَمَّيْتَه حَذَرًا مَا أصْغرَ الفرقَ بين الموتِ والشَّلَلِ
غَارُ الحيَاةِ لمن يَبْغِيهِ مُقْتنِعًا مَا مِنْ نجاحٍ إذا فكّرتَ بالفَشَلِ!

وقال كُشَاجِمْ[(١)]:

ولقدْ عجِبتُ من اللّيالي كيفَ هاضَتْ من جَنَاحِي
لكنّها حَرْبُ الحَيـ ـيِّ وَسِلْمُ ذِي الوَجْهِ الوَقَاحِ[(٢)]
وعليَّ أنْ أسعَى وليـ ـسَ عليَّ إدراكُ النّجَاحِ[(٣)]

وقال أبو هلال العَسْكَري:

علينا محاذاةِ المرامي سهامَنا وليس علينا أن نُصيبَ ولا نُخْطِي[(٤)]

ومرحلةُ الوصول إلى الهدف أو الغاية أو ما يُسمِّيها الأُدباءُ: (الإشراقة

---

(١) هذا لقبٌ له ، واسمُه: محمود بن الحسين بن نصر، من أهل الرَّمْلَة من نواحي فلسطين.
لقّبَ نفسَه «كُشَاجِمْ»، فسُئل عن ذلك فقال: الكافُ من كاتبٍ، والشينُ من شاعرٍ، والألفُ من أديبٍ، والجيمُ من جَوَادٍ، والميم من مُنجِّمٍ!
فزاد بعضُهم في لقبه: كُشَاجِمْ طَخَ، الطاء من طَبّاخ، والخاء من.....!!
انظر: تاريخ دمشق: لابن عساكر (٥٧/ ١٠٤)، وبغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم (١٠/ ٤٧٤١)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٦/ ٢٨٥)، وفوات الوفيات (٤/ ٩٩)، وأعيان العصر: كلاهما للصفدي (٣/ ١٦٥).
(٢) يُقالُ: رجلٌ وَقَاحُ الْوَجْه: صُلْبُهُ، قَليلُ الحياءِ. تهذيب اللغة (٥/ ٨٣).
(٣) ديوان كُشاجم (ص/ ٦٨).
(٤) دُمية القصر: للباخرزي (١/ ٥٠٩).

النَّفْسيةَ)، إنما تحصُل في الغالب بعد هذه المرْحلَة الـمُضْنيَة، كما حصَل للشيخ محمود شاكر في كتابه (المتنبّي) - الذي نالَ به جائزةَ الملك فيصل العالميةَ- فهو يذكُر أنه في أوائل ديسمبر عامَ (١٩٣٥م) مرَّ عليه نحوُ أسبوعٍ وهو لا يجدُ إلى هدوء نفسه مَنْفَذًا، **قال**: «أخذتُ ديوانَ المتنبي مرَّةً خامسةً أقرؤُه؛ لا أتوقَّفُ ولا أمَلُّ ولا أهدأُ، وأنا في خلال ذلك أُراجعُ كلَّ ما في تراجم أبي الطَّيِّب وبعضَ كتب التاريخ والرِّجَال وغيرها، تبعًا للخواطر التي تنشأُ وأنا أقرأُ الأبياتَ أو القصائدَ، وفي فجر الثاني عشرَ من شهر رمضان صلَّيتُ، فلما جئتُ آوي إلى فراشي طار النومُ من عيني، ومعَ طيرانه تبدَّد القتَامُ الذي كان يلُفُّني، وذهب التَّعَبُ، وما لقيتُ من النَّصَب، وتجلَّى لي طريقٌ بانَ لي كأني سلكتُه من قبلُ مرَّاتٍ فأنا به خبيرٌ، وأخذتُ الأوراقَ التي كنتُ كتبتُها...فمزَّقتُها وأنا على عَجَلةٍ من أمري، ونبذتُها في صندوق القُمامة، وأعددتُ أوراقي، وجلستُ على مكتبي، وأخذتُ قلمي، وسميتُ بذكر الله وكتبتُ... ومضيتُ أكتُبُ كأني أُسطِّرُ ما يُملَى عَليّ، لا حَيرَةَ، ولا بحثَ عن أُسلوبٍ وطريقٍ، ولا تردُّدَ، ولا هَيْبةَ لشيءٍ، ولا تحرُّجَ من غرَابة ما أقول وما أكتُب...» إلخ[1].

❋ ومِن تلك الصفاتِ: **عُلُوُّ الهِمَّة**:

وهذا أمرٌ مُهِمٌّ في العمل الإبداعي؛ لأنه هو المحرّكُ الداخليُّ الأقوى نحوَ المثابرةِ على العمل والجِدّ والاجتهادِ، وبحسب هذا الدافع تتفاوت

---

(١) المتنبي (ص/ ٤٦).

الطاقةُ الناتجةُ عنه؛ لأنه بمثابة الفتيل الذي يُفجِّر القوةَ الكامنةَ، وإذا ما تذكَّرنا أحدَ القوانين الثلاثة الأساسية[(١)] التي يقوم عليها علمُ (الحركة) أو ما يُسمى (الديناميكا) والذي يقول: (لكلِّ فعلٍ رَدٌّ فعلٍ، مساوٍ له في المقدار، ومضادٌّ له في الاتجاه)[(٢)]، ثم أعملناه هنا: عَرَفْنا لماذا بَلَغَ الأمرُ بالإمام الشافعيِّ أَنْ يقولَ[(٣)]:

أمْطِـري لُؤْلُـؤًا جِبـالَ سَرنْدِيــ ـــب وفِيضـي آبـارَ تَكْـرُورتِبْـرا
أنـا إنْ عِشْـتُ لسـتُ أَعـدَمُ قُوتًـا وإذا مِــتُّ لســتُ أَعــدَمُ قَبــْرا

---

(١) تلك القوانين هي:
القانون الأول: «كلُّ جسمٍ يبقى على حالته، من حيثُ السكونُ أو الحركةُ بسرعةٍ منتظمةٍ في خطٍّ مستقيمٍ، ما لم تؤثِّر عليه قوةٌ تُغيِّر من حالته».
القانون الثاني: «يتناسبُ التسارعُ المتولِّد في الجسم مع القوة المحدِثة له، ويكون في اتجاهها». انظر الموسوعة العربية العالمية (٩/ ٢٧٩).
والثالثُ سيُذكر.
(٢) هذا القانونُ يُنسب خطًا لنيوتُن، وقد سبَقه إليه هبةُ الله بنُ مَلْكَا البغدادي في كتابه (المعتبَر في الحكمة). انظر: أعلام الفيزياء في الإسلام: لعبدالله الدفاع (ص/ ٨٩)، وموسوعة العلماء والمخترعين: لإبراهيم بدران ومحمد فارس (ص/ ٢٥٢).
(٣) ديوان الشافعي (ص/ ١١٨). جمع وتحقيق: د. مجاهد بهجت. والذي أعدُّه - حَسَبَ اجتهادي - أفضلَ جمعٍ وتحريرٍ للديوان.
وانظر دراستَه القيّمةً لأشعار الشافعي في مجلة (الأحمديّة) العدد: ٨، ١٤٢٢هـ، (ص/ ٣١١ - ٣٦٠).
وسرنديب: هي جزيرة أطلق عليها العرب قديمًا اسم:سَيْلان، وهي الدولةُ المسمَّاةُ اليوم: (سيرلانكا)، وهي مشهورةٌ بالأحجار الكريمة.
أما تَكرُور: فهي بلادٌ في غرب إفريقيا حول مالي وغانا.

هِمَّتـي هِمَّـةُ الملـوكِ ونفسـي نفـسُ حُـرٍّ تـرى المذلَّـة كُفْـرا

ومثلُه عليُّ بنُ عبد الكافي السُّبْكيُّ حينما قال[١]:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (١٠/ ١٧٩)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٣/ ٦٩).
ودَارَا بنُ دَارَا: هو أحدُ ملوك الفُرْس الأقدَمين.
ومن اللطائف أنّ هذا البيتَ نظمَه سنةَ (٧١٩ هـ)، ثم أضاف إليه سنةَ (٧٤٧ هـ) - أيْ بعد ثمانٍ وعشرين سنةً!! - بيتًا آخرَ هُو:

فمِـنْ هـذا أرى الـدنيا هَبَـاءً ولا أرضـى سِـوَى الفِـردوس دَارَا

قال الصفديُّ: «فأعجباني، وقلتُ في مَادّتِهما دون مُدَّتِهما - إلّا أَن بَيْتيْه أحسنُ وأصنعُ من قولي -:

لَعَمْـرُكَ إنّ للْبَـاقِي التفـاتِي ومَـا لـي نَحْـو مَـا يَفنَـى طَرِيقـهْ

أرى الـدُّنْيَا ومَـا فِيهَـا مجَـازًا وَمَـا عِنْـدِي سـوى الْأُخْـرَى حقيقـهْ»

الوافي بالوفيات (٢١/ ١٧٥).
تذنيب: قد يَستهلُّ الشاعرُ القصيدةَ ثمّ لا يُتِمّها لسببٍ مّا، ثمّ يتيسّرُ له إتمامُها بعدَ مُدّةٍ من الزمن قد تَطولُ وقد تَقصُرُ!
وممّن أشار إلى هذا العلّامةُ الحافظُ أحمدُ بنُ الأمين الشنقيطي في كتابه العُجاب «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط» (ص/ ١٩٣) فقد جاء فيه في ترجمة الشيخ مولود بن أحمد الجواد: «ومن ظريف ما اتّفق له، أنه أراد قولَ قصيدةٍ، فنظم الشطرَ الأولَ وهو:

أَمَرْبَـعُ الغُصْـنِ ذا أمْ تلـكَ أعْلامُـهْ؟ ....

فأُرْتِجَ (أُقفِلَ) عليه سنةً، فوَرَدَ يومًا مَنْهَلًا لِيَسقيَ جَملًا له، فتخاصمتْ جاريتان في الـمَنْهَل، فقالت إحداهُما للأخرى: والله ما ذلك كذلك، ولا كانت أيامُه كما تقولين، أوْ ما هو قريبٌ من هذا، فضربَ جملَهُ من غير أن يَسقيَه! ودخل الحيَّ وهو يَجري به! فظنّ الناسُ أنه رأى ما يُذْعِرُه، فسألوه، فأخبرهم بأنه وجد شطرًا يُتِمُّ به مطلعَ قصيدته! فقال:

أَمَرْبَـعُ الغُصْـنِ ذا أمْ تلـكَ أعْلامُـهْ؟ لا هُـوَّ هُـوَّ ولا الأيـامُ أيامُـهْ!

=

لَعَمْــرُكَ إنَّ لــي نَفْسًــا تسَــامَى إلـى مَـا لَـم يَنَـلْ دَارَا بـنُ دَارَا!

وتلك الهِمَّةُ هي التي جَلَبَتْ النُّحُولَ للإمام ابن الجوزيِّ؛ **وذلك حيث يقولُ**(١):

اللهَ أســألُ أن يُطَــوِّلَ مُــدَّتِي وأنَــالَ بالإنْعــامِ مــا في نِيَّتِــي

لِـي هِمَّـةٌ في العلـم مـا مِـنْ مِثلِهَـا وهي التي جَنتِ النُّحُولَ هيَ التِي

=

ومثلُ هذا وقع لذي الرُّمَّة، فإنه لما شرع في نظم بائيّتِه المشهورةِ التي أولُها:

مـا بـالُ عينِـك منهـا المـاءُ يَنسـكبُ كأنــه مِــن كِــلًا مفريَّــةٍ سَــرِبُ

أُرْتِجَ عليه لما قال:

كَحْــلاَءُ في دَعــجٍ صــفراءُ في بَــرَجٍ ....

حتى رأى جاريةً تحملُ صِينيَّةً بعضُها ذهبٌ وبعضُها فضّةٌ، فقال:

.... كأنهــا فِضــةٌ قــد مَسَّــها ذَهَــبُ!»

قلتُ: ومن هذه البابةِ الحكايةُ عن الكُمَيْت وقد افتتح قصيدتَه التي أوّلُها:

ألَا حُيِّيــتِ عنّــا يــا مَــدِينَا ....

ثم أقام بُرْهَةً لا يَدري بماذا يُعجِّزُ على هذا الصدْر، إلى أن دخل حمَّاما وسمع إنسانًا دَخَلَه فسلَّم على آخَرَ فيه، فأنكر ذلك عليه، فانتصر بعضُ الحاضرين له، فقال: وهل بأسٌ بقول المسلِّمين؟ فاهْتبَلَها الكُمَيْتُ، فقال:

.... وهــل بــأسٌ بقــول مُسَــلِّمِينَا؟

الخصائص: لابن جني (١/ ٣٢٦).

(١) **انظر**: ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٢٨)، والسير: للذهبي (٢١/ ٣٧٨- ٣٧٩).

خُلِقَتْ من العِلْقِ العَظيمِ إلى المُنَى ... دُعِيَـتْ إلـى نَيْـلِ الكَمَـالِ فَلبَّـتِ

كَمْ كان لي من مجلسٍ لـو شُبِّهتْ ... حالاتُــهُ لتشَــبَّهتْ بالجنَّــةِ!

فبمقدارِ الهمَّةِ يكونُ العملُ والإنجازُ.

❋ ومن تلك الصفاتِ والدوافعِ: **الإثارةُ والغَضَبُ:**

وهو عُنصرٌ قويٌّ مُؤثِّرٌ، إذا أُحسِن استغلالُه في الخير كان مُفيدًا ناجِعًا؛ **كما قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية:** «الشَّهوةُ والغضبُ خُلِقا لمصلحةٍ ومَنفعَةٍ، لكنَّ المذمومَ هو العُدوانُ فيهما»[(١)].

ومن الغضبِ المحمودِ: الغضبُ لله ولدينه؛ ففي الصحيحين **عن عائشة** رَضِيَ اللهُ عَنْهَا **قالت:** «ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ مُنتصِرًا مِن مَظْلَمةٍ ظُلِمَها قَطْ مَا لم يُنتَهكْ من مَحارِمِ اللهِ تعالى شَيْءٌ، فإذا انتُهِك مِن مَحارِمِ اللهِ تعالى شَيْءٌ، كان مِن أشدِّهم في ذلك غَضَبًا»[(٢)].

وجاء في صِفة الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أنهم كانوا يَتَبَادَحُونَ[(٣)] بالبِطِّيخِ، فإذا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٨٣).

وانظر فصلًا نفيسًا عن بيان حقيقة الغضب وآثاره في إحياء علوم الدين: للغزالي (٣/ ١٦٦).

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب المناقب: باب صفة النبي ﷺ (٣/ ١٣٠٦) رقم (٣٣٦٧)، ومسلم في كتاب: الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام... (٤/ ١٨١٣) رقم (٢٣٢٧).

(٣) **البَدْحُ:** ضربُك شيئًا بشيءٍ فيه رَخاوةٌ، كما تأخذ بِطِّيخةً فترمي بها إنسانًا، تقول: رأيتُهم يتبادحون بالكُرِينَ والرُّمّانِ ونحوِه عبثًا، يعني: رميًا. **انظر:** العين (٣/ ١٨٧)، وتهذيب اللغة (٤/ ٢٥٠).

كانت الحقائقُ كانوا هم الرِّجالَ[١].

وكانوا يتناشدون الشعرَ في مجالسهم، ويذكرون أمرَ جاهليّتهم، فإذا أُريدَ أَحَدٌ منهم على شيءٍ من أمر الله، دارتْ حَمَالِيقُ عَيْنيْهِ كأنه مَجنونٌ[٢].

فالقوةُ الغَضَبيَّةُ هي طاقةٌ نفسيّةٌ عظيمةُ الفائدة، كانت خلْفَ كثيرٍ من الأعمال الإبداعية؛ العِلْميّة منها والعَمَليّة.

وهي طاقةٌ استفزازيّةٌ آنيّةٌ، وليست ذاتيّةً مُستمرّةً كما هو الحالُ في الهِمَّة. وبقدر الدافع الاستفزازيِّ يكون العملُ الإبداعيُّ قُوَّةً وضَعفًا؛ فقد ذُكر أنَّ أحدَ النصارى في زمن ابن تيميّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ تكلَّمَ في الرسول ﷺ، وشَتَمَهُ وطَعَنَ فيه، فغضب شيخُ الإسلام غضبًا شديدًا، وألَّف كتابًا من أعظم كُتُبه سمَّاه «الصَّارِمَ المسلُول على شاتِم الرسول»؛ ردَّ فيه على ذلك النصرانيِّ، وأطال النَّفَسَ فيه، ومَنْ يقرأ الكتابَ يَجدُ فيه نَفَسَ الـمُغضَب، وقوّةَ المبدِع، **حتى إنه ذكر فيه** أنَّ ذهابَ الغَيْظ من صُدور المؤمنين لا يَحصلُ إلّا بقتل من يَسُبُّ الرسولَ ﷺ[٣].

ولما صنَّف أبو عليٍّ الفارسيُّ «كتابَ الإيضاح» وحَمَلَهُ إلى عَضُدِ الدولة، استقصره عَضُدُ الدولة، وقال له: ما زدتَ على ما أعرفُ شيئًا، وإنما يصلُحُ هذا للصبيان! فمضى أبو عليٍّ وصنّف «التكْمِلَة» وحَمَلَها إليه، فلمّا وقف عليها عَضُدُ الدولة قال: غَضِبَ الشيخُ وجاء بما لا نَفهمُه نَحنُ ولا هُوَ!![٤].

---

(١) صحيح الأدب المفرد (ص/ ١١٧) رقم (٢٠١).

(٢) المصدر نفسه (ص/ ٢٠٩) رقم (٤٣٢).

(٣) انظر (ص/ ٢٠) منه.

(٤) معجم الأدباء (٢/ ٨١٣).

فعُنْصُرُ الإثارة أمرٌ في غاية الأهميَّة، سواءٌ تمثَّل في الغضب، أو التحدِّي، أو حتى الخوف؛ فإنَّ الخوفَ ربما حرَّك الطاقةَ الكامِنَةَ في النَّفْس، فنتجتْ عنها أعمالٌ هائلةٌ، ربّما لا يَقدرُ على فِعْلها ذلك الشخصُ بعَيْنِه لو تجرَّد عن ذلك الدافع؛ كما ذُكر عن حُذيفةَ بنِ بدْرٍ أنه أغار على هِجَانٍ[1] للنُّعمان بنِ المنذر بن ماء السماء، ومن شدَّة خوفه أن يُدرَك، سار في ليلةٍ واحدةٍ مسيرةَ ثمانِ ليالٍ، فضُرِبَ به المثلُ في شدّة السَّيْر، وقوّة الجَلَد، حتى قال قيسُ بنُ الخَطِيم:

هَمَمْنــا بالإقامــةِ ثــمَّ سِــرْنا ... مَسيرَ حُذيفـةَ الخيـرِ ابـنِ بَـدْرِ[2]

وحُكِيَ أن مَلِكًا رأى شيخًا وَثَب وَثْبةً عظيمةً على نهرٍ فتخطَّاه والشابُّ يَعجَزُ عن تلك الوَثْبة، فعَجِب منه واستحضره وحادثه في ذلك، فأراه ألفَ دينارٍ كانت مربوطةً في وسَطِه![3].

وربما كان دافعُ الإثارة هذا طريقًا إلى التَّفوُّق والتألُّق - أيًّا كان ذلك الـمُثيرُ، خصوصًا في طلب العلم والتحصيل - كما ذُكِر عن أحمدَ بنِ خالدِ بنِ يزيد القُرطبي المعروف بابن الجَبَّاب، فقد اشتغل في أوَّل أمره بالعبادة، قال: «فنظرتُ إلى قومٍ يَتهارَشُون على الدنيا ـ يعني: فقهاءَ عصره ـ فقلتُ: متى احتجتُ إلى شيءٍ من ديني رجعتُ إلى هؤلاء! فكان ذلك مما حمَلَني

---

(١) الهِجَانُ من الأبل: البِيضُ الكِرامُ. يقال: ناقةٌ هِجانٌ وبعيرٌ هِجانٌ، ويُجْمَعُ على الهَجائن. انظر: العين (٣/ ٣٩٢)، وجمهرة اللغة (١/ ٤٩٨).

(٢) انظر: ربيع الأبرار: للزمخشري (٣/ ١٢)، وثمار القلوب: للثعالبي (ص/ ١٤١)، والتذكرة الحمدونية (٨/ ١٣١)، والمستطرف: للأبشيهي (٢/ ١٩)، والأعلام: للزركلي (٢/ ١٧١).

(٣) المستطرف (٢/ ٣٣).

على الجِدِّ في الطلب، والنظر في الفقه والعلم»[(١)].

وربما حَصَلَتْ مؤلَّفاتٌ عظيمةٌ بسبب ذلك، كما وقع لابن حزمٍ؛ **حيث يقول عن نفسه**: «لكلِّ شيءٍ فائدةٌ، ولقد انتفعتُ بمحكِّ أهل الجهل منفعةً عظيمة؛ وهي أنه توقَّد طبعي، واحْتدَم خاطري، وحَمِيَ فِكْري، وتهَيَّجَ نشَاطي، فكان ذلك سببًا إلى تواليفَ لي عظيمةِ المنفعةِ، ولولا استثارتُهم سَاكِني، واقتداحُهم كامِني، ما انبعَثْتُ لتلك التَّواليف!»[(٢)].

فالمقصودُ: أنَّ قُدْرةَ النَّفْس ليس لها حُدودٌ، وهي المحرِّكُ الأساسُ لجميع قوى الجسدِ الظاهرةِ والباطنةِ، ولا سيّما قنواتُ المعرفةِ والتلقِّي: السمعُ، والبصرُ، والفؤادُ؛ فإنها أُمّهاتُ ما يُنال به العلمُ ويُدرَكُ؛ كما سنتحدَّث عنه في النقطة الثالثة؛ وهي القوةُ الجسديةُ.

جـ- القُوَّةُ الجسَدِيّةُ:

ليس المقصودُ بالقوة الجسدية هنا: التكوينَ الجُثْمانيَّ من عَضَلاتٍ ووَشَائِجَ وتَراكيبَ، بحيث يكون المبدِعُ ضَخْمَ المنكبيْن، عَبْلَ الذِّراعين، مبسوطَ الجسم، مَدِيدَ القامَة!

كلّا، **وإنما المقصودُ هو**: الطاقةُ الحَيَّةُ والنشاطُ المتدفِّقُ، التي هي شُعلَةُ الإبداع، ووقودُ أَتُونِهِ، حتى وإنْ كان صاحبُها لطيفَ الجِسْم، نحيلَ البدَن، فإنّ هذا ليس مقياسًا للطاقة والحيوية والنشاط، بل ربما كان العكسُ هو

---

(١) ترتيب المدارك (٥/ ١٧٦).

(٢) رسالة في مداواة النفوس (ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي) (١/ ٣٦٧).

الصحيحُ؛ كما قال عاصمُ بنُ الحسن في مدحِ الإمامِ أبي إسحاق الشيرازي[١]:

تـراهُ مـن الـذكاءِ نَحيـفَ جِسـمٍ عليـــهِ مـــن توَقُّـــدِهِ دلِيـــلُ
إذا كـانَ الفتَـى ضَـخْمَ المعـالي فلـيسَ يَضـيرُه الجِسْـمُ النَّحِيـلُ!

وقال مِهْيارُ الديلميُّ[٢]:

إذا ســمِنَتْ هِمَّــةٌ في الضُّــلُوعِ فآيتُهـــا البَـــدَنُ النَّاحـــلُ!

وقال أبو تـمّام[٣]:

تَوَجَّــعُ أَنْ رَأَتْ جِسْــمِي نَحِيفًــا كـأنَّ المجـدَ يُـدرَكُ بالصِّـراعِ!

وكان الأديبُ نصرُ بنُ عبد الله اللَّخميُّ الإسكندريُّ، المعروفُ بابن قلاقِس (ت ٥٦٧ هـ) نحيفًا ضئيلَ الجِسْم - فيما يظهرُ - فقال يُبيِّنُ أنّ ضآلةَ الجِسْم لا تَحُولُ بينه وبين العُلا:

جُوْهرُ المرءِ نفسُـهُ، وبها الفَضْـ ـلُ، ومـا غيـرَ ذاكَ فهـو فُضُـولُ
والصـغيرُ الحقيـرُ يَسْـمُو بـه السَّـ ـيْرُ فيَعْنُـو لـه الكبيـرُ الجليـلُ
فَـرْزَنَ البَيْـدَقَ التنقُّـلُ حتـى انْـ ـحَطَّ عنه في قِيمةِ الدَّسْتِ فِيلُ![٤]

---

(١) معجم السَّفَر: للسِّلفي (ص/ ١٢٤)، وتاريخ الإسلام (٣٢/ ١٦٢)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٨/ ٤٦٢).

(٢) ديوانه (٣/ ١٢٢).

(٣) ديوانه (ص/ ٥٩٠).

(٤) انظر: الغيث المسجَم: للصفدي (٢/ ٨٨)، والأعلام: للزركلي (٨/ ٢٤)، ودليل المتثقّفين:

وما قِصَّةُ عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ودِقَّةُ ساقَيْه حينما لَعبَتْ به الرِّيحُ وهو على الشجرة! بخافيةٍ[١].

فوجودُ الحيويَّة والنشاط الذي هو ضِدُّ الخُمُول والهُزال، أمرٌ ضروريٌّ، وما عُرِف عن أحدٍ من المبدِعين أنه كان يعاني من داء الكَسَل، أو يشكو آفةَ الخُمُول، التي تُؤثِّر على القوة العقلية والنفسية؛ لأنَّ الجسدَ الهزيلَ المريضَ لا يُمكن أن يُوصِلَ شُحنةَ الحياة إلى النفس توصيلًا صحيحًا، تقوم بموجِبه بمهمَّتها ودورِها، فَضْلًا عن أن يُوصِلَها إلى العقل[٢]، ولهذا قال حَفني ناصِف[٣]:

ومتى استقامَ الجسمُ أمْكنَ بعدهُ ... حفظُ النُّهَى وصيانةُ الأفهام

وقال الرُّصافي[٤]:

إنَّ الجُسومَ إذا تكونُ نشيطةً ... تقوى بفضل نشاطِهَا الأحلامُ

ولهذا كانت القوّة في الإسلام مقصودةً لا لذاتها، وإنما لغيرها؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]. وجَعَلها صِفةَ مدحٍ وتفضيلٍ؛ كما جاء في وصفِ طالوتِ: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ

=

لمحمد جمال صقر (ص/ ٤٥٠).

ومعنى البيت الأخير: أنّ البَيْدَقَ (العسكري) - في لعبة الشِّطْرَنْج - إذا نجا في حركته، وبلغ الصفَّ الأخيرَ الذي هو صفُّ العدوِّ الأولِ، ترقَّى إلى فِرْزان (وزير)!!

(١) انظرها في: المسند (٢/ ٢٤٣-٢٤٤) رقم (٩٢٠). وقال محقِّقوه: صحيحٌ لغيره.

(٢) انظر: منهج التربية الإسلامية: لمحمد قطب (١/ ١٠٥).

(٣) كما مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي: لأحمد قبّش (ص/ ٦٧).

(٤) ديوان الرُّصافي (ص/ ٥٥٩).

بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة:٢٤٧].

وقال ﷺ: «إنَّ لجسدكَ عَلَيْكَ حَقًّا»[(١)].

وقال أيضًا: «المؤمنُ القَويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله مِن المؤمنِ الضعيفِ»[(٢)]، **والقوةُ هنا: تشمل كِلتا القوّتين**: الإيمانيّة، والجسَديّة[(٣)].

وهذا كلُّه لأجلِ اكتسابِ الطاقةِ والحيويّة التي تُمِدُّ النفسَ والعقلَ بالقوة للعمل والإنتاج.

وارتباطُ الجسد بالنفس والعقل أمرٌ معروفٌ منذُ القِدَم، حتى إنّ العلماءَ قد أوجدوا علاقاتٍ بين ظاهرِ الجسدِ وباطنِه، وجعلوا الشكلَ الخارجيَّ للبدن طريقًا لمعرفة الهيئة الداخليّة للنفس؛ وهو ما يُسمَّى بعلم (الفِراسة الخِلْقِيَّة).

قال ابنُ القيِّم: «أصلُ هذه الفِراسة أنّ اعتدالَ الخِلْقة والصُّورة هو من اعتدال المِزاج والرُّوح، وعن اعتدالها يكون اعتدالُ الأخلاق والأفعال، وبحسب انحراف الخِلْقة والصُّورة عن الاعتدال يقع الانحرافُ في الأخلاق والأعمال...»، إلى أن قال: «ومعظَمُ تعلُّق الفِراسة بالعين؛ فإنها مرآةُ القلب

(١) هذا طرفٌ من حديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد: باب ما يُكره من ترك قيام الليل.. (١/ ٣٨٧) رقم (١١٠٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام: باب النهي عن صوم الدهر...(٢/ ٨١٢) رقم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٢) هذا طرفٌ من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر: باب في الأمر بالقوة وترك العجز...(٤/ ٢٠٥٢) رقم (٢٦٦٤).

(٣) انظر إكمال المعلم: للقاضي عياض (٨/ ١٥٧) ومنهج التربية الإسلامية: لمحمد قطب (١/ ١٠٥).

وعنوانُ ما فيه، ثم باللسان؛ فإنه رسولُه وتُرْجُمانُه».

ثم ذكر بعض هيئاتِ الجسد والرأس التي تدلُّ على الذكاء والبَلادة، والشجاعة والخوف(١).

وكلُّ ما يَدخُلُ على الجسم - سواءٌ أكان حسيًّا أم معنويًا - فإنه يُؤثِّر على النفس والعقل، سَلبًا أو إِيجابًا؛ **وهو نوعان:**

١ - غِذاء معنويٌّ.

٢ - غِذاء حِسِّيٌّ.

* **أمَّا الغذاءُ المعنويُّ**: فيكون عن طريق السمع والبصر والفؤاد، وهذه القنواتُ هي أعظمُ الطرق إلى العقل والنفس كما أسلفنا، وهي أُمهاتُ ما يُنالُ

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٨٨)، **وانظر**: كتاب الفراسة: للفخر الرازي.

فائدة: ممّا يُشبه هذا، قولُ عبد القاهر الجُرجاني: «إذا استُعير الفعلُ لما ليس له في الأصل، فإنه يُثبِتُ باستعارته له وصفًا هو شبيهٌ بالمعنى الذي ذلك الفعلُ مشتقٌّ منه.

بيانُ ذلك أنْ تقولَ: نَطقَتْ الحالُ بكذا، وأخبرتْني أساريرُ وجهه بما في ضميره، وكلّمتْني عيناه بما يَحوي قلبُه، فتجدُ الحالَ وصفًا هو شبيهٌ بالنطق من الإنسان؛ وذلك أنّ الحالَ تدلُّ على الأمر، ويكونُ فيها أَمَاراتٌ يُعرَفُ بها الشيءُ، كما أنّ النطقَ كذلك، وكذلك العينُ فيها وصفٌ شبيهٌ بالكلام، وهو دلالتُها بالعلامات التي تَظهرُ فيها وفي نظرها وخواصِّ أوصافٍ يُحْدَسُ بها على ما في القلوب من الإنكار والقبول، ألا ترى إلى حديث الجُمَحيّ؟ حُكِي عن بعضهم أنه قال: أتيتُ الجُمَحيَّ أستشيرُه في امرأةٍ أردتُ التزوُّجَ بها فقال: أقصيرةٌ هي أم غيرُ قصيرةٍ؟ قال: فلم أفهمْ ذلك، فقال لي: كأنك لم تفهمْ ما قلتُ، إنّي لأعرف في عين الرَّجُل إذا عَرَفَ، وأعرفُ فيها إذا أنكر، وأعرفُ إذا لم يَعرف ولم يُنكِر، أمَّا إذا عَرَفَ فإنها تخَاوَصُ، وإذا لم يَعرف ولم يُنكر فإنها تَسْجُو، وإذا أنكر فإنها تَجحظُ!

أردتُ بقولي: قصيرةٌ، أي هي قصيرةُ النسب تُعرف بأبيها أو جَدّها». أسرار البلاغة (ص/ ٥١ - ٥٢).

به العلمُ ويُدرَكُ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]؛ ولهذا امتنَّ الله على خلقه أوّلَ خُروجهم إلى الدنيا بهذه الأمور؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

وقال أيضًا: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة:٩].

وقال فيما لكل عضوٍ من هذه الأعضاء من العمل والقُوَّة: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

والمقصودُ هنا: الرُّؤيةُ بلا وَعيٍ، والسمعُ بلا تدبُّرٍ.

وأهمُّ هذه الثلاثة هو القلبُ، والبقيَّةُ ما هي إلّا طُرُقٌ لإيصال العلم إليه؛ **كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية**: «صاحبُ العلم في حقيقة الأمر هو القلبُ، وإنما سائرُ الأعضاء حَجَبَةٌ له، تُوصِل إليه من الأخبار ما لم يكُنْ ليأخُذَه بنفسه، حتى إنَّ مَن فقد شيئًا من هذه الأعضاء فإنه يَفْقِدُ بفقْدِه من العلم ما كان هو الواسِطَةَ فيه»[(٢)].

* **وأمَّا الغذاءُ الحِسيُّ**: فهو يؤدِّي إلى إشْباع الرَّغَبات والمُيُول المتعدِّدة عند الإنسان، بما يعُود بالأثر البيِّن على النَّفس والعقل، سَلْبًا أو إيجابًا؛

---

(١) **انظر**: مجموع الفتاوى (٩/ ٣٠٩).

(٢) المصدر نفسه (٩/ ٣١٠).

فالخمرُ مثلًا نهى عنها الإسلامُ؛ لأنها تُفسِدُ العقلَ، كما أمَر بالاحتياط في المَطْعم وتحرِّي الحلال الطَّيِّب، حتى لا يقع المسلمُ في الحرام؛ فيقسوَ قلبُه، وتُظلِمَ نفسُه، وينغلِقَ فِكرُه، فيَقِلَّ عملُه ونشاطُه؛ كما قال بعضُ العلماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون:٥١]: أمرَهم بأكل الطيِّبات قبل العمل الصالح؛ لأنَّ في ذلك عَوْنًا على الطَّاعة وانشِراحًا لها، وفي «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إنَّ أوَّلَ ما يُنتِنُ مِنَ الإنسانِ بَطنُه؛ فمَنْ اسْتطاعَ ألّا يَأكلَ إلّا طَيِّبًا فَلْيَفعَلْ»(١).

ولذا قال شمسُ الدين الرَّمْلي في منظومة «رِياضَة الصِّبيَان»:

وأولُ الأشْيَا هِيَ الحَضَانَهْ ... لأنّه مَعْ أهْلِهِ أمانَهْ

فينبغي إرضاعُ كلِّ طِفْلِ ... صالِحَةً بقولِها والفِعْلِ

تأكلْ حَلَالًا لا مِن الحَرامِ ... فالطَّبْعُ قالُوا: تَابِعُ الطَّعَامِ

إذا خَبُثْ رَضَاعُهُ مَالَ إلى ... فِعْلِ الخبيثِ آخِرًا وأوَّلَا(٢)

---

(١) الصحيح، كتاب الأحكام: باب من شاق شق الله عليه ٦/ ٢٦١٥ (٦٧٣٣) وانظر المزيد من النصوص وشرحها في كتاب: أحكام الأطعمة في الشريعة الإسلامية: للطريقي (ص/ ٢٤ فما بعد).

(٢) ممّا يدلُّ على تأثير لبن المرضعة على الرضيع ما رُويَ أنّ عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال لصهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لولا ثلاثُ خصالٍ!

قال: وما هُنّ؟ فوالله ما تزال تَعيبُ شيئًا.

قال: اكتناؤُك وليس لك ولدٌ! وادعاؤُك إلى النمر بن قاسط وأنت رجلٌ ألْكَنُ! وأنك لا تُمسكُ المالَ!»....

=

وليس التَّأثيرُ على العقل والنَّفس مقصورًا على الـمُحرَّم فقط، بل ربما أثَّر فيه بعضُ المباحات أيضًا، كما هو الحالُ في أكلِ لحمِ الإبلِ مثلًا.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: «الإبلُ فيها قُوةٌ شيطانيّةٌ، والغاذِي شبيهٌ بالمُغْتذِي، ولهذا حُرِّمَ كلُّ ذي نابٍ من السباع، وكلُّ ذي مِخلَبٍ من الطير، لأنها دوابُّ عاديةٌ، بالاغتذاءِ بها تجعلُ في خُلُق الإنسان من العُدوان ما يضرُّه في دينه، فنهى اللهُ عن ذلك؛ لأنّ المقصودَ أن يقومَ الناسُ بالقِسْط، والإبلُ إذا أَكَلَ منها تبقى فيه قُوةٌ شيطانيةٌ. وفي الحديث الذي في السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «الغضبُ مِن الشيطانِ، والشيطانُ خُلقَ من النارِ، وإنما تُطْفأُ النارُ بالماءِ»، قال النبيُّ ﷺ: «فإذا غَضِبَ أحدُكُم فلْيَتَوَضَّأْ»، فإذا توضّأَ العبدُ من لُحوم الإبل كان في ذلك من إطفاء القوة الشيطانيّة ما يُزيلُ المفسدةَ، بِخلاف مَن لم يَتوضأْ منها، فإن الفسادَ حاصلٌ معه»[(١)].

فثبتَ بهذا أنّ الغذاءَ الماديَّ المحسوسَ يُؤثِّرُ على الأخلاق والطِّباع؛ كما قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

=

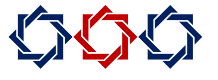
وفيه: «واسترُضعَ لي بِالأُبُلَّةِ، فهذه من ذاك». انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥ - ٢٦). يعني أنّ الُّلكْنةَ كانت بسبب أنه استرُضعَ في الأُبُلَّة، وكانت إذْ ذاك يسكنُها أعاجمُ من فارس كما يظهرُ من تعليق محقّق السير. والله أعلم.

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٢٣).

- وقال الدكتور/ زكي نجيب محمود: «إنَّ طعامَ الطاعِم يُنتِجُ له في حياته نتيجتين: إحداهما: لذَّةُ الطعام، والأخرى: النشاطُ الذي يتولَّدُ عن تغذية الجسم، فيُبدِع به صاحبُه إبداعًا لن يكون هو نفسُهُ يستطيعُ أن يتنبّأ به ساعةَ استوائِه إلى مائدة الطعام». في تحديث الثقافة العربية (ص/ ٢٩٨).

وكذا الحالُ في مسألة القُدرة الطبيعية؛ فإنّ العجزَ الطبيعيَّ عند الإنسان دليلُ ضعفٍ وخُمولٍ غالبًا، فأنَّى لمن هذه حالُه التفوُّقُ والتألُّقُ، فَضْلًا عن الابتكارِ والتجديدِ والإبداعِ؟!

ويحضُرُني هنا بحثٌ نُشِر في مجلة (الأديب) اللُّبنانية، عن أبي العلاء المَعرِّي، ذهب فيه صاحبُهُ - وهو الأستاذ الخُولي - إلى أنَّ أبا العَلاء إنما منعه من الزواج مانعُ العجزِ الطبيعيِّ، وليس الزُّهدَ أو الفَلْسفةَ التي عُرف بها أبو العلاء، فردَّ عليه الأستاذُ عبدُ السلام هارون بمقالٍ نُشرَ في مجلة (المقتطف) عام (١٩٤٥م) ، **كان ممّا قال فيه:** «كيف نَتصوّرُ تلك العبقريةَ المتدافعةَ المتزاحمةَ في تلك الرجولة الناقصة؟! إنَّ العبقريةَ الممتازةَ لم تكن يومًا في ضِعافِ الرِّجالِ، بل إني لأذهب إلى أنَّ أبا العلاء كان من قوَّة طبيعة الرجُل بالمكان الذي يَحملُهُ على التقلُّل من المطعم والمشرب؛ ليكُفَّ عَوارِم هذا الميْلِ، ويصيرَ إلى حالٍ من العِفَّةِ وضَبْطِ النَّفْس»(١).



(١) قطوف أدبية: لعبد السلام هارون (ص/ ٢٧٥).




دَعِ التسْويفَ وامْضِ إِلى المعالي   بعَزْمٍ مِن ذُبابِ السيفِ أمْضَى

وخُذْ في الجِدِّ وارْفضْ مَنْ أباهُ   مِن الأهلينَ والإِخوانِ رَفْضَا

وأَصْغِ لما أشَرْتُ به فإِني   مَحضْتُكَ منه كأسَ النُّصْحِ مَحْضَا

شرف الدين الأنصاري






الفصلُ السَّادِسُ

مُقوِّمَاتُ الإبداعِ العلميِّ



الفصل السَّادِس
مُقوِّمَاتُ الإبداعِ العلميِّ

مُقوِّماتُ الإبداعِ العلميِّ: هي الأمورُ التي لا بُدّ من وُجودها لنجاح العمل، وهي شَرْطٌ ضروريٌّ في عملية الإبداع، لكنها تُنال بالاكتساب والتحصيل أكثرَ من الأُسُسِ السابقةِ، **وأهمُّ هذه المقوّمات ما يلي**:

أولًا: التَّصوُّرُ الصحيحُ للفَنِّ، والتخطيطُ السَّليمُ له:

إن التَّصورَ الصحيحَ للفنِّ والتخطيطَ السَّليمَ له، سبيلٌ لفهمِ ذلك الفنِّ والإبداعِ فيه؛ حيثُ يُعرِّفُ الراغبَ مَوالجَ الفن ومخارِجَه، ويُرِيهِ مهاويَ الطريق ومعارجَه، ويُبَصِّرُهُ أين يَضعُ قَدَمَه، ومتى يَستلُّ قَلَمَه، وما هي الثَّغْرات في ذلك الفنّ التي تحتاج إلى بحثٍ وتتبُّعٍ واستقراءٍ لِيملأَها، ولا يزالُ يسيرُ به سَيْرًا حثيثًا؛ حتى يتملَّكَ ذلك الفنَّ ويَتصرَّفَ فيه كيفما شاءَ.

ويُعينُ على هذا الأمر الدراساتُ الوصفيَّةُ التي تَصِفُ الفنَّ وتطوُّرَه والمراحلَ التي مرَّ بها، وتصفُ كذلك الـمُصنَّفاتِ في ذلك الفنِّ، وكذلك الكتب التي تُعنى بدراسة الشخصيَّات البَارزة في الفنِّ نفسه.

والتصوُّرُ الصحيحُ للفنّ منذُ البَدْءِ يُيَسِّرُ على الدارِسِ عدةَ أمورٍ:

١- أنه يُسهِّل مواصلةَ السَّيْر في ذلك الفنّ حتى النهاية؛ **كما قال الإمامُ الغزاليُّ**: «كلُّ علمٍ لا يستولي الطالبُ في ابتداءِ نظرِه على مجامعِه ولا مَبانيه،

فلا مَطْمعَ له في الظَّفَر بأسراره ومَبَاغِيه»[١].

٢- أنه يُعينُ الدارسَ على الاقتصاد في الوقت والجهد؛ فإنَّ الذي يَتصوَّرُ الشيءَ جملةً منذ البداية، لا شكّ أنه لن يَستغرقَ وقتًا طويلًا في فهمِ ذلك الفن، والإحاطةِ به، ولن يستهلكَ كثيرًا من مواهبه وجُهْده في دراستِه وفهمِه، بخلافِ ما لو أنه لم يتصوَّرْ ذلك الفنَّ تمامًا؛ فإنه سيقع في عناءٍ هو في غِنًى عنه.

وقد عانى من هذا الأمر كثيرٌ من العلماء، منهم العلّامةُ الطاهرُ بنُ عاشور؛ حيث يقول: «إنِّي على يقينٍ أنّني لو أُتيح لي في فجر الشباب التشبُّعُ من قواعد نظام التعليم والتوجيه، لاقْتَصَدْتُ كثيرًا من مواهبي، ولاكْتَسَبْتُ جَمًّا من المعرفة، ولَسَلِمْتُ من التطوُّح في طرائقَ تبيَّنَ لي بعدَ حينٍ الارتدادُ عنها!»[٢].

وأَزيدُ هذا الأمرَ جَلَاءً فأقولُ: إنَّ كثيرًا من العلوم - خصوصًا علومَ الآلة - عُلومٌ سَهْلةٌ مَحْصُورةٌ، لكنَّ كثرةَ المجادلاتِ والمناقشات، والتفريعاتِ والافتراضات، هي التي نَفَخَتْها ووَعَّرَتْها، وأنتَ واجدٌ - عند التحقيق - أن لّا جدوى لجمهرةٍ غيرِ قليلةٍ من مسائلها، وأنه لا يترتَّبُ عليها كبيرُ عملٍ، **وما أصدقَ قولَ مَنْ قال:** «العِلمُ نُقْطةٌ كَثَّرَهَا الجاهلون!!»[٣].

---

(١) المستصفى (١/ ٤).

(٢) أليس الصبح بقريب (ص/ ٩).

ونحوُه قولُ ابن حيّان عن ابن حزمٍ: «وأكثرُ معايبه - زعموا- عند الـمُنصِف له جهلُه بسياسة العلم التي هي أعوصُ من إتقانه، وتخلُّفُه عن ذلك على قوّة سَبْحِه في غِماره!» الذخيرة: لابن بسام (١/ ١/ ١٦٩)، ومعجم الأدباء (٤/ ١٦٥٦).

(٣) هذه المقالةُ البليغةُ تُنسبُ لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

=

٣- أنه يجعلُ الدارِسَ في منأىً عن اضطراب المنهج، والتخبُّط، والتخليط، والدَّوَرَان في حَلْقةٍ مُفرَغةٍ؛ كما وقع لجماعةٍ من العلماء دَخَلُوا في علومٍ مَذمومةٍ لم يَتصوَّرُوها حقَّ التصوّر، ولم يُدرِكوا مراميها وغاياتِها، فوقعوا في الحَيْرةِ والتخبُّطِ، ولم يصلوا فيها إلى شيءٍ! ثم ندموا على ذلك.

وأقلُّ أحوالهم أنهم ضيَّعوا أوقاتَهم فيما لا جدوى من ورائِه، كما حصل لطائفةٍ من العلماء ممّن اشتغلَ بعلم الكلام والفَلْسَفَة، منهم: الجُوينِيُّ، والرَّازيُّ، وابنُ أبي الحَدِيد، والغزاليُّ، والشَّهْرَسْتانيُّ، والخُسْرُوشاهي،

=

وقد اعتنى بها العلماءُ، فأفردوا في شرحها مصنفاتٍ مستقلةً، منها: زيادة البسطة، في بيان: العلم نقطة: لعبد الغني النابلسي (ت ١١٤٣هـ)، ونثر الدرّ وبسطه، في بيان كون العلم نقطة: لأحمد بن محي الدين الإغريسي الجزائري (ت ١٣٢٠هـ).

أما معناها: فقال بعضُ العلماء: أي: صاروا سببًا للكثرة حيث ما فهموا إجمالًا.

وقيل: أي: صاروا (يعني: الجاهلين) سببًا في التكثير لحصول التيسير.

ومن لطيف شعر عبد الغني النابلسي قوله:

أَنُقْطَةَ العلمِ نُقطةُ الخَالِ في الخَدِّ مما يَشِينُهُ الخَالِي

كثَّرَها الجَهلُ وهيَ واحدةٌ ما مِثلُهَا في زمانِنَا الخَالِي!

انظر: سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: للمرادي (٣/ ٣٦)، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: للبيطار (١/ ٣٠٥)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢/ ٦٨٢)، وشرح نخبة الفكر (ص/ ١٥٠) كلاهما لملّا علي قاري ، وكشف الخفاء ومزيل الإلباس: للعجلوني (٢/٦٧)، وإيضاح المكنون (٣/ ٦٢١)، وهدية العارفين (١/ ٥٩٢) كلاهما للبغدادي، وتاج العروس: للزبيدي (٢٠/١٥٣)، وحاشية لقط الدرر بشرح متن نخبة الفكر: للعدوي (ص/ ٢٦) ومعجم المؤلفين: لكحّالة (٢/ ١٧٣) والتعالم: لبكر أبو زيد (ص/ ٧).

والخُونَجيُّ، والكرابيسيُّ، وابنُ واصلٍ الحَمَويُّ، والشوكانيُّ - في أول أمره -، وغيرُهم[(١)].

فإذا تمَّ لك - أيُّها الراغبُ - التصوُّرُ الصحيحُ للعلم المراد، فعليك بعد ذلك بالتخطيط السليم له؛ من حيثُ: الكَمُّ، والوقتُ، والصاحبُ، والأستاذُ، على المدى البعيد، ولا تكُنِ ابنَ يومك فحسبُ، بل كُنِ ابنَ يومِك وغدِك، **واستمعْ إلى ابن عباس** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يحكي لك كيف كان يطلُب العلمَ، وكيف خطَّط للمُستقبَل؛ فقد أخرج الحاكمُ عنه أنه **قال:** «لمَّا قُبِض رسول الله ﷺ قلتُ لرجلٍ من الأنصار: هلُمَّ فلْنسألْ أصحابَ رسول الله ؛ فإنهم اليوم كثيرٌ، فقال: وا عجبًا لك يا ابنَ عباس! أتُرى الناس يفتقرون إليكَ؛ وفي الناس من أصحاب رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟! قال: فتركتُ ذاكَ، وأقبلتُ أسألُ أصحابَ رسول الله ﷺ، وإنْ كان يبلُغُني الحديثُ عن الرجلِ، فآتي بابَه وهو قائِلٌ، فأتوسَّدُ ردائي على بابِه، تَسْفي الرِّيحُ عليّ من التُراب، فيخرُجُ فيراني، فيقول:

---

(١) انظر مقولاتهم في: درء تعارض العقل والنقل: لابن تيمية (١/ ١٥٩ـ ١٦٥)، وشرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز (١/ ٢٤٣)، وأدب الطلب: للشوكاني (ص/ ١٨٩)، وموسوعة أهل السنة: لعبدالرحمن دمشقية (٢/ ٧٤٢)، ومنهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد: لعثمان علي حسن (٢/ ٧٤٠).

قال شيخُ الإسلام: «وأمّا اعتراف المتكلِّمة من الإسلاميّين فكثيرٌ، قد جمع العلماءُ فيه شيئًا، وذكروا رجوعَ أكابرهم عمّا كانوا يقولونه، وتوبتَهم: إمّا عندَ الموت، وإمّا قبلَ الموت. وهذا من أسباب الرحمة إن شاء الله تعالى في هذه الأمة؛ فإنّ اللهَ يقبل التوبةَ عن عباده، ويعفو عن السيئات.

وهذا أصحُّ القولين في قبول توبة الداعي، لكنْ بقاءُ كلامِهم وكتبِهم وآثارِهم مِحْنةٌ عظيمةٌ في الأمة، وفتنةٌ عظيمةٌ لمن نظر فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله». الاستقامة (١/ ٧٩ - ٨٠).

يا ابنَ عمِّ رسولِ الله! ما جاء بكَ؟ هلاّ أرسلتَ إليّ فآتيكَ؟ فأقولُ: لا، أنا أحقُّ أنْ آتيَكَ، قال: فأسألُه عن الحديث، فعاش هذا الرجلُ الأنصاريُّ حتى رآني وقد اجتمع الناسُ حولي يسألونني، فيقول: هذا الفتى كان أعْقلَ مِنِّي!»[١].

وإذا لم تستطعْ التخطيطَ لنفسكَ، فاستعنْ بمَن سبقكَ ومَن هو أعلمُ منك، خصوصًا مَن كان مِن أهل ذلك الفنِّ المقصودِ، فقد كانوا يسألون عن ذلك ويَتَطَلَّبونَه، كما جاء عن يحيى بن مجاهد الفزاري عندما قال: «هذا أوانُ طلبي للعلم؛ إذْ قَوِيَ فهْمي، واستحكمتْ إرادتي»، قال بعضُ تلاميذه: فقلتُ له: فعَلِّمْنا الطريقَ لعلّنا ندركُ ذلك باستقبالِ أعمارِنا، **قال**: «نعم، كنتُ آخذُ من كلِّ علمٍ طَرَفًا؛ فإنَّ سماعَ الإنسان قومًا يتكلَّمون في علمٍ وهو لا يَدري ما يقولونَ غُمَّةٌ عظيمةٌ!»[٢].

فإذا ما تحصَّلَ لكَ ذلكَ - مِن التصوّرِ الصحيحِ والتخطيطِ السليمِ - فالتزمْ به، وعَضَّ عليه بالنواجِذِ، ولا تُضيِّعْ شيئًا منه، أو تُؤَخِّرْه لأيِّ سببٍ كان، واجعلْه واجبًا عليك، وفرضًا لازمًا لا تنفكُّ عنه، ولا تنسَ أنَّ أحب الأعمال إلى الله ما كان دِيمةً وإنْ قلّ[٣].

قال الربيعُ بنُ سليمان: «كان الشافعيُّ جَزَّأَ الليلَ ثلاثةَ أجزاء: الأول

---

(١) المستدرك (١/ ١٠٦) وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط البخاري؛ وهو أصلٌ في طلب الحديث وتوقير المحدِّث». وتابعه الذهبيُّ.

(٢) جذوة المقتبس: للحميدي (٢/ ٦٠٥).

(٣) كان الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل يقول: «يُعجبُني أنْ يكون للرجل رَكَعاتٌ من الليل والنهار معلومةٌ، فإذا نَشِطَ طوَّلها، وإذا لم ينشطْ خفَّفَها» غذاء الألباب: للسفّاريني (٢/ ٥٠٧).

يَكْتب، والثاني يُصَلِّي، والثالث ينام»[(١)].

ولقد مرَّتْ عليّ أخبارُ نَفَرٍ من أهل العلم، كانوا يلتزمون برنامجًا يوميًّا محدّدًا، ولا يدَعُونَ أي مؤثّرٍ يُؤثّر عليهم في تسلسُل برنامجهم، مهما كان ذلك المؤثّر؛ منهم: **يحيى بنُ قاسمٍ القَيْسيُّ** الفقيهُ العالمُ العابدُ؛ فقد كان يغدو إلى المسجد لصلاة الصبح فيصلي فيه، ثم يقعُدُ في مُصَلَّاهُ إلى الضحى، فيُصلِّيها وينصرفُ إلى داره، فيَقِيلُ إلى الظهر فيُصلِّيها، ويصلي العصرَ، ويجلس في المسجد إلى المغرب فيصلِّيها، ويصلي إلى العَتَمَة... حتى إنه تزوَّجَ بامرأةٍ، فدخلتْ عليه في السَّحَر وقتَ خروجه إلى المسجد، فسلَّم عليها ودعا لها، ثم خرج، فلزم ترتيبَه ولم يَدَعْه[(٢)].

وقريبٌ من ذلك توماس أديسون؛ فإنهم بحثوا عنه في يوم زواجه، فوجدوه منهمكًا على تجاربه في المعمل!

وستأتي قريبًا قصةُ أبي بكرٍ الأنباري مع الجارية، وابن فيروز التميمي مع زوجه.

وغيرُهم كثيرٌ.

لكنَّ الالتزامَ بالبرنامج الدقيق أصبح مَنْ يُحافظُ عليه ويُطبّقُه اليومَ - وواأسفى- هم غير المسلمين! أما مُعظمُ المسلمين اليومَ فجُهودُهم - في الغالب - مُبَعثرةٌ، وحياتُهم غيرُ منظَّمةٍ؛ ولقد أصابَ مَنْ قال[(٣)]:

---

(١) مناقب الشافعي: للبيهقي (١/ ٢٤٢).

(٢) ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٤/ ٤٢٨).

(٣) رباعيات مختارة: لإلياس قنصل (ص/ ١١٧).

دَرَجْنا على فَوضى أضاعتْ جُهُودَنا وغالَوْا بترتيبِ الجُهود وأقْدَمُوا

وقد يَرجِعُ الحقُّ المشوَّشُ خائِبًا ويَنتصِرُ البُطْلانُ وهْوَ مُنظَّمُ!

ثانيًا: التمكُّنُ من الفنّ، بهَضْمِ مسائلِهِ، والسعْيِ الحثيثِ للإحاطةِ بقضاياهُ، وتَصوُّرِها على وَجهِها الصحيحِ.

يُساعدُ على ذلك ما يلي:

١- التَّخصُّص: وهو أمرٌ غايةٌ في الأهميَّة؛ فإنَّ العادةَ مطَّردةٌ أنَّ الإنسانَ لا يُبدِع في فنٍّ أو علمٍ مّا إلا إذا تخصَّصَ فيه، واستفرَغ فيه جُهْدَه؛ لأنَّ الإنسانَ مهما طال عمرُه، وكثُرت مواهبُه، ورُزِق مع ذلك الفهمَ الحادَّ، والحافظةَ الواعيةَ، فإنه لن يَسْتطِيعَ أنْ يُحيطَ بدائرةِ العلمِ الواحدِ إحاطةً تامةً، فَضْلًا عن استيعابِ علومٍ شتّى؛ إذْ الحالُ كما قال القائلُ[(١)]:

مــا حــوَى العِلــمَ جميعًــا أحــدٌ لا ولــو مارَسَــهُ ألْــفَ سَــنَهْ!

إنمــا العلــمُ كبحــرٍ زاخــرٍ فاتَّخــذْ مــن كــلِّ شــيءٍ أحسَــنَهْ

ولذا يقول أبو حيانَ الأندلسيُّ فيمن رامَ الإحاطةَ بجميع الفنون: «وأمّا إنْ كان صاحبَ نتاتيف وينظر في علومٍ كثيرةٍ، فهذا لا يُمكنُ أنْ يَبلغَ الإمامةَ في شيءٍ منها، وقد قال العقلاء: «**ازدحامُ العُلُوم مَضِلَّةٌ للفُهُوم**»، ولذلك تجدُ مَنْ

---

(١) البيتان في المؤمَّل للردّ إلى الأمر الأوَّل: لأبي شامة المقدسي (ص/ ٦٣)، والمجالس الوعظيّة: للسَّفِيري (٢/ ٨٩)، وروض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار: للأماسي (ص/ ٤٦) وهي فيه منسوبةٌ لعليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
ويُنسبُ البيتان أيضًا للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ كما في ديوانه (ص/ ١٢٧)، فالله أعلم.

بلغَ الإمامةَ من المتقدِّمين في علمٍ من العلوم لا يَكادُ يَشتغلُ بغيرِه، ولا يُنسَبُ إلى غيره»[١].

وقال **الحافظُ الذهبيُّ** عن ابنِ الجوزي: «ومعَ تبحُّرِ ابنِ الجوزيّ في العلوم، وكثرةِ اطّلاعه، وسَعَةِ دائرتِه، لم يكن مبرِّزًا في علمٍ من العلوم! وذلك شأنُ كلِّ مَنْ فَرَّقَ نفسَه في بحورِ العلم»[٢].

وقد عَدَّ الشيخُ العلّامةُ **محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ** ضَعفَ مَيْلِ الشباب إلى التخصُّص إحدَى النقائصِ في حياتنا العِلمية الحاضرة![٣].

كما أدرك هذا المعنى **الإمامُ الشافعيُّ** -وهُو مَنْ هُو ذكاءً وحفظًا- **فقال لأبي عليِّ بنِ مِقْلاصٍ أحدِ تلامذتِه**: «تُريدُ تَحْفَظُ الحديثَ وتكونُ فقيهًا؟! هَيْهَات، ما أبعدكَ من ذلك»[٤].

ولله دَرُّ الرُّصافي حيثُ يقولُ:

أَخْـصِ في العلـمِ إنْ أردتَ كمـالًا ... ووصــولًا إلــى الفَخَــارِ الأَتَــمِّ

لــيسَ في أرْؤُسِ الرِّجــالِ دِمَــاغٌ ... هاضِــمٌ في ذكائــهِ كــلَّ عِلْــمِ

فمِنَ الـنَّقْصِ أنْ تُحاولَ أنْ تَضْـــ ... ـــرِبَ في كـلِّ ذِي العُلـومِ بسَـهْمِ!

---

(١) انظر: الآداب الشرعية: لابن مفلح (٢/ ١٢٥)، وتمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: لناظر الجيش (٩/ ٤٤٠٨)، وفيهما بعضُ التطبيعات.

(٢) تاريخ الإسلام (٤٢/ ٣٠٠).

(٣) انظر آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١/ ١٥٤).

(٤) آداب الشافعي ومناقبه: للرازي (ص/ ١٣٥)، ومناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٥٢)، والرسالة المستطرفة: للكتاني (ص/ ٢٢١).

حُسْـنُ فَهْـمِ الأخَـصِّ أكثـرُ نَفْعًـا ... لِذَويـهِ مِـن قُـبْحِ فَهْـمِ الأعَـمِّ
وبُغـاةُ العُلـومِ مثـلُ رُمـاةِ الصَّيْـ ... ـدِ فـاعْلَمْ، ولـيسَ مُـنْمٍ كمُصْـمِ

إلى أنْ قال:

كُـلُّ مَـنْ كانـتِ العُلـومُ لديْـهِ ... جَمَّـةً كـانَ نَفْعُـهُ غيـرَ جَـمِّ
أيُّ فَضْـلٍ لعـالِمٍ غيـرِ بِـدْعٍ ... لـيس في العلـمِ يُرْتَجَـى للمُهِـمِّ
سـارَ شَـوْطًا لكـلِّ عِلْـمٍ ولكـنْ ... لـم يَنَـلْ فيـه غايـةَ المسْـتَتِمِّ
هَبْـهُ أبـدى مـن العُلـومِ نُجُومًـا ... في ليـالٍ مـن المشـاكلِ دُهْـمِ
أوَلَـيْسَ البَـدْرُ التَّمـامُ وإنْ كـا ... نَ وحيدًا يَرْبو على ألْفِ نَجْمِ؟!
كُـنْ قَويًّـا في كـلِّ مـا تَدَّعيـهِ ... إنمـا الفـوزُ للقَـوِيِّ الـمُلِمِّ
أيُّهـا العـاجِزُ الضـعيفُ رُوَيْـدًا ... أقْـرَنُ الضَّـأْنِ فاتِـكٌ بـالأَجَمِّ![١]

والمرادُ هنا: علومُ المقاصد؛ كالتفسيرِ، والفقهِ، والحديثِ، واللغةِ، والطبِّ ونحوِها، وليس المرادُ علومَ الآلة؛ كمصطلحِ الحديثِ، والأصولِ، والنحوِ، والبلاغةِ، وما شابهَها؛ لأنَّ هذه العلومَ محدودةُ المسائل وإن بلَغتْ آلافًا، محصورةُ الأبواب وإنْ جَمعتْ أصنافًا، بخلاف علوم المقاصد؛ فإنها مترامية الأطراف، كثيرةُ التشعُّبات.

فلو أخذْنا عِلْمًا كالتفسير مثلًا، لَوجدناه بحرًا لا ساحلَ له، إضافةً إلى أنه

---

(١) ديوان الرُّصافي (ص/ ٥٢٧).

مشتملٌ على علومٍ كثيرةٍ، منها: القراءاتُ، والتجويدُ، والرَّسْمُ، والمناسباتُ، وآياتُ الأحكامُ، وإعجازُ القرآن البلاغيُّ واللُّغويُّ والعِلميُّ... إلخ، ولُغةُ القرآن: مِن غريبٍ وأمثالٍ، وخطَابٍ وأشباهٍ، ومُبْهماتٍ... إلخ، والتفسيرُ بالمأثور وما يَلتحِقُ به من أسبابِ النزولِ، والناسخِ والمنسوخِ... وغيرِها.

ولذا قال ابنُ عطية في مقدمة تفسيره: «ذكرتُ في هذا الكتاب كثيرًا من علم التفسير، وحملتُ خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرتُ به زمني، واستفرغتُ فيه مِنَني، **إذْ كتابُ الله تعالى لا يَتَفَسَّرُ إلا بتصريف جميع العلوم فيه**، وجعلتُه ثمرةَ وجودي، ونُخبةَ مجهودي»[1].

وكذلك الفقهُ، فلو أخذناه في دائرته الضيّقة، لوجدناها واسعةً، فمسائلُه كثيرةٌ، ونوازلُه لا تنتهي، كما أن هناك فنونًا أخرى كثيرةً يَتَطَلَّبُها هذا العلمُ لا بُدّ أن يُلِمَّ بها المتفقِّهُ - إذا ما أراد أن يكون فقيهًا حقًّا- كعلمِ القواعدِ الفقهيّةِ، وعلمِ أصولِ الفقهِ، وعلمِ مقاصدِ الشريعةِ، وعلمِ تخريجِ الفروعِ على الأصولِ، وعلمِ أسبابِ الخِلافِ، وعلمِ أصولِ البدعِ، وفنِّ الجَمْع والفَرْق... إلخ[2].

وهكذا علمُ الحديث... وعلمُ اللغة... إلخ.

فالمقصودُ: أنَّ دائرةَ العلم الواحد واسعةٌ؛ فكيف بعلومٍ شتّى؟!

وعليهِ فماذا يَضِيرُ العَالِمَ إذا ما تخصَّص في فنٍ من فنون العلم الواحد؛ كالتجويدِ مثلًا، أو مقاصدِ التشريع، أو أصولِ الفقهِ، أو مصطلحِ الحديثِ،

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٥).

(٢) انظر بقيّةَ أنواعه في المنثور في القواعد الفقهية: للزركشي (١/ ٦٩).

أو فقهِ اللغةِ... إلخ، بحيثُ ينصرفُ بالكُليَّةِ إلى تَعَلُّمِهِ وتعليمِه والتأليفِ فيه؛ فإنه سيستفيدُ ويُفيدُ فيه بلا ريبٍ، وربّما ابتكرَ واستخرج منه فنونًا أو أنواعًا أخرى جديدةً لم يُسبَقْ إليها[١]، وهذا سبيلٌ لاحِبٌ من سُبُلِ الإبداع.

وما أحسنَ قولَ الإمامِ ابنِ عَطيَّةَ في مقدِّمة تفسيرِه العظيمِ «المُحرَّرِ الوَجيزِ»: «رأيتُ أنَّ الواجبَ على مَن احْتَبى، وتخيَّر من العلوم واجْتَبى، أنْ يعتمدَ على علمٍ من علوم الشرع، يستنفدُ فيه غايةَ الوُسْع، يجوبُ آفاقَه، ويتتبَّعُ أعماقَه، ويَضبطُ أصولَه، ويُحكِمُ فصولَه، ويُلخِّص ما هو دونه أو ما يؤول إليه، ويُعنى بدَفْع الاعتراضاتِ عليه، حتى يكونَ لأهل ذلك العلم كالحصنِ المَشِيْد، والذِّكْرِ العَتِيْد، يَستندُون فيه إلى أقوالِه، ويَحتذون على مثالِه»[٢].

وقال سيِّدُ قطب: «نحن في حاجةٍ مُلحَّةٍ إلى المتخصِّصين في كلِّ فرعٍ من فروع المعارف الإنسانية؛ أولئك الذين يتَّخذون من معاملهم ومكاتبهم صَوامعَ وأديرةً!.. ويَهبُون حياتَهم للفَرْع الذي تخصَّصُوا فيه، لا بشعورِ التضحيةِ فحسْب، بل بشعورِ اللَّذةِ كذلك!... شعورِ العابد الذي يَهبُ روحَه لإلهِهِ وهو فَرْحانُ!»[٣].

---

(١) **خُذْ على سبيل المثال:** علومَ القرآن، فقد بلغ عددُ أنواعها عند الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في كتابه «البرهان» أربعين نوعًا.

فجاء السيوطيُّ (ت ٩١١ هـ) فاستخرج من كتاب الزركشي أربعين نوعًا أخرى ضمّنها كتابه «الإتقان» فصارتْ عنده ثمانين!

ثم جاء ابنُ عَقيلَةَ المكّي (ت ١١٥٠ هـ) فزاد على السيوطي حتى وصل عددُ الأنواع عنده في كتابه «الزيادة والإحسان» أربعةً وخمسينَ ومئةَ نوعٍ!!

(٢) المحرّر الوجيز (١/ ٣).

(٣) أفراح الروح (ص/ ١٦ - ١٧).

لكنْ مَن تاقتْ نفسُه لجميع الفنون ولم يصبرْ على طعامٍ واحدٍ، فلا بأسَ عليه حينئذٍ من الإلمام بما أحبَّ من الفنون، مع الأخذ في الاعتبار التركيز على فنٍّ واحدٍ منها أو فنّيْنِ؛ ليتحصَّلَ له فيها الإبداعُ كما تقدّم.

وفي هذا يقول الغزاليّ: «الوظيفةُ الخامسةُ: أن لّا يدعَ طالبُ العلم فنًا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من أنواعه إلّا وينظر فيه نظرًا يطَّلعُ به على مقصده وغايته، ثم إنْ ساعده العمرُ طلبَ التبحُّرَ فيه، وإلّا اشتغلَ بالأهمِّ منه واستوفاه، وتطرَّفَ من البقية؛ فإنّ العلومَ متعاونةٌ وبعضُها مرتبطٌ ببعضٍ.

ويستفيدُ منه في الحال الانفكاكَ عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله؛ فإنّ الناسَ أعداءُ ما جهِلوا. قال تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ [الأحقاف:١١] قال الشاعر:

ومَـنْ يَـكُ ذا فَـمٍ مُـرٍّ مـريضٍ ... يجـدْ مُـرًّا بـه المـاءَ الـزلالا»[١]

وقال أيضًا: «إنّ العمرَ إذا كان لا يتّسعُ لجميع العلوم غالبًا، فالحزمُ أنْ يأخذَ من كلِّ شيءٍ أحسنَه، ويكتفي منه بِشَمّه»[٢].

وقال العلّامةُ أحمد بن فارس الرازي: «الواجبُ على المفتي التحرزُّ، والنظر في سائر العلوم؛ ليكون تَصَدِّيه لجواب ما يُسألُ عنه مُصِيبًا»[٣].

وقال الشيخُ صَدرُ الدين بنُ المُرَحَّل: «ينبغي للإنسانِ أن يكونَ في الفقهِ قَيِّمًا، وفي الأصولِ راجِحًا، وفي بقيّةِ العلومِ مُشارِكًا»[٤].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥١ - ٥٢).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) فتيا فقيه العرب (ص/ ١١٣) من مجموع رسائل العلّامة ابن فارس.
(٤) المنثور في القواعد الفقهية: للزركشي (١/ ٧٢).

ومرَّ معنا قولُ يحيى بن مجاهد الفزاري: «كنتُ آخذُ من كلِّ علمٍ طَرَفًا؛ فإنَّ سماعَ الإنسان قومًا يتكلَّمون في علمٍ وهو لا يَدري ما يقولونَ غُمَّةٌ عظيمةٌ!»[١].

وعلى هذا جرى العلماءُ الكبارُ، فقد كان أحدُهم يَستفرِغُ غايةَ جَهْدِه في عِلمٍ أو عِلْمَيْن، بحيثُ يصيرُ مَرْجِعًا في ذلك العلم حُجّةً فيه؛ ويُشاركُ في بقيَّة العلوم على قَدْرِ مَوَاهبِهِ ومَدَاركِهِ ومُيُولِهِ؛ ولذا يذكرون في تراجم العلماء أنَّ فلانًا كان إمامًا في فنٍّ كذا، كما يذكرون عنه أنه كان مشارِكًا في فنٍّ كذا وكذا... وقلّما يَجتمعُ في عالمٍ واحدٍ الإمامةُ في فنونٍ كثيرةٍ.

فهذا أبو حنيفةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال عنه الإمام الشافعي: «ما طلب أحدٌ الفقهَ إلا كان عِيالًا على أبي حنيفة»[٢]، لكنّ أبا حنيفة قد ضُعِّف في الحديث[٣] كما تقدَّم.

---

(١) جذوة المقتبس: للحميدي (٢/ ٦٠٥).

وفي برنامج الوادي آشي (ص/ ٨٠) أنشد بعضُهم:

اِحرِصْ على كلِّ علمٍ تَبلُغِ الأمَلَا	وَلَا تَموتنْ بِعلمٍ وَاحِدٍ كَسَلَا
النَّحْلُ لمّا رَعَتْ مِن كلِّ فَاكِهَةٍ	أبدَتْ لنا الجوهرَيْن الشمعَ والعَسَلَا
الشمعُ بِاللَّيْلِ نُورٌ يُستَضاءُ بِهِ	والشَّهْدُ يُبرِي بِإِذنِ البارئِ العِلَلَا

- وقلتُ في هذا المعنى، والقافيةُ فيه من الجِناس التَّام:

إذا رَغِبَ المَرْءُ كُلَّ العُلو	مِ، ورَاحَ يُحَاوِلُ مَا أَمَّلَهْ
رَجَوْتُ لَهُ الخَيْرَ فِيمَا أَرَا	دَ، وَأَنْ يُكْمِلَ اللهُ مَا أَمَّ لَهْ

(٢) الجواهر المضيّة: للقرشي (١/ ٥٦) والانتقاء: لابن عبد البر (ص/ ١٣٦).

(٣) انظر: ميزان الاعتدال: للذهبي (٤/ ٢٦٥).

وهذا الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان إمامًا في الفقه والأصول، لكنه لم يبلُغ تلك المرتبةَ في الحديث، **بل قال للإمامِ أحمدَ**: «أنتُم أعلمُ بالحديث منِّي، فإذا صحَّ عندكم الحديثُ عن النبي ﷺ فقولوا لنا حتى نأخذَ به»[(١)].

وقال الحُمَيْديُّ: «صحِبتُ الشافعيَّ من مكةَ إلى مصرَ، فكنتُ أستفيدُ منه المسائلَ، وكان يستفيدُ منِّي الحديثَ»[(٢)].

وقال إسحاقُ بنُ رَاهَوَيْه: «ذاكرتُ الشافعيَّ فقال: لو كنتُ أحفظ كما تحفظُ، لغلبتُ أهلَ الدنيا».

قال البيهقيُّ مبيِّنًا: «وهذا لأنَّ إسحاقَ الحنظليَّ كان يحفظُهُ على رَسْم أهل الحديث، ويَسْرُدُ أبوابَهُ سَرْدًا، وكان لا يَهتدي إلى ما كان يَهتدي إليه الشافعيُّ من الاستنباط والفقه، وكان الشافعيُّ يحفظُ من الحديث ما كان يحتاجُ إليه، وكان لا يستنكِفُ من الرجوع إلى أهله فيما اشتبه عليه منه؛ وذلك لشدَّةِ اتقائِه للهِ ﷻ، وخشيتِه منه، واحتياطِه لدينِ»[(٣)].

وهذا الإمامُ أحمدُ سُئلَ عن حرفٍ من غريب الحديث، **فقال**: «سَلُوا أصحابَ الغريب؛ فإنِّي أكره أنْ أتكلَّم في قول رسول الله ﷺ بالظنِّ فأخطئَ»[(٤)].

وحدّثَ شُعبةُ بنُ الحجَّاج في مجلسه، فقال في حديثٍ: «فتسمَعونَ

---

(١) مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٥٤).
وانظر: جامع بيان العلم: لابن عبد البر (٢/ ٤٧٠).
(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٥٣).
(٣) المصدر نفسه.
(٤) علوم الحديث: لابن الصلاح (ص/ ٢٧٢).

جَرْشَ طيْر الجنة»، فردَّ عليه الأصمعيُّ - وكان جالسًا في ذلك المجلس - وقال: «جَرْسَ» - **يعني**: بالسين المهملة - فنَظَر إليه شُعبةُ، وقال: خُذُوها عنه؛ فإنه أعلمُ بهذا مِنَّا!»[(١)].

بل ربما تميّز الإنسان في نوعٍ دون نوعٍ في دائرة العلم الواحد؛ **فهذا الإمامُ أحمدُ يقول عن سُفيان بن عُيينة**: «كان إذا سُئل عن المناسك، سَهُل عليه، وإذا سُئل عن الطلاق، اشتدَّ عليه»[(٢)].

ومِن هنا كان لرأي المتخصِّص وَزْنُه واعتبارُه عند العلماء، **ومن مقولاتهم في ذلك**: «مَنْ غَلَبَ عليه فنٌ يُرجَعُ إليه فيه دونَ غيرِه»، **وقالوا**: «اتّفقوا على الرجوع في كل فنٍ إلى أهلِه»، **وقالوا**: «مَنْ تعاطى تحريرَ فنٍّ غيرِ فنِّه فهو مُتعَنٍّ»، **وقالوا**: «إذا تكلَّم المرءُ في غيرِ فنِّه أتى بالعجائب!»، **وقالوا**: «الخارجُ عن لغتِهِ لَحَّان، والداخلُ في غير فنِّه يَفْضَحُهُ الامتحان!»[(٣)].

---

(١) فتح المغيث: للسخاوي (٣/ ١٦٨).

(٢) تهذيب الكمال: للمزي (١١/ ١٩٠)، والكواكب النيّرات: لابن الكيال (ص/ ٢٢٩).
قلتُ: لعلّ خِبرتَه بالمناسك لكونه مكّيًا.

(٣) **انظر هذه المقولات في**: طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٩/ ٣٥٧)، وفتح الباري: لابن حجر (٣/ ٦٨٣)، وفتح المغيث: للسخاوي (٢/ ٦٨)، والحبل الوثيق في نصرة الصديق: للسيوطي (ضمن الحاوي للفتاوي، ١/ ٣٢٦)، وتحفة الأحوذي: للمباركفوري (١/ ٢٧) والتعالم: لبكر أبو زيد (ص/ ٨).
تَتْمِيمَة: قال أبو حيّان الأندلسي في معرِضِ ردِّه على كلامٍ للفخرِ الرازيِّ: «ما ذكرَهُ الرازيُّ لا يتفرّعُ على كلام سيبويه بوجهٍ، والعَجَبُ من هذا الرجل وتجاسُرِه على العلوم حتى صنَّف في النحو كتابًا سماه (المحرَّر)، وسَلَكَ فيه طريقةً غريبةً بعيدةً مِن مصطلح أهل النحو ومِن مقاصدهم! وهو كتابٌ لطيفٌ محتوٍ على بعض أبواب العربية.
=

وقال الإمامُ يحيى بنُ مَعينٍ لمَّا سُئل عن إبراهيم بن محمد بن عَرْعَرةَ: «ثقةٌ، معروفٌ، مشهورٌ بالطلب، كيِّسُ الكتاب، ولكنه يُفسِدُ نفسَه؛ يَدخُلُ في كلِّ شيءٍ!»(١).

وقال ابنُ حِبّان - في الردّ على من قال: إنّ علمَ الجرح والتعديل من الغِيبةِ المحرَّمة! -: «ولو تملَّق قائلُ هذا القول إلى باريه في الخَلْوة، وسأله التوفيقَ لإصابة الحقِّ، لكان أولى به من الخَوْضِ فيما ليس من صِناعته»(٢).

وقال عبدُ القاهرِ الجُرجَانيّ: «إذا تعاطى الشيءَ غيرُ أهلِهِ، وتولّى الأمرَ غيرُ البصير به، أعضلَ الداءُ، واشتدَّ البلاءُ»(٣).

=
وقد سمعتُ شيخَنا أبا جعفر بنَ الزبير يذكرُ هذا التصنيفَ ويقولُ: إنه ليس جاريًا على مصطلح القوم، وإنّ ما سَلَكَهُ في ذلك مِن التخْليط في العلوم، ومَنْ غَلَبَ عليه فَنٌّ ظهر فيما يتكلّمُ به من غير ذلك الفنّ. أو قريبًا من هذا المعنى.
ولما وقفتُ على هذا الكتاب بديار مِصرَ رأيتُ ما كان الأستاذُ أبو جعفر يذمُّ من هذا الكتاب ويَسْتَزِلُّ عقلَ فخرِ الدين في كونه صنَّف في علمٍ وليس مِن أهله. وكان أبو جعفر يقول: لكلِّ علمٍ حَدٌّ ينتهي إليه، فإذا رأيتَ متكلِّمًا في فنٍّ مّا ومَزَجَهُ بغيرِه، فاعلمْ أنّ ذلك إمّا أن يكون من تخْلِيطِه وتخْبِيطِ ذِهنِه! وإمّا أن يكون من قلّة محْصولِه وقُصُورِه في ذلك العلمِ، فتجدُه يستريحُ إلى غيره ممّا يعرِفُه!». البحر المحيط (٣/ ٤٩٣).
وقال في موضعٍ آخرَ: «كان أستاذُنا العلّامةُ أبو جعفر أحمدُ بنُ إبراهيمَ بنِ الزبيرِ الثقفيّ، قدَّسَ اللهُ تُربتَه، يقول ما معناه: متى رأيتَ الرجلَ ينتقل من فنٍّ إلى فنٍّ في البحث أو التصنيف، فاعلم أن ذلك، إما لقُصُورِ علمِه بذلك الفنِّ، أو لتخليطِ ذهنِه وعدمِ إدراكِه، حيثُ يظنُّ أنّ المتغايراتِ متماثلاتٍ!». المصدر نفسه (١/ ٥١١).

(١) السير: للذهبي (١١/ ٤٨٠).
(٢) المجروحين (١/ ١٧).
(٣) دلائل الإعجاز (ص/ ٤٨٢).

وقال ابنُ حزمٍ: «لا آفةَ على العلومِ وأهلِها، أضرُّ من الدُّخَلاءِ فيها وهم من غير أهلها؛ فإنهم يجهلون ويظنُّون أنهم يعلَمون، ويُفسِدون ويقدِّرون أنهم يُصْلِحون!»(١).

وقال الحُميْديُّ -بعد أنْ ذكر الخلافَ في موت أحد المُحدِّثين-: «على أنَّ أبا سعيد بنَ يُونسَ قد حكى قولَ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ عيسى ولم يَعترِضْ عليه، وهو من أهل البحث عن أهل المغرب والاختصاص بمعرفتهم»(٢).

فقد أمضَى كلامَ أحمدَ هذا وقَبِلَهُ؛ لأنّ أبا سعيد بنَ يُونسَ المتخصِّصَ في رجال المغرب لم يَعترِضْ عليه.

وقال اللَّكْنَويُّ: «أجِلَّةُ الفقهاء إذا كانوا عارِينَ عن تَنْقِيد الأحاديث لا نُسلِّم الرواياتِ التي ذكروها من غير سندٍ ولا مُستندٍ إلا بتحقيق المحدِّثين»(٣).

وبهذا التقرير تعلَمُ أنّ ما اشترطهُ السُيوطيُّ في المجدِّد - في منظومته

---

(١) مداواة النفوس (ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي) ١/ ٣٤٥.
لكنّ ابنَ حزمٍ نفسَه ممّن نُبِزَ بهذا!
فقد قال عنه أبو مروان ابنُ حيّان: «كان أبو محمدٍ حاملَ فنونٍ من حديثٍ وفقهٍ وجَدَلٍ ونسَبٍ وما يتعلّق بأذيال الأدب، مع المشاركة في كثيرٍ من أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله في بعض تلك الفنون كتبٌ كثيرةٌ، غيرَ أنه لم يَخْلُ فيها من غَلَطٍ وسَقَطٍ؛ لجراءته في التسوُّر على الفنون، لا سيّما المنطقَ، فإنهم زعموا أنه زلّ هنالك، وضلّ في سلوك تلك المسالك، وخالف أرسطاليسَ واضعَه مخالفةَ من لّم يفهم غرضَه، ولا ارْتاضَ في كتبه!!». الذخيرة: لابن بسام (١/ ١/ ١٦٩)، ومعجم الأدباء (٤/ ١٦٥٤).
(٢) جذوة المقتبس (٢/ ٥٤٢).
(٣) عُمدة الرِّعاية (١/ ١٣).
وسيأتي مزيدُ بسطٍ لهذا عند الكلام على العنصر الثالث من المعوّقات والمثبّطات.

«تحفة المهتدين بأحكام المجدِّدين» - حينما قال:

وأنْ يكــونَ جامِعًــا لكــلِّ فــنّ   وأنْ يعُــمَّ علمُــهُ أهــلَ الــزمنْ![1]

لم يتوفَّرْ هذا الشرطُ في غالب المجدِّدين الذين ذَكَرَهم في منظومته! لأنه شرطٌ عزيزٌ، ربما نَدَرَ في زمانه، فضلًا عن زماننا! ولهذا لم يكنْ هذا الشرطُ متَّفَقًا عليه بين العلماء[2].

٢- **أَخْذُ العِلْمِ عَنْ أَهْلِهِ:** يجبُ على الراغب إذا ما أراد أنْ يُبرّز في لونٍ من العلم أنْ يُجالسَ أهلَ ذلك العلم البارِعينَ فيه، ويَدرُسَ عليهم، ويَنْبُطَ ما لديهم من دقائق ذلك العلم؛ لأنهم أخبرُ منه بالعلم، وأطولُ عُمْرًا فيه - حتى وإن كان أكثرَ منهم اطِّلاعًا -؛ فإنَّ جَلسةً مع عالِمٍ مُتمكِّنٍ ربّما ذكر فيها فائدةً استخلَصَها من خلال عمره المديد في ذلك العلم، تُوفِّر على الطالب جُهْدًا وفيرًا ووقتًا كثيرًا.

---

(١) التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كلّ مئة: للسيوطي (ص/ ٧٤)، وانظر: ندوة الإمام مالك/ دورة القاضي عياض (٣/ ١٨٢).

(٢) ممّا ينبغي التنبيهُ عليه هنا: أنَّ هذا الأمرَ - أعني فسَادَ كلام من تكلَّم في غير فنِّه - متفقٌ عليه بين أصحاب الفنون، وأرباب الصنائع، بل وعند عقلاء الناس قاطبةً، إلّا في علوم الشَّرع الشريف – ووا أسفي - فعلى حين نجد أنَّ المهندسَ لا يتكلَّم في علم الطِّب؛ لأنه ليس من بابته، والطَّبيبُ لا يتكلَّم في علم الجُولوجيا؛ لأنه ليس من صنعته... وهلمّ جرّا- نجدُ أنَّ علومَ الشرْع صارتْ كَلأً مُباحًا يَرْتعُ فيه كلُّ مَن هَبَّ ودَرَجْ، ويرتادُه الكَسِيرُ وذُو العَرَجْ؛ إذْ أضحى الكُلُّ يُعالِج الفتوى دون رادعٍ أوْ وازع، فالطبيبُ يُفتِي، والمهندسُ يُفتِي، والحجَّامُ يُفتي، والنجَّارُ يُفتي!!

وعُلــومُ دِيــنِ اللهِ نــادَتْ جَهْــرَةً   هــذا زمــانٌ فيــه طَــيُّ بِسَاطِــي!!

قال العلّامةُ محمدُ مُرتضى الزَّبِيدي: «اعلمْ أنَّ الطالبَ لهذا الفنّ (علم الخطّ) والرَّاغبَ إليه، لا بُدّ له من شيخٍ يُريه دقائقَ الفنِّ، ويُحقِّقَ له حقائقَه، ويكشف له رُموزَه، ويفتح له لُغُوزَه، ويُقرِّب له رقائقَه[1]؛ فقد ورد في بعض الآثار، عن بعض الأخيار: «**لولا المُربِّي، ما عرفتُ ربِّي**»، فإذا يسَّر اللهُ له الأستاذَ، فلَهُ معه شُروطٌ..»[2]. ثم ذكر شروطًا مهمّةً[3].

---

(١) هذه هي المهمة السامية للعالم الصادق، الذي ندبته أمتُه ليُنشئَ لها جِيلًا قويًّا مُبدعًا ، كما قال الشاعر محمد الشيخ محمود صيام:

يَبنــــيْ وينشـــــئُ وهـــــو صـــــابرْ	جـــــيلًا علـــــى الإبـــــداع قـــــادِرْ
ويعــــيشُ بــــين مشـــاكل الطْـــــ	ـــــطُلاب أو بــــين الـــــدفاترْ
حِصَـــــصٌ وتحضــــيرٌ وتصْــــــ	ـــــليحٌ وطــــولَ الليـــل ســـاهرْ
إنّ المعلّــــــــمَ في الوجُــــــــ	ـــــودِ منـــــارةٌ بــــين المنـــائرْ
حَــــــدِبٌ علــــــى طلابـــــه	وبهــــم إلــــى الأمجـــاد ســـائرْ

ديوان: يومٌ في المخابرات العامّة (ص/ ١٧٢).

(٢) حِكمة الإشراق إلى كُتّاب الآفاق (ص/ ١٠٩).

(٣) هذه الشروطُ هي:

١- حفظُ مقامِه في الغَيْبة والحضور على قدر الإمكان، فلا يرفع صوته على صوته، ولا يقول له مِن شيء قال: لِـمَ هذا؟ فإنْ أشكلَ عليه شيءٌ سأل بيانَه بالأدب.

٢- ومنها: عدمُ محادثة أحدٍ بجانبه في حضرته إلّا في أمرٍ ضروريٍّ.

٣- ومنها: أن لّا يضحكَ في حضرة أستاذه إلا تبسُّمًا لمقتضٍ.

٤- ومنها: عدمُ مسابقة قوله، بل يسكتُ إلى أن ينتهي فيما يقولُه.

٥- ومنها: أن يجلسَ في حضرته كهيئة التشهُّد، يُسارقُ وجهَ أستاذه النظرَ.

=

وقال ابنُ العَرِيف الأندلُسيُّ[١]:

مَـنْ لـم يُشـافِهْ عالمًـا بأصـولِهِ ... فيَقينُـه في الـمُشْكلاتِ ظُنـونُ

مَـنْ أنْكَـر الأشـياءَ دونَ تَـيقُّنٍ ... وتَثَبُّـتٍ فمُعـانِدٌ مَفتُـونُ

الكُتْـبُ تَـذكرةٌ لمـن هـو عَـالِمٌ ... وصـوابُها بمُحالهـا مَعْجُـونُ

والفِكْـرُ غَـوَّاصٌ عليها مُخْـرِجٌ ... والحـقُّ فيهـا لُؤلـؤٌ مَكْنُـونُ

وقال أبو حيّان الأندلسي[٢]:

إذَا رُمْـتَ الْعُلُـومَ بِغَيْـرِ شَـيْخٍ ... ضَـلَلْتَ عَـنْ الصِّـرَاطِ الْمُسْـتَقِيمِ

وَتَلْتَـبِسُ الْعُلُـومُ عَلَيْـكَ حَتَّـى ... تَصِيرَ أَضَلَّ مِنْ تُوْمَا الْحَكِيمِ![٣]

والشواهدُ في هذا المعنى كثيرةٌ، بَيْدَ أنّي أُنبِّه هنا إلى أمريْن مُهمِّيْن:

الأولُ: ألّا يحتقرُ الراغبُ أحدًا من العلماء أبدًا؛ فقد يُوجدُ في البِئْر، ما لا يُوجدُ في النهْر! وقد يُوجدُ في النهْر، ما لا يُوجدُ في البحر! وقد استفاد

=

٦- ومنها: عدمُ مخاصمته لأحدٍ مِن أتباع أستاذه ومَن ينتسبُ إليه.

٧- ومنها: حِفظُ متعلَّقاتِه عن الجُرأة عليها؛ فلا يلبس ثوبَه، ولا نعلَه، ولا يركب دابتَه، ولا يجلس على سجّادته، ولا يشرب من الإناء الذي أُعدّ له إلا أن يأذن له في شيءٍ من ذلك.

٨- ومنها: أن يُداومَ على الإدمان والاجتهاد فيما يقول له ويأمر به الأستاذُ.

فهذه آداب التلميذ مع الأستاذ، من ابتلي باختلال شيءٍ منها تساهُلًا أو غفلةً، لا يُفلح أبدًا.

المصدر نفسه. وانظر: نوادر المخطوطات: لعبد السلام هارون (٢/ ٩٧).

(١) نفح الطيب (٤/ ٣١٩). وانظر الأدب الأندلسي: للشكعة (ص/ ٦٦).

(٢) في التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٥/ ١٩٨).

(٣) انظر بيانَ معنى هذا البيت في كتابي الآخَر: «التأصيل العلمي».

سليمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من هُدْهُدٍ! واستفاد الكسائيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من نملةٍ![1].

---

(١) قال الشيخ ابنُ عُثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حدّثني شيخُنا المثابرُ عبدُ الرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه ذُكِر عن الكسائيِّ إمامِ أهل الكُوفة في النحو، أنه طلب النحوَ فلم يتمكَّنْ، وفي يومٍ من الأيام وَجَدَ نملةً تَحملُ طعامًا لها وتصعَد به إلى الجدار، وكلما صَعِدتْ سقطتْ، ولكنها ثابرتْ حتى تخلَّصتْ من هذه العَقَبَة وصَعِدتْ الجدارَ، فقال الكسائيُّ: هذه النملةُ ثابرتْ حتى وصلتْ الغايةَ! فَثَابَرَ حتى صار إمامًا في النحو». كتاب العلم (ص/ ٦٢). **وانظر**: القول المفيد على كتاب التوحيد: له أيضًا (١/ ٥٤٢).

- **ويُشْبِهُ هذا،** ما جاء عن يحيى النحوي الإسكندراني أنه كان في أول أمره مَلَّاحًا يَعبُرُ الناسُ في سفينته، وكان يُحبّ العلمَ كثيرًا، فإذا عَبَرَ معه قومٌ من دار العلم والمدرِّسُ الذي كان يُدرِّسُ العلمَ بجزيرة الإسكندرية، يتحاورونَ ما مضى لهم من النظر ويتفاوضونَه، ويسمعُه، فتهَشُّ نفسُه للعلم.

فلما قَوِيَتْ رَوِيّتُه في العلم فكَّر في أمره، وقال: قد بلغتُ نيِّفا وأربعين سنةً من العمر وما ارتضيتُ بشيءٍ، وما عرفتُ غيرَ صناعة الملاحة، فيكف يُمكنُني أن أتعرَّضَ إلى شيءٍ من العلوم؟! فبينما هو مُفكِّرٌ إذْ رأى نملةً قد حملتْ نواةَ تمرةٍ، وهي تريد أن تصعدَ بها إلى عُلُوٍّ، وكلّما صَعِدَتْ بها سقطتْ، فلم تزلْ تجاهد نفسَها في طُلوعها، وهي في كلِّ مرةٍ يزيد ارتفاعُها عن الأولى، فلم تزلْ نهارَها وهو ينظر إليها، إلى أن بلغتْ غرضَها وأطلعتْها إلى غايتها!

فلما رآها يحيى النحوي قال لنفسه: «إذا كان هذا الحيوانُ الضعيفُ قد بلغ غَرَضَه بالمجاهدة فأنا أولى أن أبلغَ غَرَضي بالمجاهدة. فخرج من وقته وباع سفينتَه، ولازم دارَ العلم، وبدأ بعلم النحو واللغة والمنطق، فبرع في هذه الأمور وبَرَّز». عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء: لابن أبي أصيبعة (٢/ ٤).

- **ويُحكَى** عن بعض علماء شنقيط، أنه في حداثته استغلق عليه فهمُ وحفظُ النحو، فخرج من الدرس باكيًا لتعنيف المعلِّم إيّاه على تقصيره، فاستند إلى شجرةٍ يفكِّر في شأنِه، فرأى نملةً تحملُ رِزقَها وتحاولُ أنْ تَرقى به جِذْعَ الشجرة، فعدَّ لها سبعَ مرّاتٍ وهي تَرقى ثم تَقعُ، ثم تَعودُ فتحملُه وتَرقى، وهكذا حتى حصل لها ما أرادتْ، ففَهِمَ أنّ تكرارَ المحاولةِ يَفتحُ الـمُقفَلَ والـمُغْلَقَ من الفهم والحفظ!

الثاني: التزامُ الأدب مع الشيخ؛ لأن الشيخَ لن يُعطيك ما عندَه إلّا إذا وقَّرْتَه وبجَّلْته، فيجب على طالب العلم مراعاةُ حقّ الشيخ، والقيامُ به على أكمل وجهٍ؛ وهذا هو الذي يجعل الشيخَ يُقبِلُ على تلميذه ويُتحِفُهُ بالفوائد واللطائف؛ ولهذا كان الرَّبيعُ بن سليمان المُراديّ - أخصُّ تلامذة الإمام الشافعيّ - **يقول**: «والله ما اجترأتُ أن أشربَ الماءَ والشافعيُّ ينظر إليّ؛ هَيبةً له!».

فلهذا ارتفعتْ منزلتُهُ عند الإمام الشافعي **حتى كان يقول له**: «لو أستطيع أنْ أُطعمَكَ العلمَ لأطعَمْتكَهُ!»[(١)].

٣- عدمُ الاكتفاء بالدِّراسة النِّظامِيّة: بل لا بُدّ من الاطّلاعِ الواسعِ، والمتابعةِ الحثيثةِ للجديدِ في ذلك العلم؛ لأن العلمَ والأفكارَ كالأشجار تنمو وتترعرعُ باستمرارٍ، فما تُرِكَ بالأمسِ يُطرَقُ اليومَ، وما أغفلَه المتقدِّمون يَبحثُه المتأخِّرون،،،، وهكذا؛ فقولُهم: «**مَا تَركَ الأوّلُ للآخِرِ شَيئًا**»!(٢) كلامٌ غيرُ صحيحٍ البتّةَ، **بلْ الصوابُ**: «**كَمْ تَركَ الأوّلُ للآخِرِ**»!

ولله درُّ ابنِ شَرَفَ القَيروانيِّ **حيث يقول**[(٣)]:

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٤٧).

(٢) ستأتي هذه المقولةُ، ويأتي الكلامُ على دَحْضِها ونَقْضِها ورَفْضِها فيما بعدُ؛ فـ(أنْظِرْنا نُخبِّرْكَ اليقينا).

(٣) **انظر البيتين في**: المقاصد الحسنة (ص/ ٤٢٢)، وفتح المغيث (٢/ ١٨٧) كلاهما: للسخاوي، والمحاضرات والمحاورات: للسيوطي (ص/ ٢٥٣)، وعنايه القاضي وكفاية الراضي: للخفاجي (٤/ ٣٧٤)، وكشف الخفاء: للعجلوني (٢/ ٢٥)، وكشف الظنون: لحاجي خليفة (١/ ٣٨)، وأبجد العلوم: لصديق حسن خان (ص/ ١١٠).

قُـلْ لمـنْ لـمْ يَـرَ المُعَاصِـرَ شـيئًا ... ويـــرى للأَوائِـــلِ التَّقْـــدِيما

إِنَّ ذَاكَ القَـــدِيمَ كـــانَ جديـــدًا ... وسـيغدُو هــذا الجديــدُ قـدِيمَا

وفي معناه قولُ ابنِ رَشِيقٍ[1]:

(١) انظر البيتين في: ريحانة الألبّا: للخفاجي (ص/ ٧)، وتاج العروس: للزبيدي (١/ ٩٣).
وهذا معنى قول المبرِّد: «ليس لِقِدَمِ العهد يَفضُلُ القائلُ، ولا لحداثتِه يُهضَمُ المصيبُ، ولكن يُعطَى كلٌّ ما يستحقُّ».
قال الدَّماميني في «شرح التسهيل» بعدَ نقْلِه كلامَ المبرِّد هذا: «وكثيرٌ من الناس تحرَّى هذه البليةَ الشنعاءَ، فتراهم إذا سمعوا شيئًا من النُّكَتِ الحسنةِ غيرَ مَعْزوٍّ إلى معيَّنٍ استحسنوه بناءً على أنه للمتقدِّمين، فإذا علموا أنه لبعض أبناء عصرِهم نَكَصُوا على الأعقاب واستقْبَحُوه! أو ادّعوْا أنّ صدورَ ذلك عن عصريٍّ مستبعَدٌ! وما الحاملُ لهم على ذلك إلا حَسَدٌ ذَميمٌ، وبَغْيٌ مَرْتعُه وَخِيمٌ» انتهى ملخَّصًا. انظر: رد المحتار على الدر المختار (١/ ٣٣).
- وقال ابنُ قتيبة وهو يبيّن منهجَه في كتابه العظيم «الشعر والشعراء» (١/ ٦٤): «ولم أسلكْ، فيما ذكرتُه من شعر كلّ شاعرٍ مختارًا له سبيلَ مَن قَلّدَ، أو استحسنَ باستحسان غيره، ولا نظرتُ إلى المتقدِّم منهم بعين الجلالة لتقدُّمِه، وإلى المتأخِّرِ منهم بعين الاحتقار لتأخُّرِه، بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين، وأعطيتُ كلًّا حظَّه، ووفَّرتُ عليه حقَّه؛ فإني رأيتُ من علمائنا مَنْ يستجيدُ الشِّعرَ السخيفَ لتقدُّم قائلِه، ويَضعُه في مُتَخيَّره، ويَرْذُلُ الشِّعرَ الرَّصينَ، ولا عيبَ له عنده إلّا أنّه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائلَه!
ولم يَقْصُرِ اللهُ العلمَ والشعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دون زمنٍ، ولا خصَّ به قومًا دون قومٍ، بل جعل ذلك مُشتَرَكًا مقسومًا بين عباده في كلّ دهرٍ، وجعل كلَّ قديمٍ حديثًا في عصرِه، وكلَّ شرفٍ خارجيَّةً في أوّله.
فقد كان جريرٌ والفرزدقُ والأخطلُ وأمثالُهم يُعَدُّون مُحدَثين، وكان أبو عمرو بنُ العلاء يقول: «لقد كَثُرَ هذا المحدَثُ وحَسُنَ حتّى لقد هممتُ بروايته!
ثمّ صار هؤلاء قُدماءُ عندنا بِبُعْدِ العهد منهم، وكذلك يكونُ مَنْ بعدَهم لمن بعدَنا، كالخُريميِّ والعتّابيِّ والحسنِ بنِ هانئ وأشباهِهِم.
فكلُّ مَنْ أتى بحسنٍ مِن قولٍ أو فعلٍ ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعْه عندنا تأخُّرُ قائله
=

أُولِـعَ النَّـاسُ بامتـداحِ القـديمِ وبِـذَمِّ الجديـدِ غيـرِ الـذَّميمِ
لـيسَ إِلَّا لأَنَّهـم حَسَـدُوا الحَيْـ ـيَ ورَقُّـوا علـى العِظـامِ الـرَّميمِ!

ولا يَقتصِرُ طالبُ العلم على قراءة الكتب في ذلك الفنِّ فحسْبُ، بل عليه أن يُتابِعَ الدّورياتِ المتخصِّصةَ، والمجلّاتِ العلميَّةَ الـمُحكَّمةَ، ومواقعَ الشابكةِ ذاتَ الصِّلة... كما ينبغي له أن يحرِص على حضور المحاضرات والمؤتمرات والمناقشات وغيرها، مما له علاقة بذلك العلم الذي يتعاطاه.

ولا يَغْفُلَنَّ عن الأطاريح العِلميّة العُليا (رسائل الماجستير والدكتوراه)، لا سيما الـمُحرّرةُ منها، والتي يَستحقُّ بعضُها أن يُكتبَ بماء التِّبْر المصفَّى، وإني لَأكادُ أجزمُ أن لّوْ وَقَفَ عليها المأمونُ لأخذها بوزنها ذهبًا![1] لما فيها

=

أو فاعله، ولا حَدَاثةُ سِنِّه؛ كما أنّ الرّديءَ إذا وَرَدَ علينا للمتقدِّم أو الشريف لم يرفعْه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدُّمه».

وسيأتي مزيدُ كلامٍ عن هذا الأمر في (عوائق الإبداع العلمي).

(١) قال الزِّرِكليُّ عن حُنينِ بنِ إسحاق: «اتَّصل بالمأمون، فجعله رئيسًا لديوان الترجمة، وبذل له الأموالَ والعطايا. وجعل بين يديه كُتّابًا نَحاريرَ عالمينَ باللغات، كانوا يُترجمون، ويَتصفَّح حُنينُ ما ترجموا، فيُصلِحُ ما يَرى فيه خَطَـًا.... وكان المأمونُ يُعطيه من الذهب زِنَةَ ما ينقله إلى العربية من الكُتُب، فكان يختارُ لكُتُبِه أغلظَ الوَرَق، ويأمر كُتّابَه يَخطُّوها بالحروف الكبيرة، ويُفسِحُوا بين السطور!!». الأعلام (٢/ ٢٨٧).

وانظر: مجلة المنار (٥/ ٤٠١) و (١٦/ ٨٣٩)، ومجلة التراث العربي العدد: ٨١ - ٨٢ (ص/ ٢١).

- وممّا يحضرني الآنَ من تلك الأطاريح الفائقة:

- كتاب «مَوارِد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد»: للدكتور/ أكرم ضياء العُمَري. الذي بلغتْ بطاقاتُه (٣٥) ألف بطاقة!!

=

من نفائسِ النُّقول، وبدائعِ العُقول، وحُسْنِ التحرير، وجَوْدةِ التقرير، ممّا لم يَتفطَّنْ السابقونَ إليه، ولا حامَ طائرُهُم عليه[(١)].

وبكلِّ حالٍ: فينبغي أنْ يَجمعَ طالبُ الفنّ بين القديم والمعاصر على حدٍّ سواءٍ، ويهتمَّ بالجميع اهتمامًا واحدًا؛ بحيثُ يكونُ لديْه شَغَفٌ بالمطالعة والمتابعة والبحث والتقييد، ولْيكُنْ له في صنيعِ العلماءِ أعظمَ حافزٍ.

=

- كتاب «ابن حجر العسقلاني، مصنفاته، ودراسةٌ في منهجه وموارده في كتابه الإصابة»: للدكتور/ شاكر محمود عبد المنعم.
- كتاب «الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام»: للدكتور/ بشّار عوّاد معروف.
- كتاب «تاريخ الدعوة إلى العاميّة وآثارها في مصر»: للدكتورة/ نفّوسة زكريّا سعيد. وقد قدّم لها العلّامة محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.
- كتاب «زوائد تاريخ بغداد على الكتب الستة»: للدكتور/ خلدون محمد الأحدب. وقد طبع في عشرة مجلدات!! ولعله أكبر الأطاريح على الإطلاق.
- كتاب «مدرسة الحديث في القيروان»: للدكتور/ الحسين بن محمد شواط.
- كتاب «منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير»: للدكتور/ فهد بن عبد الرحمن الرومي.
- كتاب «تداخل الأصول اللغويّة وأثره في بناء المعجم»: للدكتور/ عبد الرزّاق بن فرّاج الصاعدي.
- كتاب «موقف ابن تيمية من الأشاعرة»: للدكتور/ عبد الرحمن بن صالح المحمود.
- كتاب «قواعد التفسير»: للدكتور/ خالد بن عثمان السبت.
- كتاب «السنة النبوية في كتابات أعداء الإسلام»: لعماد السيّد الشربيني. وهي أنفسُ ما كُتب في هذا الباب.

وغيرُها كثيرٌ.

(١) ومع بالغ الأسى؛ فإنّ كثيرًا من تلك الأطاريح ما زالتْ حبيسةَ الأَرْفُفِ، لم ترَ النُّورَ بعدُ!! لكنْ مِن فضل الله تعالى أنْ يسّر بعضَ دُور النشر الجادّة، فأضحتْ في الآونة الأخيرة تتسابقُ إلى طباعة تلك الأطاريح، فللّه المنّةُ والحمدُ.

قال حَمْدونُ بنُ مجاهدٍ الكَلْبيُّ: «كتبتُ بيدي ثلاثةَ آلافِ كتابٍ وخمسَ مئةِ كتابٍ، ولعلَّ الكتابَ الذي أدخلُ به الجنَّةَ لم أكتُبْه بعدُ!»[١].

وقال القاضي عِياض: «لمّا وصلَ إلى بلدنا كتابُ «المقامات» للحريري - وكنتُ لم أرَها قبلُ - لم أنمْ ليلةَ طالعتُها، حتى أكملتُ جميعَها بالمطالعة!»[٢].

وقال ابنُ الجوزيِّ عن نفسه: «وإني أُخبِرُ عن حالي: ما أشبعُ من مطالعة الكتب، وإذا رأيتُ كتابًا لم أرَه؛ فكأني وقعتُ على كنزٍ... ولو قلتُ: إني طالعتُ عشرين ألف مجلَّد، كان أكثرَ، وأنا بعدُ في الطلَب!!»[٣].

سَهِرتْ عُيُونُهُمُ وأنْتَ عنِ الذي قاسَوْهُ حَالِمْ!

٤- أخذُ العلم على المسائل والجُزئيَّات، والتدقيقُ فيها: فهذا أنفعُ من الخَبْط فيه خَبْطَ عَشْواء؛ كما قال الزهري ناصحًا أحد طُلابه: «يا يونسُ! لا تُكابِدِ العلمَ؛ فإنَّ العلمَ أوديةٌ، فأيُّها أخذتَ فيه قطَعَ بك قبلَ أنْ تبلُغَه، ولكن خُذْهُ مع الأيام والليالي، ولا تأخذِ العلمَ جُملةً؛ فإنَّ مَنْ رَام أخذَه جُملةً، ذهب عنه جُملةً! ولكنْ الشيءَ بعدَ الشيءِ مع الليالي والأيام»[٤].

وكذا قال الإمامُ مالكٌ لابنَيْ أُختِهِ: «إنْ أحببتُما أنْ ينفعكُما اللهُ بهذا الشأن (يعني: الحديثَ)، فأقلاّ منه، وتفقَّها فيه»[٥].

---

(١) ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٥/ ١٤٧).
(٢) التعريف بالقاضي عياض: لولده محمد (ص/ ١٠٩).
(٣) صيد الخاطر: لابن الجوزي (ص/ ٧٠٦).
(٤) الإلماع: للقاضي عياض (ص/ ٢٢٠).
(٥) أحكام القرآن: لابن العربي (٢/ ٧٤١).

وقال الزَّعْفرَانِيُّ: سمعتُ الشافعيَّ يقول: «مَنْ تعلَّم عِلمًا فليُدقِّقْ فيه؛ لئلّا يَضِيعَ دقيقُ العلم»[(١)].

وقال فيمنْ يَحملُ العلمَ جُزَافًا: «هذا مَثَلُه كمثل حاطب ليلٍ، يَقطعُ حُزْمةَ حطبٍ فيحملُها، ولعلّ فيها أفعى تلدغُه وهو لا يدري»[(٢)].

وقد مَهَرَ بعضُهم في العلم بسلوكه هذا المسلكَ، كما ذُكر عن عليِّ بنِ المبارك الأحمر صاحبِ الكسائيِّ، فقد كان هذا الرجُل جُنْديًا من الجنود في بلاط الخليفة الرشيد!

قال ابنُ قادِمٍ: كان الأحمرُ صاحبَ الكسائيِّ رجلًا من الجُنْد من رجال النَّوْبة على باب الرَّشيد، وكان يُحبُّ علمَ العربية، ولا يَقدِرُ على مجالسة الكسائيِّ إلا في أيام غير نَوْبتِه، وكان يَرْصُدُ مصيرَ الكسائيِّ إلى الرشيد، ويعرِضُ له في طريقه كلَّ يومٍ، فإذا أقبل، تلقَّاه، وأخذ بركابه، ثم أخذ بيده وماشاه إلى أنْ يبلُغ السِّترَ- أي: سِترَ الخليفة- وساءَلَه في طريقه عن المسألة بعد المسألة، فإذا دخل الكسائيُّ رجع إلى مكانه، فإذا خرج الكسائيُّ من الدار، تلقَّاه من السِّتْر وأخذ بيده وما شاه يُسائلُه حتى يركبَ ويُجاوزَ المَضارِبَ، ثم ينصرفُ إلى الباب، فلَمْ يزل كذلك يتعلَّمُ المسألةَ بعد المسألة حتى قوِي وتمكَّنَ، وكان فَطِنًا حرِيصًا؛ ولهذا لمَّا قيل للكسائيِّ: مَنْ تَستخلِفُ بعدَك؟ قال: أستخلِفُ عليَّ ابنَ الأحمر![(٣)].

---

(١) مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٤٢).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٤٣).

(٣) معجم الأدباء: للحموي (٤/ ١٦٧٠) فما بعد ، وبغية الوعاة: للسيوطي (٢/ ١٥٨) فما بعد، بتصرُّف.

=

ويقول ابنُ القيِّم في هذا الصَّدَد: «مَنْ أراد عُلُوَّ بُنيانه، فعليه توثيقُ أساسه، وإحكامُهُ، وشِدَّةُ الاعتناء به؛ فإنَّ عُلُوَّ البُنيان على قدْر توثيقِ الأساسِ وإحكامِه... ومتى كان الأساسُ وثيقًا، حمَلَ البُنيانَ واعْتلى عليه، وإذا تهدَّم شيءٌ من البُنيان، سَهُلَ تدارُكُه، وإذا كان الأساسُ غيرَ وثيقٍ، لم يرتفعْ البُنيانُ ولم يثبُتْ، وإذا تهدَّم شيءٌ من الأساس سقط البُنيانُ أو كادَ»[(١)].

٥- تقديمُ الأهمِّ على المهمِّ، والأصلِ على الفرعِ: فإنَّ هذا أكْيَسُ شيءٍ في العلم وأنفعُه، كما قيل:

إنَّ الطبيبَ إذا ألَمَّ بجِسْمِهِ … مَرَضَانِ مُختلِفانِ دَاوَى الأخْطَرَا!

وقال صالحُ بنُ عبدِ القُدُّوس[(٢)]:

=

وانظر قصةَ استخلاف الكسائي له على تعليم أولاد هارون الرشيد في المصدر الأول.

(١) الفوائد (ص/ ١٥٦).

فعلى هذا ينبغي للطالب أنْ يُمتِّنَ عِلْمه بحفظ المتون، وأنْ يؤصِّلَ نفسَه بدراسة الأصول، وأنْ يُوقِرَ عِلْمَه بقراءة التقريرات، وأنْ يكثرَ النظرَ في الحواشي؛ حتى تنجليَ عنه الغواشي؛ فإنَّ «الحواشي مِخَخَةُ المتون، كما أنَّ الزيتَ مُخُّ الزيتون» كما قال الزَّمخشريُّ في أساس البلاغة (ص/ ١٩٨).

ضميمة: لما قرأ الأستاذُ/ محمدُ إسعاف النشاشيبي تلك الحواشي العظيمة التي حشَّى بها الأميرُ شكيبُ أرسلان كتابَ «حاضر العالم الإسلامي»، أرسل إلى الأمير بكتابٍ جاء فيه: «ذَكَّرتْني هذه الحواشي بقولَيْن لإماميْن: قيل لأبي بكرٍ الخوارزميِّ عند موته: ما تشتهي؟ قال: النظرُ في حواشي الكتب! وقال أستاذُ الدنيا جارُ الله: الزيتُ مُخُّ الزيتون، والحواشي مِخَخَةُ المتون!». مجلة الرسالة العدد (٦٥٩) (ص/ ١٩٩).

(٢) انظر: معجم الأدباء (٦/ ٢٨٣١)، وتاريخ الإسلام (١٠/ ٢٧٢)، ولسان الميزان (٣/ ١٧٤). وتُنسبُ لغيره.

وإذا طلبتَ العِلمَ فاعلمْ أنَّهُ ... حِملٌ فأبصرْ أيَّ شيءٍ تحمِلُ
وإذا علمتَ بأنَّهُ مُتفاضِلٌ ... فاشغلْ فؤادكَ بالذي هوَ أفضَلُ

وقال الإمامُ ابنُ حزمٍ: «مَنْ شَغَلَ نفسَه بأدنى العلوم وترك أعلاها وهو قادرٌ عليها، كان كزارع الذُّرة في الأرض التي يجودُ فيها البُرُّ، وكغارس الشَّعْراءِ[1] حيثُ يزكو النخلُ والتينُ»[2].

لاسيّما والعلمُ كثير، والعُمْرُ قصير؛ **ولهذا قال سلمانُ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **لحذيفةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **ينصحُه**: «يا أخا بني عبْسٍ! إنَّ العلمَ كثيرٌ، والعمرَ قصيرٌ؛ فخُذْ من العلم ما تحتاج إليه من أمر دينك، ودعْ ما سواه فلا تُعانِه»[3].

وقد أخَذَ هذا المعنى محمدُ بنُ فال ولد متالي، فقال:

وقَدِّمِ الأهَمَّ إنّ العِلمَ جَمْ ... والعُمْرُ طَيْفٌ زَارَ أوْ طَيْفٌ أَلَمْ

وقال الآخَرُ:

العِلمُ إنْ طلَبتَهُ كثيرُ ... والعُمْرُ عنْ تحصيلِهِ قَصيرُ
فقدِّمْ الأهمَّ منهُ فالأهمْ

ثالثًا: حُبُّ الفَنِّ والاقْتناعُ به:

وهذا أمرٌ ضروريٌّ؛ فإنَّ الذي يُكرِهُ نفسَه على فعل شيءٍ لا يُحبُّه لنْ

---

(١) الشَّعْراء: شجرةٌ من أشجار الحمض. القاموس المحيط مادة: (ش ع ر).
(٢) مداواة النفوس ١/ ٣٤٤ (ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي).
(٣) حلية الأولياء (١/ ١٨٩).

يُتْقِنَه، فضلًا عن أنْ يُبدِع فيه؛ لأنَّ الإبداعَ ناتجٌ عن حُبِّ الشيء والاقتناعِ به، كما قال الرُّصافيُّ:

وإذا رُمْـــتَ في الـــتعلُّمِ حِـــذْقًا   فـاتركِ الـنفسَ والـذي هـي تَرْمِـي
واجتنـــبْ قَسْـــرَهَا علـى مـا أَبَتْـهُ   إنَّ قَسْـــرَ الطِّبَـــاعِ أكبـــرُ ظُلْـــمِ
إنمـــا الـــمَيْلُ في الغَرائِـــزِ تَيَّـــا   رٌ، ومَـــنْ ذا يَـــرُدُّ تَيَّـــارَ يَـــمِّ؟
أَطْعِمِ العقلَ مـا اشـتهاهُ مـن العِلْـــ   ـمِ وإلّا اسْتَقَأْتَ مِن سُوءِ هَضْمِ![١]

ولذا فإنك تجدُ بعضَ المبدعين - مِنْ شدَّة وَلَعِهِ بالدرس والبحث في العلم الذي يتعاطاه - ربما انشغلَ به عن ضروريّات الحياة؛ كالأكل والشرب والنوم ونحوِها؛ فضلًا عن فُضُول الأمور، كما حُكِيَ عن ابن مالكٍ (صاحبِ الألفيَّة) أنه توجّه يومًا مع أصحابه للفُرْجَة بدمشق، فلما بلغوا الموضعَ الذي أرادوه غَفَلُوا عنه سُويْعةً، فطلبوه فلم يجدوه، ثم فَحَصُوا عنه فوجدُوه مُنكَبًّا على أوراقٍ![٢].

وكما ذَكَرَ ابنُ الجوزيِّ عن نفسِهِ أنه كان يذهب إلى نهر عيسى ومعه أرغفةٌ يابسةٌ، يَبُلُّها في النهر ويأكُلُها، وهِمّتُهُ مصروفةٌ للقراءة والتّحصيل![٣].

وقال محمدُ بنُ سماعة عن محمد بن الحسن الشيباني تلميذِ أبي حنيفة: «كان محمدُ بنُ الحسن قد انقطع قلبُه من فِكْره في الفقه، حتى كان الرجلُ

---

(١) ديوان الرُّصافي (ص/ ٥٢٧).
(٢) انظر نفح الطيب: للمقري (٢/ ٢٢٩).
(٣) انظر: صيد الخاطر (ص/ ٣٩٥).

يُسلِّمُ عليه فيدعو له محمدٌ، فيزيدُه الرجلُ في السلام، فيردُّ عليه ذلك الدعاءَ بعينِه الذي ليس من جواب الزيادة في شيء!»[(١)].

ومما يُستَلْطَفُ هنا قصيدةٌ بديعةٌ للعلّامة/ محمد محمود بن التلاميد التُّرْكُزِيِّ الشنقيطيِّ (ت ١٣٢٢هـ)[(٢)]، فقد طلبه ملكُ السُّويد أُوسْكَار الثاني لحضور مؤتمر تُناقشُ فيه قضايا اللغة العربية، فكتبَ ابنُ التلاميدِ هذا قصيدةً بيَّن فيها حبَّه للعلم ودَأَبَهُ على التحصيل؛ منها هذه الأبيات[(٣)]:

ولَـمّا طَعِمْتُ لَـذَّةَ العلـم صَيَّرَتْ سِـواها مـن الَّلـذاتِ عِنْـديَ كالسَّـمِّ

---

(١) مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه: للذهبي (ص/ ٨٢).
- وحدَّثني بعضُ الفضلاء عن الشيخ العلّامة حافظ الحكَمي- رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ١٣٧٧هـ)- أنه كانت تُوضعُ بين يديه القهوةُ والشايُ بعدَ العصر وهو يقرأ ويبحث، ثم تُرفعُ بعد ذلك كما وُضِعتْ لم يتناولْ منها شيئًا؛ لانشغاله عنها بالعلم والبحث!

(٢) كان ابنُ التلاميد (بالدال المهملة، مصحَّف التلاميذ) من المشار إليهم في علوم اللغة العربية، لكنْ كانت له فيها آراءٌ غريبةٌ، منها قولُه: إن اسمَ (عمر) ليس ممنوعًا من الصرف! قال: لأنه جمعُ (عُمرةٍ) وليس معدولًا عن عامر! وادّعى أنّ النحاةَ غَلِطوا فيه منذُ اثنيْ عشر قَرْنًا! ولم ينتبه لذلك غيرُه! وأنّ أوّلَهم في ذلك سيبويه! فإنه غلط فيما ادّعى سماعَه من العرب مِنْ مَنْعِهِ، وأنّ غيرَه تابَعَهُ على ذلك، كتقليد الأعمى!
وقد حصلتْ بينه وبين علماء عصره كثيرٌ من المنافرات والمصادمات، حتى إنّ أحدَ الأدباء المِصْريّين - يقال له: كامل، وكان يعاديه - لما بلغه موتُه، نظم أربعةَ أبياتٍ، وبعثها إلى بعض المجلّات فنشرتْها، أولُها قولُه:

مــاتَ الإمــامُ التُّرْكُــزِيْ وانقضَــى وبموتِــه مــاتَ السِّــبابُ والشَّــغَبْ!

وقد ذكر طرفًا من تلك المصادمات صاحبُ «الوسيط في تراجم أدباء شنقيط»، وطوّل في ترجمته (ص/ ٣٨١ - ٣٩٧) فراجعْها فيه.

(٣) الحماسةُ السَّنِيّة الكاملةُ المزيَّة: لابن التلاميد (ص/ ٩).

ولمَّا عَشِقْتُ العلمَ عِشْقَ دِرايةٍ سلَوتُ عن الأوطانِ والأهلِ والخِلْمِ[١]

ولمَّا عَلِمتُ ما عَلِمتُ بغَرْبِنا تَرحَّلْتُ نحوَ الشّرقِ بالحزمِ والعَزمِ

ولم يَثْنِ عَزْمي نَهْيُ حسناءَ غادةٍ شَبيهةِ جُمْلٍ، بل بُثينَةَ، بل نُعْمِ!

ولم يُعْمِ قلبي حُبُّ عَذْراءَ كاعِبٍ وحُبُّ العَذارى قد يُصِمُّ وقد يُعْمِي

رحلتُ لجمعِ العلمِ والكُتْبِ ذاهبًا إلى الله أبغي بسطَةَ العلمِ لا الجِسْمِ

وأمعنتُ في إدراكِ ما رُمتُ نيلَهُ فأدركتُ ما أدركتُ بالصبر والحزْمِ

وصِرتُ بما أدركتُ مِن ذَيْنِ هاديًا بشمسٍ على شمسٍ ونجمٍ على نجمِ

ومن هنا كان الفَقْرُ ظاهرةً بين العلماء؛ وذلك لأنهم قدّموا لذّةَ العلم باختيارهم على جميع اللذّات -ومنها الاشتغالُ بطلب الدنيا- فافتقروا! قال الإمامُ الشافعيُّ: «فَقْرُ العلماء فَقْرُ اختيار، وفَقْرُ الجُهَّال فَقْرُ اضطرار»[٢].

وعليه: فإنَّ المُكْرَهَ على الشيء لن يُبدِعَ فيه البتَّةَ؛ لأنه في قرارة نفسه غيرُ مُقتنِعٍ بما يفعل؛ كما قال أبو إسحاق الصَّابي لصديقٍ دخل عليه وهو مشغولٌ بتأليف كتاب «التَّاجي» في أخبار بني بُوَيْه، الذي أمره به عَضُدُ الدولة ابنُ بُويْه، وسأله عمَّا يعملُ، فقال: «أباطيلُ أُنمِّقُها، وأكاذيبُ أُلفِّقُها!»[٣].

---

(١) الخِلْم: هو الصديقُ الخالصُ. المعجم الوسيط مادة: (خ ل م).

(٢) مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٤٩).

(٣) معجم الأدباء (١/ ١٣١).

وانظر: كُناشَة النوادر: لعبد السلام هارون (ص/ ٩٧).

وهذا هو الذي يجلِّي لنا حالَ طُلَّابِ الجامعاتِ اليوم، حيثُ يَتخرَّجُ منهم كلَّ عامٍ عشراتُ الآلافُ، بينما لا يتخرَّجُ منهم على الحقيقة إلا العشراتُ! ذلك لأنّ الطالبَ لا يُقْبِلُ على التخصُّص الذي الْتحَق به بحبٍّ ورغبةٍ، بل يَلتحقُ به: إمّا لأنه تخصُّصٌ سَهْلٌ، أو بِناءً على رغبةِ أهله، أو مسايرةً لأصحابه وأقرانه، أو لأنّ له مُستقبلًا ماديًا أرْقى، أو لغير ذلك من النَّوايا؛ وكلُّ هذا لا يُثْمِر!

رابعًا: الصَّبرُ وعدمُ الاستعجالِ:

هذا العُنْصُرُ مُتفرِّعٌ عن العناصر التي سبَقتْ، فينبغي على الباحثِ المبدِعِ التريُّثُ وعدمُ الاستعجالِ؛ وذلك للوصولِ إلى أفضلِ النتائج.

والاستعجالُ آفةٌ يَقعُ فيها كثيرٌ من المشتغلين بالعلم اليوم، وما هذا الرُّكامُ المعروضُ في المكتبات مِنْ البُحوث المُرتَجَلَة، والكتب المستعجلَة، إلا خيرُ شاهدٍ على هذا!

فتجدُ أحدَهُم يَتصدَّى للتأليف في مسألةٍ من المسائلِ الكِبارِ النازِلةِ التي لو عَرَضَتْ لعُمرَ بنَ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لجمَعَ لها أهلَ بدرٍ[1]! فيُؤلِّفُ فيها

---

(١) قال الإمامُ مالك: «ما شَيءٌ أشدَّ عليَّ مِنْ أنْ أُسألَ عن مسألةٍ من الحلال والحرام؛ لأن هذا هو القطعُ في حكم الله. ولقد أدركتُ أهلَ العلم والفقه ببلدنا وإنّ أحدَهم إذا سُئل عن مسألةٍ كأنّ الموتَ أشرفَ عليه، ورأيتُ أهلَ زماننا هذا يَشتهون الكلامَ فيه والفُتيا، ولو وقفوا على ما يَصيرون إليه غدًا لقلَّلوا من هذا.
وإنّ عمرَ بنَ الخطاب وعليًّا وعامّةَ خِيار الصحابة كانتْ تَرِدُ عليهم المسائلُ وهم خيرُ القَرْنِ الذي بُعث فيهم النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكانوا يَجمعون أصحابَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويَسألون، ثم حينئذٍ يُفتون فيها، وأهلُ زماننا هذا قد صار فَخرُهُم الفُتيا؛ فبقدْرِ ذلك يُفتَحُ لهم من العلم!».
ترتيب المدارك (١/ ١٧٩)، والموافقات (٥/ ٣٢٤) والنقلُ منه.

بلا رَيْثٍ ولا ثَبْتٍ كتابًا مُستَعْجَلًا مَهْزُولًا! ولو حَقَّقَ ودَقَّقَ لَبَدَا له وبَدَا!

وبعضٌ ممّن امْتَهَن صَنعةَ التأليف في هذا الزمان، يَحْتازُ لنفسه أضْخمَ العناوين؛ لِيُورِدَ تحتَها أهونَ الكلام!

وبعضٌ آخرُ يَفتخِرُ في مقدّمة كتابه أنه ألّفه في فترةٍ وجيزةٍ![1]، أو أنه ألّفه من طَرَف الذِّهْن ولم يُراجِعْ فيه كتابًا![2]، وهذا غايةُ الامتهانِ للقُرّاءِ.

ولهذا؛ جاء مدْحُ الأناةِ وذمُّ العجلةِ في غيرِ ما حديثٍ عن النبيِّ ﷺ؛ منها: حديثُ عبدِ الله بنِ سَرْجِسَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«السَّمْتُ الحسَنُ، والتُّؤَدَةُ، والاقتصادُ، جُزءٌ من أربعةٍ وعشرينَ جُزءًا من النُّبوة»**[3].

وحديثُ سهلِ بنِ سعدٍ الساعديِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مرفوعًا: **«الأناةُ من الله، والعَجَلةُ من الشيطان»**[4].

---

(١) **وازِنْ هذا** بما قال الإمامُ البيهقيُّ عن «مختصر الـمُزنيّ» ـ في الفقه الشافعي ـ: «لا أعلمُ كتابًا صُنِّف في الإسلام أعظمَ نفعًا وأعمَّ بركةً وأكثرَ ثمرةً من كتابه». مناقب الشافعي (٢/ ٣٤٨).
وسببُ ذلك: ما نقلَه ابنُ خُزيمة عن الـمُزَنيّ، قال: «كنتُ في تأليف هذا الكتاب عشرينَ سنةً، وألَّفتُه ثمانِ مرَّاتٍ وغيّرتُه، وكنتُ كُلَّما أردتُّ تأليفَه أصوم قبله ثلاثةَ أيامٍ، وأُصلِّي كذا كذا ركعةً!». مناقب الشافعي (٢/ ٣٤٩)، والمجموع للنووي (١/ ١٠٧).

(٢) **وفي هؤلاءِ يقولُ الإمامُ الزَّرْكَشِيُّ**: «اعلمْ أنَّ بعض النَّاس يَفْتخِرُ ويقولُ: كتبتُ هذا وما طالعتُ شيئًا من الكُتُب! ويظُنُّ أنه فَخْرٌ ولا يَعلم أنَّ ذلك غايةُ النَّقْص! فإنه لا يَعلمُ مَزِيَّةَ ما قاله على ما قيل، ولا مَزيَّةَ ما قيل على ما قاله، فبماذا يَفتخِر؟!» البرهان في علوم القرآن (١/ ١٦).

(٣) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة: باب ما جاء في التأني والعجلة ٤/ ٣٢١-٣٢٢ (٢٠١٠) وحسنه الترمذيُّ والألبانيُّ.

(٤) أخرجه الترمذي في السنن، كتاب البر والصلة: باب ما جاء في التأني والعجلة ٤/ ٣٢٢ (٢٠١٢) بسندٍ حسنٍ.

وحديثُ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ فِي الأمر كلِّه»[١].

فالعجَلَةُ لا شَكَّ أنها تُؤدِّي إلى نتائجَ ضعيفةٍ، لا سيّما في المسائل العِلميّة التي تحتاجُ إلى تَحرٍّ وتَأنٍّ وتُؤَدَةٍ[٢].

وإليك بعضَ الأمثلة على التُّؤَدَة والتأنِّي في العلم والنظر من حال صالح السَّلَف:

فهذا عمرُ بنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول:** «إنّي لا أدعُ بعدي شيئًا أهمَّ عندي من الكَلَالَة، وما راجعتُ رسولَ الله ﷺ في شيءٍ ما راجعتُه في الكَلَالَة، وما أغلظَ لي في شيءٍ ما أغلظَ لي فيه، حتى طعن بإصبعِهِ في صدري، فقال: «**يا عمرُ، ألا تكفيكَ آيةُ الصَّيفِ التي في آخرِ سورةِ النِّسَاءِ؟!**» وإني إنْ أعِشْ أقضِ فيها بقضيّةٍ يَقضي بها مَنْ يَقرأُ القرآنَ، ومَنْ لّا يَقرأُ القرآنَ»[٣].

قال النوويُّ: «وإنما أخَّر القضاءَ فيها؛ لأنه لم يَظْهرْ له في ذلك الوقت

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم: باب إذا عرض الذمي وغيره... ٦/ ٢٥٣٩ (٦٥٢٨).

(٢) **لطيفة:** كان بعضُ الشيوخ يقول: يُؤخذُ من قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ الآية - مَنْعُ تَكلُّم الإنسان في شيءٍ بما لَا يَعلمُ، كما في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾، قال: وحكى لنا شيخُنا القاضي أبو عبد الله بنُ عبد السلام: أنه رأى في سُوق الكُتْبِيّين «الفصيحَ» لثعلب، وعلى ظهره بخطِّ سيّدي أبي علي عمر القرويّ تعدادَ ما توهّم أنه وقع فيه من الآثام والخطايا! فقال في جُملتها: وتكلّم عمرُ القرويُّ في اليوم الفلانيِّ، في مسألةٍ من النحو مع الطلبة وهو غيرُ ضابطٍ لأصولها! **انظر:** تفسير ابن عرفة (١/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا... ١/ ٣٩٦ (٥٦٧) وفي كتاب الفرائض، باب ميراث الكلالة ٣/ ١٢٣٦ (١٦١٧).

ظُهُورًا يَحكُمُ به، فأخَّره حتى يَتمَّ اجتهادُهُ فيه، ويَستوفي نظَرَهُ، ويتقرَّرَ عنده حُكْمُهُ، ثم يَقضي به ويُشِيعُه بين الناس»[١].

وقال الإمامُ مالكٌ: «ربّما وَرَدَتْ عَليَّ المسألةُ فأَسْهَرُ فيها عامّةَ لَيْلِي!».

وقال أيضًا: «ربّما وَرَدَتْ عَليَّ المسألةُ فأفكِّرُ فيها ليالِيَ!».

وقال أيضًا: «ربّما وَرَدَتْ عَليَّ المسألةُ تمنعني من الطعام والشراب والنوم! فقيل له: يا أبا عبد الله! والله ما كلامُك عند الناس إلا نَقْرٌ في حَجَرٍ، ما تقول شيئًا إلا تلقَّوْه منك. قال: فمَنْ أحقُّ أن يكون هكذا إلّا من كان هكذا؟».

وقال ابنُ عبد الحكم: «كان مالكٌ إذا سُئل عن المسألة، قال للسائل: انصرفْ حتى أنظرَ فيها، فينصرفُ ويتردَّدُ فيها، فقلنا له في ذلك، فبكى وقال: إني أخافُ أن يكونَ لي من السائل يومٌ وأيُّ يومٍ؟!».

وقال ابنُ القاسم: سمعتُ مالكًا يقول: «إني لأفكّر في مسألةٍ منذُ بِضعَ عشرةَ سنةً؛ فما اتَّفَق لي فيها رأيٌ إلى الآنَ!!»[٢].

وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: «ربّما مكثتُ في المسألة ثلاثَ سنينَ قبلَ أنْ أعْتَقِد فيها شيئًا!»[٣].

وقال أيضًا: «كنتُ في كتاب الحيض تسعَ سنينَ حتى فهمتُهُ!»[٤].

---

(١) المنهاج في شرح صحيح مسلم (١١/ ٥٨).

(٢) **انظر الآثار عن الإمام مالك في:** ترتيب المدارك: لعياض (١/ ١٧٨)، والرواة عن مالك: للرشيد العطار (ص/ ٢٩٩)، والموافقات: للشاطبي (٥/ ٣٢٣)، والديباج المُذْهَب: لابن فَرْحون (ص/ ٢٣).

(٣) مناقب الإمام أحمد بن حنبل: لابن الجوزي (ص/ ٢٦٩).

(٤) طبقات الحنابلة (١/ ٢٦٨).

ومما يُستَلْطَفُ هنا: أنَّ أُسامةَ بنَ مُنقِذٍ الأميرَ المجاهد المشهور، أَلَّف كُتُبَهُ بعد التسعين، فقد أَلَّف كتابَهُ «الاعتبار» وهو ابنُ تسعينَ سنةً! وكتابَ «لُبابِ الآداب» وهو ابنُ إحدى وتسعينَ سنةً!(١).

فانظرْ - رعاك اللهُ - إلى حال أسلافنا، ثم اعتبرْ بحالنا اليومَ، حيث تجدُ الواحدَ منَّا يُريد أنْ يَتصدَّرَ في أشْهُرٍ أو سنواتٍ قليلة!

وحتى لو تصدَّر فإنه لن يَثبُتَ؛ لأن العلمَ الذي يأتي بسُرعةٍ يضمحلُّ بسُرعةٍ! وكَمْ مَرَّ معي في كتب التراجم من أحوال العلماء الذين طلبوا العلم ثلاثينَ أو أربعينَ أو خمسينَ سنةً! بل ربّما تمادى الحالُ ببعضهم إلى أنْ يُدركَه الموتُ وهو لا يزال طالبًا مُقيِّدًا! كما ذكر الحُمَيْديُّ في ترجمة الحسين بن علي الفاسي قال: لم يزلْ يَطلُبُ ويَختلِفُ إلى العلماء محتسِبًا حتى مات! حتى إنه اجتمع مع ابن حزمٍ يومًا، فقال له: يا أبا عليٍّ! متى تنقضي قراءتُك على الشيخ؟ ـ وكان ابنُ حزم يُريد سماعَ كتابٍ آخرَ من ذلك الشيخ ـ فقال: إذا انقضى أجَلي! قال ابنُ حزمٍ: فاستحسنتُها منه(٢).

وقد مثّل ابنُ الجوزي هذا الأمرَ تمثيلًا لطيفًا فقال: «شجرةُ الصَّنَوْبَر تُثمِر في ثلاثين سنة، وشجرة الدُّبَّاء تصعدُ في أسبوعين فتدركَ الصَّنَوْبَرَ، فتقول شجَرةُ الدُّبَّاء: إنَّ الطريقَ التي قَطعْتِ في ثلاثين سنة، قد قطعتُها في أُسبوعين، فيُقال لكِ: شجَرةٌ، ويُقال لي: شجَرةٌ، فتقول شجَرة الصَّنَوْبَر: مهلًا إلى أنْ

---

(١) ينظر: مقدّمة الشيخ/ أحمد شاكر لكتاب: «لباب الآداب» (ص/ ٢٥).

(٢) انظر: جذوة المقتبس (١/ ٢٩٩).

تهُبَّ رِياحُ الخريف!»[١] **يعني**: أنها لن تَثبُتْ لها.

وفي هذا المعنى **يقول سَعْدي الشِّيرازي**:

والقولَ لم تُعْمِلْ بهِ التَّأمُّلا ... كالثوبِ من غيرِ قِياسٍ فُصِّلا

قليلُهُ من بعدِ إعمَالِ الفِكَرْ ... أفضلُ من طُولِ الكلامِ في الهذَرْ

لا تَرْمِ آلافَ السهامِ خائبَا ... وارْمِ إذا تَعْقِلُ سَهْمًا صَائِبَا

والخلاصةُ: أنَّ المطلوب من المبدع هو التمهُّلُ والتريُّثُ وعدمُ استعجال النتائج، ولا يلزمُ من هذا أنْ يبقى المبدِعُ يُعالِجُ مسألةً واحدةً دهرَهُ كلَّه؛ كلّا؛ فليس هذا هو المرادُ، وإنما الشأنُ **كما قال الشيخ فالح الظاهري**[٢]:

خيرُ الأُمورِ الوَسَطُ الوسِيطُ ... وشَرُّها الإفراطُ والتفريطُ

خامسًا: الانصرافُ الكُلِّيُّ للعلم، والاستغراقُ التامُّ فيه:

هذا الأمرُ من المهمّات لدى طالب العلم الذي يَنشُدُ الإبداعَ، فينبغي أن يكون وقتُه كلُّه مُستنفَدًا في البحث والنظر، والتقييد والدَّرْس، والقراءة والحفظ... إلخ، فليس في حياة المبدِع شيءٌ يُسمَّى فَراغًا، بل ينبغي أن يكون وقتُه كلُّه مشغولًا بما ذكرتُ؛ فإنّ المُجِدَّ لا يَركنُ للرَّاحة ولا يَرتضِيها؛ ولهذا

---

(١) اللطائف (ص/ ٢٢).

وانظر: إحياء علوم الدين: للغزالي (٤/ ٨).

(٢) في منظومته في مصطلح الحديث (٢٣/ ب)، من مخطوطات مكتبة المسجد النبوي الشريف.

دَرَجَ أسلافُنا على مَقُولة: «**لا يُستطاعُ العِلْم، براحة الجِسْم**»[(١)]؛ فما ظنُّكَ بالإبداع؟!

والشَّقاءُ في الطلب والتحصيل أمرٌ مُحبَّبٌ للنفوس الوثّابة؛ لأنه يُوصِلُ إلى الـمُراد، ولله درُّ أبي الفتحِ البُستيِّ حيث يقول:

يَقولونَ: كمْ تَشْقى بدَرسٍ تُديمُهُ ... وتُمعِنُ فيه دائبًا كلَّ إمعانِ؟

فقلتُ: ذَرُوني إنما أنا كادحٌ ... لأُكْمِلَ ذاتي أو لأَجبُرَ نُقصَاني

---

(١) هذه المقولةُ العظيمةُ توارد عليها عددٌ من العلماء، ولعلّ أولَ من قالها: يحي بنُ أبي كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. **انظر**: صحيح مسلم (١/ ٤٢٨)، والمحدِّث الفاصل: للرامهرمزي (ص/ ٢٠٢)، وجامع بيان العلم وفضله: لابن عبد البر (١/ ٩١)، ونَظَمَ هذه المقولةَ بقوله:

قال الحكيمُ مقالًا ليس يَدفعُهُ ... ذو العقلِ مَنْ كان مِن عُجْمٍ ومِن عَرَبِ

ما إِنْ يَنالُ الفتى عِلمًا ولا أدبًا ... براحةِ النفس واللّذاتِ والطَّرَبِ

نَعَمْ، ولا باكتسابِ المالِ تَجمعُهُ ... شتَّانَ بين اكتسابِ العلمِ والذَّهَبِ

والغنية (ص/ ١٥٤)، وترتيب المدارك (٣/ ٣٨٦)، والإلماع (ص/ ٢٣٤)، وإكمال المعلم (٢/ ٥٧٧) أربعتُها للقاضي عياض، وشرح النووي على مسلم (٥/ ١١٥) - وفيه وفي الذي قبله ذِكْرُ سبب إدخال مسلم هذه الحكايةَ في صحيحه، مع أنه لا يذكر في كتابه إلا أحاديثَ النبي ﷺ محضةً-، وعلوم الحديث: لابن الصلاح (ص/ ٢٦) وما دار في فلكه، والتعريف بالقاضي عياض: لابنه محمد (ص/ ٧٩).

كائنةٌ غريبةٌ: قال يحيى بنُ إسحاق: «ذَكَرَ يحيى بنُ يحيى حديثًا يرويه عن يحيى بن أبي كثير، قال: «لا يُستطاعُ العلم، براحة الجسم»، قال: وإنّ رجلًا ممن بلغه هذا الحديثَ من طلبة العلم، ذكره وهو على بطن امرأته، قبل أن يُفْضِيَ إليها، فأخذ دفترًا من العلم ينظرُ فيه!!». ترتيب المدارك (٣/ ٣٨٦).

إذا لـم يكُـن نُقصـانُ عُمْـري زِيـادةً لِعلْمــي؛ فـإني والبهيمــةَ سِيَّــانِ!

ولذا لم يَسمحِ العلماءُ لأحدٍ كائنًا مَنْ كان بتضييع شيءٍ من أوقاتهم، أو شَغْلِهم عن الدرس والبحث والتحصيل؛ حتى إنَّ ابن الجوزي كان يقول: «لقد رأيتُ خَلْقًا كثيرًا يَجرُون معي فيما قد اعتاده الناسُ من كثرة الزيارة، ويُسمُّون ذلك الترددَّ خِدمةً! ويُطيلون الجلوسَ، ويُجرون فيه أحاديثَ الناس وما لا يَعْني، وما يَتخَلَّلُهُ غِيبةٌ، وهذا شيءٌ يفعله في زماننا كثيرٌ من الناس، وربّما طلبَهُ الـمَزُورُ وتشوَّق إليه، واستوحشَ من الوَحْدَة، وخصوصًا في أيام التهاني والأعياد، فتراهم يمشي بعضُهم إلى بعضٍ، ولا يقتصرون على الهناء والسلام، بل يَمزُجُون ذلك بما ذكرتُه من تضييع الزمان، فلما رأيتُ أنّ الزمانَ أشرفُ شيءٍ، والواجبُ انتهابُهُ بفعل الخير، كرهتُ ذلك، وبَقِيتُ معهم بين أمريْن:

إن أنكرتُ عليهم و قعتْ وَحْشَةٌ؛ لموضع قَطْع المألوف، وإن تقبَّلْتُهُ منهم ضاع الزمانُ؛ فصِرتُ أُدافعُ اللقاءَ جَهْدي، فإذا غُلبتُ قصَّرتُ في الكلام؛ لأتعجَّلَ الفِراقَ، ثم أعددتُ أعمالًا لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم؛ لئلّا يمضي الزمانُ فارغًا، فجعلتُ من المستَعَدِّ للقائهم: قطعَ الكاغَد، وبَرْيَ الأقلام، وحَزْمَ الدفاتر؛ فإنّ هذه الأشياءَ لا بدّ منها ولا تحتاج إلى فِكْرٍ وحضورِ قلبٍ، فأرصدتُها لأوقات زيارتهم؛ لئلّا يضيع شيءٌ من وقتي! نسأل الله ﷻ أن يعرِّفَنا شرفَ أوقات العُمْر، وأنْ يوفِّقنا لاغتنامه!»[١].

---

(١) صيد الخاطر (ص/ ٣٨٥).

وأعجبُ من هذا حالُ الإمامِ أبي بكرِ ابنِ الأنباريِّ اللغويِّ الـمُفسِّرِ؛ فقد حدَّث عن نفسه أنه مضى يومًا إلى سوق النَّخّاسين، وجاريةٌ تُعرضُ حسنةٌ كاملةُ الوصْفِ، قال: «فوقعتْ في قلبي، ثم مضيتُ إلى أمير المؤمنين الراضي، فقال لي: أين كنتَ إلى الساعة؟ فعرَّفتُهُ، فأمَرَ بعضَ أسبابِه، فمضى فاشتراها، وحملها إلى منزلي، فجئتُ فوجدتُها، فعلمتُ الأمرَ كيفَ جرى، فقلتُ لها: كوني فوقُ إلى أن أستبرِئَكِ، وكنتُ أطلبُ مسألةً قد أُحِيلَتْ عَليَّ، فاشتغلَ قلبي، فقلتُ للخادم: خُذْها وامضِ بها إلى النَّخَّاس[1]، فليس قَدْرُها أن تشغلَ قلبي عن عِلمي! فأخذها الغلامُ، فقالتْ: دَعْني أكلِّمْه بحرفيْن، فقالتْ: أنتَ رجلٌ لك مَحَلٌّ وعقْلٌ، وإذا أخرجتَني ولم تعيِّنْ لي ذنبي، لم آمنْ أن يظنَّ الناسُ فيَّ ظنًا قبيحًا، فعرِّفْنِيهِ قبل أن تُخرجني، فقلتُ لها: ما لَكِ عندي عيبٌ غيرَ أنكِ شغلتِني عن علمي! فقالت: هذا أسهلُ عندي، فبلغ الراضي أمرَه، فقال: لا ينبغي أن يكون العلمُ في قلب أحدٍ أحلى منه في صدر هذا الرجل!»[2].

---

(١) النخّاسُ: بائعُ الرقيقِ والدَّوَابّ. انظر: الصحاح (٣/ ٩٨١)، والمعجم الوسيط (٢/ ٩٠٩)، وتكملة المعاجم العربية: لدُوزي (١٠/ ١٨٤).

(٢) تاريخ بغداد (٣/ ١٨٤-١٨٥).

ومثلُه: الشيخُ عبدُ الوهّاب بنُ محمّد بن عبد الله بن فيروز التّميميّ الأحسائيّ (ت ١٢٠٥ هـ). فقد قال عنه ابنُ حميد في السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة (٢/ ٦٨٢): «أكبّ على تحصيل العلم وإدمان المطالعة والمراجعة والمذاكرة والمباحثة ليلًا ونهارًا، لم تنصرف همّتُه إلى غيره أصلًا، حتّى إنّه لمّا تزوّج بأمر والده وإلزامه أخذ ليلةَ الدّخول معه المِحفظةَ (وعاء الكتب)، فلمّا انصرف عنه النّاسُ نزَّل السّراجَ وقعد يطالع الدّروسَ الّتي يريد أن يقرأها في غدٍ، ويقدِّر في نفسه أنّه بعد إتمام المطالعة يباشر أهلَه، فاستغرق في المطالعة إلى =

قلتُ: هكذا ينبغي أن يكونَ العلمُ في صدورِ أصحابِه، قال ابنُ القيم: «أمّا عُشّاقُ العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعِشْقًا له مِن كلِّ عاشقٍ بمَعشُوقِه، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُه عنه أجملُ صُورةٍ من البَشَر!»[(١)].

وأعجبُ من هذا أنه لـمّا أُلقيَ بُنَانٌ الحمّالُ بين يَدَيْ السَّبُعِ، جعل السَّبُعُ يَشُمُّه ولا يَضرُّه! فلما أُخْرِجَ قيل له: ما الذي كان في قلبك حين شَمَّكَ السَّبُعُ؟ قال: كنتُ أَتفكَّرُ في اختلاف العلماء في سُؤْر السِّباع!![(٢)].

فما بالُ طُلّاب العلم اليومَ يَرومونَ الإبداعَ والتفوّقَ وقد شَغَلُوا أنفُسَهُم بتهاويلِ الأقاويلِ والحكايات، وتخاليطِ المواقِعِ والمنتَدَيَات، فاستحقُّوا بذلك وصفَ: (شُيوخِ القَمْرَاءِ)![(٣)].

=

أن أذّن الصّبحُ! فتوضّأ وخرج للصّلاة، وحضر دروسَ والده من أوّلها، ولم يعلمْ والدُه بذلك؛ لكونه لا يُبصر، ولمّا فرغ من الدّروس أتى إليه ولدُه وسلّم عليه، فبارك له، وبارك له الحاضرون.

وفي الليلة الثّانية فعل كفعله بالأمس! ولم يقرُب أهلَه من غير قصدٍ للتّرك، لكن لاشتغاله بالمطالعة، فيقول في نفسه: أطالع الدّرسَ ثمّ ألتفت إلى الأهل، فيستغرق إلى أن يصبح، فأخبرتِ المرأةُ وليَّها بذلك، فذهب وأخبر والدَه بالقصّة، فدعاه والده وعاتبه، وأخذ منه المحفظة، وأكّد عليه بالإقبال عليها!».

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص/ ٦٩).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٦).

(٣) كان الإمامُ الأعمشُ يقول: «إذا رأيتَ الشيخَ ولم يكتبِ الحديثَ فاصْفَعْهُ؛ فإنه من شُيوخِ القَمْراءِ!».

قلتُ: (القائلُ سهلُ بنُ إسماعيل) لابن عقبة (أحد رواة الأثر): ما معنى شيوخ القَمْراء؟ قال: شُيوخٌ دُهْرِيُّون يَجتمعون في ليالي القَمَرِ، فيتحدَّثون بأيام الخلفاء، ولا يُحسِنُ أحدُهم أنْ يتوضأَ للصلاة!! المحدِّث الفاصل (ص/ ٣٠٦).

=

فينبغي لمنْ يَنْشُدُ الإبداعَ: أنْ يجعلَ الكتابَ أنيسَه، والدفترَ جليسَه؛ فإنّ ذلك أَعْوَدُ بالفائدة، وأرجى لجميلِ العائدة.

ولْيتأمَّلْ مَلِيًّا ما قاله الإمامُ الآلوسيُّ في مقدّمة تفسيره «روح المعاني»، حيثُ وصفَ رِحلتَه مع القرآنِ وتفسيرِه مُذْ كان شابًّا يافِعًا، **فقال**: «إنِّي - ولله تعالى المِنَّةُ - مُذ مِيطَتْ عنِّي التمائم، ونيطَتْ على رأسي العمائم، لم أزل متطلِّبًا لاسْتكشاف سِرِّه المكتوم، مترقِّبًا لارْتِشافِ رحيقِه المختوم، طالما فرّقتُ نومي لجمع شوارِدِه، وفارقتُ قومي لوِصالِ خَرائِدِه، فلو رأيتَني وأنا أُصافِحُ بالجبين صفحَاتِ الكتابِ من السَّهَر، وأُطالِعُ ـ إنْ أعْوَزَ الشَّمْعُ يومًا ـ على ضوءِ القَمَر، في كثيرٍ من ليالي الشَّهر، وأمثالي إذ ذاك يَرْفُلُونَ في مَطارِف اللَّهْو، ويُرْقِلُونَ[(١)] في ميادين الزَّهْو، ويُؤْثِرُون مَسَرَّاتِ الأشباح، على لذَّات الأرواح، ويَهَبُونَ نفائسَ الأوقات، لِنَهْب خسائسِ الشهوات، وأنا مَعَ حَدَاثَة سِنِّي، وضِيقِ عَطَني، لا تَغُرُّني حالُهم، ولا تُغيِّرني أفعالُهم، كأنَّ لُبْنَى لُبانَتِي، ووِصَالَ سُعْدَى سعادَتِي، حتى وقفتُ على كثيرٍ من حقائقِه، ووُفِّقْتُ لحَلِّ وفيرٍ من دقائقِه، وثَقَبْتُ - والثناءُ للهِ تعالى - مِن دُرِّهِ بقلم فِكْري دُرًّا مُثْمَنًا، ولا بِدْعَ؛ فأنا - مِن فضلِ اللهِ - الشِّهابُ وأبو الثَّنَا، وقبلَ أنْ يَكْمُلَ سِنِّي عشرينَ جعلتُ أصْدَحُ به وأصْدَعْ، وشَرَعْتُ أدفعُ كثيرًا من إشكالاتِ الأشكالِ وأدْفعْ، وأتجاهرُ بما ألْهمَنِيهِ ربِّي ممّا لم أظفرْ به في كتابٍ من دقائقِ التفسير، وأُعَلِّقُ

=

قلتُ: ما أشبهَ الليلةَ بالبارحة! فإنّ كثيرًا ممّن يُطلَقُ عليهم في عصرنا: (المفكِّرون)! و(المثقَّفون)! و(التنْويريُّون)! يَستحِقُّونَ هذا الوصفَ أيضًا، وبِجدارَةٍ!! واللهُ المستعانُ.

(١) يُرْقِلُونَ: أَيْ يُسْرِعُون. تاج العروس (٢٩/ ٩٥).

على ما أَغْلَقَ مما لم تَعْلَقْ به ظُفُرُ كلِّ ذِي ذِهْنٍ خطير، ولستُ أنا أولَ مَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بذلك، ولا آخِرَ مَنْ سلك في هاتِيكَ المسالِك، فكمْ وكمْ للزمانِ وَلَدٌ مِثْلي، وكمْ تفضّلَ الفردُ - عزَّ شأنُه- على كثيرٍ بأضعافِ فَضْلي»[١].

وعلى نحوٍ من ذلك سار الشهابُ الخفاجيُّ، كما أخبر عن نفسه[٢].

وليتَ مُريدُ التفوُّقِ يعي ما قاله الشاعرُ المصريُّ: صالحُ جَوْدَتْ في وصفِ الباحثِ الطُّلَعَةِ[٣]:

ويَــرى في الكُتْــبِ دُونَ النْــ	ــنَاسِ أحبابًــا وســامِرْ
عاكِفًــا كالعابــدِ الخَــا	شِــعِ في ظِــلِّ الشــعائرْ
نابِشًــا بــين التَّواريــ	ــخِ كجَــلاَّبِ الحــفائرْ
غارِقًــا بــين القواميـ	ـسِ كغــوَّاصِ الجَــواهِرْ
يرضِــعُ الأوراقَ بالحكــ	ــمَةِ مــن ثَــدي المحــابِرْ

---

(١) روح المعاني (١/ ٣).

(٢) انظر كلامه في: ريحانة الألبّا (ص/ ٤).

(٣) من ديوانه (ألحان مصرية) بشيءٍ من التصرّف.

فائدة: وُقوفُ الشاعر صالح جودتْ في قافيته هنا بالسكون على المنصوب المنوّن المُنكَّر جائزٌ على لغة ربيعة، حيثُ يُجيزون إجراءَه مجرى المرفوع والمجرور، كما يقف عامّةُ العرب على المرفوع والمخفوض المنوّنيْن، وكما يقفون هم وغيرُهم على ذي الألف واللام.

انظر: الإنصاف في مسائل الخلاف: للأنباري (٢/ ٦٠٥)، وشرح شافية ابن الحاجب: للأستراباذي (٢/ ٢٧٢).

ويُضحِّي لكتابٍ ذاهبِ الطَّبعةِ نادِرْ
حافظًا كلَّ قديمٍ دَارِسًا كُلَّ مُعاصِرْ
هاتفًا يا عُصبةَ الما لِ وطُلاّبَ المَظاهِرْ
كُلُّ ما أطلُبُ من دُنْـ ـيا كُمُ ديوانَ شاعِرْ!

ولا يُفهم من كلامي هذا أنني أدعو إلى العُزلة التامّة عن الناس، والانطواء على النفس، كلّا! لكنْ لا بُدَّ لراغب التألّق من توفيرِ وقتٍ طويلٍ يخلو فيه بنفسه؛ ليتدبَّرَ ويتمعَّنَ ويقرأَ ويبحثَ، أمَّا أنْ يَبقى وقتَه كُلَّه أو جُلَّه مشغولًا معَ من لّا يَنفعُ، بما لا يَنفعُ، فهذا فيه دَمارُ الأعمار، وفَواتُ الأوطار؛ كما قال الحُمَيْديُّ[1]:

لقاءُ النَّاسِ ليسَ يُفيدُ شيئًا سِوَى الهذَيانِ مِن قِيلٍ وقَالِ
فَأَقْلِلْ مِن لِقاءِ النَّاسِ إلَّا لأخذِ العِلمِ أو إصْلاحِ حَالِ

سادسًا: الاستقصاءُ في البحث، والاستفادةُ التامّةُ مِن الغَيْر، والبَدْءُ مِن حيثُ انتهوْا:

وهذا أمرٌ يَغفُلُ عنه كثيرٌ ممّن يَرومُ الإبداعَ؛ فإنَّ الإنسان لا يستطيع أنْ يُبدِعَ في مسألةٍ أو فنٍّ، إلا إذا أحاط بجوانبه، وتملَّك ناصيتَهُ، عِندَها يكونُ طَرْحُهُ قويًّا ناضجًا، يُقِرُّ له فيه القاصي والدَّاني.

---

(١) انظر: الآداب الشرعية: لابن مفلح (٣/ ٤٥٦) وغذاء الألباب: للسفّاريني (٢/ ٤٧٦).

كذلك فإنه يجب على المبدع الاستفادةُ من كلِّ أحدٍ صغيرًا كان أم كبيرًا، ولا يَحتقرْ أحدًا؛ فإنّ الحكمةَ ضالَّةُ المؤمن وقَصْدُهُ.

كما ينبغي أنْ يبدأَ من حيثُ وقف غيرُه، ولا يُكرِّرُ جُهودَ سَلَفِه، فيجترُّ المسائلَ كما هي، دون أن يُضيفَ إليها شيئًا، بل عليه أن يزيدَ عليها، ويسعى في تطويرها وتحديثها ما أمكنَ، ولوْ أن يُعيدَ طرحَها في قوالبَ جديدةٍ تُناسب عصرَه، وما (التكنولوجيا) المعاصرةُ وتطوُّرها الحثيثُ إلا خيرُ شاهدٍ على هذا الأمر.

وليس عيبًا أنْ يستفيد الإنسانُ من جُهود مَنْ سبقه؛ فإنَّ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية كان ربما قرأ في تفسير الآية الواحدة مئةَ تفسيرٍ قبل أن يُدليَ في تفسيرها بدَلْوِه! كما ذكر هو عن نفسه[١]، هذا مع رسوخ قدمه في العلم وإمامته فيه؛ فكيف بمَنْ دُونَه؟!

سابعًا: بقاءُ المبدعِ في جَوٍّ عِلميٍّ كاملٍ:

بحيثُ يكونُ المحيطُ الذي يَعيشُ فيه مُحيطًا علميًا؛ فإن هذا أرجى للإبداع والتفوُّق، فإن لّم يتحصّلْ له ذلك، فليُحاولْ جُهدَه أنْ يُطوِّع الواقعَ مِن حوله ليكونَ كذلك.

ولذا نجدُ أنَّ الدُّولَ المتقدِّمةَ تَحرِص على إنشاء مدنٍ جامعيةٍ متكاملةٍ،

---

(١) «كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: رُبمَا طالعتُ على الْآيَة الْوَاحِدَة نَحْوَ مئَةِ تَفْسِيرٍ، ثمَّ أسأَلُ اللهَ الْفَهمَ، وَأَقُول: يَا معلِّم آدمَ وَإِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي. وَكنتُ أذهبُ إلى المساجدِ المهجورةِ ونحْوِها وأُمرِّغُ وجهي في التُّرَاب وأسألُ اللهَ تعالى، وأقولُ: يا معلِّمَ إبراهيمَ فهِّمْني» العقود الدرِّية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: لابن عبد الهادي (ص/ ٤٢ – ٤٣).

فيها المساكنُ، والخَدَماتُ المعيشيّةُ، ووسائلُ الترفيه؛ حتى يبقى الأستاذُ والطالبُ طِوالَ الأسبوع داخلَ هذه الدائرة العلمية.

ولقد كان العلماءُ يَحرِصون ويتطلَّبون هذه الأماكنَ المهيّأةَ للعلم، مهما شَطَّتْ ونأَتْ، وما الرِّحلةُ في طلب العلم إلا خيرُ شاهدٍ على هذا، بل رُبما ترك أحدُهم مَسْقَطَ رأسِه ومَحَلَّةَ قومِه، ورحل إلى بلدٍ يبقى فيه حتى يموتَ، كما حصل لجماعةٍ من العلماء؛ **منهم**: مَعْمرُ بنُ راشدٍ الصنعانيُّ، فإنه بَصْريٌّ من الطارئين على اليمن، لكنه طاب له الـمَقامُ في صنعاءَ اليمن، فبقيَ فيها حتى تُوفِّيَ[(١)].

ومثلُهُ أبو الفضل المَرَاغِيُّ؛ حيثُ رحلَ لطلب العلم في بغداد -وكانت بغدادُ إذْ ذاكَ قاعدةَ الخِلافةِ، وحاضِرةَ الدنيا- فمكث يطلبُ العلمَ فيها خمسَ سنين، ثم رحَّل دابتَه ووضع عليها متاعَه وخرجَ إلى الحَلْبة يُريدُ طريقَ خُراسان ليَرجعَ إلى بلده، وتقدَّمه الكَريُّ[(٢)] بالدَّابة، وأقام هو على فاميٍّ[(٣)] يبتاع طعامَه، فبينما هو يُحاول ذلك معه؛ إذْ سمعه يقول لفاميٍّ آخرَ: أيْ فُلُ! (يعني: يا فلان) أمَا سمعتَ العالِـمَ يقول: إنَّ ابنَ عباسٍ يُجوِّز الاستثناءَ ولو بعد سنةٍ، لقد اشتغل بالي بذلك منه منذُ سمعتُه يقول، وظَلِلْتُ فيه مُفكِّرًا،

---

(١) وذلك أنه لما دخل صنعاءَ، كَرِهوا أن يَخرجَ من بين أظهُرِهم، فقال لهم رجلٌ: قَيِّدُوه. فزَوِّجُوه! **انظر**: سير أعلام النبلاء (٧/ ١٠).

قلتُ: يا لَهُ مِن قيدٍ!!

(٢) **الكَرِيُّ**: هو الذي يُؤجِّرك دابتَه، فَعِيلٌ بمعنى مُفْعِلٌ. **انظر**: المعجم الوسيط (مادة: ك ر ي).

(٣) **الفاميُّ**: هو بائعُ الطعام من بُقُولٍ وخبزٍ ونحوِها، مُغَيَّرٌ عن فُومِيٍّ. **انظر**: القاموس المحيط (مادة: ف و م).

ولو كان ذلك صحيحًا لما قال اللهُ تعالى لأيوبَ: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ [سورة ص:٤٤]، وما الذي يمنعُهُ من أنْ يقول له حينئذٍ: قُلْ إنْ شاء الله! فلمَّا سمعتُه يقول ذلك، قلتُ: بلدٌ يكون الفاميُّون به من العلم في هذه المرتبة أخرُجُ عنه إلى المراغة[١]؟! لا أفعلُه أبدًا، واقتفى أَثَرَ الكَرِيِّ، وحَلَّله من الكِراءِ، وصرَف رَحلَهُ، وأقام ببغدادَ حتى مات![٢].

ولهذا لما مَرَّ العِزُّ بنُ عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكَرْكِ[٣] - وكان قد خرجَ من دمشقَ بعد أن غضب عليه الوَالِي - تلقَّاه واليها بالترحاب، وسأله الإقامةَ عنده، **فقال له العِزُّ**: «بلدُكَ صغيرٌ على عِلْمي!»[٤].

وعليه: فلْيحْرِصْ طلابُ الجامعاتِ على الاستفادةِ من كلِّ لحظةٍ يَقضُونها أثناءَ دراستِهم الجامعيةِ؛ لأنَّ الفترةَ محدودةٌ؛ والوقتُ يَمُرُّ مَرَّ السحابِ.

ثامنًا: العِنايةُ بالصِّحَّةِ والنَّشاطِ:

ومن ذلك: الاعتناءُ بالطعام والرِّياضة، وقد تقدَّم شيءٌ من هذا عند الكلام على (القوَّة الجَسَدِيّة)، **بَيْدَ أنِّي أُضيفُ هنا ثلاثةَ أمورٍ:**

١- أنه ينبغي للإنسان أن يعتنيَ بصحّته وقوّته؛ فيُرَيِّضُ جِسمَه بلونٍ من

---

(١) المراغَة: هي مدينة أذربيجان. الروض المعطار: للحميري (ص/ ٥٣٥).

(٢) أحكام القرآن: لابن العربي (٢/ ٦٤٧).

(٣) **قال ياقوت**: «بسكون الراء، وآخره كاف: قريةٌ في أصل جبل لبنان». معجم البلدان (٤/ ٤٥٢).

(٤) طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي ٨/ ٢١٠.

إضاءة: عقد ابنُ خلدون في المقدّمة (ص/ ٤٧٣) فصلًا مهمًا في أنّ العلومَ إنما تَكثُرُ حيثُ يَكثُرُ العُمرانُ وتَعظُمُ الحضارةُ، فراجعْه إنْ شئتَ الاستزادة.

ألوانِ الرياضةِ التي يُحبُّها، بما يُنشِّطُهُ ولا يُجهِدُهُ[١]؛ كرياضةِ المَشْيِ مَثَلًا[٢].

وفي هذا يقولُ معروفٌ الرُّصافيُّ[٣]:

لا بدَّ من هَزْلِ النفوسِ، فجِدُّها ... تَعَبٌ، وبعضُ مِزاحِها اسْتِجْمامُ

فإذا شَغلْتَ العقلَ فَالْهُ سُوَيْعةً ... فاللّهوُ للعقلِ الطَّلِيحِ جِمامُ

والفِكْرُ مَنْهَكَةٌ فباستِمرارِه ... تَهِنُ العُقولُ وتَهْزُلُ الأجْسَامُ

ورِياضةُ الأبدانِ مَلْعَبَةٌ، بها ... حَفِظَتْ نشاطَ جُسومِها الأقْوامُ

إنّ الجُسومَ إذا تكونُ نَشِيطةً ... تقْوى بفَضْلِ نشاطِها الأحْلَامُ

---

(١) قال ابنُ القيّم: «الرياضةُ المعتدِلةُ هي التي تَحْمَرُّ فيها البَشَرةُ، وتَربُو ويَتَندَّى بها البدنُ، وأما التي يَلزمُها سَيَلانُ العَرَق فمُفْرِطَةٌ، وأيُّ عُضْوٍ كَثُرَتْ رياضتُه قَوِيَ، وخصوصًا على نوعِ تلك الرياضةِ، بل كلُّ قوةٍ فهذا شأنُها، فإنّ مَنْ استكثرَ من الحِفظ قَوِيتْ حافظتُه، ومن استكثرَ من الفِكْر قَوِيتْ قُوّتُه المفكِّرةُ، ولكلِّ عُضوٍ رياضةٌ تَخصُّهُ، فللصدْر القراءةُ، فلْيَبتدئْ فيها من الخِفْيةِ إلى الجَهْر بتدريجٍ. ورياضةُ السَّمْع بسَمْعِ الأصواتِ والكلامِ بالتدريجِ، فينتقلُ من الأخفِّ إلى الأثقل، وكذلك رياضةُ اللسانِ في الكلام، وكذلك رياضةُ البَصَر، وكذلك رياضةُ المشْيِ بالتدريج شيئًا فشيئًا، وأما ركوبُ الخيل، ورميُ النشَّابِ، والصِّراعُ، والمسابقةُ على الأقدام، فرياضةٌ للبدن كلِّه، وهي قالعةٌ لأمراضٍ مُزمنةٍ، كالجُذام، والاستسقاء، والقُولَنج». زاد المعاد (٤/ ٢٤٧).

(٢) ذكَر الأطباء: أنَّ رياضة المشي مفيدةٌ جدًا لإزالة التَّعب الذِّهني، كما أنها تُعوِّض الدمَ الذي ينقُص بكثرة الأعمال العقلية، إضافةً إلى فوائدها الأخرى الجمّة.

انظر: الطريق إلى العبقرية: لمقداد يالجن (ص/ ١٣٠).

وممّا يُؤْثَرُ عن الشيخ ابن عُثيمين- رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكان مَشَّاءً - قولُه: «مَنْ تَرَكَ المشْيَ تَرَكَهُ المشْيُ!».

(٣) ديوان الرُّصافي (ص/ ٥٥٨ - ٥٥٩).

كما يَنتقي لبدنه من الطعام: الحلالَ الطيبَ، دون إسرافٍ ولا تقتيرٍ، ويَتجَنَّبُ الأطعمةَ التي تُضعِفُ الحفظَ وتُفسدُ المزاجَ، ويُقبِلُ على الأطعمة التي تُصلِحُ ذِهنَه وتقوِّي خاطرَه وتَشْحذَه - وهي مذكورةٌ في كتب الطبِّ، وأدبِ الطَّلَب[١] -؛ لأنَّ الإنسانَ إذا لم يُراعِ هذا الجانبَ ربما أُصيبَ بمرضٍ،

---

(١) مِن الأشياء التي ذكروا أنها تُقوِّي الحفظَ، وتُصفِّي الذِّهنَ: الكُنْدُرُ -وتُسمِّيه العامّةُ: حصى لبان- وأكلُ الزبيب على الرِّيق، والتمرُ، وقَلْبُ الفُستق، وشُربُ العسل، والجَلَّاب، والبَلاذُر، واللُّبان الذَّكَر.

انظر: الطب النبوي: للذهبي (ص/ ١٥١)، وطب النبيّ: للمُستغفري (ص/ ٨)، والآداب الشرعية: لابن مفلح (٢/ ٤٠٤)، والطب النبوي: لابن طولون (ص/ ٢٢٧)، والمقاصد الحسنة: للسخاوي (ص/ ٦٩٢)، وكشف الخفاء: للعجلوني (١/ ٥١٢)، والمعيد في أدب المفيد والمستفيد: للعلموي (ص/ ١٠٠)، والسعاية في كشف ما في شرح الوقاية: للّكنوي (ص/ ٥٣٢).

- ومن الأشياء التي ذكروا أنها تُضعِفُ الحفظَ، وتُورِثُ النِّسيانَ والبلادةَ وضعفَ الحواسِّ: أكلُ: الكُزبرة الخضراء، والتفّاح الحامض، والجُبْن، والباقلَّاء، وشُرب الخَلّ، وكثرة تناول الألبان والأسماك، ومَضْغ العِلْك، وإدمان أكلِ لحوم الجِمال.

انظر: الكامل: لابن عدي (٢/ ٤٨٣)، والطيوريّات: للسِّلَفي (٣/ ٩٥٦)، والحث على حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ: لابن الجوزي (ص/ ٣٩)، والنصيحة الكافية لمن خصّه الله بالعافية: لزَرُّوق (ص/ ٢)، ومحاضرات الأدباء: للراغب (١/ ٦١)، وميزان الاعتدال (١/ ٥٧٣)، والطب النبوي: للذهبي (ص/ ١٥١)، وطب النبيّ: للمُستغفري (ص/ ٨)، وزاد المعاد: لابن القيم (٤/ ٣٥٥)، والطب النبوي: لابن طولون (ص/ ٢٢٨)، والمقاصد الحسنة: للسخاوي (ص/ ٦٩١)، ونزهة المجالس ومنتخب النفائس: للصفوري (٢/ ١٦١)، وروض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار: للأماسي (ص/ ٣٨٩)، والديباج المذهب: لابن فرحون (ص/ ١٣٣)، والمعيد في أدب المفيد والمستفيد: للعلموي (ص/ ١٠٠)، وغذاء الألباب: للسفاريني (٢/ ٥١).

- وقد جمع الشيخُ عَلَمُ الدين السخاوي ما يُورثُ النسيانَ في أبياتٍ قال فيها:

=

أو شَلَّ تفكيرُهُ شَلَلًا يُبطِل نشاطَه وقوَّتَه، قال الإمامُ القَرافيُّ: «أكل لحوم الحيوان من فروض الكفاية؛ لئلَّا تَضعُفَ العقولُ عن العلوم، والأجسادُ عن مُلاقاة الأعداء، فتُستأصَلُ شَأْفَةُ الإسلام، وتُفقَدَ هُداةُ الأنام»(١).

وهذا الإمامُ النسائيُّ صاحبُ «السُّنن» كان قُوتُه كلَّ يومٍ كما قيل: رِطْلَ خُبزٍ جيِّدٍ، يُؤخذُ له من سُويقة العَرافين لا يأكلُ غيرَه، وكان يُكثر أكلَ الدُّيوك

=

تَوَقَّ خِصالًا خَوفَ نِسيانِ ما مَضى ... قراءةَ ألواحِ القُبورِ تُديمُها

وأكلُكَ للتفّاح ما كان حامضًا ... وكُزبرةً خضراءَ فيها سُمومُها

كذا المشيُ ما بين القِطَار وحَجْمُك الـ ... ـقَفَاءَ، ومنها الهمُّ وهْوَ عَظيمُها

ومِن ذاك بولُ المرء في الماء راكدًا ... كذلكَ نَبْذُ القَمْل لستَ تُقيمُها

ولا تَنظُرِ المصلوبَ في حال صَلْبِه ... وأكلُكَ سُؤْرَ الفأْر، وهْوَ تَميمُها

انظر: حياة الحيوان الكبرى: للدَّميري (٢/ ٢٧٣).

وقد زِدتُ عليها:

وجُبْنٌ، وباقِلّا، وعِلْكٌ يَلوكُه ... وخَلٌّ، ولحمٌ للجِمالِ يُديمُها

وكثرةُ ألبانٍ، وأسماكُ لُجّةٍ ... تُضافُ لما قال السخاويْ عظيمُها

غَريبَة: قيل لأبي الحسن عليّ بن الحسن، النحويّ، اللغويّ، المعروف بشُمَيْم الحِلِّي (ت٦٠١هـ): لم سُمِّيتَ بشُمَيْمٍ؟ فضحك، وقال: اعلمْ أنني بقيتُ مُدَّةً لا آكلُ إلّا الطِّين، قَصْدًا لتنشيف الرطوبة، وحِدَّةِ الحِفظ! فكنتُ أبقى مُدَّةً لا أتغوَّطُ، ثم يجيءُ كالبُنْدُقة من الطِّين، فكنتُ آخذُه وأقولُ لمن أنْبَسِطُ إليه: شُمَّهْ؛ فإنه لا رائحةَ له!! فلُقِّبْتُ بذلكَ. تاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٤٢).

(١) الأمنيّة في إدراك النيّة (ص/ ٢٩).

الكِبار، تُشتَرى له وتُسَمَّن، ثم تُذبحُ، فيأكلُ منها كلَّ يومٍ دِيكًا، ويشربُ عليه نَقيعَ الزبيب الحلال، وكان يُؤثِرُ لباسَ البُرُود النُّوبِيّة الخُضْر، ويقول: «هذا عِوضٌ من النَّظر إلى الخُضْرة من النبات فيما يُراد لقوّة البَصَر»[(١)].

وذُكِرَتْ أشياءُ من هذا القبيل عن ابن المبارك، وابن الجوزيّ، وغيرِهم.

٢- أنَّ كثيرًا من العلماء كانوا يستعملون بعضَ الوَصْفات الغذائيَّة والدوائية؛ لِتقويةِ الحِفظ وشَحْذ الذِّهْن، كما تركوا أشياءَ أُخرى؛ لأنها تُؤثِّر على الذِّهن وتُضْعِفُ الحِفظَ.

وسببُ ذلك أنّ بعضَ الأطعمة تُساعِد على جَفَاف البَلْغَم، مما يُساعد على الحِفظ والفَهم[(٢)]، ولهذا؛ فإنك تجد أنَّ أحسن الأوقات للحفظ وصَفاء الذِّهن، هي التي تَعقُبُ النومَ؛ لأنّ البَلْغَمَ يكون جافًّا بعدَه[(٣)]؛ قال الشافعيّ: «ما رأيتُ صاحبَ بَلْغمٍ أحفظَ من الحُمَيْديِّ، كان يحفظُ لسفيانَ بنَ عُيينةَ عَشَرةَ آلاف حديثٍ!»[(٤)].

وقال الحاكمُ: «حدثنا أبو زكريا العَنبريُّ، حدثنا أحمدُ بنُ سلمةَ، سمعتُ

(١) انظر تهذيب الكمال: للمزِّي (١/ ٣٣٧).

(٢) قال الزَّرْنُوجي: «كلُّ ما يقلِّل البلغمَ والرُّطوباتِ يزيد في الحفظ، وكلُّ ما يزيد في البلغم يُورث النسيانَ». تعليم المتعلم طريق التعلم (ص/ ٦١).

(٣) جاء في كتاب الحاوي في الطب للرازي (٧/ ٣٦٩): «إذا كان البدنُ كثيرَ البلْغم، نقيًّا من الحمّيّات، كثيرَ الأخلاط النيِّة، فإن النّومَ يَهضمُها ويُولِّد دَمًا نقيًّا جيدًا، فيَسخَنُ الْإنسانُ بكثرة الحرارة الغريزية».

(٤) تاريخ الإسلام (١٥/ ٢١٣)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ٦١٨)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢/ ١٤٠).

إسحاقَ، يقول: قال لي عبدُ الله بنُ طاهر: بَلَغَني أنكَ شربتَ البَلَاذُر[(١)] للحفظ!

---

(١) **البَلَاذُر**: نباتٌ طبّيٌّ من فصيلة البُطْميّات، وشجرتُه تنبت بأرض الهند والصين وإفريقيا، وهو يشبه القَسْطَل لونًا وشكلًا، ولُبُّه مثلُ لُبِّ الجَوْز، ويُطلق عليه أيضًا (حَبّ الفَهْم) و(الكاشُو)، ذكروا أنه جيدٌ لفساد الذهن والنسيان وذهاب الحفظ، لكنه مضرٌّ جدًّا كما سيأتي.

وقد أورده ابنُ سينا في «قانونه» في قسم السُّموم، وقال: «يَعرِضُ منه تقطيعٌ في الحلْق والجوْف، والتهابٌ، وأمراضٌ حادّةٌ، وَرُبَمَا عطّل بعض الْأعضاء وإذا سَلِمَ منها أحدثَ الوَسواسَ بإحراقه السَّوْدَاءَ، وَالْقَاتِلُ منه مِثقالان، ورُبّما لم يَضُرَّ بعضَ النَّاس بالخاصِيّة، وخُصوصًا إذا أكلوه بالجَوْز، وقد رأيتُ مَن كان يَقضِمُ منه بالجَوْز قَضْمًا لا يتَأَذّى منه».

- وقال رضا أحمد صمدي: سمعتُ مشايخَنا في المغرب يُحذِّرون منه، ويَروون أن الغُماريّين حينما كانوا يستخدمونه، كانوا يُطعمونه للدجاج حتى يسقطَ ريشُها، ثم يطبُخون الدجاجَ ويأكلونَه، ولا يأكلون البلاذُرَ مباشرةً، ورُوي أنه أكله أحدُ طلبة الغُماريّين فصارتْ تتهيأُ له مناظرُ وحوادثُ حتى عُدَّ بين الناس مجنونًا!

انظر: القانون في الطبّ (٣/ ٢٩٠)، والمعتمد في الأدوية المفردة: للتركماني (ص/ ٣١)، ومعجم اللغة العربية المعاصرة: لأحمد مختار عمر (١/ ٢٣٧)، وتكملة المعاجم العربية: لدوزي (٨/ ٢٢٢)، وملتقى أهل الحديث بتاريخ (١٣/ ٦/ ٢٠٠٢م).

- وقد شربه جماعةٌ من العلماء لزيادة الحفظ - حتى إنّ بعضَهم نُسِبَ إليه - منهم:

١- أبو داود الطيالسي: شرب البَلاذُر فحفظ أربعين ألفَ حديثٍ. المنتظم: لابن الجوزي (١٠/ ١٣٣).

٢- عبد الرحمن بن مهدي: شرب البَلاذُر للحفظ فحفظ عشرةَ آلاف حديثٍ. المصدر نفسه (١٠/ ١٣٣).

٣- إبراهيم بن محمد بن شنظير الأموي، من أهل طليطلة، اختصر «المدوَّنة»، و«المستَخرَجة»، وكان يحفظهما ظاهرًا ويُلقي المسائلَ من غير أن يُمسك كتابًا، ولا يقدّم مسألةً ولا يؤخّرها! الصلة: لابن بشكوال (ص/ ٩٣).

٤- عبد الله بن إبراهيم بن حجّاج الكُتامي السِّبْتي، كان من أهل الحفظ والمعرفة بالفقه وعلم التوحيد والاعتقاد. يقال: إنه شرب البَلاذُر للحفظ فانتفع به، لكنه أورثه حِدَّةً في خُلُقه. المصدر نفسه (ص/ ٢٨٧).

وغيرُهم كثيرٌ كما سيأتي.

قلتُ: ما هممتُ بذلك، ولكن أخبرَني معتمرُ بنُ سليمان، قال: أخبرنا عثمانُ بنُ ساجٍ، عن خُصيفٍ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: خُذْ مِثْقالًا مِن كُنْدُرٍ[(١)]، ومِثْقالًا مِن سُكَّرٍ، فدُقَّهما، ثم اقْتَحِمْهُمَا على الرِّيق؛ فإنه جيدٌ للنسيان والبول. فدعا عبدُ الله بقرطاسٍ فكَتَبَه»[(٢)].

وقال المَغَاميُّ: «كانت لابن حبيب قارورةٌ، قد أذابَ فيها اللُّبانَ في العَسَل، يشربُ منها كلَّ غَداةٍ على الرِّيق؛ للحفظ»[(٣)].

لكنّ أعظمَ وصفةٍ عندهم هي **شُربُ ماءِ زَمْزَمَ**؛ فقد شَرِبه جَماعةٌ من العلماء لحفظ العلم؛ عَمَلًا بحديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ: «ماءُ زَمْزَمَ لما شُرِبَ لَهُ»[(٤)]؛ منهم: الشافعيُّ[(٥)]، وابنُ خُزيمةَ[(٦)]، والحاكمُ[(٧)]،

---

(١) الكُنْدُر: بالضم: ضرْب من العِلْك، نافع لقطع البَلْغم جدًّا. القاموس (ك ن د ر).

(٢) سير السلف الصالحين: للأصبهاني (ص/ ١٠٧٥)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٣٦٨).

(٣) ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٤/ ١٣٨)، والديباج المذهب: لابن فرحون (ص/ ١٥٦).

(٤) رواه أحمد في المسند ٢٣/ ١٤٠رقم (١٤٨٤٩)، وابن ماجه في السنن، كتاب المناسك: باب الشرب من زمزم ٢/ ١٠١٨(٣٠٦٢) وغيرُهما، وقد حسّنه ابنُ القيم والمنذريُّ، وقوّاه ابنُ حجر والألبانيُّ.

(٥) ذكر الفاسيُّ أن الإمامَ الشافعيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ شرب زمزمَ للعلم؛ فكان فيه غايتَه، وللرمي؛ فكان يُصيبُ العشرةَ من العشرة، والتسعةَ من العشرة. انظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (١/ ٣٣٨).

(٦) قيل لابن خزيمةَ يومًا: مِن أين أُوتيت العلمَ؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «ماء زمزم لما شُربَ له»، وإني لما شربتُ ماءَ زمزمَ سألتُ اللهَ علمًا نافعًا.
انظر: تاريخ الإسلام (٢٣/ ٤٢٣)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٢٠٨)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٤/ ٣٧٠)، وطبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٣/ ١١٠)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٢/ ١٣٨)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير(ص: ٢٢١).

(٧) ذُكر عنه أنه قال: «شربتُ ماءَ زمزمَ، وسألتُ اللهَ أن يرزقني حُسْنَ التصنيف»؛ فبلغتْ =

والخطيبُ البغداديُّ[١]، وابنُ العَرَبيِّ[٢]، وابنُ الغَمَّاز[٣]، ويحيي

=
تصانيفُه في أَيدي النَّاس ألفًا وَخمْسَ مئةِ جُزْءٍ!!
انظر: الصلة: لابن بشكوال (ص: ٥١٥)، وتاريخ الإسلام (٢٨/ ١٢٩)، وتذكرة الحفاظ (٣/ ١٦٥)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ١٧١)، وطبقات الفقهاء الشافعية: لابن الصلاح (١/ ١٩٩)، وطبقات الشافعية الكبرى (٤/ ١٥٩) وطبقات الشافعيين (ص: ٣٦٠).

(١) يذكر عنه أنه لما حجّ شرب من ماء زمزم ثلاثَ شَرْبات، وسأل الله ثلاثَ حاجاتٍ: **الأولى**: أن يحدِّث بتاريخ بغداد. **والثانية**: أن يُملي بجامع المنصور. **والثالثة**: أن يُدفن إذا مات عند بشر الحافي؛ فحصلت له الثلاثةُ!
انظر: المنتظَم: لابن الجوزي (١٦/ ١٣٤)، ومعجم الأدباء: للحموي (١/ ٣٨٥)، وتاريخ الإسلام (٣١/ ٩٥)، وتذكرة الحفاظ (٣/ ٢٢٣)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٨/ ٢٧٩)، وطبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٤/ ٣٥)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٧/ ١٢٧)، وشذرات الذهب: لابن العماد (١/ ٣٩).

(٢) **قال ابنُ العربيِّ**: «كنتُ بمكةَ مقيمًا في ذي الحجَّة سنةَ تسعٍ وثمانين وأربع مئةٍ، وكنتُ أشربُ ماءَ زمزمَ كثيرًا، وكلما شربتُه نويتُ العلمَ والإيمانَ؛ حتى فتح اللهُ لي بركتَه في المقدار الذي يسّره لي من العلم، ونسيتُ أن أشربَه للعمل! ويا ليتني شربتُه لهما؛ حتى يفتحَ اللهُ عليَّ فيهما، ولم يُقدَّر، فكان صَغْوِي (مَيْلي) إلى العلم أكثرَ منه إلى العمل، ونسأل الله الحفظ والتوفيق برحمته». أحكام القرآن (٣/ ٩٨).

(٣) **هو**: أبو الربيع سليمان بن هشام بن وليد بن كليب المقرئ، المعروف: بابن الغَمّاز؛ قال ابنُ حيان: «حكى لي أبو محمد بن الحسين، عن أبي الربيع هذا أنه قال: حججتُ على شدّةِ فقرٍ، فوردتُ زمزمَ، وقد رُوِّيتُ الحديثَ في مائها أنه لِما شُرِبَ له. فكَرَعْتُ حتى تضلّعتُ، ثم دعوتُ اللهَ فأخلصْتُ، وقلتُ: اللهمَّ إني مصدِّقٌ ما أدّاه رسولُك الأمينُ في بركة هذا الشِّرْب المعين من أنه لِما شُرِبَ له. فقد شربتُ اللهمَّ بنيّة الدعاء، واثقًا باستجابتك. وإني أسألكَ غِنى فقري في دَعَةٍ، وإِسْماء اسْمي فيما أنتحلُه بحقيقةٍ، ثم الشهادةَ في سبيلك، والزُّلفى بها لديك. قال: فما أبعدتُ أنْ تَعَرّفتُ الاستجابةَ في الثنتين، وإني لَمنتظرٌ الثالثةَ.
أما القرآنُ فما أحسَبُ أن بأرضي أعلمَ به مني، وأما الغِنى فقد نلتُ منه حاجتي - وقد كان
=

الأنصاريُّ[1]، وابنُ حَجَر[2]، والسُّيوطيُّ[3]، وغيرُهم.

وكلُّهم - بفضل الله - قد استفاد من شُرْبه، وحصل له ما تمنَّى؛ قال النوويُّ: «وجاء: (ماءُ زَمْزَمَ لما شُربَ له)، معناه: مَنْ شَرِبَه لحاجةٍ نالها، وقد جَرَّبَه العلماءُ والصالحون لحاجاتٍ أُخرويَّةٍ ودُنيويَّةٍ[4]؛ فنالُوها بحمد الله تعالى وفضله»[5].

=

نوّه به سليمانُ بنُ الحكم المستعينُ، وأجلسه للإقراء بالمسجد الجامع بقرطبة، وأصاب ثراءً ورِفعةً - وأرجو ألّا يحرمني اللهُ الثالثةَ مع نِفَارِي عنها! فخرج مع سليمان يُقيم له صلاتَه على رَسْمه مع مَن قِبَلَه من الأمراء، فأصيب في وجهه معه في الهزيمة بعقبة البقر في صدر شوال سنة أربع مئة رَحِمَهُ ٱللَّهُ». الصلة لابن بشكوال (ص/ ١٩٢).

(١) هو: يحيى بن أحمد بن مسعود الأنصاري من علماء قرطبة ، حَكى أنه شرب ماءَ زمزم لحفظ القرآن فتيسَّر عليه حفظُه في أقرب مدةٍ، وكان حسن الصوت به والإيراد له، يستدعيه الولاةُ لصلاة الأشفاع بهم في رمضان. انظر: التكملة لكتاب الصلة: لابن الأبّار (٤/ ١٨٨).

(٢) ذكر السخاويُّ أن ابنَ حجر شرب ماءَ زمزم ليصل إلى مرتبة الذهبي في الحفظ والفِطْنة. الإعلان بالتوبيخ (ص/ ٤٧٢)، وانظر: سير أعلام النبلاء: للذهبي (المقدمة ص/ ٥٣).

(٣) قال السيوطي: «لما حَجَجْتُ شربتُ من ماء زمزم لأمورٍ: منها أنْ أَصِلَ في الفقه إلى رُتبة الشيخ سراج الدين البُلْقيني، وفي الحديث إلى رتبة الحافظ ابن حجر». حسن المحاضرة (١/ ٣٣٨)، وتاريخ الخلفاء (ص/ ٦).

لطيفة: قال ابنُ المقرئ: «كنّا عند ابن عيينة فجاءه رجلٌ فقال: يا أبا محمد! ألستم تزعمون أن النبيَّ ﷺ قال: (ماءُ زمزمَ لما شُربَ له)؟ قال: نعم. قال: فإني قد شربتُه لتحدّثني بمائتيْ حديثٍ!! قال: اقعدْ، فحدَّثه بها». تاريخ دمشق: لابن عساكر (٤٥/ ٣٠٨).

(٤) حُكي عن أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني بن أبي إسحاق العباسي، شمس الدين السَّرُوجِي الحنفي، أنه شرب ماء زمزم لولاية القضاء فحصل له ذلك. انظر: رَفع الإصْر عن قضاة مِصْر: لابن حجر (ص/ ٤١).

(٥) تهذيب الأسماء واللغات (٣/ ١٣٩).

وقال ابنُ العربيِّ: «وقد اجتزأ به (أي بماء زمزم) أبو ذرٍّ ليالِيَ أقام بمكةَ ينتظرُ لقاءَ

=

٣- ينبغي للإنسان أن يقتصدَ في هذا الأمر ولا يُسرِفَ، خصوصًا في الأدوية، حتى وإن كانت طبيعيةً؛ فإن الإمام الشافعي يقول: «أخذتُ (اللُّبان) سنةً؛ للحفظ، فأعقبني صَبَّ الدَّمِ سنةً!»[(١)].

وقال أبو الخطَّاب بنُ دِحْيَة: «كان ابنُ حَزْم قد بَرِصَ من أكل (اللُّبَان)، وأصابتْهُ زَمَانَةٌ»[(٢)].

كذلك فقد تأذّى طائفةٌ من العلماء بشُرْب البَلَاذُر[(٣)]؛ الذي شَرِبُوه لتقويةِ الحفظ[(٤)]؛ فأبو داود الطيالسيُّ أصابه الجُذَامُ، وعبدُ الرحمن بنُ مهديٍّ أصابه البَرَصُ[(٥)].

= النبي ﷺ؛ ليستمعَ منه، قال: «حتى سَمِنْتُ وتكسَّرتْ عُكَنُ بطني»، وكان لا يجترئُ على السؤال ولا يُمكنه الظُّهورُ ولا التكشُّفُ، فأغناه اللهُ بماء زمزم عن الغذاء، وأخبر النبيُّ ﷺ بأن هذا موجودٌ فيه إلى يومه ذلك، وكذلك يكونُ إلى يوم القيامة لمن صَحَّتْ نيّتُه، وسلمتْ طويّتُه، ولم يكن به مُكذِّبا، ولا شربه مُجرِّبا؛ فإنّ اللهَ مع المتوكِّلين، وهو يَفضحُ المجرِّبين!». أحكام القرآن (٣/ ٩٨).

(١) مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٥٠)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٥١/ ٣٠٠)، والعبر في خبر من غبر (١/ ٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (١٠/ ١٥) و (١٨/ ١٩٨)، وتذكرة الحفاظ: للذهبي (١/ ٢٦٥)، ومرآة الجنان: لليافعي (٢/ ١٩)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٣/ ١٩)، وبغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم (٣/ ١٠٦٦).

(٢) تاريخ الإسلام (٣٠/ ٤١٠)، وسير أعلام النبلاء (١٨/ ١٩٨)، وتذكرة الحفاظ: للذهبي (٣/ ٢٢٩).

وأمّا الزَّمانَة: فهي المرضُ الذي يدومُ، يُقال: زَمِنَ زَمَنًا وزُمْنَةً وزَمَانَةً، أي: مَرِضَ مَرَضًا يَدُوم زَمَانًا طَويلًا. انظر: المعجم الوسيط (١/ ٤٠١).

(٣) تقدَّم التعريفُ به قريبًا.

(٤) قال صالحُ بنُ محمد البغدادي: «قد يأكلُ كثيرٌ من الناس البَلَاذُرَ للحفظ، وهو لا شيءَ عندي، ومُخاطَرَةٌ؛ لأنه يُخافُ عليه من القَتْل. هُو سَمٌّ» الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: للخطيب البغدادي (٢/ ٢٧٩).

(٥) انظر خبرهما في: الثقات للعجلي (ص/ ٢٠١)، وبيان الوهم والإيهام: لابن القطان =

وأحمدُ بنُ يحيى بن جابر البَلاَذُرِيُّ- صاحب كتاب (فُتوح البلدان) - وَسْوَسَ في آخر عمره وفَسَدَ عقلُه؛ بسبب شُربه، فشُدَّ بالبِيمارَسْتان إلى أن توفِّي[(١)].

ومختارُ بنُ عبد الرحمن الرُّعيْني، يُقال: إنه شرب البَلَاذُر للحفظ، فأورثه سُوءَ مِزاجٍ، فلم يزلْ به الى أن أهلَكَه[(٢)].

وعبدُ الرحمن بنُ محمدٍ الفارسيُّ البغداديُّ أكل البَلَاذُر فتغيَّر عقلُه[(٣)].

وابنُ الجوزي شَرِبَ حَبَّ البَلَاذُر- على ما قِيلَ- فسقطتْ لحيتُه، فكانت قصيرةً جِدًّا![(٤)].

وشعبانُ بنُ محمدِ بنِ داودَ المصري، اتّفقَ أنه شرب البَلَاذُرَ، فحصلَ له طَرَفُ نَشَافٍ (يُبُوسَةٍ)، وأقام مُدَّةً عاريًا من الثياب والعمامة! ثم تماثل قليلًا، وطلب العلمَ[(٥)].

= (٥/ ٦٣٢)، والحث على حفظ العلم: لابن الجوزي (ص/ ٦٧)، والتقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد: لابن نقطة (ص/ ٢٧٨)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٢٨٤)، والبدر المنير: لابن الملقن (١/ ٢٦٢)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٣/ ٢٦)

(١) تاريخ الإسلام: للذهبي (٢٠/ ٢٨٩).

والبِيمارَسْتان: المستَشفَى (فَارسيٌّ مُعرَّب). المعجم الوسيط (١/ ٧٩).

قال الصفديُّ: «المارَسْتان، بفتح الراء، والعامةُ تكسِرها، وبعضُهم يتفاصَحُ فيقول: البيمارَسْتان، وهو أعجميٌّ عُرِّبَ فقيل: المارَستان». تصحيح التصحيف وتحرير التحريف (ص/ ٤٦١).

(٢) ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٨/ ٨٩)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٢٩/ ٤٢٢).

(٣) تاريخ الإسلام: للذهبي (٣٦/ ٥٠٦).

(٤) تاريخ الإسلام (٤٢/ ٣٠٤)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ٩٥)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (٢١/ ٣٧٨).

(٥) إنباء الغمر بأبناء العمر: لابن حجر (٣/ ٣٥٣).

وجابرُ بنُ داودَ البَلاذُري وَسْوَسَ في آخر أيامه، فشُدّ في المارَسْتان[١] ومات فيه، وكان سببُ وَسوستِه أنه شرب ثَمَرَ البَلَاذُر على غيرِ معرفةٍ فلَحِقَهُ ما لَحِقَهُ[٢].

وأبو الحسن بنُ أبي خازنٍ شرب البَلَاذُرَ، فكَمِدَ وَجهُهُ، واختلّ عقلُهُ[٣].

وأحمدُ بنُ محمدِ بنِ عليٍّ العبّاديُّ الشافعيُّ المقْرِئُ[٤]، وغيرُهم.

---

(١) تقدَّم بيانُ معناه.

(٢) معجم الأدباء: للحموي (٢/ ٥٣١).
وقيل: إن الذي خُولطَ هو حفيدُه أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر المتقدِّمُ، فاللهُ أعلمُ.
انظر: سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٣/ ١٦٢)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٨/ ١٥٥)، وفوات الوفيات: للكتبي (١/ ١٥٥).

(٣) قال ابنُ العديم: «حكى لي شيخُنا الصاحبُ قاضي القضاة أبو المحاسن يوسفُ بنُ رافع بن تميم قال: كان أبو الحسن بنُ أبي خازنٍ شابًا ذكيًا، وكان يقرأ عليّ الفقهَ بالموصل هو وجماعةٌ معه، فشاوَرَني يومًا في أكل تمر البَلاذُر فنهيتُه عن ذلك، فمضى هو ورفيقان له واشترَوْا منه شيئًا ودقُّوه وجعلوه في هريسةٍ وأكلوها ، فجاءني أبو الحسن ابنُ أبي خازنٍ ووجهُهُ قد اكْمَدَّ، فوقف معي في صحن المدرسة وأخبرني أنه أكل تمرَ البَلاذُر، فلم أُنكرْ عليه؛ خوفًا أن يستشعرَ ويتوهّمَ، فهوّنتُ الأمرَ عليه، فجعل يحادثني ونحن نمشي، ثم دخل إلى بيته في المدرسة فأخرج الجرّةَ والإبريقَ والكانونَ وجميعَ حوائجه! فعلمتُ أنه قد أثّرَ معه، فسكّنتُه ، ثم أقمتُ عليه مَن يعالجُه ويُطعمه الهريسةَ في كلّ يوم، فواظب ذلك الى أن سكن عنه». بغية الطلب في تاريخ حلب (١٠/ ٤٣٩٨).

(٤) قال السخاوي: «لم يزلْ متقدِّمًا في الذكاء وسرعة الحفظ إلى أن تعاطى حَبَّ البَلاذُر وأكثر منه، بحيث كانت سلامته على غير القياس! قال: ومِن ثَمَّ صرتُ لا أحفظُ إلا بتكلُّفٍ زائدٍ، وأعقبني ذلك في السنة المستقبلة حرارةً خرج في بدني منها أزيدُ من مئة دُمّل! واحمرّتْ، واستمرتْ الدماميلُ تعتريني كلَّ قليلٍ، بل انقطعتُ عن القراءة بسبب تعاطيه مدةً!». الضوء اللامع (٢/ ١٤٨).

ضَمِيمَةٌ: قال القاضي ابن خلِّكان: «قال لي بعضُ أصحابنا: سمعته (يعني: صاحبَ الترجمة) =

ولذا قال الرَّجْرَاجِيِّ:

شَرِبَ (البَلاَذُرَ) عُصبةٌ كَي يَحفَظُوا ... وَنَسُوا الَّذي فِي ذِكْرِهِ مِنْ قَالِ

أوَمَا رَأَوا أنَّ (البَلَا) شَطْرُ اسمِهِ ... و(الضُّرُّ) آخِرُهُ بِقَلبِ الذَّالِ![1]

وقال محمدُ بنُ الحسن: «لا يَصلُحُ في هذا الشأن (يعني: طلبَ العلم) إلا من أحرق قلبَه البُنُّ»[2].

=

يومًا وهو يحكي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لما كنّا في المدرسة النظَامية ببغداد اتفق أربعةٌ أو خمسةٌ من الفقهاء المشتغلين على استعمال حَبِّ البَلاذُر؛ لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء، وسألوه عن مقدار ما يَستعمل الإنسانُ منه، وكيف يستعمله؟ ثم اشترَوْا القَدْرَ الذي قال لهم الطبيب، وشربوه في موضعٍ خارجٍ عن المدرسة، فحصل لهم الجنونُ، وتفرّقوا وتشتّتوا، ولم يُعلمْ ما جرى عليهم، وبعد أيامٍ جاء إلى المدرسة واحدٌ منهم، وكان طويلًا، وهو عُرْيان ليس عليه شيءٌ يستر عورتَه! وعلى رأسه بُقيارٌ (نوعٌ من العمائم الكِبار يلبسها الوزراء) كبيرٌ له عَذَبَةٌ طويلةٌ خارجةٌ عن العادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه! وهو ساكتٌ، عليه السكينةُ والوقارُ، لا يتكلَّم ولا يعبث، فقام إليه مَن كان حاضرًا من الفقهاء وسألوه عن الحال، فقال لهم: كنا قد اجتمعنا وشربنا حَبَّ البَلاذُر، فأما أصحابي فإنهم جُنُّوا، وما سَلِمَ منهم إلا أنا وحدي! وصار يُظهر العقلَ العظيمَ والسكونَ، وهم يضحكون منه وهو لا يشعر بهم، ويعتقد أنه سالمٌ مما أصاب أصحابَه، وهو على تلك الحالة لا يفكِّر فيهم ولا يلتفت إليهم!!». وفيات الأعيان (٧/ ٩٤).

وانظر: تاريخ الإسلام (٤٦/ ١٣٥)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٨٤٩)، وكنوز الذهب: لسبط بن العجمي (١/ ٢٩٠)، ومرآة الجنان: لليافعي (٤/ ٦٦).

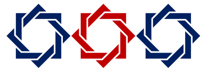
(١) تهذيب الفروق والقواعد السنية (١/ ٢١٥).

(٢) مناقب الشافعي: للبيهقي (٢/ ١٥٠).

وهذا البُنُّ غيرُ البُنِّ المعروفِ الآن الذي تُصنع منه القهوةُ! بل هو كما قال البيهقيُّ: «البُنّ فيما بلغني: كامَخٌ (إدامٌ) يُصنع بالشامات ومصر من عَكَر الـمُرِّي يتأدَّمُ به الغرباءُ». المصدر نفسه (٢/ ١٥٠).

=

وعلى كلّ حالٍ: فالأمر يخضع للتجربة والذَّوق والاستعداد.



=

وقد أنشد أبو البركات بن عبد المحسن بن عمرو التنوخي لنفسه بالمعرَّة يصف فَقرَه:

هَــمُّ الــورى في العيــد قَطْــعُ ثيــابهم ... جُــــدُدًا، وأكثــــرُ هَمّنــــا الصَّــــابُونُ

والــــبُنُّ والزيتــــونُ جُــــلُّ طعامنــــا ... فيــــه، وأيــــنَ الــــبُنُّ والزيتــــونُ؟!

بغية الطلب في تاريخ حلب: لابن العديم (١٠/ ٤٣٣١).

إضاءةٌ: قال ابن العماد في حوادث سنة (٩٠٩هـ): «فيها تُوفّي الشيخُ الصالحُ العارفُ بالله تعالى أبو بكر بنُ عبد الله الشاذليّ المعروف بالعيدروس، مُبتكر القَهوة المتّخذة من البُنّ المجلوب من اليمن.

وكان أصلُ اتّخاذه لها أنه مَرّ في سياحته بشجر البُنّ، فاقْتات من ثمره حين رآه متروكًا مع كثرته، فوجد فيه تجفيفًا للدماغ، واجتلابًا للسهر، وتنشيطًا للعبادة، فاتّخذه قُوتًا وطعامًا وشرابًا، وأرشد أتباعَه إلى ذلك، ثم انتشرتْ في اليمن، ثم في بلاد الحجاز، ثم في الشام ومصر، ثم سائر البلاد.

واختلف العلماءُ في أوائل القرن العاشر في القهوة، حتّى ذهب إلى تحريمها جماعةٌ! منهم: الشيخُ شهابُ الدّين العيثاويّ الشافعيّ، والقطبُ بنُ سلطان الحنفيّ، والشيخُ أحمدُ بنُ عبد الحق السّنباطيّ، تبعًا لأبيه، والأكثرون ذهبوا إلى أنها مباحةٌ.

قال النجمُ الغَزّي في «الكواكب السائرة» (١/ ١١٥): وقد انعقد الإجماعُ بعدَ مَنْ ذكرناه على ذلك، وأما ما يَنضمُّ إليها من المحرّمات، فلا شُبهةَ في تحريمه، ولا يتعدّى تحريمُه إلى تحريمها؛ حيثُ هي مباحةٌ في نفسها». شذرات الذهب (١٠/ ٥٧).




أيُّها النـاسُ إنّ ذا العَصْـرَ عَصْـرُ الـ ـعِلْمِ والجِـدِّ في العُـلَا والجِهـادِ

بُنِيـــتْ فيـــه للعُلُـــومِ المبـــاني وأُقيمَـــتْ لِلبَحْـثِ فيهـا النَـوادِي

فـاضَ فَـيْضُ العُلُـومِ بـالرَّغْمِ ممَّـنْ ضَـــرَبُوا دُونَهـــنَّ بالأسْـــدادِ

إنَّ للعِلْـــمِ في الممالِـــكِ سَـــيْرًا مثـــلَ سَـــيْرِ الضِّـــياءِ في الأبْعـــادِ

أطْلَـعَ الغَـرْبُ شَمْسَـهُ فحبَـا الشَّـرْ قَ اقْتباسًـــا مِـــن نُورِهـــا الوَقّـــادِ

إنَّ للعِلْـــمِ دَوْلَـــةً خَضَـــعَتْ دُو نَ عُلاهـــا عَـــوَالِمُ الأضْـــدَادِ

مـا اسْـتَفادَ الفتَـى وإنْ مَلَـكَ الأر ضَ بـأعْلى مِـنْ عِلْمِـهِ المسْـتفادِ

لا تُسـابِقْ في حَلْبَـةِ العِـزِّ ذا العِلْـ ـمِ، فمـا لِلهَجِـينِ شَـأْوُ الجَـوَادِ؟

إنَّ أمـــواتَ أُمّـــةِ العِلْـــمِ أحْيـــا ءُ حيـــاةَ الأرواحِ والأجْسَـــادِ

وكـأيِّنْ في النـاسِ مِـنْ ذِيْ خُمُـولٍ صـــارَ بِـــالعِلْمِ كَعْبَـــةَ القُصَّـــادِ!



معروفُ الرُّصافي





الفصلُ السابعُ

حَوافزُ الإبداعِ العلميِّ



الفصلُ السابعُ
حَوافزُ الإبداعِ العلميِّ

حَوافِزُ الإبداعِ: هي الأمورُ التي تُساعد الإنسانَ في عمله الإبداعي، وتُوصِلُهُ إلى أفضلِ النتائجِ، وأعظمِ الإنجازاتِ، كما أنها تحفّزه وتُنشِّطُه وتُعينُهُ على المواصلة والمتابعة، وهذا كلُّه يأتي بعدَ الدافعِ الذاتيِّ للمبدعِ نفسِهِ؛ لأنه الأصلُ.

وهذه الحوافزُ هي:

أولًا: توفيرُ المميِّزاتِ الماديّةِ والمعنويّةِ للمبدِعين، سواءٌ أكانتْ من الدَّولة، أم من المجتمع، وتتمثَّلُ في الآتي:

١- توفيرُ الضروريّات والحاجيَّات والكماليّات الشخصيّة للمبدِع؛ من مالٍ وسكنٍ وأمنٍ وخَدَماتٍ وغيرِها؛ وذلك حتى يتفرَّغ للعمل والإنتاج؛ فإنَّ الذِّهنَ المشغولَ لا يُمكنُ أن يتوفَّر على عملٍ، فضلًا عن أن يُبدعَ! كما قال الإمامُ الشافعيُّ[1]:

---

(١) الديوان (ص/ ٩١).

وفي التكملة لكتاب الصلة: للقُضاعي (٤/ ٢٢٠) جاءت منسوبةً إلى أبي محمد الدِّيباجِي، وفيها زيادةُ بيتٍ خامسٍ:

فــــلا تَلُـــــومنَّ أَخَـــــا فاقَـــــةٍ ... وَعَيْلَـــــةٍ أَنْ كـــــان ذا جَهْـــــلِ

وفي رحلة الشتاء والصيف: للحسيني (ص/ ٩٤) جاء البيتُ الأخيرُ هكذا:

يُبْلَـــــى بِفَقْـــــرٍ وَعِيَـــــالٍ لَـــــمَا ... فَـــرَّقَ بَـــينَ التَّـــيْسِ والبَغْـــلِ!

لا يُــدرِكُ الحِكْمــةَ مَــنْ عُمْــرَهُ يَكْــدَحُ في مصْــلَحَةِ الأَهْــلِ
ولا يَنَــالُ العِلْــمَ إلّا فتًــى خَــالٍ مِــنَ الأفكَــارِ والشُّــغْلِ
لــو أنّ لُقْمَــانَ الحَكــيمَ الَّــذِي سَــارَتْ بِــهِ الرُّكْبَــانُ بالفَضْــلِ
بُلِــيْ بفَقْــرٍ وعِيَــالٍ لَــمَا فَــرَّقَ بَــينَ التِّــبْنِ والبَقْــلِ!

وقال الآخَرُ:

وكَيفَ تُرَجِّي العقلَ والرَّأيَ عِنْدَ مَنْ يَرُوحُ على أُنثَى ويَغدُو على طِفْلِ؟!

ثمّ لا بأسَ أنْ نَجعلَ منزلتَهُ في العلم وقُدرَتَهُ على الإنتاج والإبداع هي المِقياسَ في زِيادة الحوافز الماديّة أو المعنويّة أو تَقْليلها، وهذا أمرٌ لا حَرَجَ فيه شرعًا؛ فقد قال النبيُّ ﷺ في ذِروة سنام الإسلام (الجهاد): «مَنْ قَتَلَ قَتيلًا له عليه بَيِّنَةٌ، فَلَهُ سَلَبُهُ»[(١)].

وقال ﷺ: «مَنْ أقامَ البَيِّنَةَ على أسِيرٍ، فَلَهُ سَلَبُهُ»[(٢)].

فأباحَ للمُجاهد أنْ يَنفرِدَ بسَلَبِ الأسيرِ والقتيلِ دُونَ البقيَّة؛ لزيادة عمله وجُهدِهِ.

وفي مسند الإمام أحمد[(١)] أنَّ عمرَ بنَ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب الناس يوم

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب: الخمس، باب: من لم يخمس الأسلاب ٣/ ١١٤٤ (٢٩٧٣) ومسلم في الصحيح كتاب: الجهاد والسير، باب: استحقاق القاتل سلب القتيل ٣/ ١٣٧٠ (١٧٥١).

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٦/ ٣٢٤) بهذا اللفظ، وقال الألبانيُّ في صحيح الجامع (٦٠٧٢): صحيح.

الجابية، **فقال:** «إنّ اللهَ ﷻ جعلني خازنًا لهذا المال وقاسمًا له، ثم قال: بلِ اللهُ يَقسِمُهُ، وأنا بادئٌ بأهل النبي ﷺ، ثم أشرفهم»؛ ففرض لأزواج النبي ﷺ عشرةَ آلافٍ، إلّا جويرية وصفية وميمونة، فقالت عائشة: إن رسول الله ﷺ كان يعدل بيننا، فعدل بينهنّ عمرُ رضي الله عنه، **ثم قال:** «إني بادئٌ بأصحابي المهاجرين الأوّلين؛ فإنا أُخرجنا من ديارنا ظلمًا وعدوانًا، ثم أشرفهم»؛ ففرض لأصحاب بدرٍ منهم خمسةَ آلافٍ، ولمن كان شهد بدرًا من الأنصار أربعةَ آلافٍ، ولمن شهد أُحدًا ثلاثةَ آلافٍ، **قال:** «ومَنْ أسرع في الهجرة أسرع به العطاءُ، ومن أبطأ في الهجرة أبطأ به العطاءُ؛ فلا يلومنَّ رجلٌ إلا مُنَاخَ راحلتِه!».

ولا شكّ أنّ الاشتغالَ بالكسبِ، والبحثَ عن لُقمة العيش، والصفقَ في الأسواق، مُلْهٍ عن العلم، شاغلٌ عن التحصيل؛ فكيف بالإبداع والتفوّق؟!

وقد أشَار إلى هذا المعنى الصاحبُ الجليلُ أبو هريرةَ رضي الله عنه **حيث قال:** «إنكمْ تقولون إنَّ أبا هريرة يُكثِر الحديثَ عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما بالُ المهاجرينَ والأنصَارِ لا يُحَدِّثُون عن رسولِ اللهِ ﷺ بمثلِ حديثِ أبي هريرة؟! وإنَّ إخوتِي من المهاجرين كان يَشْغَلُهم الصَفْقُ بالأسواق، وكنت ألزمُ رسولَ الله ﷺ على مِلْءِ بطني، فأشهدُ إذا غابُوا، وأحفظُ إذا نَسُوا، وكَان يَشْغَلُ إخْوتي من الأنصار عَمَلُ أَموالِهم، وكنتُ امْرأً مِسْكينًا من مسَاكينِ الصُّفَّة أعِي حين يَنْسَوْن...»(٢).

=

(١) (٢٥/ ٢٤٥ ح:١٥٩٠٥) وقال محقّقوه: رجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب العلم: باب حفظ العلم ١/ ٥٥ (١١٨)، ومسلم في الصحيح، كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل أبي هريرة.. ٤/ ١٩٣٩(٢٤٩٢).

وكما بيَّن عمرُ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ السَّبَبَ الذي جعله لا يعرِفُ سُنّةَ الاستئذان - كما في قصته مع أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - بأنه ألهاهُ الصَّفقُ في الأسواق![1].

يقول الشيخُ علي الطنطاوي: «لو أنَّ أعلمَ أهل الأرض كان مُفلِسًا، يُفكِّر في خبزِه من أين يأتي به؟ وبيتِه كيف يستأجره؟ لما بقيَ له عقلٌ يُفكِّر وذكاءٌ يُنتِج!»[2].

وقال الشيخُ محمدُ الغزالي: «إنَّ الملكاتِ الإنسانيةَ التي تُقيَّد بإزاء تحصيل الأقْوات، والتي قد تُحبس أو تُستهلك في سبيل ضمان المعيشة الكريمة. هذه الملكاتُ يُمكن الانتفاعُ بها في ميادين الحياة الأخرى. وإنما انطلقت العقليةُ الأوروبيةُ تقتحم الآفاقَ المجهولةَ، ثم ترجع بالكُشوف الباهرة في ميادين العلم والفنّ والأدب، لأنها تخطَّت عوائقَ الحرمان والضِّيق، ومزَّقت لباسَ الجوع والخوف. على حين ظلَّت العقليةُ الشرقيةُ - في القرون الأخيرة - تذوب في البحث عما يُمسِكُ عليها رَمَقَ الحياة! وقد حَكَوْا أنَّ فقيهًا إسلاميًا كبيرًا فاجأته خادمتُه وهو ذاهبٌ لإلقاء الدرس بأنّ الدارَ ليس بها دقيقٌ، فطارتْ من رأسه مسائلُ العلم التي أعدَّها!!»[3].

إذنْ؛ فالاشتغالُ بالمال والكسب وضروريات العَيْش شاغلٌ عن العلم والتَّحصيل، فينبغي ضمانُ هذا الأمر للعالم المبدِع؛ كيما يتوفَّر على عمله

---

(١) القصةُ أخرجها البخاري في الصحيح، كتاب البيوع: باب الخروج في التجارة ٢/ ٧٢٧ (١٩٥٦)، ومسلم في الصحيح، كتاب الآداب: باب الاستئذان ٣/ ١٦٩٤(٢١٥٣).

(٢) من حديث النفس (ص/ ١٣).

(٣) الإسلام والمناهج الاشتراكية (ص/ ٣٤).

دون عوائِقَ أو صوارِفَ.

ولقد كان هذا دَيْدنَ السلفِ أيضًا: فهذا عبدُالله بن المبارك كان يُفرِّق المالَ على العلماء والمحدِّثين ليتفرَّغوا لنشر العلم، ليس في بلده فحسْبُ، بل في سائر البُلدان والأمصار، حتى عُوتب في ذلك، فقال: «إني أعرف مكانَ قومٍ لهم فضلٌ وصدقٌ، طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه. لحاجة الناس إليهم؛ احتاجوا، فإنْ تركناهم ضاع عِلمهُم، وإنْ أعنَّاهم بثُّوا العلمَ لأُمَّة محمد ﷺ، لا أعلمُ بعدَ النبوّة أفضلَ من العلم»[١].

وهذا عبدُ الله بنُ طاهرٍ أميرُ خُراسانَ رتَّب لأبي عُبيْدٍ القاسمِ بن سلاَّمٍ في كلّ شهرٍ عشرةَ آلافِ درهمٍ، لمَّا وضع كتابه في غريب الحديث، وقال: «إنَّ عَقلًا يُعِينُ صاحبَهُ على عمل هذا الكتاب حقيقٌ ألّا يُحْوَجَ المعَاشَ!»[٢].

وغيرُ خافٍ ما كان يصنعُه سابقًا بعضُ خلفاء الدول الإسلامية المختلفة؛ من التشجيع على العلم، والإنفاق عليه بسخَاءٍ، حتى كان بعضُهم يأخذ الكتابَ الذي يؤلِّفه له العالِمُ بوزنه ذهبًا! كما يُروى عن المأمونِ وغيرِه[٣]، فكان بعضُ العلماء يتنافسون في إهداءِ الكتب لهم، ويُسطِّرونَ تلكَ الإهداءاتِ في مقدِّماتِها[٤].

لذا؛ فإنه يتوجَّبُ على حكومات الدول الإسلامية وأصحاب الأموال

---

(١) تاريخ بغداد: للخطيب (١٠/ ١٦٠) والسير: للذهبي (٨/ ٣٨٧).

(٢) نزهة الألبّاء: لابن الأنباري (ص/ ١١١) وإنباه الرواة: للقفطي (٣/ ١٦).

(٣) سبقتْ الإشارةُ إلى ذلك في الفصل السادس.

(٤) المصنَّفاتُ الـمُهدَاةُ للسلاطين والوزراء كثيرةٌ، خَصَصْتُها بتأليفٍ مستقلٍّ.

فيها اليوم، الإنفاقُ بسخاءٍ على مراكز البحوث، والمؤسسات والهيئات العلمية، في كافة المجالات والتخصُّصات، والتنافسُ في إنشاء الكراسي العِلْمية في الجامعات؛ بحيثُ يعود رَيْعُها لخدمة البحث العلميِّ.

وبشيءٍ من الموازنة بين الواقع في البلاد الإسلامية والواقع في البلدان المتقدِّمة، نجد أنّ دولَ أوربا وأمريكا والصين واليابان قد أَوْلَتْ هذا الجانب عنايةً فائقةً؛ ولذا تقدَّمت في مجالات العلوم وميادينها التطبيقية تقدُّمًا هائلًا، وحَسْبُكَ أنْ تعلمَ أنَّ مَركزًا من المراكز العلمية الكثيرة في الولايات المتحدة الأمريكية، واسمُهُ مركزُ أبحاث الخَلْق (وهو مركزٌ يهتمُّ بالبحث عن أصل الإنسان) يعمل في هذا المركز أكثرُ من أربعِ مئةٍ وخمسين عالمًا!! فما الفائدةُ التي ستجنيها الولاياتُ المتحدةُ من هذا المركز الضخم في حضارتها المادية المعاصرة؟! الّلهمَ إلّا تشجيعَ العلم والعلماء في جميع المجالات[١].

ولهذا لا يُسْتغرَبُ أن يُؤدِّي هذا البذلُ والسخاءُ عندهم إلى استنزاف عقولٍ عربيةٍ وإسلاميةٍ كثيرةٍ هاجرت إلى بلاد الغرب؛ بَحْثًا عن هذه الحوافز التي لم يَتوفَّرْ لها أقلُّ القليل منها في بلادها، خصوصًا الماديةَ منها.

وهذه الهجرةُ إلى بلاد الكفار والاستقرارُ فيها - مع خُطورتِها البالغةِ على الدين والأخلاق، ومفاسدِها الكثيرةِ[٢] - تَتحمَّلُ الحكوماتُ الإسلاميةُ

---

(١) مِن مقولاتِ الدكتور/ أحمد زُويل السائرة - أحد العقول المهاجرة -: «الغَرْبُ ليسوا عباقرةً ونحنُ لسنا أغبياءَ، هُمْ فقط يَدعَمون الفاشلَ حتى يَنجحَ، ونحنُ نحاربُ الناجحَ حتى يَفشلَ!!!».

(٢) انظر شيئًا من هذه المفاسد في: مقدمة الدكتور/ عبد الله التركي لكتاب: «هجرة العلماء من العالم الإسلامي». للدكتور/ محمد عبد العليم مرسي.

النصيبَ الأكبرَ من جَريرَة ضياع هذه العقول وهجرتها إلى الأعداء! فإلى متى يستمرُّ هذا النـزيفُ؟!

«إنّ العقلَ المسلمَ اليومَ والمهاراتِ والسواعدَ الإسلاميةَ، تُشكِّلُ مساحةً كبيرةً في آليّة التقدّم العلميِّ والتِّقنيِّ في الغرب[١]، وإنّ مجموعةَ الأدمغة المهاجرة من العالم الإسلامي لسببٍ أو لآخرَ، لو أُتيحتْ لها الظروفُ والشروطُ والمؤسساتُ المناسبةُ، لاستطاعتْ أنْ تَختصرَ مسافةَ التخلُّف، وتَرْدِمَ فجوتَه، بل وتستطيع أن تقدِّم شيئًا آخرَ لايزال مفقودًا على مستوى الحضارة البشرية.

إنّ هِجرةَ الكفاءات من البلاد العربية فقط، تكلِّف الأمةَ ما يزيد على مئةِ مليونِ دُولارٍ سنويًا من رأس مالها، عدا الخسارةَ الدائمةَ من عائد هذا الاستثمار، والتخلّفَ الذي يُورِثُهُ على مُختلف الأصعِدَة»[٢].

وقد أظهرتْ الإحصاءاتُ أنه في عامَيْ (١٩٦٩و١٩٧٠م) بلغ عددُ المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية فقط أكثرَ من ستةَ عشرَ ألفَ

---

(١) بل قد تُستغلّ هذه العقولُ والسواعدُ وتُوجَّه ضِدَّنا، كما حصل في قصة: القبطان أحمد بن ماجد السعدي، ومِثلُه الحسن بن محمد الوزان الملقّب بـ (ليون الإفريقي)، حيث استغلهما الإفْرنْج للنَّيْل من الإسلام وأهله.

انظر قصتَهما بالتفصيل في: تاريخ الأدب الجغرافي العربي: لكراتشكوفِسْكي (ص/ ٤٨٨ و٦١٩)، والأعلام: للزركلي (١/ ٢٠٠) و(٢/ ٢١٧)، ومدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي: للطناحي(ص/ ٢٠٨).

(٢) من مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، لكتاب: «قضية التخلّف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر»، للدكتور/ زغلول راغب النجّار (ص/ ١٨).

وانظر: كتاب العلم وبناء الأمم: للدكتور راغب السرجاني (ص/ ٣٠) فما بعد.

عالِمٍ من البلاد العربية والإسلامية! منهم أكثرُ من ثلاثةِ آلافِ طبيبٍ، وقد تزايد هذا العددُ كثيرًا جدًا بعد ذلك![١].

إن هناك خَلَلًا كبيرًا في برامج التعليم لدى المسلمين، وخَلَلًا أكبرَ في استثمار تلك الأعداد الهائلة من المتعلّمين - لاسيّما ذَوو الكفاءاتِ منهم - فيما يعود بالنفع والفائدة على بلدانهم الإسلامية، وما زالتْ تلك البرامجُ العقيمةُ ـ في بعض تلك البلاد ـ كما وُضعتْ قبل عشراتِ السنين، لم يَطْرأْ عليها تغييرٌ ذو بالٍ![٢].

---

(١) طِبْقًا لآخر دراسة أجرَتْها أكاديميةُ البحث العلمي والتكنولوجيا في مِصْر، فقد هاجر من مِصْرَ وحدَها أكثرُ من مِليونيْ عالِمٍ!!
من بينهم (٦٢٠) عالمًا في علومٍ نادرةٍ؛ على رأسهم (٩٤) عالمًا متميّزًا في الهندسة النووية، و(٢٦) عالمًا في الفيزياء الذّرِّيَّة، و(٧٢) عالمًا في استخدامات الليزر، و(٩٣) عالمًا في الإلكترونيات والميكروبروسيسور، و(٤٨) عالمًا في كيمياء البوليمرات... إلخ. مجلة المجتمع عدد (١٦٤٨) في ٢٣/ ٤/ ٢٠٠٥ م.
وأُحيل القارئَ الكريم إلى قراءة كتابين قيّميْن في هذا الشأن، هما: كتاب «كارثة في العالم الإسلامي»، وكتاب «هجرة العلماء من العالم الإسلامي»؛ كلاهما للدكتور/ محمد عبد العليم مرسي.

(٢) انظر ماذا صنعتْ الولاياتُ المتحدةُ الأمريكيةُ بمناهجها التعليمية حينما فاجأها الاتحادُ السوفييتيُّ بإطلاق أول قمرٍ صناعيٍّ (سبوتنيك) في الفضاء عام (١٩٥٨م)، حيث ثارتْ ثائرتُها، وبادرتْ فَقَنّنتْ قانونًا جديدًا يَقضي بتحسين تدريس العلوم والرياضيات واللغات الحيّة في المدارس الابتدائية والثانوية، ورصدتْ لذلك مئاتِ الملايين من الدولارات!! راجع كتاب (كارثة في العالم الإسلامي): للدكتور/ محمد عبدالعليم مرسي (ص/ ٢٠-٢٤).
- يقول غازي القُصيبي: «إن نظامَنا التعليميَّ الحاليَّ لا يُعِدُّ الطالبَ إلّا لأحد أمرين: تولّي وظيفةٍ كتابيّةٍ صغيرةٍ، أو إكمالِ دراسته الجامعيّة!». صحيفة عكاظ، عدد (٩٩٢٤) ص١٠.

٢- توفيرُ الجوِّ العلميِّ المُلائِمِ للمبدع؛ سواءٌ من حيثُ الزمانُ أو المكانُ أو المقدَّراتُ؛ لأنَّ هذا أدْعَى إلى صَفاء الذِّهن، واجتماع الفكر عند المبدِع - كما سبق التنبيهُ عليه في المقوِّمات - مع ما يُسانِدُ هذا من صِحَّةٍ في البدن، وهمَّةٍ في النفس.

وقد كان هذا أُمنيَّةُ العلماء، كما تحدَّث بلسانهم ابنُ جُزَيٍّ الكلبيُّ صاحبُ التفسير المشهور، عندما قال[١]:

لِكُلِّ بني الدُّنْيا مُرادٌ ومَقصِدٌ ... وإنَّ مُرَادِي صِحَّةٌ وفَراغُ

لأَبلُغَ في علمِ الشَّريعةِ مَبلَغًا ... يَكونُ به لي لِلجِنانِ بَلاغُ

ففي مِثْلِ هذا فليُنَافِسْ ذَوو النُّهى ... وحَسْبِيَ من دار الغُرورِ بَلاغُ

وقد كانت هذه سِمَةً من سِمَات الحضارة الإسلامية السالفة؛ فقد كان العلماءُ يُفرَّغون للعمل في دُورِ العلم أو المدارس، وتُفرَضُ لهم عَطاءاتٌ تُغنيهم، وتُوفَّر الخِدْماتُ لهم، والشَّواهدُ على هذا كثيرةٌ على مَدار التاريخ الإسلامي، بل حَدَث ما هو أعجبُ؛ فهذا المستشرقُ (فيتشخل) يقول: «لقد كان في قُرطبةَ وَحدَها حانُوتٌ لنَسْخ الكتب، يَستخدِمُ أكثرَ من مئتين من الجَواري في نَقْلِ المصنَّفات لطُلاب الكتب النادرة واستنساخِها، وهذه ظاهرةٌ لم تُعرفْ بهذه المثابة في أيِّ حضارةٍ إنسانيةٍ غيرِ حضارة الإسلام، وهي تؤكِّد

---

(١) انظر الأبيات في: الإحاطة في أخبار غرناطة: لابن الخطيب (٣/ ١٢)، والديباج المذهب: لابن فرحون (ص/ ٢٩٦)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٥/ ٨٩)، وأزهار الرياض (٣/ ١٨٦)، ونفح الطيب: كلاهما للمقّري (٥/ ٥١٥).

على حقيقة: أنّ المسلمين أمةٌ قارئةٌ كاتبةٌ، وأنّ الإسلامَ دينٌ يَحُثُّ مُعتنقيه على العلم والتحصيل، وتلك سمةُ الحضارة، وعلامة المتحضِّرين!»[(١)].

٣- تمكينُ العالم من تخصُّصه الذي يرتَاح إليه ويُبدِع فيه، والسَّماحُ لكلِّ عالمٍ بالتأليف أو التدريس في المجال الذي يجدُ نفسه فيه؛ فإنَّ هذا يُساعِد على الإبداع؛ فلا يصلُحُ أن يكون مبدأُ الحاجة أو الوَجَاهة أو الاتِّكاليّة أو زيادة الحوافز هو المقدَّمَ، بل الرغبةُ والإقبالُ على ذلك العلم هو المقدّمُ.

ويحضُرُني هنا قصةُ زين الدِّين ابنِ أبي الحَرَمِ الدمشقي، وهو من أقران ابن سيِّد الناس، وكان عِدادهُ في كبار الفقهاء والمفتين، ولكنه وُلِّي تدريسَ الحديث في القُبَّة المنصورية من قبل جمال الدِّين آقوش، فتكلَّم الناسُ في ذلك، وصار صِغارُ الطلَبة ينقلُون الى ابن سيِّد الناس ما يحصُل لهذا الرجل من أغلاطٍ! فيقولون: صَحَّفَ في كذا، ووَهِمَ في كذا وكذا؛ **حتى قال فيه الكمالُ جعفرُ:**

بالجَاهِ تَبْلُغُ ما تُريدُ فإنْ تُرِدْ رُتَبَ المعالي فلْيَكُنْ لكَ جاهُ

أوَ ما تَرى الزَّينَ الدِّمشقيْ قدْ وَلِيْ دَرْسَ الحديثِ وليسَ يدرِي ما هو؟!

وكان زينُ الدين هذا يَعرفُ ذلك من نفسه، **فيقول:** «وَلَّوْنَا ما يَضحَكُ فيه الصِّبيانُ منّا، (**يعني:** دَرْسَ الحديث)، ومنَعُونا ما نَضحَكُ فيه على الأشياخ!» (**يعني:** دَرْسَ الفقه؛ لأنه كان فيه ماهرًا)[(٢)].

---

(١) صحيفة المدينة، العدد (٥٩٤٩) في ٢٧/ ٩/ ١٤٠٣هـ. نقلًا عن كتاب صفحات من صبر العلماء: لعبد الفتاح أبو غدة (ص/ ٢١٠).

(٢) **انظر خبرَه في:** الدرر الكامنة: لابن حجر (٣/ ١٦١-١٦٢).

=

٤- تقديرُ المبدعين، ورَفعُ منزِلتِهم في الناس؛ بحيثُ يكونون في محل الصدارة والتقدُّم على من سواهم، ويتمثَّل هذا في الرجوعِ إليهم في المشكلات، وسؤالِهم عن الـمُعضلات، وتقديمِهم على مَن سواهم في الحوافز والمميِّزات؛ سواءٌ على المستوى العامّ أو الخاصّ، وإشعارِهم دائمًا بمكانتهم العالية في المجتمع، بحيثُ لا يُقدَّم عليهم غيرُهم في ذلك كلِّه؛ فإن العالِمَ المبدعَ إنْ رأى تقصيرًا في هذه الأمور، ربما عاد عليه ذلك بالضرر في عِلْمه، كما حصل ذلك لجماعة من العلماء، منهم: **عبدُ الملكِ بنُ حَبيبٍ القرطبيُّ** الفقيهُ المالكيُّ المشهورُ؛ فإنه لما وَرَد زِرْيابُ[(١)] المغنِّي الأندلسَ،

=

عَجِيبةٌ: ذكر الحافظُ ابنُ حجر في ترجمته أنه كان في خُلُقِه زَعَارَةٌ وشدَّةٌ، فمِن ذلك: أنّ طالبًا بَحَثَ معه، فطلب منه النَّقْلَ، فأخذ نعلَه وكشف رأسَ الطالب، وصار يَضربُه، ويقول: هذا النقلُ الذي طلبتَ!! المصدر نفسه.

(١) زِرْياب: هو عليُّ بنُ نافعٍ، أبو الحسن، مولى المهدي العباسي، لُقِّب بزِرْياب؛ لأنه كان أسودَ اللون مع فصاحةِ لسانه؛ تشبيهًا له بطائرٍ مغرِّدٍ أسودِ اللون.

كان شاعرًا مطبوعًا، حسنَ الصوت، عالمًا ببعض الفنون، عارفًا بأحوال الملوك وسِيَر الخلفاء ونوادر العلماء، اجتمعتْ فيه صفاتُ النُّدماء. وكان عند الملوك بالأندلس كإسحاق الموصليّ عند ملوك المشرق.

برّز في صناعة الغِناء وتقدَّم فيها، وله فيها طرائقُ تُنسبُ إليه، وهو الذي جعل العُودَ خمسةَ أوتارٍ، وكانت أوتارُه أربعةً، كما اخترع مِضْرابَ العُود من قوادم النسر، وكانوا يصنعونه قبلُ من الخشب.

أخذ الغِناءَ ببغداد عن إسحاقَ الموصلي وغيرِه، وسافر إلى الشام، ومنها إلى الأندلس، وقد سبقتْه إليها شهرتُه، فركب عبدُ الرحمن بنُ الحكم الأموي بنفسه لتلقِّيه!! واستغنى به عمّن عداه من النُّدَماء والمغنِّين!

كان عطاؤه في كلّ سنةٍ (٤٠، ٠٠٠) دينارٍ ذهبًا!! سوى ما كان يأخذُه عَقِبَ نَزَواتِ

=

وحصل له من الحفَاوة والاحتفال الشيءُ الكثيرُ[(١)]، **قال هذا العالمُ يَندُبُ حظَّهُ في ذلك المجتمع**[(٢)]:

= السلطان! أقام بقرطبة وتوفي بها نحو سنة (٢٣٠ هـ).

انظر: بغية الملتمس: للضبّي (ص/ ٢٣٩)، والأعلام: للزركلي (٥/ ٢٨)، وقادة فتح الأندلس: لمحمود شيت خطاب (١/ ١٩٥).

(١) من ذلك أنه غنّى الخليفةَ عبدَ الرحمن بن الحكم يومًا صوتًا استحسنَه، فقال: يُؤمرُ الخُزّانُ أن يدفعوا إليه ثلاثينَ ألفَ دينارٍ!!! تاريخ افتتاح الأندلس (ص/ ٨٣-٨٤).

- وذُكر أن الْمَأْمونَ العباسي كان بدمشق، فركب يُريد جبلَ الثَّلج فمرّ ببِرْكةٍ عظيمةٍ من برَك بني أُميَّة وعلى جانبها أَربعُ سَرَوَاتٍ (ما ارتفَعَ عن مَجرى السَّيْل وانحدَرَ عن غِلَظ الجبل) وكان الماءُ يدخلها سَيْحًا (الماء الجاري على وجه الأرض) ويخرج منْها، فاسْتحْسن الْمَأْمُونُ الْموضعَ، فدعا ببزْمَاوردٍ (نوعٌ من الطعام) ورِطْلِ نَبيذٍ، وذَكَرَ بني أُميَّةَ فَوضَعَ منهم وتنقّصَهم، فأقبل عَلوِيَّة على العُود واندفع فغنّى:

أُولَئِــكَ قَــومِي بعــد عِــزٍّ وثــروةٍ ... تفــانَوْا، فــإلَّا أَذرِفِ الــدَّمعَ أُكْمَــدَا

فَضرب الْمَأْمُونُ الطَّعَامَ بِرِجْلِهِ ووَثَبَ، وقال لعَلويَّة: يا ابْن الفاعلة!! لم يكن لك وَقتٌ تذكر فيه مواليكَ إلَّا في هذا الوقت! فقال: مولاكم زِرْيابُ عنْد مواليَّ يركب في مئَة غُلَامٍ! وأنا عنْدكُمْ أَمُوتُ من الْجُوع؛ فَغَضب عليه عشْرين يومًا ثمَّ رضي عنهُ!

انظر: كتاب بغداد: لابن طيفور (ص/ ١٥٣)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٤٣/ ٣٥).

قلت: وما زال ضياعُ الأموال على أهل اللهو واللعب مستمرًا، والله المستعان!

فقد نشرتْ إحدى الصحف الخليجيّة تفاصيلَ حفل اعتزال أحد لاعبي كرة القدم!!

حيث ذكرتْ الصحيفةُ أنه تمَّ استقدامُ أحد أندية أوربّا المشهورة خِصّيصًا لهذه المناسبة؛ للّعب معها! أما الهدايا التي قُدِّمتْ للّاعب فهي كالتالي: ثلاثُ سيارات لِكْزِس! وسيارةُ (ج م سي)، وأكثرُ من ثلاثين دِرْعًا، وعشرون هديةً خاصةً! وهدايا ماليةٌ ضخمةٌ لم يُفصَحْ عنها!!!

(٢) انظر الأبيات في: طبقات النحويين واللغويين: للزبيدي (ص/ ٢٦٠-٢٦١)، وجذوة المقتبس: للحميدي (٢/ ٤٤٩)، وبغية الملتمس: للضبي (٢/ ٤٩٢)، وترتيب المدارك: للقاضي =

صــلاحُ أمــرِي والــذِي أبتغِــي ... سَــهْلٌ علــى الــرحمنِ في قُدْرَتِــهْ
ألْــفٌ مــن الحُمْــر وأَقْلِــلْ بِهَــا ... لِعَــالمٍ أَوْفَــى عَلــى بُغيتِــهْ
زِرْيَــابُ قــد يأخُــذُهَا دُفْعَــةً ... وصَــنْعتِي أشْــرفُ مــنْ صــنعتِهْ!

وكذا الحالُ بالنسبة للإمام عبد القاهر الجرجاني، فقد قال عنه القِفْطيُّ: «أشعارُهُ كثيرةٌ في ذَمِّ الزمانِ وأهلِه»[1]، وكان هذا الأمرُ هو السببَ في تقصيره

=

عياض (٤/ ١٣٩)، وإنباه الرواة: للقفطي (٢/ ٢٠٦)، والمُغرب في حلى المغرب: لعلي بن موسى (٢/ ٩٦)، والديباج المذهب: لابن فرحون (ص/ ١٥٦)، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: للفيروز آبادي (ص/ ١٨٧).

(١) من ذلك قولُه:

أيُّ وقــتٍ هــذا الــذي نحــنُ فيــه؟! ... قــد دَجَــا بالقِيــاسِ والتَّشْــبِيهِ
كُلَّمَــا ســارتِ العُقُــولُ لكــي تقــ ... ــطعَ تِيهًــا توغّلــتْ في تِيــه!

وقولُه:

كَبِّــرْ علــى العِلــم يــا خليلــي! ... ومِــلْ إلــى الْجَهْــل مَيْــلَ هــائِمْ
وعِــشْ حمــارًا تَعــشْ ســعيدًا ... فالسَّــعدُ في طــالِع البَهَــائِمْ!!

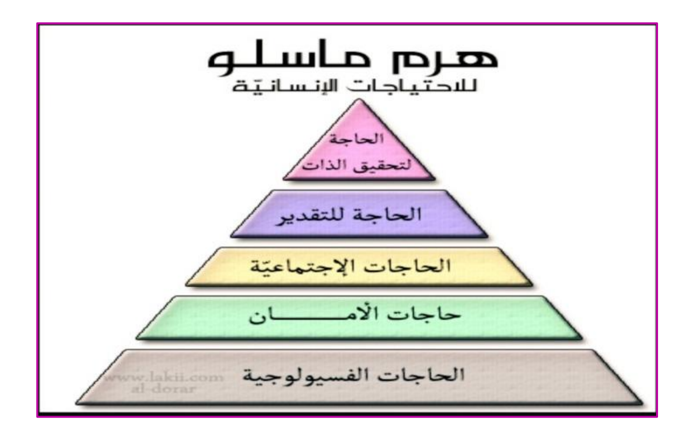
وقولُه:

ومَــا لَــكَ مَطمــعٌ في المَــرْءِ إلَّا ... إذا مــا أَنْكَــرَ الأَمْــرَ القَبِيحَــا
فأمَّــا وهــو يَجهَــلُ بــين قُــبْحٍ ... وبــين الحُسْــنِ فُرْقَانًــا صَــحِيحَا
فإنَّــكَ في رجَــاءِ الخَيْــرِ مِنْــهُ ... بأجْــوَازِ الفَــلاَةِ تَكِيــلُ رِيحَــا!

انظر: تاريخ الإسلام: للذهبي (٣٢/ ٣١)، وطبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٥/ ١٥٠)،
=

إذا صنّف؛ إذْ لم يجدْ راحةً ممّن جَمَعَ لهم وألَّف!»[(١)].

فالحاصلُ: أنه يجبُ توفيرُ جميع متطلَّبات العيش الكريم بحاجاتِه الخمْس؛ كما جاءتْ في السُّلَّم الهرمي عند (أبراهام ماسلو) - أحدِ كبارِ العلماءِ في علم النفس الفَرْدي - صاحب نظرية (سُلَّم الحاجات) الذي سمّاه بتحقيق الرغبات الإنسانية، ابتداءً من أسفل الهرم: الحاجات الفِسْيولوجية (العُضْوية)، ثم الحاجة إلى الأمان، ثم الحاجة إلى الانتماء والاجتماع، ثم الحاجة إلى تقدير الذات، ثم الحاجة إلى تحقيق الذات[(٢)].



=
وإنباه الرواة: للقفطي (٢/ ١٩٠)، والوافي بالوفيات: للصفدي (١٩/ ٣٥)، والبلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: للفيروز آبادي (ص/ ١٨٦).

(١) إنباه الرواة: للقفطي (٢/ ١٩٠).

(٢) انظر: علم نفس النمو من الجنين إلى الشيخوخة: لعادل الأشول (ص/ ٤١٧).

ثانيًا: المنافسةُ الشَّريفةُ:

وهذا أمرٌ محمودٌ حثَّ عليه الشرعُ في الخير؛ فقال تعالى في صفة المؤمنين أصحاب الجنة: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَامُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٥، ٢٦].

وقد نافَسَ النبيُّ ﷺ بين الصَّحابة في غير ما حَادِثةٍ، كما كان الصحابةُ يتنافسون في مجال الخير، ومن ذلك تلك القصةُ المشهورةُ التي رواها الترمذيُّ عن أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عندما أمر النبيُّ ﷺ بالصدقة، فجاء عمرُ بنصف مالِه، وجاء أبو بكر بمالِه كلِّه، فقال عمرُ: والله لا أَسبقهُ إلى شيءٍ أبدًا![(١)].

فالمقصودُ: أنَّ توظيفَ عُنْصُر التنافس بين العلماء والباحثين أمرٌ محمودٌ يُساعد على تقدُّمِ العلم والإبداعِ فيه، وزيادتِه باستمرارٍ واطِّرادٍ؛ لأنّ عنصرَ التنافس بين ذوي الطُّموحات العالية ليس موجودًا في النفس فحَسْبُ، بل هو مُترسِّخٌ فيها، فإشعالُه وشَحْذُهُ وإذكاؤُهُ باستمرارٍ؛ كفيلٌ بتحقُّقِ الإبداع وحصولِه، وما الرُّدودُ والمناظراتُ والمكاتباتُ بين العلماء إلّا مَظْهرٌ من تلك المظاهر.

ومن شواهد ذلك: المنافسةُ التي كانت بين أبي العباس ابنِ سُريجٍ القاضي، وأبي بكرٍ محمدِ بنِ داودَ الظاهريِّ الإمامِ المشهورِ، فقد كان بينهما مناقشاتٌ لطيفةٌ[(٢)]، فكانا يتناظران ويترادَّان في الكتب، حتى إنّ ابنَ سُريجٍ لمّا مات

---

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب: بابٌ في مناقب أبي بكر وعمر ٥/ ٥٧٤ (٣٦٧٥).
قال الترمذي: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٢) **من ذلك:** أن أبا العباس ابنَ سريج قال للظاهريِّ يومًا: أنت تقول بالظاهر وتنكر القياس، =

أبو بكرٍ الظاهريُّ أَسِفَ على موته وحَزِنَ، وجلس في عزائه على التراب، وأخذ يبكي ويقول: «ما آسَى إلا على لسانٍ أكَلَهُ الترابُ من أبي بكرٍ»[(١)].

ويُحكَى عنه - وهذا هو الشاهدُ - أنه لمَّا بَلَغَتْهُ وفاتُه كان يكتُب شيئًا، فألقى الكُرَّاسةَ من يدِه، وقال: «مات مَن كنتُ أحُثُّ نفسي وأُجهِدُها على الاشتغال بمناظرته ومقاوِمته!»[(٢)].

وتقدَّم معنا خَبَرُ أبي بكرٍ الخُوارِزمي مع بديع الزمان الهمَذَاني[(٣)]،

= فما تقول في قول الله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧، ٨] من يعمل مثقال نصف ذرة ما حُكمُه؟ فسكت محمدٌ طويلًا وقال: أَبْلِعْنِي رِيقي، قال له أبو العباس: أبلَعتُك دِجْلة!! قال: أنظرني ساعة، قال: أنظرتُك إلى قيام الساعة!! وافترقا ولم يكن بينهما غيرُ ذلك.

انظر: وفيات الأعيان: لابن خلكان (١/ ٦٦)، والبرهان في علوم القرآن: للزركشي (١/ ٤٨٥)، والجواهر المضية في طبقات الحنفية: للقرشي (١/ ٤٢٠).

- وقال أبو بكر لابن سريج يومًا: أكلِّمك من الرِّجْل فتُجيبُني من الرأس! فقال له: هكذا البقرُ، إذا حَفِيتْ أظلافُها دُهِنتْ قرونُها!! وفيات الأعيان (١/ ٦٦)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٢/ ٢٤٤).

- وقال له ابن سريج مرةً: أنت بكتاب «الزّهرة» (كتابٌ ألّفه أبو بكر في الأدب) أشهرُ منك بهذا (يعني: الفقه)، فقال له: تُعيّرني بكتاب «الزّهرة» وأنتَ لا تُحسِنُ تَستتِمُّ قراءتَه، وهو كتابٌ جمعناه هَزْلًا؛ فاجمعْ أنتَ مثلَه جِدًّا! البداية والنهاية: لابن كثير (١٤/ ٧٥٩).

(١) تاريخ الإسلام: للذهبي(٢٢/ ٢٦٤)، وطبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٣/ ٢٤)، والبداية والنهاية: لابن كثير (١٤/ ٧٦٠).

(٢) الوافي بالوفيات: للصفدي (٣/ ٦٠) وانظر مجموعة الرسائل الكمالية: لمحمد سعيد كمال رقم ٥ (ص/ ١٧٢).

(٣) وممّا يُحمدُ للهمذاني، أن الخوارزميَّ لما مرض، كتب إبراهيمُ بنُ أحمد بن حمزة للهمذاني يهنّئه بمرض الخوارزمي! وكان بينهما من المهاجاة والمهاترة والمنازعة والمنافرة ما يطول =

والتَّفْتازاني مع الشريف الجُرجاني.

ثالثًا: الصَّدْمةُ النفسية:

وهو أمرٌ ربّما حصل للإنسان في موقفٍ عابرٍ، أو مجلسٍ حافلٍ، فيُوقِظُ إحساسَه إيقاظًا قويًّا، ويَهُزُّ شعورَه هَزًّا عنيفًا، فيكونُ سببًا لإبداعه وتألُّقه وتفوُّقه؛ لأن النفسَ الإنسانيةَ فيها طاقاتٌ هائلةٌ، ربّما بقيتْ خامدةً هامدةً، حتى يأتيَ ما يُثيرُها ويُخرجُها عن سكونها، وهذه الصدْمةُ سلاحٌ ذو حَدَّين، ربّما أهلكتْ صاحبَها، وربّما كانت دافعًا له إلى الإبداع والتألُّق إذا كان مُتحلِّيًا بالشجاعة، وقد مرَّ شيءٌ من ذلك في أسس الإبداع عند كلامنا عن الشجاعة الأدبيّة.

يقول الفيزيائيون - وهو القانونُ الأولُ من قوانين الحركة -: «كلُّ جسمٍ يبقى على حالته، من حيثُ السكونُ أو الحركةُ بسرعةٍ منتظمةٍ في خطٍّ مستقيمٍ، ما لم تؤثِّر عليه قوةٌ تُغيّر من حالته»[(١)].

=

به الشرح، فردَّ عليه الهمذانيُّ برسالةٍ يعاتبه فيها، كان منها قولُه: «... ما أقبح الشماتةَ بمن أمِنَ الإماتة. فكيف بمن يتوقّعها بعد كلّ لحظةْ، وعقب كل لفظةْ؟!

والدهرُ غَرْثانُ (جائع) طَعْمُه الأخيار، وظمآنُ شِرْبُه الأحرار. فهل يَشمت المرءُ بأنياب آكلِهْ، أو يُسَرُّ العاقلُ بسلاح قاتلِهْ؟

وهذا الفاضلُ - شفاه الله - وإنْ ظاهَرَنا بالعداوة قليلًا، فقد باطنَّاه وُدًا جميلًا. والحُرُّ عند الحميّة لا يصطاد، ولكنه عند الكرم ينقاد، وعند الشدائد تذهب الأحقاد.

فلا تتصورُ حالي إلا بصورتها من التوجُّع لعِلّتِه، والتحزُّن لـمَرْضتِه. وقاه الله المكروه، ووقاني اللهُ سماعَ السوء فيه، بمنّه وحَوْلِه، ولُطفه وطَوْلِه».

انظر: رسائل بديع الزمان: لابن دُوسْت (ص/ ١٨١)، وجمع الجواهر (ص/ ٢٥٣)، وزهر الآداب: للحُصْري (٢/ ٥١٠).

(١) **انظر**: أعلام الفيزياء في الإسلام: لعبدالله الدفّاع (ص/ ٨٧).

=

ولذا؛ فإنَّ أجملَ القصائدِ وأبدعَ المقطوعات الشعرية هي التي يقولها صاحبُها بعد معاناةٍ نفسيةٍ حادَّةٍ، أو عَقِبَ صدمةٍ شعوريةٍ عنيفةٍ، كما قيل لأعرابيّ: «ما بالُ المراثي أجودُ أشعارِكم؟ قال: لأنَّا نقولُها وأكبادُنا تَحترقُ!»[(١)].

وممَّن جَرَى له شيءٌ من هذا: **الإمامُ الكِسائيُّ**؛ فإنه تعلَّمَ النحوَ على كِبَرٍ؛ وسببُه: أنه جاء إلى قومٍ وقد أعْيَا، فقال: قد عَيِيتُ، فقالوا له: تجالسُنا وأنتَ تَلْحَنُ؟! قال: وكيف لَحَنْتُ؟ قالوا: إنْ كنتَ أردتَ من انقطاع الحِيلة فقلْ: عَيِيتُ، وإن أردتَ من التعب، فقلْ: أَعْيَيْتُ؛ فأَنِفَ من هذه الكلمة، وقام من فَورِه، وسأل عمّن يُعلّمُ النحوَ، فأُرشد إلى معاذٍ الهرَّاء، فلزمه حتى أنفدَ ما عندَه! ثم خرج إلى البصرة فلقي الخليلَ، وجلس في حلقته، فقال له رجلٌ من الأعراب: تركتَ أسدَ الكوفة وتميمًا وعندَهما الفصاحةُ، وجئتَ إلى البصرة!! فقال للخليلِ: من أين أخذتَ علمَكَ هذا؟ فقال: من بوادي الحجازِ ونجدٍ وتِهامَةَ، فخرج، ورجع وقد أنفدَ خمسَ عشرةَ قِنِّينةً حِبْرًا في الكتابة عن العرب، سوى ما حَفِظَ، فقدم البصرةَ فوجد الخليلَ قد مات وفي موضعه يُونسُ، فجَرَتْ بينهما مسائلُ أقرّ له فيها يُونسُ، وصَدَّرَه في موضعه![(٢)]. وجعله هارونُ

= وهذا القانون يُنسبُ خطًا إلى نُيوتُن، والصحيحُ أنّ ابنَ سينا قد سبق إليه في كتابيْه: (الإشارات والتنبيهات)، و(الشفاء).

وقد سبقتْ الإشارةُ لقوانين الحركة.

(١) انظر: البيان والتبيين: للجاحظ (٢/ ٢١٨)، والعقد الفريد: لابن عبد ربه (٣/ ١٨٣)، ونهاية الأرب: للنويري (٥/ ١٦٥).

(٢) انظر: تاريخ بغداد: للخطيب (١١/ ٤٠٢)، ومعجم الأدباء: للحموي (٤/ ١٧٣٨)، =

الرشيدُ مؤدِّبَ وَلَدَيْه الأمينِ والمأمونِ.

وكذلك سيبويه؛ قال نصرُ بنُ علي: «كان سيبويه يَستمْلي من حماد بن سلمة يومًا: قال رسولُ الله ﷺ: «ما أحدٌ مِن أَصْحَابي إِلَّا وقَدْ أخذتُ عليه، ليسَ أَبَا الدَّرْدَاءِ». فقال سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، فقال: لحنتَ يا سيبويه! فقال سيبويه: لا جَرَمَ! لأطلُبنّ عِلمًا لا تُلحّنني فيه أبدًا، فطلب النحوَ، ولم يزلْ يلازمُ الخليلَ»[(١)].

ومثلُه الإمامُ الشافعيُّ؛ قال مصعبُ بنُ عبد الله الزبيري: «كان الشافعيُّ في ابتداء أمرِه يطلبُ الشعرَ وأيامَ الناس والأدبَ، ثم أخذ في الفقه بعدُ. قال: وكان سببُ أخذه في الفقه أنه كان يومًا يسير على دابةٍ له وخلفه كاتبٌ لأبي، فتمثَّلَ الشافعيُّ ببيتِ شعرٍ، فقَرَعَهُ كاتبُ أبي بسَوْطه! ثم قال له: مِثلُك يذهب بمروءته في مثل هذا! أين أنت عن الفقه؟ فهزَّه ذلك، فقَصَدَ لمجالسة الزِّنجِيِّ بنِ خالد مفتي مكة، ثم قدِمَ علينا فلزِمَ مالكَ بنَ أنسٍ»[(٢)].

وقال أبو زيدٍ النحْوي: «كان الذي حَدَاني على طلب الأدب والنحو أني دخلتُ على جعفر بن سليمان، فقال: اُدْنُهْ، فقلت: أنا دَنِيٌّ! فقال: لا تقلْ

= والوافي بالوفيات: للصفدي (٢١/ ٤٩)، وبغية الوعاة: للسيوطي (٢/ ١٦٣)، وطبقات المفسرين: للداوودي (١/ ٤٠٥).

(١) انظر: تاريخ العلماء النحويين: للتنوخي (ص/ ٩٢)، والجامع: للخطيب البغدادي (٢/ ٦٧)، ونزهة الألبّاء: للأنباري (ص/ ٤٢)، وأدب الإملاء والاستملاء: للسمعاني (ص/ ١٠٥)، وإنباه الرواة: للقفطي (٢/ ٣٥٠).

(٢) تاريخ دمشق: لابن عساكر (٥١/ ٢٩٨). وانظر حلية الأولياء: للأصبهاني (٩/ ٧١).

يا بُنَيَّ: أنا دَنِيٌّ، ولكنْ قُلْ: أنا دَانٍ»[(١)].

وقال أبو عبد الله بنُ خَالويْه: «حدّثني أبو عمر (الزاهد غلام ثعلب) قال: كان مِن سبب تعلُّمي النحوَ أني كنتُ في مجلس إبراهيمَ الحربيِّ، فقلتُ: قد قَرِيْتُ الكتابَ، فعابني مَن حَضَرَ وضَحِكوا، فأَنِفْتُ من ذلك وجئتُ ثعلبًا، فقلتُ: أعزَّك اللهُ! كيف تقولُ: قَرِيْتُ الكتابَ أو قرأتُ الكتابَ؟ فقال: حدثني سلمةُ عن الفرّاءِ عن الكِسائيِّ قال: تقول العربُ: قرأتُ الكتابَ إذا حقَّقُوا، وقَرَاتُ إذا لَيَّنُوا، وقَرَيْتُ إذا حَوَّلُوا. قال: ثم لزمتُه إلى أن ماتَ». قال أبو عبد الله: فصار أبو عمر أَوْحَدَ عصرِه في اللغة إمامًا[(٢)].

وقال أبو محمد عبدُ الله بنُ محمد بن العربيِّ: «أخبرني ابنُ حزمٍ أنّ سببَ تعلُّمه الفقهَ أنه شهد جنازةً، فدخل المسجدَ، فجلس ولم يركعْ، فقال له رجلٌ: قُمْ فَصَلِّ تحيّةَ المسجد – وكان ابنَ ستٍّ وعشرينَ سنةً! – قال: فقمتُ وركعتُ، فلما رجعْنا من الجنازة، جئتُ المسجدَ، فبادرتُ بالتحيّةِ، فقال لي: اجلسْ ليس ذا وقتُ صلاةٍ، **يعني**: بعدَ العصر! فانصرفتُ حزينًا، وقلتُ للأستاذ الذي ربّاني: دُلّني على دار الفقيه أبي عبد الله بنِ دَحُّون، فقصدتُه وأعلمتُه بما جرى عليَّ، فدلَّني على «الموطأ»، فبدأتُ عليه قراءةً، ثم تتابعتْ قراءتي عليه وعلى غيرِه ثلاثةَ أعوامٍ، وبدأتُ بالمناظرة!»[(٣)].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي: للخطيب البغدادي (٢/ ٢٧).

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم (ص/ ١٣٢ - ١٣٣).

(٣) **انظر**: معجم الأدباء: للحموي (٤/ ١٦٥٢)، وتاريخ الإسلام (٣٠/ ٤١١)، وتذكرة الحفاظ (٣/ ٢٢٩)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (١٨/ ١٩٩).

=

ومن المتأخِّرين: **زينُ الدّين خالدُ بنُ عبد الله بن أبي بكر الجرجيُّ المِصْريُّ الأزهري (ت ٩٠٥ هـ)** الذي كان يعملُ وَقَّادًا بالجامع الأزهر، فقد اتّفقَ أنْ سقطتْ منه يومًا فَتِيلةٌ على كُرّاس أحد الطلبة، فشتمه الطالبُ وعيّره بالجهل، فأنِف من ذلك، وترك الوِقادَةَ وأكبّ على الطلب - وكان عمرُه إذْ ذاك ستّا وثلاثين سنةً! - فبَرَعَ في العلم، وصنّف شرحًا حافلًا على «التوضيح» ما صُنّف مثلُه، و«إعراب ألفية بان مالك»، وشرحًا نافعًا على «الآجروميّة»، وآخرَ على «قواعد الإعراب» لابن هشام، وآخرَ على «الجزريّة» في التجويد، وآخرَ على «البُردة»، وعلى «المقدِّمة الأزهرية». **قال ابنُ العماد:** «كَثُرَ النّفعُ بتصانيفه؛ لإخلاصه ووُضُوحِها»[(١)].

وكذا **العلّامةُ المختارُ بن بُونَ الجَكَنيُّ الشِّنقيطيُّ**[(٢)]؛ فقد نشأ في بيت أبيه، ولم يشتغل بالقراءة إلا بعدَ أن كَبِرَ، وكان في أول أمره يَضربُ أقرانَه من الصبيان، ويَنزع منهم ما بأيديهم! فاتّفق أنه سَطَا ذاتَ يومٍ على صَبيٍّ فضَربَه، فانتصرتْ له أمُّه، وسبّتْ المختارَ بنَ بُونَ سَبًّا قبيحًا، وعيَّرته بالجهل، فأنِف لذلك، وسار من غير عِلْم أبويْهِ يريد المختارَ بنَ حبيب، فوصل اليه، وشرع

=

تنوير: مِن الباحثين مَنْ يُشكِّكُ في صحَّة هذه الرواية عن ابن حزم، كالأستاذ: سمير القدوري في مقاله: «المؤلفات الأندلسية والمغربية في الردّ على ابن حزم الظاهري» المنشورة في مجلة (الذخائر) العددان ١١ و ١٢ (١٤٢٣هـ) فراجعْه إن شئتَ.

(١) انظر: الضوء اللامع: للسخاوي (٣/ ١٧١)، وشذرات الذهب: لابن العماد (١٠/ ٣٨)، والكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة: للغزّي (١/ ١٩٠).

(٢) هو صاحبُ النظم المعروف بالاحمرار، الذي عقد فيه من كتاب «التسهيل» لابن مالك ما لم يذكرْه في الألفية، ومَزَجَه بها مزجًا جيدًا يدل على مهارةٍ تامةٍ.

في قراءة الآجروميّة، فلم يَفهمْها، ثم فتح اللهُ عليه بعد ذلك[(١)] حتى صار تاجَ العلماء في مِصْرِه[(٢)].

وكما حصل **لأديسون** أيضًا، حيثُ فُصِل من المدرسة؛ لأن مُدرِّسيه قالوا: إنه أَبْلَهُ، ضعيف العقل، لا يَصلُحُ للتَّعلُّم! فلم يَفُتَّ ذلك في عَضُدِه، بل اتّجه عندها للميكانيكا، فنبَغ فيها، وما مات حتى سُجّل باسمه (١٠٩٣) اختراعًا!! كما تقدّم.

---

(١) لذلك قِصّةٌ لطيفةٌ عجيبةٌ ذكرها حفيدُه الأديبُ محمدُ أبّات بنُ عبد الباقي بن المختار، وهي: أنّ المختارَ كان عند شيخه المذكور، وكان لشيخه خَتَنٌ (زوجُ البنت أو الأخت) يغيبُ عنه ثم يجيءُ، فيَبني له خِباءً يُقيم فيه مع أهله أيّامًا، ثم ينصرفُ، على عادة أهل تلك البلاد - أعني أهل البادية - قبل أن يَنقل أهلَه إلى محلّه المخصوص، فإذا ذهبَ، يُطوَى ذلك الخِباءُ، ويُجعَلُ عليه شيءٌ من الشجر يَقيه وَطْأَ الدوابّ، فإذا رجع بَنَى له الخِباءَ أيضًا.
قال: فاتّفقَ أنه ذهبَ، فبعدَ انصرافِه وانصرافِ أهلِه، جاء المختارُ فدخل في طُنُب الخِباء ونام! فجاءتْ الجاريةُ الموكَلَة بالخِباء، فطوَتْه على المختار ولم تَنتبِه له. قال: فأقام هناك أيامًا في نومه ذلك! وقد سأل عنه شيخُه فلم يَعثرْ له على خَبَرٍ. فلما رجع الرجلُ من سفره، شَرَعَتْ الجاريةُ في بناء الخِباء، فما راعَها إلّا المختارُ! فانتبه مذعورًا، وخرج في غاية الشُّحُوب، فجاء إلى شيخه، فجعل يَسقيه اللبنَ الممذوقَ بالماء، حتى قَوِيَ قليلًا، فسأله عن أمره. فأخبره بما كان، وانتبه من نومه يحفظُ ما كان مكتوبًا في ألواح التلاميذ الموجودين هناك! إلا إنه لم يَفهمْ معناه. فعلِم شيخُه أنّ اللهَ تعالى فتحَ عليه، فبنى له بناءً مُنفردًا، ومنعه من لقاء الناس، وجعل يُحضِرُ له الكُتبَ ويَتركُه وإيّاها، ثم يَتعهَّدُه ويسألُه، فبعدَ مُدةٍ قليلةٍ نَبَغَ! فأبرزه شيخُه للناس وقد تمكّنَ!! انظر: الوسيط في تراجم أدباء شنقيط لأحمد أمين الشنقيطي (ص/ ٢٧٨).

(٢) المرجع نفسه (ص/ ٢٧٧) فما بعد.

رابعًا: الزَّمانُ والمكانُ:

وهما عنصران مساعدان، وليسا أساسيّيْن.

ولقائلٍ أن يقولَ: لماذا لم تُقدِّمِ الزَّمانَ في الأُسُسِ رُغْمَ أهميَّتِه، وجعلتَهُ عاملًا مُساعدًا فقط؟

وجوابًا عن هذا الملْحظ أقولُ:

إن كثيرًا من الناس يُخطئون في فهم الزمن، ظنًّا منهم أنه هو صانعُ الحركة، وأنّ الحركةَ لا تَحدُثُ إلّا بقوّة الزمن! فإذا قلتَ لأحدهم: اعملْ، أو اجتهدْ، أو ثابرْ، قال: ليس لديّ وقتٌ كافٍ! أو قال: إنَّ الوقت لم يعُدْ فيه بركةٌ كما كان عند السلف!... إلى غير ذلك من الأعذار، فنتجَ عن ذلك أنْ حمَّل الناسُ الزمان عُيُوبَهم وتخاذلَهم! وجَعلوه مِشْجَبًا يُعلِّقون عليه أخطاءَهم وتكاسلَهم!

ولقد أصابَ أبو العباس محمدُ بنُ شادِلٍ الهاشميُّ إذْ يقولُ:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا

يَعِيبُ النَّاسُ كُلُّهُمُ الزَّمَانَا ... فَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِهِ رَمَانَا[1]

وهذا الفهمُ إنْ لم أقلْ: إنه قتل رُوحَ الطُّمُوح والإبداع، وأثْخَنَ في العزائم والهِمَم، فإنني لا أشْتَطُّ في الحكم إنْ قُلتُ: إنه ليس أضرَّ على العالم وطالب العلم منه!

---

(١) الزهد الكبير: للبيهقي (ص/ ١٢٤).

ينبغي أنْ نَعِيَ أنَّ الحركةَ هي المسيطرةُ على الزمان وليسَ العكسَ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يعيشُ كِمِّيَّةَ وقتٍ، ولكنه يعيش كيفيَّةَ حركةٍ، كما أنّه لا يعيش أوقاتًا تستوعبُ أعمالًا، وإنما يعيش أعمالًا تَستغرِقُ مُدَدًا؛ ولهذا نجد بعضَ العلماء يعيشون ثلاثين أو أربعين سنة؛ لكنهم يَحيوْن قُرونًا متطاولةً بعِلْمهم وفِكْرهم وإبداعهم!

وهذا الزمنُ هو ما يُسمَّى **بالزمن الاجتماعيّ**[١]؛ وهو الذي نَحْسُبُهُ بنوع الخِبْرة والعلم والثقافة التي تمرُّ على الإنسان.

فقياسُ العمر بمقياس الزمن الرياضيّ لا شكَّ أنه قياسٌ خادعٌ غيرُ صحيحٍ؛ وإنما المهمُّ قياسُه بالزمن الاجتماعيّ[٢].

خُلاصةُ القول: أنَّ الزمنَ لا يحول دون الحركة، بل المسئولُ عن الحركة هو الطاقةُ المنتِجةُ للحركة، **وأَضْرِبُ على ذلك مثالًا**: وهو ذلك العَدَّاءُ الذي يَجري مئةَ مترٍ في عشرينَ ثانيةً مثلًا، لو أنه ضاعَفَ جُهْدَهُ وزاد من حركتِهِ، لربَّما قطع تلك المسافةَ في عشر ثوانٍ أو أقلَّ!**[٣]**.

---

(١) لأنّ الزمنَ ثلاثةُ أنواعٍ:

١- زمنٌ رِياضيٌّ: وهو ما نَحْسُبُهُ بالساعة واليوم والشهر.

٢- وزمنٌ بيُولُوجِيٌّ: وهو التغيُّرُ الذي يطرأ على جسم الإنسان حَسَبَ مراحل العُمر المختلِفة.

٣- وزمنٌ اجتماعيٌّ.

(٢) انظر: الموسوعة العربية العالمية (٢٧/ ١٢٤)، وجريدة الشرق الأوسط، العدد (٥٠٣٧).

(٣) وقد حصل هذا بالفعل، فقد قطع أحدُ العدَّائين الأمريكيين مسافةَ الـ (١٠٠) متر في تسعِ ثوانٍ فقط! أي: بمعدَّل أقلّ من ثانيةٍ لكلّ عشرةِ أمتارٍ!!!

فالحركةُ هي التي تقتضي الوقتَ ولكنها لا تُسبِّبُهُ، وهي رَهْنٌ لوجوده، وليس رَهْنًا لوجودها[(١)].

وربما وقع في أذهان بعض الناس إشْكالٌ حول مسألة **بركة الوقت**؛ لما جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى... يَتَقارَب الزَّمَانُ**» أخرجه البخاريُّ[(٢)].

ولما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا مرفوعًا: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يتقاربَ الزَّمانُ، فتكونَ السَّنةُ كالشَّهْرِ، ويكونَ الشهرُ كالجُمُعةِ، وتكونَ الجُمُعةُ كاليومِ، ويكونَ اليومُ كالسَّاعةِ، وتكونَ السَّاعةُ كاحتِرَاقِ السَّعَفَةِ**» أخرجه أحمد[(٣)].

فربما احتجَّ هؤلاء بهذه الأحاديث؛ بسبب فهمِهم الخاطئِ لها، لا سيّما وقد ذهب بعضُ شُرَّاح الحديث إلى أنَّ المقصود بتقارب الزمان هو قِلَّةُ البركة فيه! قال ابنُ حجرٍ تأييدًا لهذا القول: «الذي تضمَّنه الحديثُ قد وُجِد في زماننا هذا؛ فإنا نجدُ من سُرعة مَرِّ الأيام ما لم نكنْ نَجِدُه في العصر الذي قبلَ عصرنا هذا، وإن لم يكنْ هناك عيشٌ مُسْتَلَذٌّ!»[(٤)].

---

(١) انظر: نظرية الإيقاع العربي: لمحمد العيّاشي (ص/ ٥٨) فما بعد.
(٢) في الصحيح، كتاب الاستسقاء: باب ما قيل في الزلازل والآيات ١/ ٣٥٠ (٩٨٩).
(٣) في المسند ١٦/ ٥٥٠ (١٠٩٤٣).
قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح. وقال ابن كثير: إسناده على شرط مسلم. وصحّحه الألباني والأرناؤوط. وانظر: أشراط الساعة: للوابل (ص/ ١٢٠).
(٤) فتح الباري (١٣/ ١٦).

فأقولُ جوابًا عن هذا الإشْكال:

أولًا: هذا اجتهادٌ لبعض العلماء الذين شرحوا الحديث، وإلا فقد فسَّره آخرون بغير هذا؛ كما هو مَزْبورٌ في كتب شروح الحديث[١].

ثانيًا: أنّ هذا من علامات الساعة الصغرى، وعلاماتُ الساعة الصغرى والكبرى لا يَعلمُ أحدٌ متى ستقعُ، وإنما المعلومُ أنها قبلَ قيام الساعة فحسْب، ولا يُدرَى هل ظهرتْ هذه العلامةُ قبل زماننا هذا، أو في زماننا، أو أنها ستظهر بعد زماننا؛ هذا كلُّهُ من عِلم الغَيْب.

ثالثًا: أنَّ الحركةَ تبقى حركةً، والزمنَ يبقى زمنًا، ولكنّ الذي تغيَّر هو مقدارُ الزمن، فلا يلزم من تناقص الزمن تناقصُ الحركة، وعليه فينبغي أن نُضاعفَ الجُهْدَ لتدارك نقص الزمن بزيادة الحركة؛ خصوصًا أنَّ التطوُّرَ التِّقْنيَّ الهائلَ قد سدَّ كثيرًا من النقصِ الزمنيِّ، فقد كان العالِمُ في السابق ربّما رحل في طلبِ الحديثِ الواحدِ أو المسألةِ الواحدةِ شهرًا أو أكثر![٢]، بينما قد يَقطعُ الآن تلك المسافةَ في ساعاتٍ قليلةٍ، وربّما لا يحتاج للرِّحلة أصلًا، فقد تيسّرت المعلومةُ وأصبحتْ في مُتناوَل كلِّ أحدٍ وهو جالسٌ في بيته، عن طريق وسائل الاتّصال الحديثة، لا سيما **(الإنْتَرْنِتْ)** الذي يُعدُّ بحقٍّ آيةَ هذا العَصْر![٣].

---

(١) انظر تلك الأقوالَ ومناقشتَها في: فتح الباري: لابن حجر (١٣/ ١٦) فما بعد.

(٢) لطيفة: ألّف الخطيبُ البغداديُّ كتابَه «الرحلة في طلب الحديث»، ومرادُه طلبَ الحديثِ الواحِدِ، وليس مطلقًا كما قد يَظنُّ بعضُ الناس! فإنّ الرحلةَ هي الأصلُ عند جميع العلماء، ولا سيّما المحدِّثين.

(٣) لَئِن قال (سَمِيِّي) أحمدُ بنُ عليِّ بنِ أحمدَ شوقي - فيما مضى - عن الصحف (الجرائد): =

وربَّما مكَث العالِمُ في ذلك الوقت يبحث عن مسألةٍ واحدةٍ أيامًا متطاولةً، أو في نسْخِ كتابٍ واحدٍ شهورًا عِدّةً، أما الآنَ فقد أصبح الأمرُ مُتيسِّرًا جدًا؛ حيث يستطيع الواحدُ منّا أن يَصل لما يُريدُ خلال ثوانٍ قليلةٍ - بعد ظهور الموسوعاتِ العِلميةِ الحاسُوبيّةِ الضخمةِ - كما أصبحتْ الكتبُ متوفِّرةً بطبعاتٍ متعدّدةٍ، مخدومةً بفهارسَ متنوعةٍ، فهذا مما يُعين على زيادة الحركة، وطَيِّ الزمان، حتى وإنْ قَلَّتْ فيه البركةُ عمّا كان في السابق.

رابعًا: أنَّ البركةَ التي تكون في الوقت ليست ذاتيّةً مَحْضَةً(١)، فما كان

=

لِكُـــلِّ زَمـــانٍ مَـضـــَى آيَـــةٌ وآيـــةُ هـــذا الزمـــانِ (الصُّـــحُفْ)

فإنني أقولُ اليومَ:

لِكُـــلِّ زَمـــانٍ مَـضـــَى آيَـــةٌ وآيتُنـــا اليَـــوْمَ يـــا قَـــومُ (نِـــتْ)!

(١) لكنّ هذا لا يَمنعُ خَرْقَ العادة بمعجزةٍ لنبيٍّ، أو كرامةٍ لوليٍّ، فقد جاء في صحيح البخاري (٤/ ١٦٠) رقم (٣٤١٧) عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «خُفِّفَ عَلَى دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْقُرْآنُ، فَكَانَ يَأْمُرُ بِدَوَابِّهِ فَتُسْرَجُ فَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَبْلَ أَنْ تُسْرَجَ دَوَابُّهُ» الحديث.

قال التُّوْرِبِشْتِي: «أي الزَّبور، وإنما قال: «القرآن»؛ لأنه قَصَدَ به إعجازَه من طريق القراءة».

وقال غيرُه: «قرآنُ كلِّ نبيٍّ يُطلَق على كتابه الذي أُوحيَ إليه».

وقد دلّ الحديثُ على أنّ اللهّ تعالى يَطْوِي الزمانَ لمن شاء من عباده كما يَطْوِي المكانَ لهم. قال النوويُّ: «إنّ بعضَهم كان يقرأ أربعَ خَتْمات بالليل وأربعًا بالنهار!». إرشاد الساري: للقُسطلاني (٥/ ٣٩٦).

هذا ما يتعلقُ بالمعجزة، أمّا الكرامةُ؛ فقد قال تاجُ الدين السبكيُّ وهو يُعَدِّدُ الكراماتِ: «**الرابع والعشرون**: ما سُهِّل لكثيرٍ من العلماء من التصانيف في الزمن اليسير، بحيثُ وُزِّعَ زمانُ تصنيفهم على زمان اشتغالهم بالعلم إلى أن ماتوا فوُجِدَ لا يَفِي به نَسْخًا، فضلًا عن التصنيف، وهذا قِسمٌ مِن نَشْر الزمان الذى قدَّمناه، فقد اتَّفقَ النَّقَلَةُ على أنّ عُمْرَ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ لا يَفِي

=

=
بعُشْر ما أبرزه من التصانيف، مع ما يَثبُتُ عنه من تلاوة القرآن كلَّ يوم ختمةً بالتدبُّر! وفي رمضان كلَّ يومٍ ختمتين كذلك! واشتغالِه بالدَّرْس والفتاوى والذِّكْر والفِكْر، والأمراضِ التي كانت تَعْتَوِرَه بحيثُ لم يَخْلُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من علَّةٍ أو عِلَّتين أو أكثر، وربما اجتمع فيه ثلاثون مرضًا!

وكذلك إمامُ الحرمين أبو المعالى الجُويني رَحِمَهُ اللَّهُ، حُسِبَ عُمرُه وما صنَّفه، مع ما كان يُلقيه على الطلبة ويُذَكِّرُ به في مجالس التذكير فوُجِدَ لا يَفِي به.

وقرأ بعضُهم ثمانيَ ختماتٍ في اليوم الواحد! وأمثالُ هذا كثيرٌ.

وهذا الإمامُ الربانيُّ الشيخُ محيي الدين النووي رَحِمَهُ اللَّهُ وُزِّعَ عُمرُه على تصانيفه فوُجِدَ أنه لو كان ينسخها فقط لما كفاها ذلك العُمُرُ، فضْلًا عن كونه يصنِّفُها، فضلًا عمّا كان يضمُّه إليها من أنواع العبادات وغيرِها.

وهذا الشيخُ الإمامُ الوالدُ رَحِمَهُ اللَّهُ إذا حُسِب ما كتبه من التصانيف، مع ما كان يُواظبه من العبادات، ويُمليه من الفوائد، ويذكره في الدروس من العلوم، ويكتبه على الفتاوى، ويتلوه من القرآن، ويشتغل به من المحاكمات، عُرِف أنّ عُمْرَه قطعًا لا يَفِي بثلث ذلك! فسبحان مَن يُبارِكُ لهم ويَطْوي لهم ويَنشُرُ!» طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

- **وقال الطُّوفيُّ عن شيخ الإسلام ابن تيمية:** «كان يتكلَّم على المنبر على طريقة المفسِّرين مع الفقه والحديث، فيُورِدُ في ساعةٍ من الكتاب والسنة واللغة والنظر ما لا يَقدِرُ أحدٌ على أن يوردَه في عدّة مجالسٍ؛ كأنّ هذه العلومَ بين عيْنيْه يأخذُ منها ما يشاءُ ويذرُ!». الدرر الكامنة: لابن حجر (١/ ١٧٩).

- **وقال الشيخ أبو عبد الله ابنُ رشيق:** «لو أراد الشيخُ تقيُّ الدين (ابنُ تيمية) رَحِمَهُ اللَّهُ أو غيرُه حصرَها - يعني مؤلفاتِ الشيخ - لما قدروا، لأنه ما زال يكتب، وقد منَّ اللهُ عليه بسرعة الكتابة ويكتب من حفظه من غير نقل.

وأخبرني غيرُ واحدٍ أنه كتب مجلداً لطيفًا في يوم! وكتب غيرَ مرةٍ أربعين ورقةً في جلسةٍ وأكثرَ! وأحصيتُ ما كتبه وبيَّضه في يوم فكان ثمانَ كراريس في مسألةٍ من أشْكَل المسائل! وكان يكتب على السؤال الواحد مجلّدًا! وأمّا جوابٌ يَكتبُ فيه خمسينَ ورقةً وستينَ وأربعينَ وعشرينَ فكثيرٌ.....

ولقد رأيتُ من خَرْق العادة في حفْظ كتبه، وجَمْعها، وإصلاح ما فَسَدَ منها، ورَدّ ما ذهب منها، ما لو ذكرتُه لكان عجبًا، يعلمُ به كلُّ مُنصفٍ أن لله عنايةً به وبكلامه؛ لأنه يذبُّ عن
=

العلماء السابقون يَخلُدون للرَّاحَة والخُمولِ مُعْتَمدين على بركة الوقت! وإنما كانوا يَسهرون الليالِيَ، ويَبذلون غايةَ الجُهْد في الطَّلَب والتحصيل.

فهذا الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان ربّما قام في الليلة الواحدة نحوًا من عشرين مرَّةً لتسجيل ما يَسْنَحُ له من الفوائد![1].

وهذا الإمامُ النوويُّ لما وَرَدَ دمشقَ، وسكن المدرسةَ الرَّواحِيَّةَ، مكث قريبًا من سنتين لا يَضع جنبَه على الأرض، وكان يَقرأُ في اليوم اثنيْ عشرَ دَرسًا على المشايخ شرحًا وتصحيحًا!! درسٌ في: «المهذَّب»، و«الوسيط» درسان، و«الجمع بين الصحيحين»، و«صحيح مسلم»، و«أسماء الرجال»، و«اللُّمَعِ» لأبي إسحاق في أصول الفقه، و«اللُّمَعِ» لابن جنّي في النحو،

=

سنة نبيه ﷺ تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويل الجاهلين». العقود الدرية: لابن عبد الهادي (ص/ ٨٠) فما بعد.

- **وقال السيوطيُّ:** «منتهى التصانيف في الكثرة لابن شاهين: صنَّف ثلاث مئة وثلاثين مصنَّفًا، منها: التفسيرُ ألفُ جزءٍ، والمسندُ ألفٌ وخمسُ مئةِ جزءٍ، والتاريخُ مئةٌ وخمسون مجلَّدًا.

ومِدادُ هذه التصانيفِ وغيرِها سبعةٌ وعشرون قنطارًا!

قلتُ: هذا من كرامة طَيِّ الزمان كالمكان، من وراثة الأسراءِ وليلةِ القدْر». مشتهى العقول في منتهى النقول (مخطوط) (ل/ ١١).

(١) **قال محمدُ بنُ يوسف البخاريُّ:** «كنتُ مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذاتَ ليلةٍ، فأحصيتُ عليه أنه قام وأسرج يستذكر أشياءَ يعلِّقُها في ليلةٍ ثمانيَ عشرةَ مرةً!».

وقال محمدُ بنُ أبي حاتمٍ الورّاقُ: «كان أبو عبد الله، إذا كنتُ معه في سفرٍ، يجمعنا بيتٌ واحدٌ إلا في القيظ أحيانًا، فكنتُ أراه يقوم في ليلةٍ واحدةٍ خمسَ عشرةَ مرةً إلى عشرينَ مرةً، في كل ذلك يأخذ القدَّاحة، فيُورِي نارًا، ويُسرِجُ، ثم يُخرجُ أحاديثَ، فيُعلِّمُ عليها». سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٢/ ٤٠٤).

و«إصلاح المنطق» لابن السِّكِّيت في التصريف، و«المُنتخَب» في أصول الفقه، وكتابٍ آخرَ في الأصول لم يُسَمُّوهُ. وكان لا يأكل في اليوم والليلة سوى أَكْلةٍ بعد العِشاء، ولا يشرب شَرْبةً إلا في وقت السَّحَر، وكان كثيرَ السَّهَر في العبادة والتلاوة والتصنيف[١].

وربّما مشى الطالبُ في ذلك الوقت آلافَ الأميال في طلب العلم[٢]، حتى إنّ بعضَهم بال الدَّمَ من كثرة الإجهاد والتَّعَب! كما حصل لأبي الفضل ابنِ طاهرٍ القَيْسرانيِّ[٣].

وأكادُ لا أُحصي أولئك العلماءَ الذين كانوا يقرأون الكتابَ الواحدَ عشراتِ المرّاتِ! بل مئاتِ المرّاتِ!! وربما أعاد بعضُهم قراءةَ الكتاب الواحد ألفَ مرّةٍ!!![٤].

---

(١) **انظر**: تاريخ الإسلام: للذهبي (١٥/ ٣٢٥)، ومرآة الجنان: لليافعي (٤/ ١٣٨)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٩١٠)، وفوات الوفيات: لابن شاكر الكتبي (٤/ ٢٦٥).
وانظر تعليق محقّق كتاب «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين»: لابن العطّار (ص/ ٥٠) على عدد الدُّروس.

(٢) **حتى قال** أبو بكر بنُ المقرئ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: طُفتُ الشرقَ والغربَ أربعَ مراتٍ!
ومشيتُ بسبب نسخة مفضَّل بن فَضَالة سبعينَ مَرْحلةً! (المرحلة: ٤٣٣٥٢ م) ولو عُرِضَتْ على خبّازٍ برغيفٍ لم يقبلْها!
ودخلتُ بيتَ المقدس عشرَ مرّاتٍ! وحَجَجْتُ أربعَ حجّاتٍ، وأقمتُ بمكة خمسةً وعشرين شهرًا. سير أعلام النبلاء (١٦/ ٤٠٠) بتصرّف.

(٣) تذكرة الحفاظ: للذهبي (٤/ ١٢٤٢).
وقد كان ابنُ طاهرٍ هذا يمشي في الليل والنهار عشرينَ فرْسخًا (الفرسخ: ٥٥٤٤ م)! **انظر**: صفحات من صبر العلماء: لأبي غدة (ص/ ٣٣٤).

(٤) **فهذا** مجدُ الدين أبو الفداء إسماعيلُ بنُ محمد بن إسماعيل بن الفرّاء الحرّاني ثم الدمشقي =

=

الفقيهُ الحنبليُّ، يقال: إنه قرأ «المقنعَ» مئةَ مرةٍ! تاريخ ابن الوردي (٢/ ٢٨١)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٨/ ١٥٥).

- وهذا أبو نصرٍ الفارابيُّ: قال ابنُ خلِّكان: «يقال إنه وُجد «كتابُ النفس» لأرسطاطاليس وعليه مكتوبٌ بخطّ أبي نصرٍ الفارابيّ: إني قرأتُ هذا الكتابَ مائتيْ مرةٍ! ونُقل عنه أنه كان يقول: قرأتُ «السماعَ الطبيعيَّ» لأرسطاطاليس الحكيم أربعينَ مرةً». وفيات الأعيان (٥/ ١٥٤).

- وقال المزنيُّ: «قرأتُ الرسالةَ خمسَ مئةِ مرةٍ ، ما من مرةٍ إلا واستفدتُ منها فائدةً جديدةً»!!

وفي روايةٍ عنه قال:«أنا أنظر في الرسالة من خمسين سنة ، ما أعلم أني نظرتُ فيها مرةً إلا واستفدتُ شيئًا لم أكن عرفتُه!». المجموع شرح المهذب (١/ ٩).

- وقال الكتّاني: «وفي «الحِطّة» نقلًا عن السيد جمال الدين المحدِّث عن أستاذه السيد أصيل الدين؛ أنه قال: «قرأتُ صحيحَ البخاريِّ نحوَ مئةٍ وعشرينَ مرةً في الوقائع والمهمّات، لنفسي، وللناس الآخرين، فبأيِّ نيةٍ قرأتُه حصلَ المرادُ وكفى المطلوبُ» اهـ.

وفي ترجمة الحافظ برهان الدين الحلبي من «الضوء اللامع» للسخاوي أنه قرأ البخاريَّ أكثرَ من ستينَ مرةً، ومسلمَ نحوَ العشرينَ» اهـ.

وفي ترجمة الحجّار من تاريخ الحافظ ابن حجر: أنه حدَّث بالصحيح أكثرَ من سبعينَ مرةً بدمشق وغيرها.... وقد قال الحافظ السخاوي: «حكى الحافظ الذهبي عن الحافظ شرف الدين أبي الحسن اليُونيني أنه سمعه يقول: إنه قابل نسختَه من صحيح البخاري وأسمعه في سنةٍ إحدى عشرةَ مرةً. (انظر: الشهاب الهاوي على منشئ الكاوي).

وفي «طبقات الخواصّ» للشهاب أحمد الشرجي اليمني في ترجمة سليمان بن إبراهيم العلوي أنه أتى على البخاري نحوًا من مائتين وثمانين مرةً، قراءةً وسماعًا وإقراءً.

وفي ترجمة غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي الأندلسي من «الغُنية» للقاضي عياض: «بلغني عنه ولم أسمعْه منه أنه قال: كرَّرتُ البخاريَّ سبع مئة مرة» اهـ.

وفي ترجمة المذكور من «صلة» الحافظ ابن بشكوال يذكر أنه كرّر صحيحَ البخاري سبع مئة مرة، اهـ. مع أن غالبًا المذكور عاش (٧٨ سنةً)، خُذْ منها ما قبل بلوغه إلى وفاته، يبقى عندك (٦٠سنة)، فعلى هذا كان يقرؤه في كل سنةٍ نحوَ عشر مراتٍ، في كل شهرٍ مرةً تقريبًا.....

ووجدتُ في ثَبَت الشهاب أحمد بن قاسم البُوني: «رأيتُ خطَّ الفيروز آبادي في آخر جزءٍ

=

=

من صحيح الإمام البخاري قال: إنه قرأ صحيحَ البخاريِّ أزيدَ من خمسين مرةً». فهرس الفهارس والأثبات (٢/ ١٠٤٥- ١٠٤٦).

- وأملى النوويُّ على أصحابه مسألةً من «الوسيط» للغزالي، فراجعوه فيها، فقال: تراجعوني في «الوسيط»، وقد قرأتُه أربعَ مائة مرة!!

وانظر: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: لابن بشكوال (ص/ ٤٣٣)، والغُنية في شيوخ القاضي عياض (ص/ ١٨٩)، والعبر في خبر من غبر (٢/ ٤١١)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ٤٥)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (١١/ ٢٩٥)، ومرآة الجنان: لليافعي (٣/ ١٦٩)، وشذرات الذهب: لابن العماد (٦/ ٩٦).

- وقال الزَّبيدي: «القِيرِيُّ، بالكسر: قرية باليمن من أعمال كوكبان، منها أوحدُ عصره الفقيهُ المحدِّثُ عبدُ المنعم بنُ عبد الرحمن بن حسين بن أبي بكر النزيلي الشافعي، سمع الحديث من جماعة، ووالدُه شيخُ الديار اليمنية، وعمُّه عبدُ القديم بنُ حسين، دَرَسَ «العُباب» في الفقه ثمان مئة مرة»!! تاج العروس (١٣/ ٥٠١) و (٣٠/ ٤٨٧).

- وقال أبو العَرَب التميمي: «حدثني أبي أحمدُ بن تميم، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أنهم ربّما وجدوا في آخر بعض كتب عباس بن الوليد الفارسي المحدِّث: دَرَسْتُه ألفَ مرةٍ!!». طبقات علماء إفريقية (ص/ ٢٥٤)، والمحن (ص/ ٢٩٢).

- وذُكر أنّ ابنَ هشام ختم (الألفية) على بعض شيوخه ألفَ مرةٍ!! انظر: الوفيات: لابن قنفذ (ص/ ٣٧٧)، وعجائب الآثار: للجبرتي (٢/ ١٥٠)، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: للبيطار (ص/ ١٤٠٦).

- وقال أبو محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابن التبّان: «كنتُ أولَ ابتدائي أدرس الليلَ كلَّه، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل. فكنتُ آخذ المصباحَ فأجعله تحت الجَفنة، وأتعمَّد النومَ، فإذا رَقَدَتْ أخرجتُ المصباحَ وأقبلتُ على الدرس».

وكان كثيرَ الدرس - ذُكر أنه دَرَسَ كتابًا ألفَ مرةٍ!!» ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٦/ ٢٤٨).

ولما جَرَتْ له المسألةُ التي تكلَّم فيها في الإيمان، وخالفه أبو محمد ابنُ أبي زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والقابسيُّ، والسبائيُّ، والجماعةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وحَدَثَ بينهم وبين بعضهم وحشةٌ بسببها، جعل موعدًا للإلقاء. وألقى عليهم كتابَ الوضوء. فخالفوه في مسألةٍ. فقال لهم: اسمعوا ما أقول: درستُ هذا الكتاب ألفَ مرةٍ!! فأَبَوْا إلّا مخالفتَه. فقام بهم الى داره، وأخرج

=

فهل حلّت البركةُ في أوقاتهم لأنهم كانوا متقدِّمين من حيثُ الزمنُ فحسْبُ؟ كلّا! ولكنْ من أجل الحركة والمثابرة التي بذلوها، فلا غَرْوَ حينئذٍ إنْ تحرَّك الواحدُ منا اليومَ واجتهد أنْ يَكْتسبَ ما اكتسبُوا، ويُحصّلَ ما حصّلوا، فالجِدُّ والهمَّةُ والاستعانةُ بالله وصِدْقُ التوكُّل عليه هي التي باركتْ في أعمارهم وأوقاتهم؛ وإلّا فماذا يستفيدُ الإنسانُ ولو أنه عُمِّر ما عُمِّر نوحٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إذا لم يَجدَّ ويجتهدْ؟!

ثم انظرْ إلى حال ابنِ حجرَ نفسِه - الذي قال هذا الكلام - ماذا صنع؟ هل قَعَدَ وتقاعَسَ عن العمل والحركة؟ أم أنه جَدَّ واجتهدَ، وبذل وكافح حتى أخرج لنا هذه المصنَّفاتِ العظيمةَ، التي لو كُلِّف أحدُنا نَسْخَ بعضها ما استطاعَ، ولتصرَّمَ عُمْرُه دون إدراكِ ذلك! فكيف بتلك التحريراتِ الدقيقةِ، والتّحقيقاتِ العجيبةِ التي رَقَمَهَا في كُتبه، لاسيما كتابُه «فتحُ الباري»، ولا هِجْرةَ بعدَ الفتْح![1].

= الكتاب وأراهم المسألةَ كما قال. المصدر نفسه (٦/ ٢٥٠).

- **وقال الشيخُ حمادٌ الأنصاريُّ**: «دَرَسْتُ كتابَ «ميزان الاعتدال» للحافظ الذهبي دراسةً وافيةً، ولعلّي قرأتُه أكثرَ من مئة مرّةٍ! وذلك لعدم وجود غيره عندي في أول طلب علم الحديث». المجموع في ترجمة العلامة المحدِّث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري (١/ ٤١٩).

وقال أيضًا: «قرأتُ «الإصابة» في الصحابة أكثرَ من مئة مرّةٍ! لأنه أفضلُ كتابٍ في هذا الباب». المرجع نفسه (٢/ ٧١٥).

وذُكِر في ترجمته أنه قرأ «فتح الباري في شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني عشرينَ مرّةً! المرجع نفسه (١/ ٢١٣).

(١) **قال الكِتّاني** - لما نَقَلَ صاحبُ «الحِطّة» عن ابن خلدون أنّ شرحَ صحيح البخاري دَيْنٌ على =

ولقد بلغتْ مؤلفاتُه كما ذكر الدكتور/ شاكر محمود عبدالمنعم: اثنين وثمانين ومئتيْ مصنّفٍ!![١].

خامسًا: أنه يوجد في عصرنا هذا الذي نعيشه علماءُ وباحثون آمنوا بضرورة الحركة، ولم يلتفتوا إلى الزمن، فأبدعوا وأنتجوا ومَلئوا الدنيا عِلمًا وعَملًا، حتى جاوزتْ مؤلَّفاتُ بعضهم المئة! وهم – بحمدِ الله– كثير، وقد عمّ نفعُهم الصغيرَ والكبير.

سادسًا: أنَّ الحركةَ هي التي تُحدِّدُ طولَ الزمان وقِصَرَه، وهذا أمرٌ مقرَّرٌ من الناحية النفسية؛ فَلَيْلُ الأسير في سِجنه ليس كليل النائم الحالم على فراشه عند حبيبِه! وهذا هو ما يُسمَّى بالزَّمَن البسيكولُوجي (النفْسي)؛ فهذا أبو فراسٍ الحَمْدانيُّ **يَصِفُ حالَه في السِّجن لـمّا أَسَرَتْهُ الرُّومُ بقولِه**[٢]:

وَأَسْرٍ أُقاسِيهِ وليلٍ نُجُومُهُ ... أرى كُلَّ شَيْءٍ غَيْرَهُنَّ يَزُولُ

=

هذه الأمة –: «ذلك الدَّيْنُ أُدّي بشرح الحافظ ابن حجر، ولذلك لما قيل لشيخ شيوخنا الكاملين مولانا/ محمد بن علي بن محمد الشوكاني: أما تشرحُ الجامعَ للبخاريِّ كما شرحه الآخرونَ من العلماء؟ قال: لا هجرة بعد الفتح! يعني به «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني، ولا يخفى ما فيه من اللُّطْف». فهرس الفهارس (١/ ٣٢٢).

وانظر: الحِطّة في ذكر الصحاح الستة: لصدّيق حسن خان (ص/ ٧١).

(١) وذلك في كتابه النفيس: «ابن حجر العسقلاني، مصنفاته، ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة» (١/ ١٧٣–٣٨٦).

(٢) **انظر:** يتيمة الدهر: للثعالبي(١/ ٨٨)، والتذكرة الحمدونية: لابن حمدون البغدادي (٥/ ٨٠).

تَطُولُ بِيَ السَّاعَاتُ وَهْيَ قَصِيرَةٌ ... وَفِي كلِّ دَهْرٍ لَا يَسُرُّكَ طُولُ[١]

بينما نجدُ شاعرًا غَزَلِيًا كعُمرَ بنِ أبي ربيعةَ يقول عن ليله معَ محبوبه[٢]:

فَبِتُّ قَرِيرَ الْعَينِ أُعْطِيْتُ حَاجَتي ... أُقَبِّلُ فَاهَا فِي الْخَلَاءِ فَأُكْثِرُ

فيا لَكَ من ليلٍ تَقَاصَرَ طُولُه ... وَمَا كَانَ لِيلِي قبلَ ذَلِك يَقْصُرُ!

فالزمن في كِلا الحالَيْن واحدٌ، لكنّ الحركةَ والشعورَ طَوَّلا ذاك وقَصَّرا هذا![٣].

هذا ما يتعلَّق بالزمان.

- **أمَّا المكانُ:** فهو عاملٌ مُساعِدٌ أيضًا[٤]؛ لأنَّ اختيارَ المكان المناسب

---

(١) قال شيخُ كُتَّاب العصر مصطفى الرافعيُّ عليه الرحماتُ: «متى ثَقُلَ الهمُّ على نفسٍ من الأنفس، ثَقُل على ساعتها التي تكون فيها، فتطولُ كآبتُها ويطولُ وقتُها جميعًا» وحي القلم (١/ ٥٦).

(٢) انظر: خزانة الأدب: للبغدادي (٥/ ٣١٩)، وزهر الأكم في الأمثال والحكم: لليُوسي (٢/ ١٧٨).

(٣) وانظر: نظرية الإيقاع العربي: لمحمد العياشي (ص/ ٦١).

(٤) والدليلُ على ذلك، أنَّ هناك كتبًا كثيرةً ألفها أصحابُها في أماكنِ المِحنة والابتلاء - كالسِّجْن مثلًا - وأبدعوا فيها، ولهذا جعلتُه عاملًا مساعدًا فحسْب.

ومِن تلك الكتب التي ألّفها أصحابُها في السِّجْن:

- كتاب «التاجي» في أخبار بني بُوَيْه، لأبي إسحاق الصابئ (ت ٣٨٤ هـ).

ألّفه صاحبُه في السجن. انظر: الأعلام: للزركلي (١/ ٧٨).

- كَتَبَ ابنُ سِينا (ت ٤٢٨ هـ) رسالتَه عن «القُولَنْج»، ورسالةَ «حيّ بن يقظان»؛ وهو في السجن.

- كتاب «المبسوط» لأبي بكر السَّرَخْسِي (ت ٤٨٣ هـ).

=

=

أملاهُ صاحبُه على تلاميذه من حفظه وهو مسجونٌ في الجُبِّ!!

قال القُرشي: «أملى «المبسوطَ» نحو خسمةَ عشرَ مجلدًا وهو في السجن بأُوزْجَنْد محبوسْ، وعن أسباب الخلاص في الدنيا مأْيوسْ، بسبب كلمةٍ كان فيها من الناصحين، سالكًا فيها طريقَ الراسخين؛ ليكونَ له ذخيرةً إلى يوم الدين، وإنما يتقبّل اللهُ من المتقين، وهو يتولّى الصالحين، ولا يَهدِي كيدَ الخائنين، ولا يُضيع أجرَ المحسنين». الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية (٢/ ٢٨).

وقد ذكر السَّرَخْسِيُّ في مواضعَ من كتابه هذا تشكِّيه من السجن، وذلك مثلَ قوله عند فراغه من شرح العبادات: «هذا آخرُ شرح العبادات، بأوضح المعاني وأوجز العبارات، أملاه المحبوسُ عن الجُمَع والجماعات، مصلِّيًا على سيِّد السادات، محمدٍ المبعوث بالرسالات، وعلى أهله من المؤمنين والمؤمنات». المبسوط (٤/ ٣٤٨).

وقال في آخر شرح كتاب النكاح: «هذا آخرُ شرح كتاب النكاح، بالمأثور من المعاني والآثار الصحاح، أملاه المنتظرُ للفَرَج والفَلاح، مصلِّيًا على المبعوث بالحق بالسيوف والرماح، وعلى آلِه وأصحابِه أهلِ التقى والصلاح، الذين مهَّدوا قواعدَ الحق وسلكوا طريق النجاح». المبسوط (٥/ ٢١٢).

وقال في آخر شرح كتاب الطلاق: «هذا آخرُ شرح كتاب الطلاق، بالمؤْثَرَة من المعاني الدِّقاق، أملاه المحصورُ عن الانطلاق، المبتَلَى بوحشة الفِراق، مصلِّيًا على صاحب البُراق، وآلِه وصحبِه أهلِ الخير والسباق، صلاةً تتضاعف وتدوم إلى يوم التَّلاق، كتبه العبدُ البريء من النفاق». المبسوط (٧/ ١٠٧).

وقال في آخر شرح كتاب العِتاق: «انتهى شرحُ كتاب العِتاق، من مسائل الخلاف والوفاق، أملاه المستقبلُ للمِحَن بالإعتاق، المحصورُ في طَرَفٍ من الآفاق، حامدًا للمهيمن الرزّاق، ومُرتجيًا إلى لقائه العزيز بالأشواق، ومصلِّيًا على حبيب الخلّاق، وعلى آله وأصحابه خير الصَّحْب والرِّفاق». المبسوط (٧/ ٢٣٧).

وقال في آخر شرح كتاب المكاتَب: «انتهى شرحُ كتاب المكاتَب، بإملاء المحصور المعاتَب، والمحبوس المعاقَب، وهو منذ حَوْلَيْن على الصبر مُواظِب، وللنجاة بلطيف صنع الله مُراقِب». المبسوط (٨/ ١٤٣).

وقال في آخر شرح كتاب الإقْرَار: «انتهى شرحُ كتاب الإقْرَار، المشْتَمل من الْمعَانِي ما هو سِرٌّ الْأَسْرَار، وأملى المحبوسُ في مَوضِع الأشرار، مُصَلِّيًا على النبيِّ المختار». ذكر هذا

=

=

صاحب الجواهر المضيّة في طبقات الحنفية (٢/ ٢٩) ولم أره في «المبسوط».

وانظر معجم المطبوعات العربية والمعرَّبة: ليوسف سركيس (٢/ ١٠١٦).

- شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت ٧٢٨ هـ) كتب أكثرَ كتبه وهو في السجن، كما في العُقود الدرّية (ص/ ٦٧ و٨٠) وغيره. فمن ذلك:

- كتاب «التسعينية» ألّفه (سنة ٧٠٦ هـ) في سجن مصر حين طلبوا منه أن يكتب لهم ورقةً فيها نفيُ الجِهة! وأنّ اللهَ يتكلَّم لا بحرفٍ وصوتٍ!... إلخ حتى يخرجوه من السجن، فردَّ عليهم بهذا الكتاب العظيم.

انظر: مقدمة الكتاب بتحقيق الدكتور العجلان (ص٥٩ - ٦٢)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة: للدكتور عبد الرحمن المحمود (١/ ٢١٠).

- كتاب «تفسير آياتٍ أشكلتْ على كثيرٍ من العلماء» ألَّفه في السجن في آخر حياته كما في العقود الدرية: لابن عبد الهادي (ص/ ٤٣).

- كتاب «النبوّات»: قيل: إنه ألفه في السجن، وهو مِنْ آخر ما صنَّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

- كتاب «الردّ على الأخنائي».

- كتاب «معارج الوصول».

- كتاب «درء تعارض العقل والنقل»، المطبوع في أحدَ عشرَ مجلدًا!

والعجيبُ أنه ألَّفه بعد أن أُخِذتْ منه جميعُ كتبه، ولم يكن لديه مصادرُ يَستمدُّ منها!!

لكنْ لا عجبَ؛ فقد قال جمالُ الدّين السومري في أماليه: «ومِن عجائب ما وقع في الْحِفْظ من أهل زماننا أنّ ابنَ تيمية كان يمرُّ بالكتاب مطالعةً مرّةً فينتقشُ في ذهنه، وينقلُه في مصنَّفاته بلفظِه ومعناهُ!» الدرر الكامنة: لابن حجر (١/ ١٧٨).

وغيرُها.

- كتاب «الأزهار في فقه الأئمة الأخيار»، ويُقال: «الأطهار» وشَرْحُه «الغيث المدرار» لأحمد بن يحيى بن المرتضى الحسني (ت٨٤٠ هـ) ألَّفهما صاحبُهما في السجن؛ لخوفه نسيانَ ما حفظه من الفقه! فكان يُلقي مسائلَه السيدُ علي بن الهادي فيكتبه المؤلفُ بالجَصّ على الأبواب؛ لمنع البوّاب من إدخال أدوات الكتابة عليهما، ثم يمحوه بعد الحفظ عن ظهر قلب، وطال التأليفُ والكتابةُ عِدّةَ سنين!

وكتابُ «الأزهار» هذا هو الذي شرحه الإمامُ الشوكانيُّ في كتابه العُجاب «السيل الجرّار المتدفّق على حدائق الأزهار». قيل: إنّ مسائلَ الأزهار منطوقَها ومفهومَها تسعةٌ وعشرون

=

والارتياحَ له يُحدِثُ في النفس قوَّة، وفي الهمَّة نشاطًا، ويُساعد القوةَ النفسيّةَ على بُلوغ غايتها، وعلى الإبداع والتألُّق.

ولذا تجدُ أنَّ الناسَ يَحِنُّون إلى أوطانهم؛ لأنهم يَجدون فيها من الرَّاحة النفسية ما لا يَجدونه في غيرها، وهذا أمرٌ جُبِلتْ عليه النفوسُ، كما تجدُ أنّ كلَّ أحدٍ يحرِص على اختيار المكان الذي يَرتاحُ فيه ويأمَنُ.

وقد ذكر القلقشنديُّ أنّ ممّا يُعِينُ على اتقان العمل وإجادته، خُلُوُّ الفِكْر عن الـمُشَوِّش، وأنّ مردَّ ذلك إلى أمرين: صفاء الزمان، وصفاء المكان.

وبعدَ أنْ تكلّمَ عن صفاء الزمان، **قال عن صفاء المكان:** «وذلك بأن يكون

=

ألفَ مسألة!

انظر: مطلع البدور: لابن أبي الرجال (٢/ ١٠١)، والأعلام: للزركلي (١/ ٢٦٩)، ومصادر الفكر الإسلامي في اليمن: للحبشي (ص/ ٦٦٢).

- كتاب «الأنوار في محاسن الآثار الناصّة على حلّ مسائل الأزهار» لأحمد بن يحيى بن المرتضى الحسني السابق، ألّفه أيضًا وهو في السجن. منه نسخة مخطوطة ضمن مجموعة برقم (٢١) بمكتبة الجامع. **انظر** مصادر الفكر الإسلامي في اليمن (ص/ ٦٦٥).

- **ومن المعاصِرين:**

- الشيخُ البشيرُ الإبراهيميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد نظمَ قصيدةً رَجَزيّةً تقع في ستةٍ وثلاثينَ ألفَ بيتٍ! وهو في السجن، كما في تصحيح الدعاء: لبكر أبو زيد (ص/ ٩٨).

- وألّف الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابَه «مختصر صحيح مسلم» وهو في السجن خلالَ ثلاثة أشهر. ذكر ذلك في مقدمة كتابه مختصر صحيح البخاري (١/ ٨ - ٩).

- وعقد الشيخُ عبدُ الله بنُ الصدِّيق الغُماري فصلًا في كتابه «سبيل التوفيق في ترجمة عبد الله بن الصديق» (ص/ ٩٦) بعنوان: (مؤلَّفاتي في السجن) - يعني: سجن جمال عبد الناصر، حيثُ مكث فيه من سنة (١٩٥٩) إلى سنة (١٩٦٩ م) - كان منها كتابُه «الكنز الثمين». كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: للألباني (٤/ ٤).

المكانُ الذي هو فيه خاليًا من الأصوات، عاريًا عن المَخُوفاتِ والمَهُولاتِ والطوارقِ، وأن يكون مع ذلك مكانًا رائقًا مُعْجِبًا، رقيقَ الحواشي، فسيحَ الأرجاء، بَسيطَ الرِّحاب، غيرَ غَمٍّ ولا كَدِرٍ، فإنْ انضمَّ إلى ذلك ما فيه بَسْطٌ للخاطر: من ماءٍ وخُضْرةٍ وأشجارٍ وأزهارٍ وطِيبِ رائحةٍ، كان أبسطَ للفِكْر وأنْجَحَ للخاطِر.

وقد ذهب بعضُهم إلى أنه ينبغي خُلُوُّ المكان من النقوش الغريبة، والمرائي الـمُعجِبة؛ فإنها وإنْ كانتْ مما ينشِّطُ الخاطرَ فإنّ فيها شُغْلًا للناظر فيتبعُه القلبُ فيتشتّت!»[(١)].

وإذا تتبَّعتَ سِيَرَ العلماء، وجدتَ أنَّ طائفةً منهم قد أبدعوا في بعض مؤلَّفاتهم؛ لأنهم ألَّفوها في أماكنَ هادئةٍ جميلةٍ.

فقد ذُكِرَ عن الفارابيِّ أنه كان مُدَّةَ مُقامه في دِمشقَ لا يكون غالبًا إلا عند مُجتَمع ماءٍ، أو مُشتَبَك رياضٍ، وألَّف هناك كُتُبَه[(٢)].

وكذلك الحافظُ الذهبيُّ، فقد ذُكِرَ أنه ألَّف أعظمَ مؤلَّفاته: وهو «تاريخُ الإسلام»، وكذا «سِيرُ أعلام النُّبلاء»، وغيرُها، مُدَّةَ إقامته في (كَفْر بَطْنا)، وهي قريةٌ من قُرى غُوطَةِ دِمشقَ، أحدِ أجملِ بِقاعِ الدنيا في ذلك الوقت[(٣)].

---

(١) صبح الأعشى (٢/ ٣٢١).

(٢) وفيات الأعيان: لابن خلكان (٥/ ١٥٦).

(٣) قال القرشيُّ عن الحافظ الذهبي: «وَلي خِطابةَ قرية (كفْر بَطْنا) من قرى غوطة دمشق، فسكنها مدةً ولازم الاشتغال والتخريج والاختصار والتصنيف، ولم يكن له همٌّ غيرَ ذلك، ولا له عنه شاغلٌ». مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (٥/ ٥٦٦).
=

وربما انْتجَعَ العلماءُ هذه الأماكنَ الهادئةَ الـمُريحةَ لِيُجدّدوا نشاطَهم، ويُحْرِزوا قُوّتَهم، ويستجِمُّوا، كما قال ابنُ الفَرَضي عن **سعيد بن عثمان التُّجيبي -أحدِ الـمُحدِّثين الكبار، البَصيرينَ بعِلَلِ الحديث-**: «كان له أقاربُ بفِرِّيش[١]، فكان يَنتجِعُهُ في كل عامٍ لِيُحْرِزَ قُوّتَه، وفيها توفي سنة ٣٠٥ هـ»[٢].

وكذا كان يصنعُ الإمامُ ابنُ خُزيمة، فكان يَخرُجُ بطُلّابه إلى بعض المتنزَّهات لِيستجِمُّوا، وعَمِلَ مَرّةً دَعوةً عظيمةً لا يَتهيأُ مثلُها إلّا لسلطانٍ![٣].

وكان بهاءُ الدين ابنُ النحّاس الحلبي النحوي، شيخُ العربيّة بالديار المصريّة؛ ربّما ضَجِرَ من الاشتغال، فيأخذُ الطلبةَ ويَمشي بهم بين القَصْرين ويُلقي عليهم الدُّروسَ[٤].

=

وانظر: التبيان في شرح الديوان: المنسوب للعكبري (٤/ ٢٥١)، والبداية والنهاية (١٨/ ٣٢)، وسير أعلام النبلاء - المقدّمة - (ص/ ٤١).

(١) فِرِّيش: مدينةٌ بالأندلس غربي فَحْص البلُّوط بين الجوف والغرب من قرطبة... يكون بها الرُّخامُ الأبيضُ الجيّدُ، وفيها البندقُ الكثيرُ والشجرُ، وبها معادنُ الحديد.
انظر: معجم البلدان: للحموي (٤/ ٢٥٩)، والروض المعطار في خبر الأقطار: للحميري (ص/ ٤٤٠).

(٢) تاريخ علماء الأندلس: لابن الفرضي (١/ ٢٩٦).

(٣) نقل الحاكمُ أنّ ابنَ خُزَيْمةَ عمل دَعوةً عظيمةً عَديمةَ النظير، في بستانٍ، فمرّ في الأسواق يَعزِمُ على التُّجّار، وعلى الناس؛ ليخرجوا معه، فكانوا يُبادرون فرحين مسرورين حاملين ما أمكنَهم من الشِّواء والحلوى والطيّبات، حتى لم يتركوا في المدينة شيئًا من ذلك، واجتمع عالَمٌ لا يُحصوْن، وكان يومًا مشهودًا بكثرة الخلْق، لم يتهيأ مثلُه إلّا لسلطانٍ كبيرٍ!!
انظر: تاريخ الإسلام (٢٣/ ٤٢٥)، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٢١٢)، والسير: للذهبي (١٤/ ٣٧٨)، وطبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٣/ ١١٩)، وتذكرة السامع والمتكلم: لابن جماعة (ص/ ١٢٩ من الحاشية).

(٤) انظر: الوافي بالوفيات (٢/ ١١)، وأعيان العصر وأعوان النصر: للصفدي (٤/ ١٩٦).

بل إنَّ الإمامَ ابنَ حزمٍ قد ذهب إلى أبعدَ من ذلك، فهو يرى أنَّ الإقليمَ له تعلُّقٌ بالذكاء والفهم، **فهو يقول في معرِض مدح قُرْطُبَة**: «وأمَّا في قسم الأقاليم: فإنَّ (قرطبةَ) - مَسْقَطُ رؤوسنا، ومَعَقُّ تمائِمنا - مع (سُرَّ مَن رأى)[١] في إقليمٍ واحدٍ، فلنا من الفَهم والذكاء ما اقتضاه إقليمُنا، وإنْ كانت الأنوارُ لا تأتينا إلا مُغرِّبةً عن مطالعها على الجُزء المعمور![٢]؛ وذلك عند الـمُحسنين للأحكام التي تدل عليها الكواكبُ ناقصٌ من قُوى دلائلها، فلها من ذلك على كلِّ حالٍ حَظٌّ يفوق حَظَّ أكثرِ البلاد بارتفاع أحد النَّيِّرَيْن بهَا تسعينَ دَرَجَةً، وذلك من أدلّة التمكُّن في العلوم، والنَّفَاذ فيها عندَ مَن ذَكرْنا»[٣].

---

(١) سُرَّ من رأى: ويقال لها أيضًا: سامرَّاء، مدينةٌ بناها المعتصمُ بالعراق سنة عشرين ومئتين، ونزلها بأتراكه، كانت بين بغداد وتَكْريت على شَرقيِّ دِجْلة ، حسنةَ الهواء ، مُحكمةَ البناء ، وقد خَرِبتْ من قديم.

انظر: البلدان: لليعقوبي (ص/ ٥٢ فما بعد)، وآكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان: للمنجم (ص/ ٣٦)، وصورة الأرض: لابن حوقل (١/ ٢٤٤)، ومعجم البلدان: للحموي (٣/ ١٧٣)، ومراصد الاطلاع: للقطيعي (٢/ ٦٨٤).

فائدة: قال البكري: «سُرّ من رأى بضمّ أوّله وثانيه. قال محمّد بن بشّار: حدّثني أحمد بن يحيى، عن ابن الأعرابي، أنَّ (السُّرَّ) عند العرب السّرورُ بعينه، فمعنى هذا الاسم: سرورُ مَن رأى. قال: ويجوز لك في بنائه وإعرابه من الوجوه ما جاز في حضرموتَ وبعلبكَّ ونظرائهما. فإنْ جعلتَ (سُرَّ) فعلًا ماضيًا ألزمتَ الفتحَ، وكذلك إن قلتَ: (سَرَّ مَن رأى) بفتح السين. ويجوز إعرابُ (سرّ) على الوجهين؛ أجاز الفرّاءُ (هذا تأبَّطَ شرًّا) و (مررتُ بتأبّطَ شرٍّ) على الإضافة». معجم ما استعجم (٣/ ٧٣٤).

(٢) يعني: المشرقَ.

(٣) رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها: لابن حزم (ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي ٢/ ١٧٤).

=

خامسًا: الشعورُ بالحاجة:

بمعنى أنْ يرى المبدعُ أنَّ ثَمّتَ حاجةً لعملٍ مَّا، فيقومُ به، سواءٌ أكانت الحاجةُ خاصّةً به أمْ عامّةً لسائرِ الناس؛ وقد قيلَ: **الحاجةُ أُمُّ الاختراع**[(١)].

=

وانظر: فصلًا طريفًا في تأثير البلدان على أهلها في كتاب مُروج الذهب للمسعودي (٢/ ٦١ - ٦٧).

(١) لطيفة: ذَكَّرتْني هذه المقولةُ: (الحاجةُ أُمُّ الاختراع) بما لا يكادُ يعرِفُه كثيرٌ من الناس عن الشيخ الألبانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيثُ لا يَعرِفُ الكثيرُ عنه إلّا أنه مُبدِعٌ في علمِ الحديثِ والتخريجِ فقط! ويجهلُ جُمهورُهم أنه - إلى ذلك - كان مُبدِعًا في اختراعِ الآلاتِ أيضًا!! وهو ما يُسمِّيه علماؤنا المتقدِّمونَ: (عِلمَ الحِيَل) - المعروف اليوم بعلم (الـمِيكانِيكا) - وقد ساعده على ذلكَ - فيما يَظهرُ - صنعتُه الأُولى: (إصلاحُ الساعات)!

فقد ذَكَرَ طائفةٌ ممّن كتب عنه بعد وفاتِهِ في الكتب والمجلّات والمنتديات، أشياءَ عجيبةً من هذا القبيل، فمن ذلك:

- قولُ الأستاذ محمود رضا مراد: «إلى جانب تمرُّس الشيخ في العلوم الشرعية، فقد حَذِق في علومٍ دنيويّةٍ، كتصليح الساعات، وتصميم الأجهزة، فقد صَعِد بي مرةً إلى سطح بيته، فأراني جهازًا لتسخين المياه بحرارة الشمس- صمَّمه بنفسِه -؛ وهو عبارةٌ عن صندوقٍ مُسَطَّحٍ أشبهَ ما يكونُ بعُلبة الكِبريت - وليس بحجمها طبعًا - مَطْليّةٍ بالقارِ، يَمُرُّ فيها الماءُ الباردُ، فيمتصُّ القارُ حرارةَ الشمسِ، فترتفعُ حرارةُ الماءِ، فيندفعُ يصبُّ إلى أعلى، ليَصُبَّ في الأُنبوبِ الرئيسِ الذي يَمُدُّ منافعَ البيتِ بالماءِ الساخنِ، ويظلُّ الماءُ يحتفظُ بحرارته مهما بردتْ حرارةُ الجوِّ!

كما صمَّم مِزْولَةً؛ لمعرفة أوقات الصلاة!

ولكن ما يُلفِتُ انتباهَ الزائرِ هو الرَّافِعةُ (الـمَصْعَدُ) التي صمَّمها لنفسِه؛ لتحملَه من الطابق الأرضيّ حتى الطابق العُلويّ! حيثُ كان يَشقُّ على الشيخ صعودُ الدَّرَج؛ لضخامَةِ حَجمِهِ، وهي عبارةٌ عن قاعدةٍ يقفُ عليها، يرفعُها كابِلٌ مَعْدِنيٌّ بواسطة محرِّكٍ يُشبِهُ (الدينمو)، فإذا ضغط الزِّرَّ ارتفعتْ القاعدةُ إلى أعلى أو أسفلَ حَسَبَ مكانِ القاعدة!!». مجلة الدعوة، العدد: (١٧١٧) شعبان ١٤٢٠هـ.

=

=

- **وقال الدكتور/ عبد العزيز السَّدْحان:** «كان في منزله في عَمّان شجرةُ تينٍ، وكان يأخذُ ثمرَ التينِ منها وهو جالسٌ في شُرْفةِ المنزلِ، وذلك عن طريقِ عصًا طويلةٍ من ابتكارِه؛ وذلك أنه جعل العصا مقسَّمةً متداخِلَةً بحيثُ يتحكَّمُ في طُولها وقِصَرِها حسَبَ اختيارِه، ووضعَ في نهايتها كأسًا مدبَّبَةً حادَّةً، بحيثُ يسقطُ فيها التينُ إذا مسَّهُ برأسِ تلك العصا!

وكان في منزله طُيورٌ، وكان مكانُ الطُّيور يَبعدُ عن شُرْفتِه قُرابةَ عشرينَ مترًا، وقد وضع ماسورةً - أنبوبَ نقل السوائلِ - طرفُها عند شرفتِه، ونهايتُها في مكان الطيور، فكان يَضَعُ الحَبَّ في رأس الماسورة فينزلُ إلى الطُّيور، وإذا أكل شيئًا من الحبّ أو اللّوز وما شاكلَه جعل ما بقيَ من فضلاته في رأس الماسورة؛ لينزلَ إلى الطُّيُور!» كتاب: الإمامُ الألباني دروسٌ ومواقفُ وعِبرٌ (ص/ ١١١).

- **وقال الشيخُ عصام موسى هادي:** «واللهِ يا شيخَنا إنك لبارعٌ وذكيٌّ حتى في الصناعات، ولا أدلَّ على ذلك من هذا (الدَّوَّار) الذي تضعُ فيه كُتبَكَ - وهو دَوّارٌ كان شيخُنا يضعَ عليه الكتبَ المهمّةَ والتي يُكثِر من تناولِها، مثلَ: «تهذيب الكمال»، و«تهذيب التهذيب»، و«تاريخ البخاري»، و«الجرح والتعديل»، وغيرِ ذلك من كتب التراجم - فما كان من شيخنا إلّا أنْ قال لي: «يا أُستاذ، للإنصاف هذا ليس من ابتكاري، فقد رأيتُه عند الشيخ أحمد شاكر؛ لكنْ بحجمٍ أصغرَ، وأنا كبّرْتُه!». كتاب: محدِّثُ العصر الإمامُ محمدُ ناصرُ الدين الألباني كما عرفتُه (ص/ ١٩).

- ونقل بعضُهم عن الدكتور/ فاروق السامرّائي - رئيس قسم أصول الفقه بكلية الشريعة بجامعة اليرموك (سابقًا)، وممّن له صلاتٌ عائليةٌ بأهل الشيخ الألباني - قولَه: «كان الشيخُ يربِّي في بيته أنواعًا من الطيور، كالبَطِّ والدَّجاج والحَمَام، يأكلُ منها هو وأهلُ بيته، وقد احتاج الشيخُ وأهلُه إلى السفر للعُمْرة لمدّة أسبوعين، فصنع الشيخُ الألبانيُّ بيدِه ومِن تصميمِه جهازًا في غاية البراعةِ مُؤَقَّتًا ومُبَرْمَجًا؛ بحيثُ إنه في ساعةٍ محدَّدةٍ يوميًا يُفْرِغُ في كلِّ قفصٍ أنواعًا معيَّنةً وكمّيةً محدَّدةً من الحُبوب لكلِّ نوعٍ من الطير! وكذلك في أوقاتٍ محدَّدةٍ يوميًا يَصُبُّ هذا الجهازُ كِمِّياتٍ من الماء في آنيةِ الطيور! فسافر الشيخُ ورَجَعَ والطيورُ على ما يُرامُ، تأكلُ وتشربُ في الأوقات المحدَّدة!!».

قلتُ: يُشبهُ هذا ما ذُكِرَ عن الإمام الفقيه الأصولي شهاب الدين أحمد بن إدريس الصنهاجي القرافي (ت ٦٨٤ هـ) صاحب الكتاب المشهور في الفُروق: «أنوار البروق في أنواء الفروق» من أنه - مع تبحُّرِه في عدةِ فنونٍ - كان من البارعين في عمل التماثيل المتحرِّكة في الآلاتِ الفلكيّةِ وغيرِها.

=

وقــد نشــأتْ عــن الحاجــةِ أعظــمُ الأعمــالِ الإبداعيّــةِ، ســواءٌ

=

فقد قال في كتابه: نفائس الأصول في شرح المحصول (١/ ٤٤١ - ٤٤٢): «بلغني أنَّ الملكَ الكاملَ وُضِعَ له شَمْعَدَانٌ، كلما مضى من الليل ساعةٌ انفتح بابٌ منه، وخرج منه شخصٌ يقف في خدمة السلطان، فإذا انقضتْ عَشرُ ساعاتٍ طلع شخصٌ على أعلى الشَّمْعَدَان، وقال: صبَّح اللهُ السلطانَ بالسعادة! فيُعلَمُ أنّ الفجرَ قد طلع.

وعَمِلْتُ أنا هذا الشَّمْعَدَان، وزدتُ فيه أنّ الشمعةَ يتغيّرُ لونُها في كل ساعةٍ! وفيه أسدٌ تتغيَّرُ عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد، ثم إلى الحمرة الشديدة، في كل ساعةٍ لهما لونٌ! فيُعرَفُ التنبيهُ في كل ساعةٍ، وتَسقطُ حصاتان من طائريْن، ويدخلُ شخصٌ، ويخرجُ شخصٌ غيرُه، ويُغلَقُ بابٌ ويُفتَحُ بابٌ، وإذا طلع الفجرُ طلع شخصٌ على أعلى الشمعدان، وإصبعه في أُذُنه يُشيرُ إلى الأذان! غيرَ أني عَجَزْتُ عن صنعة الكلام!

وصنعتُ أيضًا: صورةَ حيوانٍ يمشي ويَلتفتُ يمينًا وشِمالًا، ويُصفِّرُ ولا يتكلَّمُ!!».

لطيفة: ذكر الفخرُ الرازي هذه الأعمالَ في أنواع السِّحر في تفسيره مفاتيح الغيب (٣/ ١٩٢)!! حيثُ قال: «النوع الخامس من السِّحر: الأعمال العجيبة التي تَظهر من تركيب الآلات المركَّبة على النِّسَب الهندسية تارةً، وعلى ضُروب الخيلاء أخرى، مثل: فارسيْن يقتتلان فيقتلُ أحدُهما الآخرَ، وكفارسٍ على فرسٍ في يده بُوقٌ، كلما مضت ساعةٌ من النهار ضرب البوقَ من غير أن يمسَّه أحدٌ، ومنها الصورُ التي يُصوِّرها الرومُ والهندُ حتى لا يُفرِّق الناظرُ بينها وبين الإنسان، حتى يُصوِّرونها ضاحكةً وباكيةً، حتى يُفرَّق فيها بين ضحك السرور وبين ضحك الخجل وضحك الشامت، فهذه الوجوهُ من لطيف أمور المخايل، وكان سِحرُ سحرة فرعون من هذا الضَّرْب!

ومن هذا الباب تركيبُ صندوق الساعات! ويندرج في هذا الباب علم جَرِّ الأثقال وهو أن يَجرَّ ثقيلًا عظيمًا بآلةٍ خفيفةٍ سهلةٍ».

لكنه قال بعد هذا: «وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يُعَدَّ من باب السِّحر؛ لأنّ لها أسبابًا معلومةً نفيسةً من اطّلع عليها قَدِر عليها، إلا أنّ الاطّلاعَ عليها لـمَّا كان عسيرًا شديدًا لا يَصلُ إليه إلا الفردُ بعد الفرد، لا جَرَمَ عَدَّ أهلُ الظاهر ذلك من باب السِّحر!!».

قلتُ: فإذا كان هؤلاء يَعدُّون هذه المخترعات اليسيرة من ضُرُوب السِّحر! فما ستراهم يقولون لو رأوا ما وصلتْ إليه التكنولوجيا في عصرنا، وما تناسلَ عنها من ملايين المختَرَعات والآلات؟!!

في العِلْمِيَّاتِ، أو في العَمَلِيَّاتِ.

فأكثرُ المؤلَّفاتِ التي أَلَّفها العلماءُ؛ إنما أَلَّفوها لحاجةِ الناسِ إلى المواضيعِ التي تناولتْها تلكَ المؤلَّفاتُ.

ومثلُها معظمُ المُختَرَعاتِ؛ كالمذياعِ، والهاتفِ، والمصباحِ الكهربائيِّ، والكاتُوبِ، والقاطِراتِ، والسيّاراتِ، والطائِراتِ... وغيرِها، ممّا تشتدُّ حاجةُ الناسِ إليها عادةً في تيسيرِ معايشِهِم، وتسهيلِ تنقُّلاتِهِم.






لا يَمْتطِي المجدَ مَن لّم يَركبِ الخَطَرَا ... ولا يَنـالُ العُـلا مَـنْ قَـدَّمَ الحَـذَرَا

ومَــنْ أرادَ العُــلَا عَفْــوًا بِــلا تَعَــبٍ ... قَضَى ولمْ يَقْضِ مِنْ إدْراكِها وَطَرَا

لا بُــدَّ للشَّــهْدِ مِــن نَحْــلٍ يُمَنِّعُــهُ ... لا يَجتني النَّفْعَ مَنْ لّم يَحملِ الضَّرَرَا

لا يُبلَــغُ السُّــؤْلُ إلاّ بعــدَ مُؤْلمــةٍ ... ولا تَــتِمُّ الــمُنَى إلّا لِمَــنْ صَــبَرَا

صفيّ الدين الحِلّي






الفصلُ الثامنُ

عَوائقُ الإبْداعِ العلْميِّ



الفصلُ الثامنُ
عَوائقُ الإبداعِ العلْميِّ

عَوائِقُ الإبداعِ: هي الأمورُ التي تُسهِمُ في تعطيل المبدِع في عَمَلِه، وتُعيقُ عمليّةَ إبداعِه، أو تُكدِّرُ عمليَّةَ الإبداع ـ على الأقلِّ ـ وتُؤخِّرُها.

وهذه المعوِّقاتُ بعضُها يكونُ بسببٍ من المبدِع نفسِه، وبعضُها يَرجعُ إلى طبيعة الواقع والمجتمع الذي يُعايشُهُ المبدِعُ.

وجميعُ ما تقدَّم من الأسس والمقوِّمات والحوافز يَصلُح عكسُها لأنْ يكونَ عائقًا للإبداع؛ **لكنّني أخُصُّ هنا أمورًا بالحديث عنها؛ لأهميَّتِها:**

أولًا: عدمُ تَقديرِ الـمُبدِع:

إنَّ العالِمَ له مشَاعِرُ وأحاسيسُ، فإذا لم يُكرمْ ويُنزَلْ منزلتَه اللائقةَ به، ربما أدَّى ذلك إلى أمورٍ تُعيقُ إبداعَه - كما سيأتي -؛ ذلك لأنّ خِدمةَ العلمِ وأهلِه شَرْطٌ على المجتمع الذي يعيش فيه المبدِعُ؛ بَدْءًا بالطُّلّاب، فمَنْ فوقَهم من الجهاتِ والهيئاتِ والمؤسساتِ. وقد كان طائفةٌ من العلماء يَدْعُون بهذا لطُلّابِهم، فيقولون: يا فلانُ، خَدَمَكَ العلمُ كما خَدَمْتَه![(١)].

(١) قال يحيى بن يحيى الليثي: «أخبرني الليث أنه أخذ برِكاب ربيعةَ. فقال له ربيعةُ: يا ليثُ: خَدَمَكَ العلمُ. قال يحيى: وإنما أراد ربيعةُ أن يبلغَ مبلغَ الكرامة، فما خرج - يعني الليث - من الدنيا حتى رأى ذلك.

=

حتى إنَّ الإمامَ الشافعيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ ضَمِنَ لمن خَدَمَ العلمَ أنْ يخدُمَه العلمُ؛ وذلك حيثُ يقول[١]:

العِلْـمُ مِـنْ شَـرْطِهِ لمَـن خَدَمَـهْ   أَنْ يجعَـلَ النَّـاسَ كُلَّهُـمْ خَدَمَـهْ!

وقال عليُّ بنُ عبد العزيز الجُرجانيُّ[٢]:

=

قال يحيى: وأخذتُ أنا بِركاب الليث. فقال لي: أقول لك ما قال لي ربيعة: خَدَمَكَ العلمُ يا يحيى». ترتيب المدارك: للقاضي عياض (٣/ ٣٨٦).

- وعنه قال: «أخذتُ بِركاب الليث، فأراد غلامُه أن يمنعني، فقال الليثُ: دَعْه. ثم قال لي: خَدَمَكَ العلمُ. قال: فلم تزلْ بي الايامُ حتى رأيتُ ذلك».

انظر: وفيات الاعيان: لابن خلكان (٦/ ١٤٦)، وترتيب المدارك (٢/ ٥٤٠)، ومسالك الأبصار: للقرشي (٥/ ٥٧٧)، ونفح الطيب: للمقري (٢/ ١٢).

- وقال إسحاقُ الشَّهيديُّ: «كنتُ أرى يحيى القطان يصلِّي العصرَ ثم يستند إلى أصل منارة مسجده، فيقف بين يديه عليُّ بنُ المديني، والشاذَكونيُّ، وعمرو بنُ عليٍّ، وأحمدُ بنُ حنبل، ويحيى بنُ معين، وغيرُهم؛ يسألونه عن الحديث، وهم قيامٌ على أرجلهم إلى أن تحين صلاةُ المغرب! لا يقول لواحدٍ منهم: اجلسْ، ولا يجلسون هيبةً وإعظامًا». الجامع لأخلاق الراوي: للخطيب (١/ ١٨٥)، ومناقب الإمام أحمد: لابن الجوزي (ص/ ٧١).

- وقال ابنُ سيرينَ: «رأيتُ ابنَ أبي ليلى وأصحابُه يعظِّمونه ويسوِّدونه ويشرِّفونه مثلَ الأمير». فتح المغيث: للسخاوي (٣/ ٢٨٧).

- وقال أبو زكريا العنبريُّ: «شهدتُ جنازةَ حسينِ القبانيّ (سنة ٢٨٩) فصلى عليه أبو عبد الله يعني البُوشَنْجي، فلما انصرفَ قُدِّمتْ دابّتُه، فأخذ أبو عمرٍو الخفّافُ بلِجامه، وابنُ خزيمةَ بِركابه، والجاروديُّ وإبراهيمُ بنُ أبي طالب يُسوِّيان عليه ثيابَه، فمضى ولم يُكلِّمْ واحدًا منهم!». تهذيب التهذيب: لابن حجر (٩/ ٩).

والشواهدُ على هذا كثيرةٌ.

(١) طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (١/ ٣٠٠).

(٢) الإعجاز والإيجاز (ص/ ١٩٥)، وخاصّ الخاصّ: للثعالبي (ص/ ١٨٨)، ومعجم الأدباء: =

ولم أبتذِلْ في خدمةِ العلمِ مُهجَتي لأَخْدُمَ من لاقيتُ لكِنْ لأُخْدَمَا

أأشْقَى بِهِ غَرْسًا وأَجْنِيهِ ذِلَّةً إِذَنْ فاتِّبَاعُ الجَهلِ قد كانَ أَحْزَمَا!

ولقد تَذَمَّرَ العلماءُ وأبْدَوْا نُفورَهم من المجتمعات التي يُعايِشُونها ولا يَجِدون فيها المكانةَ اللّائقةَ بهم؛ كما هو حالُ **أبي هلالٍ العسكريِّ** العالمِ اللُّغويِّ الشهير مثلًا؛ حيث قال[1]:

إذا كانَ مالي مَالَ مَن يَلقُطُ العَجَمْ وحاليَ فيكُم حالَ من حَاكَ أو حَجَمْ!

فأينَ انتفاعي بالأصالةِ والحِجَا وما رَبِحَتْ كَفِّي على العِلمِ والحِكَمْ؟!

وَمَنْ ذا الَّذِي في النَّاس يُبصرُ حالتي فلا يَلعَنُ القِرطَاسَ والحِبْرَ والقَلَمْ؟!

وقال أيضًا[2]:

=

للحموي (٤/ ١٧٩٨)، والبلدانيّات: للسخاوي (ص/ ٢٢٧).

(١) معجم الأدباء: للحموي (٢/ ٩١٩).

(٢) المصدر نفسه.

وقد علّق على هذا الباخَرْزي في دُمية القصر (١/ ٥٠٩) فقال: «بلغني أنّ هذا الفاضلَ كان يحضُر السوق، ويحمل إليها الوُسُوق (جَمْعُ وَسْق)، ويَحلُب دَرَّ الرِّزْق ويَمْتري، بأنْ يبيع الأمتعةَ ويشتري. فانظر كيف يَحْدو الكلامَ ويَسوق، وتأمّلْ هل غَضَّ من فضله السوق؟ وكان له في سُوقَةِ الفُضَلاء أُسوةْ، أو كأنه استعار منهم لأشعاره كُسوةْ، وهم نصرُ بن أحمد الخُبْزأرْزِي، وأبو الفرج الوأْواءُ الدمشقيُّ والفاميُّ، والسَّرِي الرفّاء المَوْصليُّ.

أما نصرٌ فكان يَدْحُو الرُّقاقةَ الأرْزِيّةْ، ويشكو في أشعاره تلك الرَّزِيّةْ.

وأما أبو الفرج فقد كان يسعى بالفواكه رائحًا وغادِيا، ويتغنّى عليها منادِيا.

وأما السَّرِيُّ فكان يُطَرِّي الخَلَق ويَرْفو الخِرَق، ويصف تلك العِبرَةْ، ويزعم أنه يسترزق الإبرَةْ.

=

جُلُوسِيَ فِي سُوقٍ أَبِيعُ وأَشْتَرِي ... دليلٌ على أنَّ الأنامَ قُرُودُا!
ولا خَيرَ فِي قومٍ تُذَلُّ كِرَامُهُمْ ... ويَعْظُمُ فيهم نَذْلُهمْ ويَسُودُ
ويَهجُوهمُ عَنِّي رَثَاثةُ حالتي ... هجاءً قبيحًا ما عليه مَزِيدُ

ومثلُه القاضي **عبدُ الوهَّاب المالكيُّ**؛ حيث يقول[1]:

متى يَصِلُ العِطَاشُ إلى ارتِواءٍ ... إِذَا استَقَتِ البِحَارُ مِنَ الرَّكَايَا؟!
ومن يَثني الأصَاغِرَ عن مُرادٍ ... وقد جَلَسَ الأكابرُ فِي الزَّوَايَا؟!
وإنّ تَرَفُّعَ الوُضَعَاءِ يَوْمًا ... على الرُّفَعَاءِ من إحْدَى البَلايَا
إذا استوتِ الأَسافِلُ والأَعَالي ... فقد طابتْ مُنَادَمَةُ المَنَايَا!

وهذا **أبو الحسن محمدُ بنُ محمدِ بنِ لَنْكَكَ البصريُّ**، قال عنه الثعالبيُّ: «فَرْدُ البصرة، وصدرُ أدبائِها، وبدرُ ظرفائها في زمانه، والمرجوعُ إليه في لطائف الأدب وظرائفه طولَ أيامه، وكانت حِرْفةُ الأدب تَمَسُّه وتَجْشُمُه، ومِحنةُ الفضل تُدْرِكُه فتَخْدِشُه! ونفسُه تَرفعُه، ودهرُه يَضعُه... وأكثرُ شعرِهِ مُلَحٌ وظُرَفٌ، خفيفةُ الأرواح، تأخذ من القلوب بمجامعِها، وتقع من النفوس أحسنَ مواقعِها، وجُلُّها في شكوى الزمانِ وأهلِه، وهجاءِ شعراءِ أهلِ عصرِه...»[2].

=

وكيف ما كان فهذه حِرْفةٌ لا تَخلو من حُرْفةْ، وصَنْعَةٌ لا تنجو من ضَرْعَةْ، وبِضاعةٌ لا تسلم من إضاعةْ، ومتاعٌ ليس به لأهله استمتاعْ!».

(١) وفيات الأعيان: لابن خلكان (٣/ ٢٢١)، والوافي بالوفيات: للصفدي (١٩/ ٢٠٨).
وسيأتي أنّ ذلك كان سببَ هجرته من بغدادَ إلى مِصْر!

(٢) يتيمة الدهر (٢/ ٣٤٧ فما بعد).

=

=

وانظر: معجم الأدباء (٦/ ٢٦١٩).

- ومن شعره في ذلك قولُه:

زَمَــانٌ رَأَيْنَــا فِيــهِ كُــلَّ العَجَائِــبِ وَأَصْـبَحَتِ الأَذْنَـابُ فَـوْقَ الـذَّوَائِبِ

لَــوَ انَّ علــى الأفْــلاكِ مــا في قلوبِنــا تهافَتَــتِ الأفــلاكُ مِــن كــلِّ جَانــبِ

وقوله أيضًا:

مَضَــى الأحــرارُ وانقرضُــوا وبــادُوا وخَلَّفَنــي الزَّمــانُ علــى عُلُــوجِ

وقــالوا: قــدْ لَزِمْــتَ البيْــتَ جِــدًّا فقلــتُ: لِفَقْــدِ فائــدةِ الخُــروجِ

فمَــنْ ألقــى إذا أبــصرتُ فيــهم قُــرودًا راكبــينَ علــى السُّــروجِ!

زمــانٌ عَــزَّ فيــه الجُــودُ حتــى كــأنّ الجُــودَ في أعلــى البُــروجِ!

وله أشعارٌ أخرى كثيرةٌ في ذمِّ الزمان، أفحشَ فيها القولَ، عفا اللهُ عنه!

- ومِن هؤلاءِ المتذمِّرين أيضًا: **الأديبُ المشهورُ أبو الحسين الجزّار**، ومِن شعره في ذلك قولُه:

أصــبحتُ لحّامًــا، وفي البيــت لا أعــرفُ مــا رائحــةُ اللَّحْــمِ!

واعتضْــتُ مــن فقــري ومــن فــاقتي عــن التــذاذِ الطَّعْــمِ بــالهَمِّ

جهلتُــه فَقــرًا فكنــتُ الــذي أضــلَّهُ اللهُ علــى عِلْــمِ!

وقولُه:

كيــف لا أشــكرُ الجِــزارةَ مــا عِشْــ ــتُ حِفاظًــا وأرفــضُ الآدابَــا

وبهــا صــارتْ الكِــلابُ تُرجِّيــ ـني، وبالشِّــعْرِ كنــتُ أرجُــو الكِلابَــا!

وقولُه:

=

والسببُ في عَدَمِ تقديرِ العالِم يعودُ - واللهُ أعلمُ - إلى أمورٍ عِدَّةٍ؛ منها:

١- الحَسَدُ:

وهذه آفةُ الآفاتِ، وما سَلِمَ منها حتى العُلماءُ على فَضلِهم، وجَلالةِ قَدْرِهم(١)! بل وقعتْ بينهم قديمًا وحديثًا(٢).

=

لا تَعِبْنـي بصـنعةِ القصَّـابِ ... فهـي أذكـى مـن عنبـر الآدابِ

كـان فضلـي علـى الكـلاب فمُـذْ صِـرْ ... تُ أديبًـا رجـوتُ فضـلَ الكـلابِ!

انظر: خزانة الأدب: لابن حجّة الحموي (٢/ ٥٧).

(١) قال ابنُ الجوزيّ: «تأمَّلْتُ التحاسدَ بين العلماء، فرأيتُ منشأَه من حُبّ الدنيا؛ فإنّ علماءَ الآخرة يَتوادُّون، ولا يتحاسدُون: كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر:٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الحشر:١٠].

وقد كان أبو الدرداء يدعو كلَّ ليلةٍ لجماعةٍ من إخوانه. وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل لولَد الشافعي: «أبوك من الستّة الذين أدعو لهم كلَّ ليلةٍ وقتَ السَّحَر».

والأمرُ الفارقُ بين الفِئتين: أنّ علماءَ الدنيا ينظرون إلى الرئاسة فيها، ويُحبّون كثرةَ الجَمْعِ والثناءَ، وعلماءُ الآخرة بمَعْزِلٍ من إيثار ذلك، وقد كان يتخوَّفونه، ويرحمون من بُلي به.

وكان النَّخَعيُّ لا يستند إلى ساريةٍ. وقال علقمةُ: «أكره أن يُوطأ عقبي ويُقالُ: علقمةُ!».

وكان بعضُهم إذا جلس إليه أكثرُ من أربعةٍ، قام عنهم. وكانوا يتدافعون الفتوى ويُحبّون الخُمولَ.

مَثَلُ القوم كمَثَلِ راكبِ البحرِ وقد خَبَّ؛ فعنده شُغْلٌ إلى أنْ يُوقنَ بالنجاة!

وإنما كان بعضُهم يدعو لبعضٍ، ويستفيدُ منه؛ لأنهم رَكْبٌ تصاحبُوا فتوادُّوا، فالأيامُ والليالي مَراحلُهم إلى سَفَرِ الجنة». صيد الخاطر (ص/ ٤٦).

وانظر كلامًا نفيسًا لابن دقيق العيد عن الحسد للمبدِعين في التصنيف. في طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٩/ ٢٣٣).

(٢) انظر نماذجَ من ذلك في: كتاب «تحاسُد العلماء» لعبد الله بن حسين الموجان.

=

=

- ومن لطيف ما يُذكرُ هنا: قصةُ أبي العلاء صاعد بن الحسين بن عيسى البغدادي اللغوي، التي حصلتْ له بين يديْ المنصور بن أبي عامر أمير الأندلس، فقد أُحضرتْ إلى الأمير وردةٌ في غير وقتها، لم يَستتمّ فتحُ وَرَقِها، فقال فيها صاعدٌ مرتجلًا:

أتتـــك أبـــا عــــامرٍ وردةٌ ... يُـــذَكِّرُكَ المِسْـــكُ أنفاسَـــها
كعَــذْراءَ أبصـــرَها مُبصـــرٌ ... فغطّـــتْ بأكمامِهـــا راسَـــها!!

فسُرَّ بذلك المنصورُ، وكان ابنُ العَريف حاضرًا فحَسَدَه وجرى إلى مناقَضَتِه، وقال: لابن أبي عامر: هذان البيتان لغيره، وقد أنشدنيهما بعضُ البغداديين بمصرَ لنفسه، وهما عندي على ظهر كتابٍ بخطِّه! فقال له المنصور: أرِنيهِ.

فخرج ابنُ العَريف ورَكِبَ وحرّكَ دابّتَه حتى أتى مجلسَ ابن بَدْر - وكان أحسنَ أهل زمانه بديهةً - فوصف له ما جرى ، فقال هذه الأبيات ودَسّ فيها بَيتيْ صاعد:

عَشَـوْتُ إلـى قصـرِ عبَّاسَـةٍ ... وقـد جَـدَّلَ النَّـومُ حُرَّاسَهـا
فألفيتُهـا وهْـي في خِـدْرِها ... وقـد صَـرّعَ السُّـكْرُ أُنّاسَهـا
فقالـت: أسـارٍ علـى هَجْعَـةٍ؟ ... فقلـتُ: بلـى، فَرَمَـت كاسَـها
ومـدّتْ يـديْها إلـى وَرْدَةٍ ... يُحـاكي لـك الطِّيـبُ أنفاسَـها
كعَـذْراءَ أبصـرَها مُبْصِـرٌ ... فغَطَّـتْ بأكمامهـا راسَهـا
وقالـتْ: خَـفِ اللهَ لا تَفْضَحَنْـ ... ـنَ في ابنـة عَمِّـكَ عَبَّاسَهـا
فولَّيـتُ عنهـا علـى غفلـةٍ ... ومـا خُنْـتُ ناسـي ولا ناسَـها!

فطار ابنُ العَريف بها، وعلّقها على ظهر كتابٍ بخطٍّ مِصريٍّ ومِدادٍ أشقرَ! ودخل بها على المنصور، فلما رآها اشتدَّ غيظُه على صاعد، فخجل صاعدٌ، وحَلَفَ فلم يُقبَلْ منه، وافترق المجلسُ على أنه سَرَقَها!!

انظر ما نظرتَ والتتمّةَ في: جذوة المقتبس: للحميدي (ص/ ١٩٥)، وبغية الملتمس: للضبي

=

وهؤلاء الحُسّادُ عَطَّلوا مصلحةً عامةً للأمة تُستفاد من ذاكَ العالِم، لِقَاءَ نَزْوةٍ نفسيّةٍ خاصةٍ! لأنّ الناسَ - إلا مَنْ رَحِمَ اللهُ - كثيرًا ما يُؤلمهُم مَرْأى النُّبوغ؛ كما قال الشاعرُ[1]:

فَـجُّ التفـوّقِ مـا في بـابِـــه حَـرَسٌ ... لكـــنَّهُ دَرْبُ أرزاءٍ وأخْطـــارِ

والناسُ يُؤلمهُم مَرْأى النُّـبُوغِ وإنْ ... تقـدَّموا نحـوَه بالمَـــدْحِ والغَـارِ

كَمْ مِن أديبٍ قَضَى والجُوعُ يأكُلُهُ ... ومُجـرِمٍ حولَـه نهـرُ الغِنـى جـارِي

العبقريَّــةُ حِـــرْمانٌ وتَضْحِيَـــةٌ ... ولـــيس يَخلُـدُ إلا كُـلُّ جَبَّـارِ!

٢- عَدَمُ فَهْمِ الناسِ لتلكَ الابتكاراتِ الجديدةِ وقيمتِها العِلميَّةِ:

إمَّا لِـدقّتِها علـى أفهـامهم؛ كمـا مـرَّ معنـا في قصـة الخليـل بـن أحمـد الفراهيدي في قصة اختراعه علمَ العَروضِ[2].

= (ص/ ٢٦٨)، ومعجم الأدباء: للحموي (٣/ ١١٦٥)، والوافي بالوفيات: للصفدي (١٦/ ١٣٣)، والبلغة: للفيروز آبادي (ص/ ١٢٤)، وبدائع البدائه: لابن ظافر (ص/ ١٦٣)، ومعاهد التنصيص: للعباسي (١/ ٦٧)، ونفح الطيب: للمقّري (٣/ ٧٩).

(١) رباعيات مختارة: لإلياس قنصل (ص/ ٣٩).

(٢) وكما حَصَلَ للأخَوَانِ (رايْت) حينما اخترعا الطائرةَ عامَ (١٩٠٣م)، حيثُ تجاهلتْ وسائلُ الإعلام في ذلك الوقت إنجازَهما، بل وصفتْ المجلّةُ العلميّةُ العَريقةُ (ساينتفك أمريكان) الاختراعَ بأنه خدعةٌ! قائلةً: «إنّ تحليقَ جسمٍ أثقلَ من الهواء مستحيلٌ عِلْميًا!!».
- وحينَ أخبرَ (أديسُون) مكتبَ براءاتِ الاختراع في واشنطن أنه يعملُ على اختراع مصباحٍ يعمل بالكهرباء، نصحه مديرُ المكتب بعدم الاستمرار في مشروعه هذا، وكتب إليه: «إنها فكرةٌ حمقاءُ؛ حيثُ يكتفي الناسُ عادةً بضوء الشمس!!».
- ولـمّا أسّسَ عالِمُ النباتِ النِّمساويُّ (جريجور مندل) علمَ الوراثة في منتصف القرن =

وإمَّا لأنّ المبدعَ يسير في وادٍ، والمجتمعُ يسيرُ في وادٍ آخرَ، حتى قال بعضُهم: «كلَّما رَقى مَنْ له همةٌ عالية إلى مركزٍ عالٍ... قَلَّت أشكالُه المعنويةُ، انظُر إلى أصحاب العقول، الموجِبَة لكثرة المعقول، لمَّا تحقّقوا دقّقوا، فعزَّت مداركُ حقائقهم على العوامّ، وجَلَّتْ نفائسُ دقائقهم على غالب الأفهام؛ فلذلك أوجبَ لهم قِلَّةَ الأصحاب والأتباع؛ لغلَبَة الجهل على الطِّباع، ولله درُّ بعض الحُكماء حيثُ قال:

لِكُلِّ امرئٍ شَكْلٌ من الناس مِثْلُهُ ... فأكثرُهُم شَكْلًا أقلُّهُمُ عَقْلَا

وكُلُّ أُناسٍ آلِفُونَ لِشكْلِهِمْ ... فأكثرُهُم عَقْلًا أقلُّهمُ شَكْلَا»[(١)]

وعدمُ تقدير المبدِع يُؤدِّي إلى الإضرارِ بالمبدِعِ نفسِه، كما يُؤدّي إلى الإضرار بعمليةِ الإبداعِ أيضًا، ومِن ثَمّ يعودُ الضَّرَرُ على الأمة جَمْعاءَ.

ومِن خلال تتبُّعي وجدتُ أنّ عدمَ تقديرِ المبدِع ربّما أدّى بالمبدِع إلى إحدى النتائج التالية:

فإمّا أنْ يُؤدِّي به ذلك إلى الضَّنِّ بعلمِه وكَتْمِه، فيَضُرُّ نفسَه وغيرَه، كما صرَّح أبو عليٍّ القالي ـ الذي رحل من المشرق إلى الأندلس ـ في مقدمة كتابه «المقصور والممدود»؛ بأنه ضَنَّ بعلمه في المشرق؛ لأنه لم يجد أحدًا

= التاسع عشر الميلادي، بعدَ سنواتٍ طويلةٍ من متابعة ومراقبة نباتات البازِلّاء، أرسل نتائجَ بحثه إلى أحد علماء عصره، فردَّ عليه قائلًا: «لم أُصادفْ في حياتي شخصًا ضيَّعَ عُمرَه في عملٍ تافهٍ كهذا مِثلَكَ!!».

(١) فيضُ القدير للمناوي (٤/ ٢٦٩).

من خلفاء بني العباس للعلم طالبًا، ولا في الأدب راغبًا، وأخذ يمتدِح الحَكَمَ الأندلُسيَّ الذي هيّأ له التَّكْرِمةَ وشجَّعه على العلم[(١)].

حتى إنّ بعضَ العلماء سمَّى كتابَه: «المضنون به على غير أهلِهْ»![(٢)].

---

(١) انظر خبر ذلك في: تاريخ علماء الأندلس: لابن الفرضي (١/ ١٣٨) وجذوة المقتبس: للحميدي (١/ ٢٥٢) وبغية الملتمس: للضبّي (١/ ٢٨٢).

(٢) المَضْنونُ: اسم مفعول، مأخوذٌ من قولهم: ضَنِنْتُ بالشيء أَضَنُّ، وضَنَنْتُ أَضِنُّ، ضِنًّا وضِنَّةً ومَضِنَّةً وَضَنَانَةً، أيْ: بَخِلْتُ، وعِلْقُ مَضِنَّةٍ ومَضَنَّةٍ: نَفِيسٌ مَضْنونٌ به يُتَنافَس فِيهِ. والضِنُّ: الشيءُ النفيسُ المَضْنونُ به.

انظر: المحكم والمحيط الأعظم: لابن سيده (٨/ ١٥٦)، ولسان العرب: لابن منظور (١٣/ ٢٦١)، وتاج العروس: للزبيدي (٣٥/ ٣٤١).

ومن تلك الكتب التي ضَنّ بها أصحابُها على غير أهلها:

١ - «المضنون به على غير أهله» لأبي حامد الغزالي، تقديم رياض العبد الله، مطابع الحكمة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

وقد اضطرب فيه مؤلفُه كثيرًا ، ونحا فيه منحى الفلاسفة ، ولذا فقد ردّ عليه القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن مَنْظُور الْقَيْسِي الأندلسي في «السحب الواكفة، والظلال الوارفة، في الرد على ما تضمنه «المضنون به على غير أهله» من اعتقاد الفلاسفة».

انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة: للسان الدين ابن خطيب (٢/ ١٠٢)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٥/ ٢٨٨)، وإيضاح المكنون (٤/ ٥)، وهدية العارفين: للبغدادي (٢/ ١٥٦)، ومعجم المؤلفين: لكحّالة (١٠/ ٢٥٠).

لكنْ هناك من شكّك في نسبته إليه:

قال ابنُ الصَّلاح: «كتاب «المضنون...» المنسوب إليه، معاذ الله أن يكون له، وقد شاهدتُ على ظهر كتابٍ نسخةٍ منه بخط الصدر المكين القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزُوري أنه موضوعٌ على الغزالي، ومختَرَعٌ من كتاب «مقاصد الفلاسفة» الذي نقضه بكتاب «تهافت الفلاسفة»، وأنه نَفَذَ في طلب هذا الكتاب إلى البلاد البعيدة، فلم يقف له على خبر». طبقات الفقهاء الشافعية (١/ ٢٦٣).

=

وإمَّا أنْ يُؤدِّي به ذلك إلى إتْلاف كُتُبه ومؤلفاته؛ حتى لا يَنتفع بها أهلُ عَصْره! كما حصل لجماعةٍ من العلماء؛ حيثُ أحْرَقوا كُتُبَهم، أو غَسَلوها، أو دفنوها، لهذا السبب[١].

وقد تقدَّمتْ معنا في الفصل الرابع قصةُ عليّ بنِ عيسى الرَّبَعي عندما غضبَ فأتلفَ شرحَه لكتاب سيبويه، وقال: لا أجعلُ أولادَ البقّالين نُحاةً!.

=

ومما يؤيِّد قولَ ابن الصلاح: أن الكتابَ قد اشتمل على: التصريح بقِدَم العالَم! ونفْي علم الله بالجزئيّات! ونفي الصفات! وكلُّ واحدةٍ من هذه يُكفِّر الغزاليُّ قائلَها هو وأهلُ السنة أجمعون، فكيف يُتصوَّر أنه يقولها؟!

انظر: تاريخ الإسلام: للذهبي (٣٥/ ١٢٤)، وطبقات الشافعيين: لابن كثير (ص/ ٥٣٦)، وكشف الظنون: لحاجي خليفة (٢/ ١٧١٣)، وعيون الرسائل والأجوبة على المسائل: لعبد اللطيف آل الشيخ (١/ ٤٠٣)، والدرر السنية في الأجوبة النجدية (٣/ ٣٢٥).

وقال ابنُ العماد: «يُنسب إليه تصنيفان ليسا له، بل وُضعا عليه؛ وهما «السرّ المكتوم»، و«المضنون به على غير أهله»». شذرات الذهب (٦/ ١٩).

٢- «المضنون به على غير أهله»: لعزّ الدين الزَّنْجاني، وهو مختاراتٌ شِعريةٌ.

وقد شرحه عُبيدُ الله بنُ عبد الكافي بن عبد المجيد العبيدي في: «شرح المضنون به على غير أهله» فرغ من تأليفه سنة (٧٢٤هـ)، طُبع في مكتبة دار البيان، بغداد، ودار صعب، بيروت.

انظر: الأعلام: للزركلي (٤/ ١٧٩) و (٤/ ١٩٤)، وصفحاتٌ من صبر العلماء: لأبي غدة (ص/ ١١٧).

٣- «المضنون به على الْعَامَّة» في علم الكلام: للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله بن مَنْظُور الْقَيْسِي الأندلسي. انظر: هدية العارفين: للبغدادي (٢/ ١٥٧).

(١) كنتُ نشَرْتُ أيامَ الصِّبا مقالاتٍ عدّةً عن هذه الظاهرة الغريبة، وذكرتُ طائفةً من العلماء الذين فعلوا ذلك في ملحق: (ألوانٌ من التراث) الذي كانت تُصدِرُه صحيفةُ المدينة السعودية، عدد (٩٣٥٤) في ٣٠/ ٦/ ١٤١٣هـ فما بعد.

وإمَّا أنْ يُؤدِّي به ذلك إلى الهِجرة من ذلك البلد؛ كما حصل لجماعةٍ من العلماء، منهم: **النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ (ت ٢٠٣ هـ)، والقاضي عبدُالوهاب بنُ عليٍّ المالكيُّ (ت ٤٢٢ هـ)، وغيرُهما:**

أما النَّضْرُ بن شُمَيْل: فإنه لمَّا ضاقت عليه المعيشةُ بالبصرة، خرج منها إلى خُرَاسانَ، فشيَّعَهُ من أهلها نحوُ ثلاثةِ آلافِ رجلٍ! ما فيهم إلّا مُحدِّثٌ، أو نَحْويٌّ، أو لُغَويٌّ، أو عَرُوضيٌّ، أو أخبارِيٌّ، فلما صار بالـمِرْبَدِ، جلسَ فقال: يا أهلَ البصرة! يَعزُّ عَليَّ فراقُكم، ووالله لو وجدتُ كلَّ يومٍ كَيْلَجَةَ[1] باقِلّاء ما فارقتُكُم، قال: فلم يكنْ أحدٌ فيهم يَتكلَّفُ له ذلك!!

ثم إنه خرج إلى مَرْوَ من بلاد خُراسانَ، فأَثْرَى وصار ذا مالٍ طائلٍ، وصَحِبَ الخليفةَ المأمونَ، وحَظِيَ عندَه[2].

---

(١) **الكَيْلَجَةُ:** مكيالٌ لأهل الْعرَاق يَسَعُ مَنًّا وَسَبْعَة أَثمَان مَنًّا (ج) كيالجة وكيالج، والهاءُ فيه للعُجْمة. انظر: الصحاح: للجوهري (١/ ٣٣٧)، والمعجم الوسيط (٢/ ٨٠٨).

(٢) مِن ذلك أنه كان يومًا عند المأمون ، فقال المأمونُ: «حدثنا هُشيمٌ، عن مجالدٍ، عن الشعبيِّ، عن ابن عباس، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا تزوَّجَ الرجلُ المرأةَ لدينِها وجمالِها، كان فيه سَدَادٌ مِن عَوَزٍ**»، وفتح سين (سَدَاد)، فأعاد النضرُ الحديثَ، وكسر السين، فاستوى المأمونُ جالسًا، وقال: تلحِّنني يا نَضْرُ؟! فقال: إنما لحَنَ هُشيمٌ - وكان لحّانا - فتبع أميرُ المؤمنين لفظَهُ، قال: فما الفَرْقُ بينهما؟ قال: السَّداد -بالفتح-: القَصْدُ في الدِّين والسَّبيل، والسِّداد - بالكسر-: البُلْغَةُ، وكلُّ ما سَددتَ به شيئًا فهو سِدادٌ بكسر السين، فقال المأمون: أوَتَعْرِفُ العربُ ذلك؟ قلتُ: نعم، هذا العَرْجيُّ يقول:

أَضَاعُوني، وأيَّ فتىً أَضَاعُوا؟! ... لِيَومِ كَرِيهةٍ وسِدَادِ ثَغْرِ!

فاستوى المأمونُ جالسًا، وقال: قبّح اللهُ من لا أدَبَ له! ثم أمر له بخمسين ألف درهم!!.
انظر: تاريخ ابن الوردي (١/ ٢٠٦)، وديوان المعاني: لأبي هلال العسكري (١/ ٩)، =

وأمّا القاضي عبدُ الوهاب: فكان يعيشُ في بغدادَ، فما وجَد من أهلها إكرامًا ولا احتفاءً، **فقال يصفُ حالَه بها**:

بغـدادُ دارٌ لأهـلِ المـــالِ طيِّبـةٌ ... وللمفـاليسِ دارُ الضَّـنْكِ والضِّـيقِ

ظَلِلْـتُ حَيْـرَانَ أمشــي في أزِقَّتِهـا ... كـأنّني مُصْـحَفٌ في بَيـتِ زِنْـديقِ!

وقال أيضًا يُبيّن سببَ خروجِه منها:

سـلامٌ علـى بغـدادَ في كُـلِّ مَـوطِنٍ ... وحُـقَّ لهـا مِنِّـي السَّـلامُ المُضَـاعَفُ

لعَمْـرُكَ مـا فارقتُهـا عـن مَـلَالَةٍ ... وإنــي بشَـطَّيْ جَانِبَيْـهَا لعَـارِفُ

ولَكِنَّهــا ضَــاقَتْ عَلــيَّ بــرَحْبِهَا ... وَلَـم تَكُـنِ الأَرْزَاقُ فيهـا تُسَـاعِفُ

فَكَانـتْ كَخِـلٍّ كُنـتُ أَهـوَى دُنُـوَّهُ ... وأَخْلاقُــهُ تــنَأى بــهِ وتُجَــانِفُ

ثم إنَّ عبدَ الوهاب هذا، لمَّا خرَج من بغداد ووصَل إلى ظاهرها، تبعه الفقهاءُ والأشرافُ من أهلها، وقالوا له: واللهِ يَعَزُّ علينا فِرَاقُكَ! فقال لهم: لو وجدتُ بين ظَهْرانَيْكُم رغيفيْنِ كلَّ غداةٍ وعَشيّةٍ، ما عَدَلْتُ عن بلدكم، فما وَجَدَ أحدًا يتكفَّلُ له بذلك!! وفي روايةٍ أنه قال: واللهِ لو وجدتُ في بلدكم كَيْلَجَتَيْن من ذُرَةٍ، ما خرجتُ منها، ولقد ترك أبي جملةَ دنانيرَ ودارًا، أنفقتُها كلَّها على

=

ومعجم الأدباء: للحموي (٦/ ٢٧٥٨)، ووفيات الأعيان: لابن خلكان (٥/ ٣٩٧)، والمختصر في أخبار البشر: لأبي الفداء (٢/ ٢٧)، وسمط النجوم العوالي: للعصامي (٣/ ٤٤٥)، ومسالك الأبصار: للقرشي (٧/ ١٣).

واقرأْ - إن شئتَ - كتابًا ماتعًا في هذا الشأن، هو: «الفِلاكة والمفلُوكون» لأحمد بن علي الدّلَجي، فقد ذكر فيه أعاجيبَ من هذا القبيل.

صعاليكِ مَن كان ينهض بالطلب عندي؛ فنكّس كلُّ واحدٍ منهم رأسَه، ثم أمرهم بالانصراف، فانصرفوا، وأنشد:

لا تَطْلُبَنَّ إلى المَجْبُوبِ أَوْلادَا ... ولا السَّرَابِ لِتَسْقِيْ مِنْهُ وُرَّادَا

وَمَنْ يَرُومُ مِنَ الأَنْذَالِ مَكْرُمَةً ... كَمَنْ يُوَتِّدُ فِي الأَتْبَانِ أَوْتَادَا!

فذهب إلى مِصْرَ فأكرمَهُ أهلُها غايةَ الإكرام، وحصل له شيءٌ من المال، وَحَسُنَ حَالُهُ.

ويُقال: إنه بعد وصوله إليها بيسيرٍ مات من أَكْلةٍ اشتهاها، فقال وهو يتقلَّبُ على فِراش الموت: **لا إله إلا الله، لمَّا عِشْنا مِتْنا!!**[١].

(١) انظر خبره في: وفيات الأعيان: لابن خلكان (٣/ ٢٢٠)، وترتيب المدارك: للقاضي عياض (٧/ ٢٢٣)، والبداية والنهاية: لابن كثير (١٥/ ٦٤٠)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: للشنتريني (٨/ ٥٢٥)، والديباج المذهب: لابن فرحون (ص/ ١٦٠)، ومقدمة محقِّق كتاب التلقين للقاضي عبد الوهاب (ص/ ١٤-٢٥).

لطيفةٌ: اجتاز القاضي عبدُ الوهاب المالكي في طريقه بمعرَّة النعمان، فأضافه شاعرُها الشهيرُ أبو العلاء المعري، فأسمعه القاضي أشياءَ من أشعاره، فأُعجب بها أبو العلاء كثيرًا، وفي ذلك يقول يمدحه:

والمالكيُّ ابنُ نَصرٍ زارَ في سَفَرٍ ... بلادَنا فحمِدْنَا النَّأْيَ والسَّفَرَا

إذا تَفَقَّهَ أَحْيَا مَالِكًا جَدَلًا ... ويَنشُرُ الملِكَ الضِّلِّيلَ إنْ شَعَرَا!

قلتُ: هو أهلٌ لهذا المدح؛ فإن له أشعارًا كثيرةً لطيفةً سوى ما تقدّم، منها أبياتُه الذائعةُ - وقد ضمّنها بعضَ المصطلحاتِ الفقهيةِ، فأجادَ إعمالَها -:

وَنَائِمَةٍ قَبَّلْتُهَا فَتَنَبَّهَتْ ... وقَالَتْ: تَعَالَوْا واطْلُبُوا اللِّصَّ بالحدِّ

=

ولقد أحسنَ ابنُ عبد البرّ حيثُ يقولُ لمّا ترحّل من إشبيلية[١]:

وقائلــةٍ: مــا لــي أراك مُــرحَّلَا ... فقلتُ لها: صَهْ واسْمعي القولَ مُجمَلَا

تَنكَّــرَ مَــنْ كُنَّــا نُسَــرُّ بقُربِــه ... وعــادَ زُعافًــا بعــدما كــان سَلْسَــلَا

وحُــقَّ لجــارٍ لــم يُوافقْــه جــارُه ... ولا لاءَمَتْــه الــدَّارُ أنْ يتــرحَّلَا

بُليــتُ بخَفْــضٍ، والــمُقامُ ببلــدةٍ ... طـويلًا لَعَمْـري مُخلِـقٌ يُـورِثُ البِلَا

إذا هــانَ حُــرٌّ عنــد قــومٍ أتــاهمُ ... ولـم يَنْأَ عـنهم كـان أعْمـى وأجْهَـلَا

ولــم تُضــرَبِ الأمثــالُ إلّا لعالِــمٍ ... ولا عُوتــبَ الإنســانُ إلّا لِــيَعْقِلَا

وقال الآخَرُ[٢]:

أَسِــفْتَ لِصَــمْتِهِ ولَــهُ يَــرَاعٌ ... جَميــلُ بَيَانِــهِ سَــحَرَ الجُمُوعَــا

=

فقُــلتُ لهــا: إِنِّــي فَــدَيْتُكِ غَاصِــبٌ ... ومـا حَكمُـوا في غَاصِـبٍ بِسِـوى الـرَّدِّ!

خُــذِيهَا وكُــفِّي عــن أَثِـيم ظِــلابَةٍ ... وإنْ أنـتِ لَـمْ تَرْضِـيْ فَأَلْفًـا عَـلَى الْعَدِّ!

فقالــتْ: قِصَــاصٌ يَشْــهَدُ الْعقــلُ أَنَّــهُ ... عــلى كَــبِدِ الْجَــانِي ألــذُّ مـن الشَّـهْدِ!

فَبَاتَــتْ يَمِينِــي وَهْــيَ هِمْيَــانُ خِصْــرِهَا ... وَبَاتَــتْ يَسَــارِي وَهْــيَ وَاسِــطَةُ الْعِقْــدِ

فقــالت: أَلَــمْ أُخْبَــرْ بِــأَنَّكَ زَاهِــدٌ؟ ... فقلتُ: بلى، مَا زِلْتُ أَزْهَدُ فِي الزُّهْدِ!!

انظر: الوافي بالوفيات: للصفدي (١٩/ ٢٠٧) وبعض المصادر السابقة.

(١) بهجة المجالس (١/ ٢٤٣).

(٢) رباعيات مختارة: لإلياس قنصل (ص/ ٢٩).

وَلَــوْ أَبْصَــرتَ شِــدَّةَ مَــا يُعَــانِي ... مِــنَ الأَيَــامِ أَرْخَصْــتَ الــدُّمُوعَا

إذا سَــلِمَ النُّبُــوغُ مِــنَ الرَّزَايَــا ... فكيــفَ يُطبِّــبُ الفَقْــرُ الوَجِيعَــا؟!

وأَغْــرَبُ مَشْــهَدٍ نُصْــبٌ ثَمِــينٌ ... أُقِــيمَ لعَبْقَــرِيٍّ مَــاتَ جُوعَــا!

وقال الدكتور/ جمال حمدان -أحدُ ألمعِ الجُغرافيّين العرب المعاصرين- في مقدِّمة كتابه «**شخصيّة مصر**»: «بلادُنا قد تخصَّصت في إهالةِ التراب على عباقرتها وهم أحياءٌ، وتمجيدِهم وهم أمواتٌ!!».

وإمّا أن يُؤدِّي به ذلك إلى الموت كمَدًا وحُزْنًا، وهذا غالبًا يكون لمن سَمَتْ نفسُهُ، وكان فيه نَوعُ رِقَّةٍ، وقد تقدَّم شيءٌ من ذلك[1].

ثانيًا: عدمُ الثِّقة بالنَّفْس:

هذا خُلُقٌ لا ينبغي أنْ يُماسَّهُ المبدِعُ أو يُدانيهِ؛ فإنّ الذي لا يَثِق بعلمِه وعقلِه ومواهبِه، لا يُمكِنُ أنْ يلِجَ طريقَ الإبداع والابتكار؛ لأنه طريقٌ يحتاج إلى الشجاعة والإقدام؛ كحاجته إلى البحث والنظر والتأمُّل.

ولعلّ الذي أوْدَى بهذه الثِّقة وأخْمَد جذوَتَها أمرانِ:

١- **مَقُولَةٌ نشأتْ قديمًا**، ولاكَتْها الألسُنُ، حتى انتشرتْ كالوباء بين مَن لّا تَرْكَنُ النفسُ لقوّةِ شَكيمتِهِ، وصَلابةِ عزيمتِهِ، تُنسَبُ هذه المقُولَةُ لابن المقفَّع (ت ١٤٤هـ)[2]، وهي: **(ما تَرَكَ الأوّلُ للآخِرِ شَيئًا)**!! وقد يُعبَّر عنها

---

(١) انظر الفصل الخامس: (القوة النفسيّة = الشجاعة الأدبيّة).

(٢) قالها في كتابه: «كليلة ودِمنة» (ص/ ١٥٧).

وقال في كتابه «الأدب الكبير» (ص/ ٦٤) - بعد أن امتدح المتقدِّمين، وأثنى عليهم -: =

بقول الشاعر[١]:

لَـــمْ يَـــدَعْ مَـــنْ مَضَـــى لِلَّـــــذِيْ قَـــــدْ غَبَـــــرْ
فَضْـــلَ عِلْـــمٍ سِـــوَى أَخْـــــذِهِ بِـــــالأَثَرْ![٢]

=
«فمنتهى عِلْمِ عالِمِنا في هذا الزمان: أن يأخُذَ من عِلْمِهم، وغايةُ إحسانِ مُحسِنِنا أنْ يَقتديَ بسيرتِهم....».

وانظر: طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (١/ ٣٢١) فقد مالَ إلى هذا بعضَ المَيْل!

ومثلُه ابنُ العَرَبيّ، فقد قال: «لا يَنبغي لحصيفْ، يَتصدّى إلى تصنيفْ، أنْ يعدِلَ عن غَرَضَيْن: إما أنْ يَخترعَ مَعْنى، أو يَبتدع وَضْعًا ومَبْنى، حَسَبَ ما قرَّرناه في «قانون التأويل»، وربطناه في التحصيل من الجُمل والتفصيل، وما سوى هذيْن الوجهيْن فهو تسويدُ الوَرَقْ، والتَّحَلِّي بحِلْيةِ السَّرَقْ!

فأمَّا إبداعُ المعانْ، فهو أمرٌ مُعْوِزٌ في هذا الزمانْ؛ فإن العلماء قد استوفَوْا الكَلِمْ، ونصبوا على كل مُشْكِلِ العَلَمْ، ولم يبقَ إلا خفايا في زوايا، لا يتوَلَّجُها إلا من تَبَصَّرَ معاطفَها، واستظهر لواطفَها». عارضة الأحوذي (١/ ٤).

(١) البيتان في زهر الأكم في الأمثال والحكم: لليوسي (٣/ ٧٧) ولم أرَ من نسبهما لقائل.

- جاء في كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: للحجوي (٢/ ٥١٦): «وأمّا مَقُولَةُ:

(لَـــمْ يَـــدَعْ مَـــنْ مَضَـــى لِلَّـــــذِيْ قَـــــدْ غَبَـــــرْ
فَضْـــلَ عِلْـــمٍ سِـــوَى أَخْـــــذِهِ بِـــــالأَثَرْ)

فإنها خيالُ شاعرٍ، ليستْ حُجةً عقليةً ولا شرعيةً، أوجبها تأخُّرُ الأفكار الإسلامية، وركونُهَا للجمود، وقد قال فيه اليُوسِيُّ في «القانون»: إنه لا أضرَّ بالعلماء والمتعلِّمين منه، وتحجيرٌ لفضل الله الذي لم يُوقَّتْ بزمانٍ ولا مكانٍ، ويقابلُها قولُ الشاعر، الذي صدَّقه الأوائل والأواخر: كم ترَكَ الأوَّل للآخِر». اهـ. بتصرّفٍ يسيرٍ.

(٢) أو بقول السيد مصطفى بن حسن الصمادي (ت ١١٣٧ هـ):

إنّ الـــذين تقـــدّموا لـــم يَترُكـــوا معنًـــى بـــه يَتقـــدَّمُ المتـــأخِّرُ!
=

ولكنْ هل وَجَدتْ هذه الكلمةُ صَدَىً لدى المبدِعين؟

كلّا، بل لقد تَوَارَدَ العُلماءُ على إبطالها جِيلًا بعدَ جِيل، ورَعيلًا بعدَ رَعيل، حتى أوردوها الحُفرةَ، وسَنُّوا عليها التُرابَ سَنًّا!

فهذا الجاحظُ يقول: «قالوا: ليس ممّا يَستعملُ الناسُ كلمةٌ أضرَّ بالعلم والعلماء، ولا أضرَّ بالخاصَّة والعامَّة، من قولهم: (ما تركَ الأولُ للآخِرِ شيئًا)، ولو استعمل الناسُ معنى هذا الكلام، فتركوا جميع التكلُّفِ، ولم يتعاطَوْا إلا مقدارَ ما كان في أيديهم، لفقدوا عِلمًا جَمًّا، ومرافقَ لا تُحصى، ولكن أبى اللهُ إلا أن يَقسِمَ نعمَهُ بين طبقاتِ جميعِ عبادِه قسمةَ عَدْلٍ، يُعطي كلَّ قرنٍ وكلَّ أمةٍ حِصَّتَها ونصيبَها، على تمامِ مراشدِ الدين، وكمالِ مصالحِ الدنيا»[(١)].

وقال أيضًا: «إذا سمعتَ الرجلَ يقول: (ما تركَ الأولُ للآخِرِ شيئًا)، فاعلمْ أنه ما يُرِيدُ أن يُفلِحَ!»[(٢)].

وقال ابنُ عبد البَرِّ: «قالوا: لا كلمةَ أضرَّ بالعلم وبالعلماء والمتعلِّمين من قول القائل: (ما تركَ الأولُ للآخِرِ شيئًا)»[(٣)].

ثم توالى العلماءُ بعدَ ذلكَ على رَدّ هذه المقولةِ المدْخُولةِ ودَحْضِها؛ وإبطالِ هذه العبارة المرذولةِ ونَقْضِها؛ كأحمد بنِ فارسٍ الرازيِّ في رسالته التي

=

قد أنتجُوا أبكارَ أفكارٍ لهم عُقْمَ المعاني، مِثلُها مُتعذِّرُ

سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: للمرادي (٤/ ١٨٠).

(١) رسائل الجاحظ (٤/ ١٠٣).

(٢) معجم الأدباء: للحموي (٥/ ٢١٠٣).

وله كلمةٌ ثالثةٌ ذكرها الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص/ ٢٩٢).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤١٦).

كتبها لأبي عمرو محمد بن سعيد الْكاتِب[(١)]، والمسعوديِّ في «التنبيه والإشراف»[(٢)]، وابنِ جِنِّي في «الخصائص»[(٣)]، وابنِ عبدِ ربِّه في «العقد

---

(١) انظر: الصاحبي (ص/ ٢١٧)، ويتيمة الدهر: للثعالبي(٣/ ٤٦٣).

(٢) (١/ ٦٦) حيث يقول فيه: «ونحنُ وإنْ كان عصرُنا متأخِّرًا عن عصر مَنْ كان قبلَنا من المؤلِّفين، وأيامُنا بعيدةً عن أيامهم، فنرجو أن لا نقصِّر عنهم في تصنيفٍ نقصدُه، وغرضٍ نؤمُّه، وإن كان لهم سبقُ الابتداء، فلنا فضيلةُ الاقتداء، وقد تشتركُ الخواطرُ، وتتفقُ الضمائرُ، وربما كان الآخِرُ أحسنَ تأليفًا، وأتقنَ تصنيفًا؛ لِحُنْكةِ التجارِب، وخشيةِ التتبُّع، والاحتراسِ من مواقع الخطأ، ومِن هاهنا صارت العلومُ ناميةً غيرَ متناهيةٍ؛ لوجود الآخِرِ ما لا يجده الأوّلُ، وذلك إلى غير غايةٍ محصورةٍ، ولا نهايةٍ محدودةٍ، وقد أخبر اللهُ ﷻ بذلك فقال: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِى عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦].
على أنَّ مِن شِيَم كثيرٍ من الناس الإطراءَ للمتقدِّمين، وتعظيمَ كتب السالفين، ومدحَ الماضي، وذمَّ الباقي، وإن كان في كتب المُحْدَثين ما هو أعظمُ فائدةً، وأكثرُ عائدةً، وقد ذكر أبو عثمان عمرو بنُ بحرٍ الجاحظُ أنه كان يؤلِّف الكتابَ الكثيرَ المعاني الحسنَ النظم، فينسبُه إلى نفسه، فلا يرى الأسماعَ تَصْغَى إليه، ولا الإراداتُ تَيَمَّمُ نحوَه، ثم يؤلِّف ما هو أنقصُ منه مرتبةً، وأقلُّ فائدةً، ثم ينحلُه عبدَ الله بنّ المقفّع، أو سهلَ بنَ هارون، أو غيرَهما من المتقدِّمين، ومَنْ قد طارتْ أسماؤُهم في المصنِّفين، فيُقبِلونَ على كَتْبها، ويسارعون إلى نَسْخِها، لا لشيءٍ إلا لنسبتها إلى المتقدِّمين، ولِـمَا يُدَاخِلُ أهلَ هذا العصر من حسدِ مَنْ هو في عصرهم، ومنافستِه على المناقب التي يُخَصُّ بها، ويُعنى بتشْييدِها.
وهذه طائفةٌ لا يَعْبَأُ بها كبارُ الناس، وإنما العملُ على ذوي النظر والتأمُّل الذين أعطوْا كلَّ شيءٍ حقَّه من العدل، ووفَّوْهُ قِسْطَه من الحقّ، فلم يرفعوا المتقدِّمَ إذْ كان ناقصًا، ولم يَنقصوا المتأخِّرَ إذْ كان زائدًا؛ فلِمثل هؤلاء تُصنَّفُ الكتبُ، وتُدوَّنُ العُلومُ».

(٣) (١/ ١٩١).
- وقال في (١/ ٢٤ - ٢٥) بعدَ أنْ استشهد ببيتيْن للمتنبي: «ولا تَستنكِرْ ذِكْرَ هذا الرجل - وإنْ كان مولَّدا - في أثناء ما نحنُ عليه من هذا الموضع وغُمُوضِه، ولُطْفِ مُتسرَّبه؛ فإن المعاني يتناهبُها المولَّدون كما يتناهبُها المتقدِّمون. وقد كان أبو العباس (المبرِّد) وهو =

الفريد»[١]، والجُرْجانيِّ في «دلائل الإعجاز»[٢]، وابنِ رشيقٍ في «العمدة»[٣]، وابنِ مَضَاءٍ في «الردّ على النحاة»[٤]، وياقوتٍ الحَمَويِّ في «معجم البلدان»[٥]، وابنِ الأثيرِ في «المثَل السائر»[٦]، وابنُ مالكٍ في «تسهيل الفوائد»[٧]، والقَزوينيِّ

=

الكثيرُ التعقُّب لجِلّة الناس احتجَّ بشيءٍ من شعر حَبيب بن أوس الطائيّ في كتابه في الاشتقاق، لـمّا كان غرضُه فيه معناه دون لفظه، فأنشد فيه له:

لو رأينا التوكيدَ خُطّةَ عَجْزٍ ... ما شفعْنا الأذانَ بالتثويبِ

وإياكَ والحنبليّةَ بَحْتًا! فإنها، خُلُقٌ ذَميم، ومَطْعَمٌ على عِلّاته وَخِيم».

- وقال في كتابه «المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» (١/ ٢٣١) وقد روى بيتًا للمتنبي في أثناء الاحتجاج لقراءة «وَلِيَلْبَسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ» بفتح الباء: «ولا تقلْ ما يقولُه مَن ضَعُفتْ نَحِيزَتُه، ورَكَّت طريقتُه: هذا شاعرٌ مُحْدَثٌ، وبالأمسِ كان مَعَنا، فكيف يجوزُ أن يُحتجَّ به في كتاب الله جلّ وعزّ؟! فإنّ المعانيَ لا يَرفعُها تَقدُّمٌ، ولا يُزْرِي بها تأخُّرٌ».

(١) (٦/ ١٨٦).

(٢) (ص/ ٢٩٢).

(٣) (١/ ٩١).

(٤) (ص/ ٧٥).

(٥) (١/ ١٠-١١).

(٦) (٢/ ٤٧).

(٧) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد (ص/ ٢).

ونصُّ كلامه: «إذا كانت العلومُ مِنَحًا إلهيّة، ومَواهبَ اخْتِصاصِيّة، فغيرُ مُستبعَدٍ أنْ يُدَّخرَ لبعضِ المتأخِّرين، ما عَسُرَ على كثيرٍ من المتقدِّمين.

أعاذنا اللهُ مِنْ حَسَدٍ يَسُدُّ بابَ الإنصاف، ويَصُدُّ عن جميل الأوصاف. وألْهمنا شُكرًا يقتضي توالي الآلاء، ويَقْضِي بانقضاء اللّأْواء».

قال ناظرُ الجيش الحلبي في شرح عبارة ابنِ مالكٍ السابقة: «في هذا الكلام من المصنِّف حثٌّ وترغيبٌ في النظر في كلام المتأخِّرين والاشتغال به، ونهيٌ عن أنْ يَقتصرَ المحصِّلُ

=

في «الإيضاح»(١)، وابنِ تَغْرِي بَرْدِي في «النجوم الزاهرة»(٢)، وشمسِ الدينِ الرَّمْليِّ في «نهاية المحتاج»(٣)، والشهابِ الخفاجيِّ في «ريحانةِ الألبَّا»(٤)، وحاجِي خليفة في «كشف الظنون»(٥)، وصدِّيق حسن خانْ في «أبجد العلوم»(٦)، وعبدِ الحيِّ الكِتَّانيِّ في مقدِّمة كتابه «التراتيب الإدارية»(٧)، وأحمد أمين في مقالتِه الفائقةِ (أمس وغدًا)(٨)، وغيرِهم.

= على كلام المتقدِّمين ويرفضَ كلامَ مَنْ بعدَهم؛ فإنه قد يَعْثُرُ في كلام المتأخِّر على ما لا يَعْثُرُ عليه في كلام المتقدِّم.

ولاشكَّ أنّ للمتقدّم فضيلةَ السَّبْق والاختراع والتدوين، وللمتأخِّر فضيلةَ الجمْعِ والإكثارِ، وتقييدِ ما لعلّه أُطلِق، وتفصيلِ ما لعلّه أُجمِل، مع الاختصارِ التامّ، وتيسيرِ ما هو على المحصِّل صعبُ المرام. فيتعيَّنُ الجُنوحُ إلى كلامهم، والتعريجُ على مصنفاتهم؛ فربما فات من لم يشتمل عليها مقصودٌ كبيرٌ» تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (١/ ١٢٠).

(١) (١/ ٦٣).

(٢) (٢/ ٢٦٤).

(٣) (١/ ١٥).

(٤) (ص/ ٦).

(٥) (١/ ٣٩). **وانظر**: قواعد التحديث للقاسمي (ص/ ٣٨).

(٦) (ص/ ١١٠).

(٧) (١/ ٧٨).

ويقول شيخُنا العلّامةُ حمادُ الأنصاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنّ قولَ بعضهم: (إنّ الأولَ ما ترك للآخِرِ شيئًا) هذا قولُ مَن لا عقلَ له! والصحيحُ: كم تركَ الأولُ للآخِر». المجموع في ترجمة العلامة المحدث الشيخ حماد بن محمد الأنصاري: لولده عبد الأول (٢/ ٥٤٣).

(٨) نُشرت في مجلة الرسالة، وهي في كتابه فيض الخاطر (١/ ٢٠٧).

وممّا قاله فيها: «شَرُّ ما أُلاحظ في الشرق حنينُهُ الشديدُ إلى الماضي، لا أملُهُ القويُّ في المستقبل، واعتقادُه أنّ خيرَ أيامه ما سلفتْ لا ما أقدَمَتْ، وإعجابُه الشديدُ بأعمال =

إذن: فليس المِقياسُ مِقياسَ القِدَم والـمُعاصرة؛ فيُرفَعُ القديمُ لِقِدَمِه، ويُخفضُ المعاصرُ لجِدَّتِهِ، كلّا! وإنما المقياسُ هو الجودةُ والإتقانُ وحُسْنُ الأثرِ؛ والحِكمةُ ضالَّةُ المؤمِن(١).

=

الماضين، وإهمالُ المعاصرين!

له منظاران: مِنظارٌ مُكبِّرٌ يلبسُه إذا نظر إلى الماضي، ومِنظارٌ مُصَغِّرٌ أسودُ يضعُه إذا نظر إلى الحاضر والمستقبل، يَلَذُّهُ أن يطيلَ البكاءَ على الميت، ولا يَلَذُّهُ أن يتدبرَ فيما يجبُ أن يفعلَه الأحياءُ؛ يستسهلُ النفقاتِ - مهما عَظُمتْ - على الميت، ويستكثرُ نفقاتِ الطبيب وأثمانِ الدواء للمريض، يُعجبهم أن يتمثّلوا الأمثالَ تدل على عِظَم الماضي، ولا يُعجبهم أن يتمثَّلوا الأمثالَ تبعثُ الأملَ في المستقبل؛ ففي أعماق نفوسهم أنّ قولَ القائل: (ما تركَ الأولُ للآخِر) خيرٌ من القول: (كمْ تركَ الأولُ للآخِر)! ويلوكون دائمًا: (لا جديدَ تحت الشمس)! ولا يعجبُهم أن تقول: إنّ كلَّ ما تحت الشمس في جِدَّةٍ مستمرةٍ، والمستقبلُ مملوءٌ بالجديد.

وإذا رأوا كلمةً في كتابٍ قديمٍ تَدُلُّ - ولو دلالةً كاذبةً - على نظريةٍ جديدةٍ طاروا بها فرحًا؛ لأن ذلك يُلائم ما في نفوسهم من تعظيم الماضي، وتحقير الحاضر والمستقبل، هم يَعيشون في أحلامٍ، ولا يريدون أن يعيشوا في حياةٍ واقعةٍ، وحولَ هذه المعيشة الحالمة ينسجون دائمًا ما يُوافقُها ويمازجُها ويسايرُها؛ يكتفون بالأمل أن يَنعَموا بالآخرة؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعَموا في الدنيا والآخرة؟!».

(١) **قال القاضي الجُرْجانيُّ:** «ما أكثرَ مَنْ ترى وتسمعُ من حُفّاظ اللغة ومن جِلّة الرواة، مَنْ يَلهج بعيْبِ المتأخِّرين؛ فإنّ أحدَهم يُنشَدُ البيتَ فيَستحسِنُه ويَستجيدُه، ويَعجَبُ منه ويَختارُه؛ فإذا نُسب الى بعض أهل عصره وشعراء زمانه كذّب نفسَه، ونَقض قولَه، ورأى تلك الغضاضةَ أهونَ محْمَلًا وأقلَّ مَرْزأةً من تسليمِ فضيلةٍ لمُحْدَثٍ، والإقرارِ بالإحسانِ لمولَّدٍ!!

حُكي عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال: أَنشدتُ الأصمعيَّ:

هــلْ إلــى نظــرَةٍ إليْــكَ سَــبيلُ ... فيُبَــلّ الصّــدَى ويُشْــفَى الغَليــلُ

إنّ مــا قــلَّ منْــكَ يكْثُــرُ عنــدي ... وكثيــرٌ ممّــنْ تحِــبُّ القَليــلُ

=

وعليه؛ فصوابُ هذه العبارة أن يُقال: «كَمْ تركَ الأولُ للآخِر»![(١)]؛ كما قال أبو تمَّامٍ[(٢)]:

لاَ زِلْتَ مِنْ شُكرِيَ فِي حُلَّةٍ لابِسُهَا ذُو سَلَبٍ فَاخِرِ
يقولُ من تَقْرَعُ أسمَاعَهُ: كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخِرِ!

وكما قال الجاحظُ[(٣)]:

ما عَلَّمَ النَّاسَ سِوَى قولِهم: كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخِرِ!

=

فقال: والله هذا الدّيباجُ الخُسْرَوانيُّ، لمنْ تُنشدني؟ فقلتُ: إنهما لليلتهما (يعني أنه قالهما في ليلته) فقال: لا جَرَمَ، والله إنّ أثرَ التكلُّف فيهما ظاهرٌ!!». الوساطة بين المتنبي وخصومه (ص/ ٥٠).

(١) تنويرٌ: أكثرُ من رأيتُه يُردِّدُ هذه المقولةَ من العلماء المعاصرين: الشيخُ الألبانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ وذلك لكثرة استدراكاته على مَنْ سبقه، ومِن عباراته في هذا، قولُه: «فتأملْ كيف يقع الخطأ من الفرد، ثم يغفل عنه الجماعة، ويتتابعون وهم لا يشعرون؛ ذلك ليصْدُقَ قولُ القائل: (كم ترك الأولُ للآخِر)، ويظلّ البحثُ العلميُّ مستمرًا، ولولا ذلك لجمدتْ القرائحُ، وانقطع الخيرُ عن الأمة». سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٣/ ١٨٠).

- لكنْ كان الشيخُ مقبلُ بنُ هادي الوادعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَستثني من هذه القاعدة عِلْمَ الحديث، ويقول عن المشتغلين بالحديث من المعاصرين: «إنّ لهم أخطاءً كثيرةً بالنسبة إلى العلماء المتقدِّمين، ولا يُقال: كم تركَ الأولُ للآخِرِ في علم الحديث!

أَرُوني شخصًا يحفظ مثلَ ما يحفظ البخاريُّ، أو أحمدُ بنُ حنبل، أو تكونُ له معرفةٌ بعلم الرجال مثلَ يحيى بنِ معينٍ، أو له معرفةٌ بالعِلَل مثلَ عليِّ بنِ المديني والدارَقطنيِّ، بل مثلَ مِعْشار الواحد من هؤلاء، ففرقٌ كبيرٌ بن المتقدِّمين والمتأخِّرين». تحفة المجيب عن أسئلة الحاضر والغريب (ص/ ٩٧).

(٢) الديوان بشرح التبريزي (٢/ ١٦١).

وانظر الأمثال المولَّدة: للخوارزمي (ص/ ٣٤٩).

(٣) تاج العروس: للزبيدي (١/ ٧٧).

وكما قال البدرُ بنُ سَلاَمَةَ[(١)]:

أَقْسَمتُ إِنْ جَدَّ وَطَالَ المدَى رَوَى الوَرَى مِنْ بَحْرِهِ الزَّاخِرِ

فَقُلْ لمنْ بِالسَّبْقِ قَدْ فُضِّلُوا: كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخِرِ!

وينبغي أنْ يستحضر العالِمُ دائمًا تلك الكلمةَ النفيسةَ التي قالها عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُ»[(٢)].

قال ابنُ عبدِ البرِّ تعليقًا عليها: «قالوا: ليس كلمةٌ أحَضَّ على طلب العلم منها... وهو من الكلام العجيبِ الخَطِير، وقد طار به الناسُ كلَّ مَطِيْر!»[(٣)].

٢- دَعْوَى إغلاقِ بابِ الاجتهادِ:

لقد مرَّت على الأمة فترةٌ غيرُ قصيرةٍ أُلغيَ فيها الاجتهادُ، وأُغلِق بابُهُ - خصوصًا في العصورِ المُتأخرةِ؛ عصورِ الانحطاطِ - وخلَدت فيه الأُمَّةُ للتقليد البليد، بل وتعصَّبتْ له؛ حتى قال قائلُهم: «إنَّ اللّامذهبيَّةَ أخطرُ بِدعةٍ على الإنسانية!!».

فتبلَّدتْ المشاعرُ، وخمَدتْ جذوةُ الاجتهاد والابتكار، وأصبح كثيرٌ من العلماء يَدورُون في حَلْقة مُفرَغةٍ لا يُدْرَى أين طرفاها!! فكان كلُّ مَن رامَ الإبداعَ أو التجديدَ، يَجدُ الناسَ له بالمرصاد، يَقفُون حَجَرَ عَثْرةٍ في طريقه،

---

(١) الضوء اللامع: للسخاوي (٩/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٥/ ٣٥) من طريق ابن أبي الدنيا، وقال: «قال ابنُ أبي الدنيا: قال عمرو بنُ بَحْر (الجاحظُ): لا أعلمُ في كلام الناس كلمةً أحكمَ من هذه الكلمة».

(٣) جامع بيان العلم: لابن عبد البر (١/ ٤١٦-٤١٧).

ولو بالقوّة أحيانًا، أو باستعداء السلطان عليه! كما حصل لكثيرٍ من المبدِعين والمجدِّدين، منهم:

الشافعيُّ، والبخاريُّ، وابنُ تيميّةَ، وابنُ القيّم، وابنُ الوزير، والصنعانيُّ، والشوكانيُّ، وغيرُهم كثيرٌ[(١)].

ومِن لطيفِ ما يُذكرُ هنا؛ أنّ الشيخَ حسنَ بنَ حُسينٍ الأُسْكُوبيَّ[(٢)]، كان قد اسْتَجْلَبَ بعضَ المناظير والاصْطَرْلاباتِ، والزوايا والتِّلسْكُوبات، من أُوربا، وأقام على سطح منزله في المدينة المنورة مَرْصدًا فَلَكيًا، فكان يَصعدُ إليه يُراقِب النجومَ والكواكبَ، وسَيْرَ الأفلاك وتقلُّباتِها، فما كان من علماء المدينة إلا أنْ شنُّوا عليه غارةً شعواءَ في بعضِ الأيام، ودخلوا بيتَه، واستوْلوْا على تلكَ الأجهزةِ والمناظيرِ! فَلَزِمَ بيتَه حَزَنًا وكَمَدًا، ومَرِضَ بعدها وتُوفِّي![(٣)].

ومِن الطريف أنَّ أحدهم - وهو عبدُ الجليل برَّادة[(٤)] - نظم فيه رَجَزًا قال فيه[(٥)]:

مَـا قَـوْلُكُمْ فِي شَـيْخِنَا الأُسْـكُوبي؟! يَبِيــتُ طُــولَ اللَّيْــلِ فِي الرَّاقُــوبِ

---

(١) انظر: كتاب «الممتحَنون من علماء الإسلام» للدكتور/ سليمان بن محمد العُثيم، فهو حافلٌ في بابه.

(2) أَرْنَأُودِي الأصل، نسبته إلى (أسكوب) من بلدان (يوغسلافيا)، كان من بيت علمٍ وأدبٍ، وكان يَقطُن المدينة المنورة (ت: ١٣٠٣ هـ). انظر الأعلام: للزركلي (٢/ ١٨٩).

(٣) المرجع نفسه.

(٤) شاعرٌ من أهل المدينة المنورة. انظر ترجمته في الأعلام (٣/ ٢٧٥).

(٥) انظر: الأعلام: للزركلي (٢/ ١٨٩).

ويذكِّرنا هذا بحالِ مخترعِ التلسكوبِ نفسِه (جالِيلْيُو)! وقد تقدّم طَرَفٌ من خبره.

يَرْقُـــبُ مِنــهُ الفَــلَكَ الــدَّوَّارَا مُشَابِـــهًا فِي فِعْــلِهِ النَّصَـــارَى!

أمّا الممتحَنُونَ في هذا العصر من المبدِعين والمختَرِعين فهم كُثُرٌ، ولذا هاجرَ كثيرٌ منهم إلى بلاد الغَرْب، كما تقدَّمَ.

فالحاصلُ: أنّ دَعْوى إغلاق باب الاجتهاد ـ سواءً في المسائل العِلْميةِ أو العَمَليّة ـ كان له نتائجُ كارثيّةٌ على الأمة، ما زِلنا نُعانيها حتى اليومِ[١].

وقد قال الشيخُ محمد سعيد الباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه الدَّعْوى: «إنها دعوى فارغةٌ، وحُجّةٌ واهنةٌ، أوهنُ من بيت العنكبوت؛ لأنها غيرُ مستندةٍ إلى دليلٍ شرعيٍّ أو عقليٍّ سوى التوارثِ»[٢].

ثالثًا: دخولُ العَالِـمِ في غيرِ فَنِّهِ:

هذا أمرٌ يُدرَكُ ممّا سبَق، فقد اشترطنا سَلَفًا التخصُّصَ: وهو أنْ يَستفرِغَ الإنسانُ جُهدَه في فنِّه الذي مالتْ نفسُه إليه.

فلا ينبغي للراغبِ أن يَدخلَ في فنٍّ لا يَعرفُهُ مهما بلَغ ذكاؤُهُ وحِذْقُهُ؛ لئلّا يقعَ في تناقُضاتٍ وتحريفاتٍ وهو لا يَشعُرُ، فيكونَ سُبَّةَ الزمان، وضُحْكةَ الثَّكْلان، وربما بقيتْ عليه مَعَرَّةُ ذلك تَحْيَى بحَياتِه، ولا تموتُ بمَمَاتِه!

قال أبو القاسم الهذليُّ: «سأل مالكٌ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نافعًا[٣] عن البسملة، فقال:

---

(١) انظر بعضَ آثارها الخطيرة في كتاب واقعنا المعاصر: لمحمد قطب (ص/ ١٥٩) فما بعد.

(٢) عمدة التحقيق في التقليد والتلفيق (ص/ ٦٢).

وانظر: بسطَ المسألة في كتب أصول الفقه، كما أُوصي بقراءة مقدمة الشيخ صلاح الدين مقبول أحمد لكتاب «إرشاد النقّاد، إلى تيسير الاجتهاد»: للصنعاني (ص/ ٢٩)؛ فإنها نفيسةٌ جدًا.

(٣) المرادُ به: نافعُ بنُ عبد الرحمن المدنيُّ، أحدُ القرّاء السبعة.

=

السُّنةُ الجهرُ بها. فسلَّم إليه وقال: كُلُّ عِلمٍ يُسأَلُ عنه أهلُهُ»[(١)].

وقال الشافعيُّ: «الواجبُ على العَالِـمينَ ألَّا يَقولوا إلا من حيثُ عَلِموا، وقد تكلَّم في العلم مَن لو أمسكَ عن بعض ما تكلَّم فيه منه، لكان الإمساكُ أولى به، وأقربَ من السلامة له، إن شاء الله»[(٢)].

وقال السمعانيُّ - في الردِّ على بعض العلماء-: «فكان الأولى به- عفا اللهُ عنه- أنْ يَترِكَ الخوضَ في هذا الفنّ، ويُحيلَهُ على أهله؛ فإنَّ مَن خاضَ فيما ليس من شأنه، فأقلُّ ما يصيبه افتضاحُه عند أهلِه!»[(٣)].

وقال ياقوتُ الحموي فيمن تكلّم في غير فنّه بلا علمٍ: «فإنَّه إنْ زعمَ أنه وادٍ وكان جبلًا، أَو جبلٌ وكان صحراءَ، أَو صحراءُ وكان نَهْرًا، أَو نَهْرٌ وكان قريةً، أَو قريةٌ وكان شِعْبًا، أَو شِعبٌ وكان حَزْمًا، أَو حَزْمٌ وكان رَوضةً، أَو رَوضةٌ وكان صَفْصَفًا، أَو صَفْصَفٌ وكان مُسْتَنْقَعًا، أَو مُسْتَنْقَعٌ وكان جَلَدًا، أَو جَلَدٌ وكان سَبْخَةً، أَو سَبْخَةٌ وكان حَرَّةً، أَو حَرَّةٌ وكان سَهْلًا، أَو سَهْلٌ وكان وَعْرًا، أَو يَجعَلُه

=

قال سعيد بن منصور: سمعت مالكًا يقول: قراءةُ أهل المدينة سنةٌ. قيل له: قراءةُ نافع؟ قال: نعم.

وقال أيضًا: نافعٌ إمامُ الناس في القراءة.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سألتُ أبي: أيُّ القراءة أحبُّ إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، فإن لم يكن فقراءة عاصم. انظر: معرفة القراء الكبار: للذهبي (ص/ ١٠٨).

(١) انظر: الكامل في القراءات العشر: لليشكري (ص/ ٤٣)، والتدوين في أخبار قزوين: للرافعي (١/ ١٥٤)، والنكت الوفية بما في شرح الألفية: للبقاعي (١/ ٥٢٠)، ومنجد المقرئين (ص/ ٤٥)، والنشر في القراءات العشر: لابن الجزري (١/ ٢٧١).

(٢) الرسالة (ص/ ٣٤).

(٣) قواطع الأدلة (١/ ٣٩٩).

شرقيًّا وكان غربيًّا، أَو جنوبيًّا وكان شماليًّا: سَفُلَ قَدْرُه، ونَزُرَ كُثْرُه، وآضَ ضُحْكَة، ويُرى أَنه ضُحَكَة، وجُعلَ هُزْأَة، ويُرَى أَنه هُزَأَة، واستُخِفَّ وَزنُهُ واسْتُرْذِل، واستُقِلّ فَضْلُه واسْتُجْهِل»[١].

فعلى الراغب أنْ يتفرَّغ لذلك الفنّ حتى يُحْكِمَه، ويحصّلَهُ على أربابه حتى يُتقنَه، أو يَدَعَه لأهله المعتنين به، ولا يُلوِّثَهُ بجهالاتِه، أمَّا أنْ يدخُل فيه للنُّزْهة والتذوُّق، فهذا مما لا يُحمَدُ[٢].

وقد ضَبَط العلماءُ عجائبَ وغرائبَ على هؤلاء الأدعياء الذين دخلوا في فُنُونٍ ليسوا من أهلها! وفي كُتُب الرُّدود والتتبُّعات والإلزامات من ذلك ما يُضْحِكُ الثَّكْلى، ويُعْجِلُ الحُبْلى!

مِن ذلك: ما حُكي عن عوَض بن نصْر المِصْري، وهو ممَّن له عِنايةٌ بالحديث والقرآءت والفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، لكنه لمّا دخل فيما لا يُحسِنُ، أتى بما يُضحِكُ؛ فقد ذكروا أنه أخذ كتابَ «الـمُفصَّل» للزمخشريِّ -وهو كتابٌ في النحو- فسأل بعضَ الجماعة عن قول الزمخشريِّ في أوله: «الله أحمد»، لأيّ شيءٍ قال: «الله أحمد»، وما قال: الله يوسفُ! ولا الله عيسى! أو موسى! أو غير ذلك من الأسماء«؟!! فحفظوها عنه[٣].

---

(١) معجم البلدان (١/ ٩).

(٢) وقد تقدَّم شيءٌ من التحذير من ذلك في بداية الكلام عن مقوّمات الإبداع العلمي.

(٣) انظر: أعيان العصر: للصفدي (٣/ ٧٠٦)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٣/ ١٩٩).

قلتُ: قال الزمخشريُّ في أول كتابه «المفصَّل في صنعة الإعراب» (ص/ ١٧): «اللهَ أحمدُ على أنْ جعلني من علماء العربيّة، وجَبَلَني على الغضب للعَرب والعصبيّة...».

=

وهذا ما جعل الطُّلَّابَ يَسخرون منه ويتطنّزون به، فوضع واحدٌ منهم سؤالاتٍ على لسانه من أول «المفصَّل» إلى آخره؛ مثلُ: لأيِّ شيءٍ قال: (باب التَّرْخِيم)، وما قال: باب التَّبْلِيط؟! ولأيِّ شيءٍ قال: (الموصول)، وما قال: الشَّبَّابة(١)؟! ولأيِّ شيءٍ قال: (العَلَم)، وما قال: السَّنْجَق(٢)؟! وقال: (زَيْدُ قُفَّة)، وما قال: السَّرْقانِيّة(٣)؟! ثم إنه شرع في تعليل ذلك جميعِه!!(٤).

=

ومعناه بيِّنٌ واضحٌ، فلفظُ الجلالة: مفعولٌ به مقدّمٌ، وأحمدُ: فعلٌ مضارعٌ مرفوعٌ مؤَخَّرٌ، وهو مِن الحَمْدِ نقيضِ الذَّمّ، وليس عَلَمًا على الذاتِ كما فهم عوضٌ هذا!!

لطيفة: قال الشيخُ أثيرُ الدين: «قال الطلبةُ لعوضٍ هذا يعبثون به: أنت ما في القرآن الكريم لفظٌ يُوازنُ اسمَك! فانحرف من ذلك وتأذّى، وجاء إليَّ شاكيًا، فقلتُ له: بلى في القرآن ما يُوازنُ اسمَك، فقال: ما هو؟ قلت: عِنَب، فسُرّ بذلك، وتوجّه إليهم!! ثم إنه شرع بتتبع الأجزاء والمعاجم والمشيخات والتواريخ، إلى أن جمع جزءا سمَّاهُ: «شفاء المرض، فيمن تسمّى بعوض» وذكر في الخطبة أن في القرآن على وزن اسمه عِنب!!» المصدرين السابقين، وكشف الظنون (٢/ ١٠٥٦).

(١) الشَّبَّابةُ: هي الزّمّارةُ أو اليراعةُ أو القصبةُ الَّتِي يَزْمُرُ بها الرَّاعي. انظر: التلخيص في معرفة أسماء الأشياء: لأبي هلال العسكري (ص/ ٤٢٢)، والزواجر: للهيتمي (٢/ ٣٤٢)، ومجمع بحار الأنوار: للفتّني (٢/ ٤٣٥).

(٢) السَّنْجَقُ: لفظٌ تركيٌّ استُعمل بمعنى العَلَم، أو الراية، أو الرُّمح، أو اللِّواء.
انظر: صبح الأعشى: للقلقشندي (٥/ ٤٣٠)، ومعجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: لمحمد أحمد دهمان (ص/ ٩٣).

(٣) السَّرْقَانِيَّةُ: نوعٌ من الزنابيل، والجمعُ: سرقانيّات، كالسَّطْل من الجِلد أو القُفَّة. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي (ص/ ٩٠).

(٤) انظر: أعيان العصر: للصفدي (٣/ ٧٠٦)، والدرر الكامنة: لابن حجر (٣/ ١٩٩).

- وكذا فعل الطلّابُ مع أبي الحسن علي بن أبي حَلَّى المِكناسي، فقد كان كثيرَ الحكايات، يحكي أنه شاهد غرائبَ ومُلَحًا، فينمِّقها عليه بعضُ الطلبة، ويتعدَّوْن ذلك إلى الافتعال
=

وقال أبو حيّان الأندلسيُّ: «حكى لنا أستاذُنا العلامةُ أبو جعفر بنُ الزبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان بمدينة مالَقَة شخصٌ، قد نَصبَ نفسَه لإقراء النحو، يُعرف بابن الفخّار، وقد رأيتُه أنا بمالَقَة، وحضرتُ مجلسَه، فحين علِم بي أنّي من تلاميذ ابن الزبير، أَنِسَ وتحدَّثَ، وقَطَعَ مجلسَه بالحديثِ معي، ولم يُقرِئْ في ذلك المجلس أحدًا.

قال الأستاذُ أبو جعفر: فسَمِعَ عنّي أني أذكر العطفَ على التوهُّم في القرآن، فأنكر ذلك، وشنَّع، وقال: كيف يكون التوهُّم في القرآنِ، واللهُ تعالى مُنزَّهٌ عن التوهُّم؟! وذلك لجهلِه بمصطلح أهل الفن، ونظرِه وحدَه دونَ شيخٍ!»[(١)].

وحُكِيَ أنّ بعضَ المتكلِّمين من الـمُجْبِرَة[(٢)]، قال: «أُسمِّي العبدَ مُضْطَرًّا إلى الفعل إذا فَعَلَه، ولا أُسمِّي اللهَ تعالى مُضْطَرًّا إليه. قيل: فكيف تقولُ؟ قال: مُضْطِرٌ - بكسر الطاء -!! فضَحِكَ أهلُ المجلسِ منه»[(٣)].

وكان ابنُ الخشَّابِ البغداديِّ إمامَ عصره في العربية واللغة، حتى كان

=

والمداعبة، حتى جمعوا من ذلك جزءًا سموه «السالك والـمُحَلَّى في أخبار ابن أبي حَلَّى»! انظر نفح الطيب (٣/ ٥٥٧).

(١) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل (٥/ ١٩٨).

(٢) الـمُجْبِرَة: هم الذين يقولون: إن الإنسان مجبورٌ على فعله، وأنه لا فاعلَ في الحقيقة إلا اللهُ وحده، وأن الناس إنما تُنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرةُ وزالت الشمسُ، وفاعلُ ذلك هو اللهُ سبحانه. وهذا مذهبُ طوائفَ من المبتدعة، منهم الجهمية.

انظر: مقالات الإسلاميين: للأشعري (١/ ٣٣٨)، والفصل: لابن حزم (٣/ ٢٢)، والفرق بين الفرق (ص/ ٢١١).

(١) شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد (١٠/ ٦٠).

علماءُ عصره يَستفتونه فيهما، ويسألونه عن مشكلاتِهما، لكنه كان قليلَ البضاعة في الفقه؛ فقد سُئل ذاتَ مرةٍ عن حُكم رفع اليدين في الصلاة؟ فقال: هو رُكنٌ!! فَضُحِكَ منه(١).

وجاء في ترجمة عبد العزيز بن محمد بن موسى الجاناتي الفاسي (ت٧٤٦ هـ): «أنه كان حَسَنَ الإلقاء للمسائل، لكنه لا يُحسِنُ العربيّةَ، فجلس مجلسَ الشيخ أبي الحسن الصغير بعد موته فقُرِئَ قولُ «المدوَّنة»: «والدَّجاجُ والأَوِزُّ الـمُخَلَّاةُ وغيرُها»، فقسَّم تقسيمًا حَسَنًا، وتكلَّم على المياه كلامًا حَسَنًا، وذكر أقوالَ العلماء، ولمّا فرغَ كأنه أُعجِبَ بنفسه! فقال: انظرْ، هل يُقال: الدَّجَاجُ، أو الجَدَادُ أفصَحُ؟ لأنها لغةُ القرآن! قال تعالى: (جُدَدُ بَيْضٍ وحُمُرٌ)!! فضَحِكَ أهلُ المجلسِ وهُم يَنِيفُونَ على أزيدَ من أربع مئةِ فقيهٍ، فيهم مئةُ مُتَعَمِّمٍ، وطارتْ سَقْطَتُه في البلاد!»(٢).

---

(١) **انظر**: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: لابن مفلح (٢/ ٩ - ١٠).

(٢) **انظر**: نيل الابتهاج بتطريز الديباج: للتنبكتي (ص/ ٢٦٩).

وصوابُ الآية كما هو معلومٌ: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [فاطر:٢٧].

فائدةٌ: قال الحريريُّ: «يقولونَ للمُتشبِّع بما ليسَ عندَه: مُطَرْمِذٌ، وَبَعْضُهمْ يقولُ: طِرْمَذَارٌ، كما قال بعضُ الـمُحْدَثين:

لَيْسَ للحاجاتِ إلَّا	مَنْ لَهُ وَجْهٌ وَقَاحُ
ولِسانٌ طِرْمَذَارٌ	وغُدُوٌّ ورَوَاحُ
إنْ تكنْ أَبْطَأتِ الْحَا	جةُ عنِّي والسَّراحُ

=

وقال برهانُ الدين الأبناسيُّ (ت ٨٠٢ هـ): «وممّا وقع في زماننا لبعض من دَرَّسَ في الحديث ولم يكنْ له به إلمامٌ، أنه عَجَزَ في الكشف عن معرفة أبي الزِّناد، فلم يهتدِ إلى معرفةِ اسمِهِ! مع أنه معروفٌ عند أصاغر الطَّلَبَة، واسمُه: عبدُ الله بنُ ذَكْوَان»[(١)].

ثم إنَّ ضَرَرَ الداخلِ في غير فنِّه عظيمٌ؛ فإنه لن يزيد ذلك الفنَّ الذي هَجَمَ عليه[(٢)] إلّا ظلامًا وأوهامًا، فيكون كما قيل: «يَبني قَصْرًا، ويَهدِمُ مِصْرًا!»[(٣)].

فعَلَيَّ السَّعْيُ فِيهَا وعَلى الله النَّجاحُ

وَالصَّوَابُ فيه: طِرْمَاذٌ على مَا حَكَاهُ أَبُو عمر الزَّاهِد فِي كتابِ «اليواقيت»، وَأنْشد عليهِ لبَعضِ الرُّجَّاز:

سلَّمتُ في يومي على مُعَاذِ سَلامَ طِرْمَاذٍ على طِرْمَاذِ»

دُرّة الغوّاص في أوهام الخوَاصّ (ص/ ١٦٢).

(١) الشَّذا الفيّاح من علوم ابن الصلاح (٢/ ٦٠٢).

(٢) قال ابنُ الجزريّ: «لا ينبغي لمن وهبه اللهُ عقلًا وذِهنًا وعِلمًا أنْ يَهْجُمَ على كلِّ ما وقع، ولكنْ يَنظرُ كما نظر مَن قبلَه فالحقُّ أحقُّ أن يُتّبَع». منجد المقرئين ومرشد الطالبين (ص/ ٤٦).

(٣) قال ابنُ بدران: «المدَّعُون للعلم يفهمون من العبارة مَعنىً معكوسًا، ثمّ يُجادِلون به!

ولقد كنتُ في بدْء أمري أقرأُ كتابَ «دليل الطالب» على بعضِ مَن يدّعي التدريسَ، فمرَرْنا بمسألة: (عدم نقضِ الوضوءِ بمسِّ الفرجِ البائن)، فقلنا له: ما هو الفرجُ البائنُ؟ فقال: هو ما بين أصْل الذَّكَرِ وحَلْقة الدُّبُر!! ولم يعلَمْ أنه المقطوعُ!

وكان بعضُ أترابي يقرأ عليه في (باب العِتْق)، فقال: ما معنى الـمُدَبَّر يا سيِّدي؟ فقال له الشيخُ: هو مَنْ سَيِّدُه وَطِئَه في دُبُرِه!! ومع هذا فقد كان مُصَدَّرًا للإفتاء في بلده!!

وأيضًا: حضرتُ في ابتداء شرح «الإقناع» على رجل كان يُشارُ إليه بالبَنَان في مذهبِ أحمدَ، وكان ولدُه يَقرأُ معنا، فكانت المسألةُ تأتي؛ فيخترعُ ولدُه قاعدةً عاميّةً، ويحاول أن يبني

ولهذا نجدُ بعضًا من كتب شُروح الحديث والتفسير والفقه - خصوصًا الحواشيَ منها - مليئةً بمثل هذه الأقوال والتُّرَّهات التي جاءتْ من غير مُتخصِّصٍ في ذلك الفنّ؛ فازدادتْ بذلك الأوراق، وكَثُرتْ بسببها الأوْهاق!

ويا ليتَ هؤلاء الأدعياء فعلوا كفِعْل ذلك الثعلب - فيما يُحكَى - إذْ دخل بُستانَ كَرْمٍ فرأى عُنْقُودًا مُتدلِّيًا يكادُ يتمزَّقُ لكثرة مائِه ورُوَائِهِ، فحاولَ أن يَصِلَ للعنقود مرَّةً بعدَ مرّة، وكَرَّةً تِلْوَ كَرَّة، فلم يَقْدِرْ، فلمَّا كَلَّ ومَلَّ، وما وصلَ إلى ما أمَّلْ، نظر إلى العُنْقُود، وقال: الحمدُ لله الذي لم يجعلْ لنا في الحرام نَصِيبًا!!

لقَبُّوهُ بحَامِضٍ وهْوَ حُلْوٌ   مِثلَ مَنْ لم يَصِلْ إلى العُنقُودِ!

رابعًا: توقُّف الإنسانِ عن البحثِ والطَّلَبِ عندَ مرحلةٍ من العلم وانقطاعُهُ دُونَها:

إنَّ العالِم لا بُدَّ أنْ يكون متحلِّيًا بالصبر والجَلَد؛ وإلا فإنه سوف ينقطعُ في أثناء الطريق؛ وذلك بأنْ يُصيبه اليأسُ؛ لأنه لم يصلْ إلى نتيجةٍ؛ فيُؤدِّي به

= المسألةَ عليها! فيسلِّمُها له والدُه، ويَصْعُبُ عليه تطبيقُ المسألة عليها، فيَكْثُرُ الشَّغْبُ والجِدالُ بينهما، وكلاهما لا خِبْرةَ له بفنِّ الأُصول! فأقول للشيخ: لينظرْ مولانا أولًا في القاعدة: هل هي من الأصول، أم هي مأخوذةٌ عن عجائزِ أهله؟ ويُريحنا من هذا العناء!
ومثلُ هذا؛ هو الذي ألجأنا إلى اشتراط فهم المسألة فهمًا صحيحًا، وأن يكون له بعضُ الإلمام بأصول مذهبه، وأن يكون مُطَّلِعًا على ما يحتاج إليه من مفردات اللغة، حتى لا يفسِّر المُدبَّر بما يُفسِّره الشيخُ السابقُ، فيُفتي بأنّ السيّد إذا لاط بعبده عَتَقَ بعد موته!».
العقود الياقوتيَّة في جِيْد الأسئلة الكويتيَّة (ص/ ١٣٥ - ١٣٦).

ذلك إلى الإحباط، بل رُبما إلى كراهيةِ العلمِ نفسِهِ! لأنّ طلبَ العلم ونُشْدانَ التفوّق فيه ليس عملًا سهلًا، بل هو شَاقٌّ مُضْنٍ[(١)].

وغالبًا ما يكون ذلك بسبب عدم إحسان اختيار الفنّ المناسب، أو لعدم انضباط البرنامج، أو لأنّ خُطَّة العمل فيه غيرُ مُحْكَمِة:

سَوفَ تَرَى إذا انْجَلَى الغُبارُ ... أَفَرَسٌ تحتَكَ أمْ حِمَارُ؟!

وربّما كان العيبُ في الشخصِ نفسِهِ؛ إذا لم يَتَحَلَّ بالصبرِ والتحمُّلِ الذي

---

(١) ولذا قال بديعُ الزمان الهمذانيُّ في رسالةٍ بعثها لبعض قُضاةِ زمانه يصف فيها العِلمَ: «العِلمُ - أطال اللهُ بقاءَ القاضي - شيءٌ كما تَعرِفُه، بعيدُ المَرام، لا يُصادُ بالسّهام، ولا يُقسمُ بالأزلام؛ ولا يُرى في المنام، ولا يُضبطُ باللِّجام، ولا يُورَثُ عن الأعمام، ولا يُكتبُ للّئام، وزرعٌ لا يَزكو حتى يُصادِفَ من الحزم ثَرىً طيّبًا، ومن التوفيق مَطرًا صيّبًا؛ ومن الطبع جَوًّا صافيًا، ومن الجُهْد رُوحًا دائمًا، ومن الصبر سَقْيًا نافعًا.
والعلمُ عِلْقٌ لا يُباعُ ممّن زاد، وصيدٌ لا يَألفُ الأوغاد، وشيءٌ لا يُدرَكُ إلّا بنزعِ الرُّوح، وعونِ الملائكةِ والرُّوح، وغَرَضٌ لا يُصابُ إلا بافتراشِ المَدَر، واتِّساد الحَجَر، ورَدِّ الضَّجَر، وركوبِ الخَطَر، وإدمانِ السَّهَر، واصطحابِ السَّفَر، وكثرةِ النَّظَر، وإعمالِ الفِكَر.
ثم هو مُعْتاصٌ إلّا على مَنْ زَكَا زَرْعُه، وخَلا ذَرْعُه، وكَرُمَ أصلُه وفَرعُه، ووعى بصرُه وسمعُه، وصفا ذِهنُه وطَبعُه، فكيف ينالُه من أنفق صِباه على الفحشاء؛ وشبابَه على الأحشاء، وشغل نهارَه بالجَمْع، وليلَه بالجِماع، وقطع سَلْوتَه بالغِنى، وخَلْوتَه بالغِناء، وأفرغ جِدَّه على الكِيس، وهَزْلَه في الكأْس؟!
والعلمُ ثَمَرٌ لا يَصلُحُ إلا للغَرْس، ولا يُغرَسُ إلا في النفْس، وصيدٌ لا يقَعُ إلا في النَّدْر، ولا يَنشَبُ إلّا في الصَّدْر، وطائرٌ لا يَخدَعُهُ إلّا قَنَصُ اللفظ، ولا يَعلَقُه إلّا شَرَكُ الحِفظ، وبحرٌ لا يخوضُه الملّاحُ، ولا تُطيقُه الألواحُ، ولا تُهيجُه الرِّياحُ، وجبلٌ لا يُتَسَنَّمُ إلا بخُطَا الفِكْر، وسماءٌ لا يُصعَدُ إلا بمعراج الفهْم، ونجمٌ لا يُلمَسُ إلّا بيَدِ المجْد!». زهر الآداب وثمر الألباب: للحصْري (٣/ ٧٧٣).

هو شرطٌ أساسٌ من شُروط الإبداع كما سَلَفَ. **ولذا قيل:**

عِنـدَ الرِّهـانِ يُعـرَفُ المِضْمَـارُ ويُعـرَفُ السَّـابِقُ والخَـوَّارُ!

ولقد ضَرَبَ علماؤُنا السالِفون أروعَ الأمثلة في الصبر على مشاقِّ الطَّلَب وشدائِدِ التحصيل؛ فكان بعضُهم يُكرِّرُ الحديثَ الواحدَ؛ ليحفظَه، خمسَ مئةِ مرَّةٍ! وبعضُهم كان يُكرِّرُ المسألةَ الواحدةَ من مسائل العلم ألفَ مرّةٍ! ومنهم مَن كرَّرَ بعضَ الكتب المهمّة قراءةً وإقْراءً مئاتِ المرّات! وبعضُهم قرأَ عشراتِ الآلافِ من الكتب وهو ما زال بعدُ شابًّا! وبعضُهم ما كان يُسافرُ إلّا ومعه أحْمالٌ من الكتب، كلّما نزل منزلًا أخرجها وقرأَ فيها! وبعضُهم ما كان ينامُ إلّا والكتابُ على صدره مدّةَ أربعينَ سنةً! أمّا قراءةُ الكتب المطوّلَة في مجالسَ معدودةٍ فكثيرٌ جِدًّا! وقد سبق أن ذكرت شواهدَ لبعض ذلك[(١)].

وذُكِرَ أنّ الأَخَوَانِ (رَايْتْ) مُخْترعا الطائرَة، جَرَّبا أكثرَ من ألفِ تجربةٍ حتى توصَّلا للتحليقِ بها![(٢)].

---

(١) **وانظر:** كتاب «صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل» للشيخ عبدالفتاح أبو غدة؛ فإنه من أجمع وأمتع الكتب التي أُلِّفتْ في هذا الباب.

(٢) **انظر:** المئة الأوائل لمايكل هارتْ (ص/ ١٠١).

وجاء في الموسوعة العربية العالمية (١٥/ ٤١٨): شُغف الشابّان الأمريكيّان، أورفيل وويلبر رايتْ بالطيران خلال التسعينيّات من القرن التاسع عشر الميلادي، بجانب إدارتهما ورشة لتصنيع الدرَّاجات، تقع في بلدة دايتون بولاية أوهايو الأمريكية.

قرأ الأخوانِ الكتبَ التي عثرا عليها والتي تتحدث عن الطيران. وبدآ عام (١٨٩٩م) في بناء طائرتهما الشراعيّة. وفي العام التالي مباشرةً شَرَعَا بالقيام بطلْعاتٍ جويةٍ لهذه الطائرات قُرْبَ (كيتي هوك) بولاية كارولينا الشمالية، وهي منطقةٌ تتّصفُ بسكون الريح وكثرة =

وجاء أنّ (أديسون) جَرَّبَ عشرةَ آلافِ تجربةٍ قبل أنْ يصِل إلى التجربة الصحيحة التي أنارتْ له المِصباحَ الكهربائيَّ!!

وفي اختراعه بطَّاريَّةَ السيارة استغرقَ العملُ منه عشرَ سنواتٍ كاملةٍ، وجَرَّبَ خمسينَ ألْفَ تجربةٍ!! وتكلّف ثلاثةَ ملايينِ دولارٍ!! حتى وصل في النهاية إلى اختراعِها.

فلم يكن الفَشَلُ لِيُوهِنَ عزيمةَ أديسون عن مواصلة البحث؛ فعندما فشلتْ عشرةُ آلافِ تجربةٍ - قام بها على مركم (البطّارية) - في إعطاء النتائج المرجوَّة، حاول أحدُ أصدقائه أن يُواسيَهُ ، فقال له أديسون: لماذا؟ أنا لم أفشلْ! لقد اكتشفتُ عشرةَ آلافِ طريقةٍ لا تؤدِّي إلى الهدف المطلوب!!

فصدَقَ عليه قولُ ابنِ خَفَاجَةَ:

لستُ أُحِبُّ الجُمُودَ في رَجلٍ تحسَبُه من جُمُودِه وَثَنَا!

وكان يعملُ ما بين ١٨ إلى ٢٠ ساعة في اليوم! ولهذا لمَّا سُئِل متى

=

الكُثبان الرملية. وبعد كثيرٍ من المحاولات، تمكّنا من تنفيذ نظامٍ يكفلُ التحكّمَ في قيادة الطائرة أثناء الطيران.

وفي عام (١٩٠٣م)، قام الأخوانِ رايتْ ببناء أول طائرةٍ لهما، وأطلقا عليها اسم (فلاير). وزُوّدت الطائرةُ بجناحٍ مزدوجٍ، ومحرِّكِ احتراقٍ داخليٍّ قدرتُه (١٢) حصانًا (أي ما يعادل ٩ كيلو واط)......

طائرةُ الأخوين رايتْ التي قاما ببنائها وقيادتها عام (١٩٠٣م)، اعتُبرتْ الطائرةَ الناجحةَ الأولى في العالم.

ستأخُذُ إجازةً؟ قال: إنَّ العِلْمَ لا يأخُذُ إجازةً على الإطلاق![(١)].

ورُبَّما أغرى الإنسانَ بريقُ المنَاصِب والألقاب، فتوقّفَ عندَها؛ ظنًّا منه أنه قد وَصَلَ! فيترُكُ حِينذاكَ الجِدَّ والطَّلَبَ والبحثَ! مع أنَّ هذه الألقابَ ليستْ دليلًا على التأَهُّل، فقد يُصبِحُ الإنسانُ (دُكتورًا) وهو ما زال بعدُ في بداية الطريق![(٢)].

وَقَدْ يَجْهلُ الإِنْسَانُ وَهْوَ «مُدَكْتَرٌ»	فلاَ تَجعَلِ الأَلْقَابَ مِيزَانَ عَالِمِ!

وهذا هو الأصلُ في هذه الشهادة؛ فإن شهادةَ (الدكتوراه) إنّما تُمنَحُ للشخص لا لأنه وصَلَ، ولكنْ لأنه أصبح قادرًا على مواصلة البحث بمُفردِه![(٣)].

---

(١) انظر: الموسوعة العربية العالمية (١/ ٤٢٤)، وأديسون الذي أضاء العالَم (ص/ ١١٧ و١٢٠) سلسلة الناجحون.

(٢) في بعض دول الغرب تُمنح درجةُ الدكتوراه للمُبدِعين حتى وإن صَغُرَ سِنُّهُم، فالمستشرقُ الألماني (بول كراوس) مثلًا حصل على الدكتوراه وعمره (٢٣) سنةً فقط! انظر: موسوعة المستشرقين: لعبد الرحمن بدوي (ص/ ٣٢٥).

(٣) هذا هو مفهوم هذه الشهادة في الدول المتقدِّمة، أما في الدول المتأخِّرة، فالأمرُ بخلاف ذلك، فقد بلغني عن بعض مَنْ نال هذه الدرجةَ أنه لما نُوقِشَ أُطروحتَه باع مكتبتَه!!

وقد قلتُ في هذا المعنى:

ومـا كـلُّ (دُكْتُورٍ) بَصِيرٌ بفَنِّهِ!	ولا كُلُّ (أُستاذٍ) جَديرٌ بأنْ يَدرِي!
ولـيسَ لِزامًا أنْ يكونَ مُبَرِّزًا	فتًى أحْرزَ الألقابَ أو صَالَ في النَّشْرِ
فكَمْ جَامِعٍ كُتُبًا وليسَ بِعَالِمٍ	وكَمْ نَاقِلٍ فِكْرًا وليسَ بِذِي فِكْرِ!

والعلمُ والإبداعُ لا يُقاس بالشهادات والألقاب، فكثيرٌ من أعلام العصر فضلًا عن المتقدّمين، ما عَرَفُوا هذه الألقابَ، ولا طلبوها، ومعَ ذا فقد مَلَؤُا الدنيا علمًا وإبداعًا.

خامسًا: النَّقدُ السَّلْبيُّ الـمُدَمِّرُ:

النَّقْدُ قِسْمان:

١- **نَقْدٌ إِيجابِيٌّ**، هَدَفُه بيانُ الأخطاءِ والتنبيهُ عليها؛ لِتَلافِيها، وليس الوَقيعَةَ في الأعراضِ وتحطيمِ الأشخاصِ والمواهبِ؛ وهو عَزِيزٌ في هذا العَصْر!

٢- **نَقْدٌ سَلْبِيٌّ**، هَدَفُه التَّشْنيعُ والتَّقْريعُ والتَّشْهيرُ؛ وهو الذي يُبلِّدُ الإحساسَ، ويَمسَخُ المواهبَ، ويُعطِّلُ القُدُراتِ، ويَقتُلُ الطُّموحَ والإبداعَ في المبدِع، ويُصيِّرُ الموهُوبَ خائفًا يَترقَّبُ، أكبرُ همّه كيف يَنجُو؟! هذا إنْ نَجَا!

فتراهُ لا يَكتبُ ولا يَتكلَّمُ ولا يُناقشُ ولا يُراجعُ؛ خوفًا من النَّقد الجائر؛ لأنّ الألسُنَ والأقلامَ له بالمِرْصاد! وما خارَتِ النفوسُ، ولا ضَمَرَتِ العقولُ، ولا ماتتِ الهِممِ؛ إلا بمثل هذا النَّقد! ويقفُ وراء هذا النَّقد غالبًا الحسدُ والأنانيَّةُ!

قال الدُّورِيُّ: «حدّثنا الكِسائيُّ، قال: كنتُ أقرأُ على حمزةَ، فجاء سُلَيمٌ فتلَكّأْتُ، فقال حمزةُ: تهابُ سُلَيمًا ولا تهابُني! فقلتُ: يا أُستاذُ! أنتَ إنْ أخطأتُ قوَّمْتَني، وهذا إنْ أخطأتُ عَيَّرني!»[(١)].

---

(١) معرفة القراء الكِبار (١/ ١٣٩)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (٩/ ٣٧٦)، ومسالك الأبصار: للقرشي (٥/ ٢٣٥).

=

ولقد أحسنَ مَنْ قال[1]:

قَـد تُفْسِـدُ البِيئَـةُ الرَّعْنَـاءُ أَدْمِغَـةً ... بِهَـا تَغَنَّـى لِسَـانُ الـدَّهرِ مُفْتَخِـرَا

إِذا حَكَمْتَ على الحُرِّ الكَريمِ بِأَنْ ... يَعِـيشَ بـين لِئَـامٍ عَـاشَ مُنْتَحِـرَا!

سادسًا: المصائبُ والشواغلُ التي تَحُلُّ بالنفس أو الذِّهن؛ فتُعطِّلُهما:

مِنَ المعلوم أنَّ النفسَ والذهنَ هما آلةُ الإبداع، فإذا ما اشتغلتْ نفسُ المبدع بمصيبةٍ تَنزلُ به، أو تَحلُّ قريبًا من داره، تَولَّد عنده هَمٌّ وغَمٌّ وضِيقٌ، وربما أصابتْهُ آفةٌ في ذِهنه، وكل ذلك عائقٌ عن الإبداع.

إنَّ العاملَ الأقوى في الإبداع هو استجماعُ الفِكر، وتركيزُ الذِّهن، مما قد يتلاشى تحتَ وطأة الألم، ومَطارِق الكُرَب، وكثيرًا ما يُصابُ الإنسانُ بذُهولٍ، أو اختلاطٍ، وربما يُتوفَّى، نتيجةَ خبرٍ مؤلمٍ، أو حادثٍ مُروِّعٍ.

قال ابنُ حزمٍ: «إنْ أُعْجِبْتَ بِعلْمِك، فاعْلَم أنه لا خَصْلةَ لك فيه، وأنه مَوهبةٌ من الله مجرَّدةٌ وهبَك إياها ربُك تعالى؛ فلا تُقابِلْها بما يُسخِطُه؛ فلعلَّه يُنسيك ذلك بعلَّةٍ يمتحنُك بها، تُولِّدُ عليك نسيانَ ما علِمتَ وحَفِظتَ!

ولقد أُخبِرْتُ عن عبدالملك بن طَريف ـ وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال الأحوال وصحَّة البحث ـ أنه كان ذا حَظٍّ من الحفظ عظيم، لا يكادُ يمُرُّ على سمعه شيءٌ يحتاج إلى استعادته، وأنه ركب البحرَ، فمرَّ به فيه هولٌ

=

- وقد تقدّم معنا قولُ الدكتور أحمد زُويل: «الغَرْبُ ليسوا عباقرةً ونحنُ لسنا أغبياءَ، هُمْ فقط يَدعمون الفاشلَ حتى يَنجحَ، ونحنُ نحاربُ الناجحَ حتى يَفشلَ!!!».

(١) رباعيات مختارة: لإلياس قنصل (ص/ ١٨).

شديدٌ أنساه ما كان يَحفظُ، وأخلَّ بقوة حفظه إخلالًا شديدًا لم يُعاوِدْه ذلك الذَّكاءُ بعدُ!

وأنا أصابتْني عِلَّةٌ، فأفقتُ منها وقد ذهب ما كنتُ أحفظُ إلا ما لا قَدْرَ له، فما عاودتُّهُ إلا بعد أعوامٍ!»[١].

سابعًا: عدمُ إتقانِ العَمَلِ:

هذا من أكبر العوائق للوصول إلى الإبداع، والنبيُّ ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[٢].

فلا بدَّ لمن رامَ الإبداعَ أن يُقبِلَ بتجرُّدٍ على برنامجه، وأن يبذلَ غايةَ وُسْعِه لإتقان ما هو بصدَدِه؛ وفي هذا المعنى يقول أحمدُ شوقي[٣]:

اطْلُبِ العِلْمَ لِذَاتِ العِلْمِ لَا لِظُهُورٍ باطلٍ بَينَ المَلَا

ثامنًا: اضطرابُ المنهجِ:

وقد تحدَّثنا عنه فيما مضى؛ فلا نعيدُ[٤].

---

(١) مداواة النفوس «ضمن رسائل ابن حزم الأندلسي» (١/ ٣٨٨).

قلتُ: لعل هذه العلَّة هي ضَرْبُ الطُّحال، كما ذكروا في ترجمته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) الحديث أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٣٤٩) وغيره.

وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١١١٣).

(٣) الشوقيّات (٢/ ٧٠٤).

(٤) انظر: أوّلَ مقوِّمات الإبداع العلمي.




أيَا شَبابَ البِلادِ هُبُّوا ... إِلى سماءِ العُلَا أُسُودَا

لا يُدرِكُ المجدَ غَيرُ عَزْمٍ ... مُثابِرٍ يَقرَعُ الحدِيدَا

لا تَرْسُمُوا للطُّمُوحِ حَدًّا ... فالمجْدُ لا يَعْرفُ الحُدودَا

العِلمُ أمْضَى مِن المواضِي ... فجَرِّدُوا نحوَه الجُهُودَا

علي الجارم






الفصلُ التَّاسِعُ

الإبداعُ وعلاقتُه بالدِّين



الفصلُ التَّاسِعُ
الإبداعُ وعلاقتُه بالدِّينِ

الإبداعُ العلميُّ -بشِقّيْهِ المعنويِّ والماديِّ- ليس نِدًّا للدين، ولا ضِدًّا له! بل العكسُ هو الصحيحُ؛ فإنَّ الدِّينَ يَحُضُّ على الإتقان في العمل والإبداع فيه؛ فقد جاءتْ نصوصٌ كثيرةٌ في الكتاب والسُّنَّة تَحثُّ الإنسانَ على التأمُّل والتفكُّرِ، والنظَر والتدبُّر[١]، وعلى إحسان العمل وإتقانه[٢].

بيْد أنَّ الدينَ يَضْبِطُ عمليةَ الإبداع وما يَنتُج عنها بما تتمحَّضُ فيه المصلحةُ، أو تكونُ هي الغالبةُ؛ فلا يأذنُ الدينُ بعملٍ يؤدِّي إلى الإضرارِ بالنفسِ، أو الإضرارِ بالغيرِ[٣].

ولقد حاول أعداءُ الدين من العَلْمانيِّين وأضْرابِهم – الذين يُنادون بفصل الدولة عن الملّة، والدِّين عن الحياة – أنْ يُحدِثُوا فَجْوةً بين الدين وبين الإبداعِ العلميِّ، لاسيما في المجالاتِ الماديةِ؛ ليُمَوِّهُوا على الناس أنّ الدينَ عدوٌّ للإبداع والتقدُّم![٤]، فتَنبُذُ البشريةُ حينئذٍ دينَ اللهِ الحقَّ وراءَها ظِهْرِيًا

---

(١) انظر كتاب «التفكير فريضة إسلامية» لعباس محمود العقّاد فقد أتى فيه على ذكر طائفةٍ كبيرةٍ من تلك النصوص.

(٢) تقدَّم بيانُ ذلك في الفصل السابق.

(٣) سيأتي توضيحُ ذلك في (الفصل العاشر).

(٤) كما فعلتْ الكنيسةُ مع العلم والعلماء في أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي فما بعدُ! =

=

فقد جاء في «الموسوعة الميسَّرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة» (٢/ ٦٠٤):
«ما إنْ ظهرتْ في أوروبا بوادرُ النهضة العلمية المتأثرة بحضارة المسلمين في الأندلس بعد ترجمة العلوم الإسلامية واليونانية إلى اللاتينية، وبرز عددٌ من العلماء الذين بيّنوا بطلانَ آراء الكنيسة العِلْمية وبخاصة في الجغرافيا والفلك، حتى تصدَّتْ لهم الكنيسةُ...... واستَخدمتْ ضدَّهم الرقابةَ على الكتب والمطبوعات لئلا يُذيعوا آراءً مُخالفةً للعقيدة الكاثوليكية، وتوسّعوا في تشكيل محاكم التفتيش ضدَّهم، وقد حكمتْ تلك المحاكمُ في الفترة من (١٤٨١- ١٤٩٩م) على تسعينَ ألفًا وثلاثةٍ وعشرينَ شخصًا بأحكامٍ مختلفةٍ! كما أصدرتْ قراراتٍ تحرِّمُ قراءةَ كتب: جاليليو، وجيوردا نويرنو، وكوبرنيكوس، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية الأرضية، وتأمرُ بحرْق كتبهم! وقد أَحرقَ بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ثمانيةَ آلاف كتابٍ مخطوطٍ، لمخالفتها آراء الكنيسة!!».
- وقال المنصورفُوري: «لو قارنّا بين موقف الأساقفة من العلوم الجديدة ومعارضتهم لها، وبين موقف المسلمين من العلوم القديمة ونَشْرِها بصدورٍ مفتوحةٍ، ثم استمرارِهم في تأسيسِ العلوم الجديدة ودعمِها وتأييدِها، لتَبيَّن لنا بوضوحٍ أنّ المسلمين فقط هم الذين قاموا بنشر العلوم في العالم منذ البداية، وكان دأبُهم هذا تمسُّكًا بتوجيهات النبيِّ الكريمِ ﷺ، وهكذا صارت أعمالُ أتباعِ محمدٍ ﷺ أيضًا بيانًا لسُنَن هَدْيه وبرهانًا لأُسوته الحسنة، وهذه خاصيَّةٌ تُوجد بكمالها في النبي ﷺ وحدَه.
وإتمامًا لهذا الحديث أذكر بإيجازٍ ضيقَ نظر النصارى في نشر العلوم الحديثة وسعةَ نظر المسلمين في نفس المجال.
أبدى دي رومانس نظريتَه في (قوس قُزَح) قائلًا بأنه انعكاسُ أشعة الشمس في المطر، ومن الخطأ أن نظنه قوسَ حربٍ للربّ أو علامةَ انتقامٍ منه!
بسبب هذه النظرية أُلقيَ القبضُ عليه، وأُرسلَ إلى روما، ولما مات في السجن أُحرقت جثتُه وكتبُه! والأمرُ الذي صدر في إحراق جثته كان يتضمن التصريحَ بأنّ إحراقَه جاء نتيجةَ جهوده أيضًا للمصالحة بين الكنيسة الرومانية والكنيسة البريطانية، فكأنّ الساعي إلى الصلح يستحق هذا المصير في نظرهم!
وحُبس بُرونو طويلًا في عام (١٦٠٠م) ثم أُحرق حيًّا لمجرد قوله في الدنيا: إنها عالَمُ الأسباب......
إنّ كُرويّة الأرض اكتُشفت في عصر الخلافة العباسية، ولكنْ لم يُحرِّك هذا الاكتشافُ
=

وتَصْدِفُ عنه!

ولكنْ هيهاتَ! فإنّ نظرةً عابرةً في سيرةِ رسولِ العِلْمِ ﷺ؛ تَدْحَضُ جميعَ تلكَ التمْوِيهَات، وتنقضُ سائرَ تالِكَ التلْبِيسَات؛ ولله دَرُّ شاعرِ مِصْرَ الكبير محمود غُنيْم حيثُ يقولُ:

البِيْدُ أهدتْ للوُجود مُشرِّعًا ... ما خَطَّ فوق صحيفةٍ بيَراعِ

جادتْ به كصَفاتِها في عَزْمِهِ ... وكشمسِها في الدِّفْء والإشْعاعِ

مِن مكةَ انبعثتْ أشعَّةُ هَدْيِهِ ... فتَغَلْغَلَتْ في سائر الأصْقاعِ

فتحَ القلوبَ محمدٌ بمبادئٍ ... كمُجَاجِ نَحْلٍ، لا لُعَابِ أفَاعِ

ملأ ابنُ آمنةَ الزمانَ حضارةً ... وبنو الزمانِ سوائمٌ بمَرَاعِ

وأجدَّ للتاريخ دينُ محمدٍ ... عصرًا له في العلم أطولُ باعِ

=

ساكنًا في أوساط المسلمين، وحين وصلتْ نفسُ هذه المسألة إلى أوربا قامتْ قيامتُها، وقُتل عشراتٌ من الفلاسفة الذين قالوا بكُرويّة الأرض!!

والتطعيمُ ضدَّ الجُدَري كان معروفًا في القُسطنطينية منذ مدةٍ، وفي عام (١٧٢١م) ذهبتْ به السيدةُ ماري مونتا إلى أوربا، فعارضه الأساقفةُ أشدَّ المعارضة، حتى رُفع طلبٌ إلى الملك بأنْ يَحظر استخدامَه بحكم سلطته الملكية!

ولما عَرَفَ أهلُ أمريكا طريقةَ تخدير المرأة وقتَ الولادة عارضها جميعُ الأساقفة، وقالوا: توفيرُ الراحة للمرأة وقتَ الولادة معارِضةٌ للعنة الله - التي توجد في الباب الثالث من كتاب التكوين - لذاتِ المرأة!!

وقد أحرق الكاردينال اكسيمنس ثمانيةَ آلاف كتابٍ في غرناطة لأنّ محتواها كان يتعارض مع رأي الكنيسة!». رحمة للعالمين (ص/ ٦٤٣ - ٦٤٤). وانظر تاريخ آداب العرب: للرافعي (٣/ ٢١٩) فما بعد.

إلى أن قال:

أبنـــاءَ يَعــرُبَ لا حيـــاةَ لأمـــةٍ ... بالــذكرياتِ، بـل الحيـاةُ مَسَـاعِ
فَثِبُـوا إلـى العَلْيـاءِ وَثْـبَ مُغـامِرٍ ... لا واجِـــبٍ قَلْبًـــا ولا مُرْتَـــاعِ
لا تَطْلُبُـوا بالضَّـعْفِ حَقًّـا ضـائِعًا ... مـا لِلضـعيفِ الحَـوْلِ مـن أشْـيَاعِ!
مَنْ عـالجَ البـابَ العصيَّ فلـم يَلِـنْ ... ليَـديْهِ، حطَّـم جانـبَ المِصْـراعِ
فِـيمَ الجُمـودُ ودِيـنُكم متصـرِّفٌ ... وزمـــانُكم مُـــتغيِّرُ الأوضـــاعِ
ولقـدْ تطـوّرتِ الحيـاةُ، وفُلْكُكُـمْ ... مـــا زالَ يَمْخُـــرُ مـــاءَه بِشِـــراعِ!
تُرْمَـى الحَنِيفَـةُ بـالعُيوبِ، وإنمـا ... عَيــبُ الحَنِيفَــةِ غَفْــوةُ الأتبــاعِ!
اللهُ صـــوَّرَ أرضَـــكُم مِـــن جنّتـــيْ ... عـــدْنٍ، فأبـــدع أيَّمـــا إبـــداعِ!
وحَبـــاكُمُو مِـــن عنـــدِه برســـالةٍ ... قُـدْسٍ وفضْـلٍ في الكتـاب مُـذاعِ[(١)]

ولقد أبدعَ الأستاذُ سيدُ قُطْب رَحِمَهُ اللَّهُ في وصف هؤلاء المجرمين وما يَرُومُونَه مِن وراء هذا الخِدَاعِ والتضليل؛ فقال: «إنّ هناكَ **عصابةً من المُضلِّلين الخادعينَ أعداءِ البشريَّةِ** يضعون لها المنهجَ الإلهيَّ في كِفَّة، والإبداعَ الإنسانيَّ في عالم المادة في الكفة الأخرى، ثم يقولون لها: اختاري!! اختاري: إمّا المنهجَ الإلهيَّ في الحياة والتخلِّي عن كل ما أبدعته يدُ الإنسان في عالم المادة،

---

(١) مختاراتٌ من قصيدته: «لاح الهلال» المنشورة في ديوانه «صرخةٌ في واد». انظر الأعمال الكاملة (١/ ٤١ -٤٢).

وإمّا الأخذَ بثمار المعرفة الإنسانية والتخلِّي عن منهج الله!!! وهذا خِداعٌ لئيمٌ خبيثٌ، فوضْعُ المسألة ليس هكذا أبدًا.

إنّ المنهجَ الإلهيَّ ليس عَدُوًّا للإبداع الإنسانيّ، إنما هو مُنشِئٌ لهذا الإبداع، وموجِّهٌ له الوِجْهةَ الصحيحة؛ ذلك كي ينهضَ الإنسانُ بمقام الخلافة في الأرض، هذا المقامُ الذي منحه اللهُ له، وأقْدَرَهُ عليه، ووَهَبَهُ من الطاقات المكنونة ما يُكافئُ الواجبَ المفروضَ عليه فيه، وسخَّرَ له من القوانين الكونية ما يُعِينُهُ على تحقيقه، ونسّق بين تكوينِهِ وتكوين هذا الكون لِيملِكَ الحياةَ والعملَ والإبداعَ؛ على أنْ يكون الإبداعُ نفسُهُ عبادةً لله، ووسيلةً من وسائلِ شُكْرِهِ على آلائِه العِظامِ، والتقيُّدِ بشرطه في عَقْد الخِلافة؛ وهو أن يعملَ ويتحرَّك في نطاق ما يُرضي اللهَ.

فأمّا أولئك الذين يَضعون المنهجَ الإلهيَّ في كِفّةٍ، والإبداعَ الإنسانيَّ في عالم المادة في الكِفّةِ الأخرى، فهم سَيِّئو النية، شِرِّيرُون، يُطاردون البشريةَ الـمُتعَبَةَ الحائرةَ كلّما تَعبتْ من التِّيه والحَيْرة والضَّلال، وهَمَّتْ أنْ تسمعَ لصوت الحادي الناصح، وأنْ تَؤُوبَ من المتاهة المهلِكَة، وأن تطمئنَّ إلى كَنَف الله.

وهنالك آخرون: لا يَنقصُهم حُسْنُ النيّة، ولكنْ يَنقصُهم الوعيُ الشاملُ، والإدراكُ العميقُ.

هؤلاء يُبهِرُهم ما كشفه الإنسانُ من القُوى والقوانين الطبيعية، وتَرُوعُهُمُ انتصاراتُ الإنسان في عالم المادة؛ فيفصِلُ ذلك البَهْرُ وهذه الروعةُ في شعورِهم بين القُوى الطبيعيةِ، والقِيمِ الإيمانيةِ، وعملِها وأثرِها الواقعيِّ في الكون، وفي واقعِ الحياة ، ويجعلون للقوانين الطبيعة مجالًا، وللقيم الإيمانية

مجالًا آخَرَ! ويحسبون أن القوانينَ الطبيعيةَ تسيرُ في طريقها غيرَ متأثِّرةٍ بالقيم الإيمانية، وتُعطي نتائجَها؛ سواءٌ آمنَ الناسُ أم كفروا، اتَّبعوا منهجَ الله أمْ خالفوا عنه، حَكَموا بشريعة الله أم بأهواء الناس!

هذا وَهَمٌ؛ إنه فَصْلٌ بين نوعيْن من السُّنَن الإلهية هما في حقيقتهما غيرُ مُنفصليْن؛ فهذه القِيَمُ الإيمانيةُ هي بعضُ سُنَن الله في الكون كالقوانين الطبيعية سواءً بسواءٍ، ونتائجُهُما مرتبطةٌ ومتداخلةٌ، ولا مبرِّرَ للفصل بينهما في حسِّ المؤمن وفي تصوُّرِه؛ وهذا هو التصوُّرُ الصحيحُ الذي يُنشئُهُ القرآنُ في النفس حين تعيشُ في ظلال القرآن، إنَّ الإيمانَ بالله، وعبادتَهُ على استقامةٍ، وإقرارَ شريعته في الأرض؛ كلُّها إنفاذٌ لسُنَن الله.

وهي سُنَنٌ ذاتُ فاعليةٍ إيجابيةٍ، نابعةٍ من ذات المنبع الذي تنبثق منه سائرُ السنن الكونية التي نرى آثارَها الواقعيةَ بالحسِّ والاختبار.

ولقد تأخذُنا في بعض الأحيان مظاهرُ خادعةٌ لافتراق السنن الكونية، حين نرى أنّ اتباعَ القوانين الطبيعية يؤدِّي إلى النجاح مع مخالفة القيم الإيمانية، هذا الافتراقُ قد لا تظهر نتائجُه في أول الطريق، ولكنها تظهر حتمًا في نهايته؛ وهذا ما وقع للمجتمعِ الإسلاميِّ نفسِهِ؛ لقد بدأ خطُّ صعودِهِ من نقطة التقاء القوانين الطبيعية في حياته مع القيم الإيمانية، وبدأ خطُّ هبوطِهِ من نقطة افتراقِهِما، وظلَّ يَهبطُ ويَهبطُ كلما انفرجتْ زاويةُ الافتراق حتى وصل إلى الحضيضِ عندما أهمل السننَ الطبيعيةَ والقِيمَ الإيمانيةَ جميعًا.

وفي الطرفِ الآخَرِ تقف الحضارةُ الماديةُ اليومَ؛ تقف كالطائر الذي يَرِفُّ بجناحٍ واحدٍ جبارٍ، بينما جناحُه الآخَرُ مَهِيضٌ، فيرتقي في الإبداع الماديِّ بقدْر

ما يَرْتَكِسُ في المعنى الإنسانيِّ، ويُعاني من القلق والحيرة والأمراض النفسيّة والعصبيّة ما يَصرخُ منه العقلاءُ هناك؛ لولا أنهم لا يهتدون إلى منهج الله، وهو وحدَهُ العلاجُ والدواءُ.

إنَّ شريعةَ الله للناس هي طرفٌ من قانونِه الكليِّ في الكون؛ فإنفاذُ هذه الشريعة لا بدَّ أن يكون له أثرٌ إيجابيٌ في التنسيق بين سيرة الناس وسيرة الكون؛ والشريعةُ إنْ هي إلا ثمرةُ الإيمان لا تقومُ وحدَها بغير أصلها الكبير، فهي موضوعةٌ لتنفَّذَ في مجتمعٍ مسلمٍ، كما أنها موضوعةٌ لتساهِم في بناء المجتمع المسلم، وهي متكاملةٌ مع التصور الإسلامي كلِّه للوجود الكبير وللوجود الإنسانيّ، ومع ما يُنْشِئُهُ هذا التصوُّرُ من تقوى في الضمير، ونظافةٍ في الشعور، وضخامةٍ في الاهتمامات، ورفعةٍ في الخَلْق، واستقامةٍ في السلوك؛ وهكذا يبدو التكاملُ والتناسقُ بين سنن الله كلِّها؛ سواءٌ ما نُسمِّيه القوانينَ الطبيعيةَ، وما نُسمِّيه القِيمَ الإيمانيةَ؛ فكلُّها أطرافٌ من سنة الله الشاملة لهذا الوجود.

والإنسانُ كذلك قوةٌ من قُوى الوجود، وعملُه وإرادتُه، وإيمانُه وصلاحُه، وعبادتُه ونشاطُه، هي كذلك قُوًى ذاتُ آثارٍ إيجابيّةٍ في هذا الوجود؛ وهي مرتبطةٌ بسنة الله الشاملة للوجود؛ وكلُّها تعملُ متناسقةً، وتعطي ثمارَها كاملةً حين تتجمّعُ وتتناسقُ، بينما تَفسُدُ آثارُها وتضطربُ، وتَفْسُدُ الحياةُ معها، وتنتشرُ الشِّقْوةُ بين الناس والتعاسةُ حين تَفترِقُ وتتصادمُ:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال:٥٣].

فالارتباطُ قائمٌ وثيقٌ بين عمل الإنسان وشعوره، وبين مَجَرَيَاتِ الأحداث في نطاق السنة الإلهية الشاملة للجميع.

ولا يُوحِي بتمزيق هذا الارتباطِ، ولا يدعو إلى الإخلالِ بهذا التناسقِ، ولا يَحُولُ بين الناس وسنّة الله الجارية- إلا عدوٌّ للبشريّة يُطاردُها دون الهُدى، وينبغي لها أنْ تُطاردَه وتُقْصِيه من طريقها إلى رَبِّها الكريم»[(١)].

فبانَ بذلكَ أنَّ الإسلامَ دينُ العلم والتقدُّم والحضارة، وأنَّ العيبَ ليس فيه وإنما في بَنِيه! وإلّا فكيفَ نهضَ الرعيلُ الأولُ وفتحوا البلادَ ونشروا العلمَ وحملوا مشاعلَ الحضارةِ إلى أرجاءِ المعمورةِ إلّا بالإسلام؟!

«وهذا القرآنُ جاء ليَفُكَّ العقولَ من عُقُلها، ويُنشِّط الناسَ إلى العمل والفِكْر، فعَكَسَ الناسُ الأمرَ، وأرْخَوْا على العقول حُجُبَها، وحبسوا النفوسَ في أقفاصها، ومات قومٌ شهداءَ الجهالة، قتلى التقليد، صرْعى الأوهام، فلم ينبُغْ نابغون إلّا فيما سطّره المؤلِّفون من المعقَّدات! وأورثه المتقدِّمون من المجادلات! مع أنّ العقولَ مصنوعةٌ صُنعًا إبداعيًّا، مفطورةٌ فِطرةً قويّةً، فكان حقُّها أنْ يُطلَقَ سراحُها، وأن لّا يُكبَحَ جِماحُها، وأن يُطلَقَ لها العَنانُ، فتنظرَ في كلِّ شيءٍ نظرًا يُرضيها، وتُسرِّحَ الطرْفَ فيما يُرقِّيها، فيا أسفا على أممٍ دَرَسَتْ، وعقولٍ غَفَلَتْ، ونفوسٍ هَلَكَتْ، وهم مَسْجونون، اللهمّ إلّا قليلًا

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٦ – ١٨). وقد نقلتُه هنا – رُغْمَ طُوله – لنفاستِه.

وانظر نحو هذا في: «الدلائل القرآنية في أنّ العلوم والأعمال النافعة العصرية داخلة في الدين الإسلامي»: للشيخ السعدي (٣/ ٥٦٦ و ٥٨٩) (ضمن مجموع مؤلفاته).

ممن شرّفهم الله، وأنعم عليهم برضاه»[١].

ولقد فنَّدَ شاعرُ العراق: معروفُ **الرُّصافي** هذه المزاعمَ في قصيدته العصماء **(يقولون)**؛ حيثُ يقولُ فيها:

يقولـونَ في الاسـلامِ ظُلمًـا بأنّـه ... يَصُـدُّ ذَوِيـهِ عـن طَريـقِ التَّقَـدُّمِ

فـإنْ كـانَ ذا حَقًّـا فكَيْـفَ تَقـدَّمتْ ... أوائلُـهُ في عَهْـدِها المتقـدِّمِ؟!

وإنْ كان ذنبُ المسلم اليومَ جَهلُهُ ... فماذا على الإسلامِ مِن جَهْلِ مُسلِمِ؟

هـل العلـمُ في الاسـلامِ إلّا فريضـةٌ ... وهـلْ أُمَّـةٌ سَـادتْ بغيـرِ الـتَّعَلُّمِ؟

لقدْ أيْقَظَ الإسْلامُ للمَجْدِ والعُلَى ... بَصَـائِرَ أقْـوامٍ عـن المجـدِ نُـوَّمِ

فأشْـرقَ نُـورُ العِلْـمِ مِـنْ حُجُراتِـه ... عَلَـى وَجْـهِ عَصْـرٍ بالجهَالَـةِ مُظْلِـمِ

ودَكَّ حُصَـونَ الجاهليَّـةِ بالهُـدَى ... وقَـوَّضَ أطْنَـابَ الضَّـلَالِ الـمُخَيِّمِ

وَأَنْشَـطَ بِـالْعِلْمِ الْعَـزَائِمَ وَابْتَنَـى ... لأَهْلِيْـهِ مَجْـدًا لَـيْسَ بِالْمُتَهَـدِّمِ

وَأَطْلَقَ أَذْهَـانَ الْـوَرَى مِـنْ قُيُودِهَـا ... فَطَـارَتْ بأَفْكَـارٍ عَلَـى الْمَجْـدِ حُـوَّمِ

وَفَـكَّ إِسَـارَ الْقَـوْمِ حَتَّـى تَحَفَّـزُوا ... نُهوضًا إِلى الْعَلْيَاءِ مِنْ كُلِّ مَـجْثَمِ

فَخَلَّـوْا طَرِيقًـا لِلْبَـدَاوَةِ مَجْهَـلًا ... وَسَـارُوا بِـنَهْجٍ لِلْحَضَـارَةِ مُعْلَـمِ

فَـدَوَّتْ بِمُسْـتَنِّ العُلَـى نَهَضَـاتُهُمْ ... كَزَعْـزَعِ رِيـحٍ، أَوْ كَتَيَّـارِ عَـيْلَمِ

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن: لطنطاوي جوهري (٤/ ٤٦).

وَعَمَّا قَلِيلٍ طَبَّقَ الأرضَ حُكْمُهُمْ ... بِأَسْرَعَ مِنْ رَفْعِ الْيَدَيْنِ إلى الْفَمِ

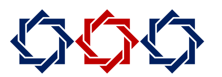
وَقَدْ حَاكَتْ الأَفْكارُ عِنْد اصْطِدَامِهَا ... تَلأْلُؤَ بَرْقِ العَارِضِ المُتَهَزِّمِ

وَلاحَتْ تبَاشِيرُ الحقَائِقِ فَانْجَلَتْ ... بِها عَنْ بَنِيْ الدُّنْيَا شُكُوكُ التَّوَهُّمِ

إلى أنْ قال:

فهلْ مِثلُ هذا الأمرِ يا لِأُولي النُّهَى ... يَكُونُ عِثَارًا في طريق التَّقَدُّمِ؟

وإنْ لّم يَكُنْ هذا إلى المجْدِ سُلَّمًا ... فأيُّ ارْتقاءٍ بَعْدُ أمْ أيُّ سُلَّمِ؟![(١)]



(١) ديوان الرُّصافي (ص/ ٥٣٠).





كانــتْ نِهــايتُهُ بالويــلِ حافِــلَةً فيهـا لمـا مَـرَّ مـن أخـطائهِ ثَمَـنُ

وكـان فيـه ذَكـاءٌ خـارِقٌ طَلَعَـتْ ثِمــارُه نَفَثَــاتٍ قَصْــدُها الفِــتَنُ

ضَلَّ الطريقَ ولَـوْ صَـحَّتْ خَـواطِرُهُ لأحْـرزَ الخيـرَ منهـا الأهـلُ والـوَطَنُ

العَبْقَريَّــةُ مــاءٌ حــينَ تَحْــصُرُهُ تُروَى الحُقُولُ بِهِ، أوْ تُمحَقُ الـمُدُنُ!

إلياس قنصل







الفصلُ العاشِرُ

انْحرافُ الإبْدَاعِ عَنْ مَسَارِهِ الصَّحيْحِ



الفصلُ العاشرُ
انْحرافُ الإبْدَاعِ عَنْ مَسَارِه الصَّحيْحِ

هناكَ أمورٌ قد تسيرُ بالعمل الإبداعيِّ إلى نهايةٍ مُؤْلمةٍ أو غيرِ حَميدةٍ، وهي أمورٌ كثيرةٌ يَجمعُها شيئان: الإضرارُ بالنَّفس، أو الإضرارُ بالغَيْر؛ وأكتفي هنا بضربِ مثالٍ واحدٍ لكلٍ منهما:

* **الإضرارُ بالنَّفس:** وذلك كالإبداعِ في تحصيلِ العلومِ التي يَعودُ ضَرَرُها على النفس؛ كالفَلْسَفَةِ مثلًا؛ لاسيّما الإلهيّةُ منها؛ فإنها لا يُمكِنُ أنْ تُؤدِّيَ إلى علمٍ ولا يقينٍ كما نبّهَ على ذلك شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

وليس المحْذورُ هو دِراستُها لنقدِها وإظهارِ عَوَارِها -لمنْ وَثِقَ مِن نفسِه-، كلَّا؛ وإنما المحْذورُ هو حُبُّها والتعلُّقُ بها، والاقتناعُ بما فيها؛ فإنَّ هذا أمرٌ خطير، ربَّما عادَ على الإنسان بالحيْرة والاضطراب - كما حَصَلَ لجماعةٍ من العلماء تقدّم ذِكْرُ بعضِهم[2] - وربَّما أدَّى به ذلك إلى الكُفْر والشَّكّ! عِياذًا بالله.

---

(١) قال شيخُ الإسلام: «وقد اعترف أكثرُ أئمة أهل الكلام والفلسفة من الأوّلين والآخِرين بأنّ أكثرَ الطرائق التي سلكوها في أمور الربوبية بالأقيسة التي ضربوها لا تُفْضِي بهم إلى العلم واليقين وفي الأمور الإلهيّة، مثل تكلُّمهم بالجِنْس والعَرَض في دلائلهم ومسائلهم.
فأمَّا الأولُ فقد ذكرنا في غير هذا الموضع مقالةَ أساطين الفلسفة من الأوائل أنهم قالوا: العلمُ الإلهيُّ لا سبيل فيه إلى اليقين. وإنما يُتَكَلَّمُ فيه بالأَوْلَى والأحْرَى والأخْلَق! ولهذا اتفق كلُّ مَنْ خَبَرَ مقالةَ هؤلاء المتفلسفة في العلمِ الإلهيِّ أنَّ غالبَه ظُنونٌ كاذبةٌ، وأقيسةٌ فاسدةٌ، وأنَّ الذي فيه من العلمِ الحقِّ قليلٌ». الاستقامة (١/ ٧٩).

(٢) انظر العنصر الخامس من (الفصل السادس).

ولهذا حذَّرنا النبيُّ ﷺ من هذا المسلك؛ فقال: «**تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ اللهِ، وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ ﷻ**»، وفي لفظٍ: «**تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي اللهِ**»[١]. وقد تقدَّمَ الكلامُ على العقلِ ومكانتِهِ الحقيقيَّةِ في الإسلامِ عندَ الكلامِ على أُسُسِ الإبداعِ العلميِّ بما يُغْني عن إعادةِ الكلامِ عليهِ هُنا.

* **الإضْرارُ بالغَيْر**: سواءٌ أكانتِ الأضرارُ مَعنويَّةً أم ماديَّةً:

فالمعنويَّةُ: مثلُ ابتداعِ الأفكارِ المُضِلَّةِ ونشرِها بين الناس، كالشيوعية، والماركسية، والوجودية، ونحوِها.

والماديَّةُ: كاختراعِ أسلحة الدَّمارِ الشاملِ[٢]، التي تأتي على الأخضر واليابس، وتقتُل المُقاتِلَةَ وغيرَ المُقاتِلَة[٣].

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٧/ ١٧١-١٧٢) (٦٣١٥) والبيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٥٨) (١١٩) وغيرهما، والحديث حسنه الألبانيُّ كما في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٩٥) (١٧٨٨).

(٢) **أسلحة الدَّمار الشامل**: تشمل الأسلحةَ الكيميائيةَ، والبيولوجيةَ، والنوويةَ بأنواعِها الثلاثةِ: القنبلة الانشطارية، والاندماجية، والنيترونية.

وهي على نوعين:

النوعُ الأولُ: الأسلحة الاستراتيجية ذات القوة التدميرية الهائلة.

النوعُ الثاني: الأسلحة التكتيكية ذات القوة التدميرية المحدودة.

(٣) هذا من حيثُ الأصلُ، أما من حيثُ الاستخدامُ أو الترهيبُ، ففيه تفصيلٌ؛ ففي بحثٍ مُحكَّمٍ بهذا الخصوص للدكتور/ عبد المجيد بن محمود الصلاحين، خلصَ فيه الباحثُ إلى أنه يمكن للدولة الإسلامية أنْ تُنتجَ وتطوِّرَ النوعَ الأولَ لغرض الرَّدْع والتوازن مع العدوّ؛ انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال:٦٠].

كما يمكن للدولة أن تستخدمَ هذه الأسلحةَ إذا استخدمها العدوُّ، أو غَلَبَ على الظنِّ أنه =

أرسلَ (آيْنِشْتَايْن) صاحبُ نظرية النِّسْبيَّة - وهو ذو عَقْليَّة جبّارة، لكنه استخدم عقلَه في الإضرار بالناس - رسالةً إلى الرئيس الأمريكي (رُوزْفِلْت) في خريف عام (١٩٣٩م) يُبيِّن فيها إمكانيَّةَ صُنْع قُنبُلةٍ مؤثِّرةٍ من عُنْصُر اليُورانْيُوم، وبعدَ سِتِّ سنواتٍ - وبالتحديد في (٦ آب) من سنة (١٩٤٥م) - أُلْقيتْ أولُ قنبُلةٍ من هذا النوع على هِيرُوشِيما اليابانية، ذهب ضحيَّتها ستون ألفًا! وجُرِحَ أكثرُ من مئة ألف شخصٍ! وأصبح مئتا ألفٍ بلا مأوىً![١].



=

يُوشك على استخدامها؛ عملًا بمبدأ المعاملة بالمثل.

وأمّا النوعُ الثاني: فيمكن استخدامُه ضدَّ قواعد العدوِّ وحصونه؛ وذلك لأنّ آثارَها التدميرية لا تتعدَّى إلى غير المحاربين، وبشكلٍ عامٍّ يخضعُ إنتاجُ هذه الأسلحة واستخدامها لمبدأ المصلحة والضرورة وطبيعة الظروف القائمة.

انظر: أسلحة الدمار الشامل وأحكامها في الفقه الإسلامي، مجلة الشريعة والقانون- العدد ٢٣- (١٤٢٦هـ)، الجامعة الأردنية.

(١) عباقرة العلم: لفيليب كين، ترجمة: أديب يوسف (ص/ ٢٩٥).




رَأَيْــتُ الْعِلْــمَ صَــاحِبُهُ شَــرِيفٌ
وَإِنْ وَلَدَتْــهُ آبَــاءٌ لِئَــامُ

وَلَــيْسَ يَــزَالُ يَرْفَعُــهُ إِلَــى أَنْ
يُعَظَّــمَ قَــدْرَهُ الْقَــوْمُ الْكِــرَامُ

وَيَتَّبِعُونَــهُ فِــي كُــلِّ أَمْــرٍ
كَرَاعِــي الضَّــأْنِ تَتْبَعُــهُ السَّــوَامُ

وَيُحْمَــلُ قَوْلُــهُ فِــي كُــلِّ أُفْــقٍ
وَمَــنْ يَــكُ عَالِمًــا فَهُــوَ الْإِمَــامُ

فَلَــوْلَا الْعِلْــمُ مَــا سَــعِدَتْ نُفُــوسٌ
وَلَا عُــرِفَ الْحَــلَالُ وَلَا الْحَــرَامُ

فَبِــالْعِلْمِ النَّجَــاةُ مِــنَ الْمَخَــازِي
وَبِالْجَهْــلِ الْمَذَلَّــةُ وَالرَّغَــامُ

هُــوَ الْهَــادِي الــدَّلِيلُ إِلَــى الْمَعَــالِي
وَمِصْــبَاحٌ يُضِــيءُ بِــهِ الظَّــلَامُ

تُنسب للشافعي






الفصلُ الحادِيْ عَشَر

نُجُومٌ ساطعةٌ في سماء الإبداعِ العلميِّ



الفصلُ الحادِيْ عَشَر
نُجُومٌ ساطعةٌ في سماءِ الإبداعِ العلميِّ

العلماءُ هم نُجومُ الأمّة في مجاهلِ الدنيا، ومصابيحُها في مسارِبِ الحياة، وأنوارُها في مُدلهِمَّات الفِتن.

مَصابيحُ مثلُ نُجومِ السماءِ ... وما رَفَعَ اللهُ لا يُوضَعُ

قال أبو الدرداء: «مَثَلُ العُلماءِ في الأرض مَثَلُ النجومِ في السماء، إذا ظهرتْ ساروا بها، وإذا توارتْ عنهم تاهُوا»[(١)].

وقال أبو مسلمٍ الخَولانيُّ: «مَثَلُ العُلماءِ في الأرض مَثَلُ النجومِ في السماء يهتدون بها، ومَثَلُ الصالحين مَثَلُ الأميال في الأرض؛ ينجو بها السالكُ من الضلالة»[(٢)].

وقال أبو قِلابةَ: «مَثَلُ العُلماءِ في الأرض مَثَلُ النجومِ في السماء، مَنْ تَركَها

---

(١) الجد الحثيث في بيان ما ليس بحديث: للعامري (ص/ ٢٠٢).
وفي المرفوع: «**إنّ مَثَلَ العلماءِ في الأرضِ كمَثَلِ النجوم في السماءِ، يُهتدَى بها في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ؛ فإذا انطمستْ أوشكَ أن تَضِلَّ الهُداةُ**» لكنْ لَا يَثبتُ.
وانظر: أمثال الحديث: للرامهرمزي (ص/ ٨٧)، والمدخل إلى السنن الكبرى: للبيهقي (ص/ ٢٧٤)، وكشف الخفاء: للعجلوني (٢/ ٣٦٩).
(٢) تاريخ دمشق: لابن عساكر (٢٧/ ٢٢٦).

ضَلّ، ومَنْ غابتْ عنه تَحَيَّرَ»[(١)].

وقال سُفيانُ بنُ عُيينة: «إنما العالمُ مثلُ السِّراج، مَنْ جاءَه اقتبسَ مِن عِلْمِه، ولا يَنْقُصُه شيئًا؛ كما لا يَنْقُصُ القابِسُ من نُور السّرَاج شيئًا»[(٢)].

وهؤلاء النجومُ المذكورون هنا هم قُلٌّ مِن كُثْر، ووَشَلٌ من بَحْر، من المبدِعينَ المتميِّزينَ الذين يَحْفِلُ بهم تاريخُنا الإسلاميُّ المجيدُ.

مِثلَ نُجومِ السّماءِ إنْ أفَلَتْ ... منها نُجومٌ بَدَتْ نظائرُها

ولم أُرِدْ استقصاءَهم هنا، وإنما أردتُ أن يَقفَ المهتمُّ بهذا الأمر على طرفٍ من أحوالِ هؤلاء المبدِعينَ وأخبارِهم؛ عَلَّ ذلك يكونُ دافعًا له لِيترسَّمَ سبيلَهم، ويسلكَ طريقَهم، لا سيّما في هذا الوقتِ الذي يعيش فيه كثيرٌ من الشباب المسلم أزْمَةَ تبعيّة، وفقْدانَ هُوِيَّة، بعد أن ضلّتْ بَوْصَلَتُهم عن نجوم الأمّة الحقيقيِّين، إلى أُناسٍ تافهين، يُسمَّوْنَ نُجُومًا وما هُم بنُجوم، وإنّما هم في حقيقة الأمر رُجُوم! ويُنْظَرُ إليهم على أنهم مُبْدِعُون، والإبداعُ بمنأىً عنهم، بل هو عنهم أبعد ما يكون!

وأشدُّ من هذا وأَمَضُّ: مَنْ كان منهم مُصَابًا بعُقْدَةِ النقْصِ؛ فولَّى وجهَهُ شَطْرَ بلاد الكُفْر، يَنظرُ إليها نظرةَ إكبارٍ، ويأخذُ منها كلَّ شيءٍ! خيرَها وشرَّها، حُلْوَها ومُرَّها، ما يُحمدُ منها وما يُعابُ، وما يُحَبُّ منها وما يُكرَهُ!![(٣)].

---

(١) العقد الفريد: لابن عبد ربه (٢/ ٨٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كما قال الدكتور/ طه حسين مِن قَبْلُ!!

وأَشْنَعُ منه مَذْهَبًا: مَنْ رَضِيَ لنفسه القِسْمَةَ الضِّيْزَى؛ فأَخَذَ الثانيةَ دونَ الأولى! ولقد أحسنَ من قال[1]:

حَتَّامَ نَستَعطِي الغَرِيبَ دُرُوسَهُ ... وتُرَاثُنَا أَسمَى الذِي في دَرْسِهِ

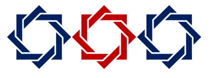
نَخْشَى مَنَاهِلَنا ونَرفُضُ رِفْدَهَا ... مُتهافِتِينَ على ثُمَالَةٍ كَأَسِهِ

إِنَّا طَرَدنَا الأَجنَبِيَّ ولم نَزَلْ ... بِعُقُولنَا وقُلُوبِنَا في حَبْسِهِ

والشَّعْبُ لا يَتَرَكَّزُ استِقْلالُهُ ... حَتَّى يُحَرِّرَ نَفسَهُ مِن نَفْسِهِ!

وأُحِبُّ أنْ أُشيرَ هنا إلى أنَّ بعضَ مَنْ سَيَرِدُ ذِكْرُهم في المبدعين، قد يكون عليه بعضُ المؤاخَذَاتِ في عقيدتِه، أو نَهْجِه ، أو سلوكِه ، لكنّ مَكْمَنَ إبداعه وتفوّقه بمَعْزِلٍ عن تلك المؤخذاتِ التي أُخِذتْ عليه- في الغالب -، ومن هنا فلا ضَيْرَ من ذِكْره في المبدِعين ما دامتْ الجِهَةُ مُنْفَكَّةً.

هذا؛ وقد قُمتُ بترتيب هؤلاء المبدِعين على حسب تواريخ وَفَيَاتِهم؛ واللهُ الموفّقُ.



(١) رباعيّات مختارة: لإلياس قنصل (ص/ ٢٢).



إمامُ العربيّةِ، وأَحَدُ أعلامِ العلماءِ، وعباقرةِ الدُّنيا، وأذكياءِ العَالَمِ.

اخترعَ أمورًا عِدَّةً لم يُسْبَقْ إليها، فمِن ذلك:

* عِلْمُ العَرُوضِ: فقد اتفق العلماءُ قاطبةً على أنه هو الذي ابتدعَ هذا الفنَّ دون سابقِ مِثَالٍ؛ قال حَمزةُ الأَصْبَهانيُّ: «إنَّ دولةَ الإسلامِ لم تُخْرِجْ أبدعَ للعلومِ - التي لم تَكُنْ لها أصولٌ عندَ علماءِ العربِ - من الخليلِ، وليس على ذلك بُرْهانٌ أَوْضَحَ من عِلْمِ العَرُوضِ، الذي لا عن حَكِيمٍ أَخَذَهُ، ولا على مثالٍ تَقدَّمَهُ احتذاه، وإنما اخترعَه من مَمَرٍّ له بالصَّفَّارِين[1] مِن وَقْعِ مِطْرقةٍ على طَسْتٍ[2]، ليس فيهما حُجَّةٌ ولا بيانٌ يؤدِّيان إلى غير حِلْيَتِهما، أو يُفْسِدَانِ عَيْنَ جَوْهَرِهما، فلو كانتْ أيامُهُ قديمةً، ورسومُهُ بعيدةً، لَشَكَّ فيه

(١) أيْ: سُوق الصفَّارين. والصُّفْرُ، بالضمِّ: نوعٌ من النُّحاسِ الذي تُعْمَلُ مِنْهُ الأَوانِي. وصانِعُهُ يُسمّى: الصَّفَّار. انظر: المخصَّص: لابن سيده (٣/ ٢٩٦)، والقاموس المحيط (ص/ ٤٢٥)، وتاج العروس (١٢/ ٣٣٢).

(٢) لا تَسْتَغربْ هذا؛ فإنَّ عِكْرِمةَ مولى ابنِ عباسٍ كان يقول: «إنِّي لَأَخْرُجُ إلى السوق، فأَسْمَعُ الكَلمةَ يَتكلَّمُ بها الرجلُ، فيُفْتَحُ لي بها في العلم خمسون بابًا!!». الطبقات الكبرى: لابن سعد (٢/ ٣٨٥)، وتاريخ دمشق: لابن عساكر (٤١/ ٩٢)، وتاريخ الإسلام: للذهبي (٧/ ١٧٦)، والمحاضرات والمحاورات: للسيوطي (ص/ ٧٠).

بعضُ الأممِ؛ لِصَنْعَتِهِ ما لم يَصنَعْهُ أحدٌ منذُ خَلَقَ اللهُ الدنيا، مِنِ اختراعِهِ العلمَ الذي قَدَّمْتُ ذِكْرَهُ»[١].

وقيل: إنَّ معرفتَهُ بالنَّغَمِ والإيقاع هي التي دلَّتْهُ على هذا العلم[٢].

---

(١) التنبيه على حدوث التصحيف (ص/ ١٢٤).

وجاء في شذرات الذهب (٢/ ٣٢١): «قيل: إن الخليل دعا بمكّة أن يرزقَه الله عِلمًا لم يُسبقْ إليه، وهو في اختراعه بديهةً كاختراع أرسطاطاليس علمَ المنطق».

(٢) قال أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي: «لما صنعَ إسحاقُ بنُ إبراهيم كتابَه في النَّغم واللُّحون عَرَضَه على إبراهيم بن المهدي، فقال له: لقد أحسنتَ يا أبا محمدٍ، وكثيرًا ما تُحسنُ، فقال إسحاقُ: بل أحسنَ الخليلُ لأنه جعلَ السبيلَ إلى الإحسان!

فقال إبراهيمُ: ما أحسنَ هذا الكلامَ، فممَّن أَخَذْتَهُ؟ قال: من ابن مُقْبِل إذْ سمع حمامةً فاهْتاجَ فقال:

ولو قَبْلَ مَبْكاها بكيتُ صبابةً ... إذًا لشَفَيْتُ النفسَ قبلَ التندُّمِ

ولكنْ بَكَتْ قبلي فهاجَ ليَ البُكا ... بُكاها، فقلتُ: الفضلُ للمتقدِّمِ!

المزهر في علوم اللغة وأنواعها (١/ ٦٥).

تنبيه: هناك روايةٌ باطلةٌ تقولُ: إنَّ الذي دفع الخليلَ لاختراع علم العَرُوض هو الحَسَدُ لِسِيبويْهِ؛ لأنَّه اشتَهَرَ بالنحوِ، فأرادَ هو أنْ يَشتَهِرَ بالعَرُوضِ! حتى نظَمَ ذلك بَعْضُهم بقوله:

عِلْمُ الخَليلِ رحمةُ اللهِ عَلَيْه ... سَبَّبَهُ مَيلُ الوَرَى لِسِيبَوَيْه!

فخرَجَ الإمامُ يَسْعَى لِلحَرَمْ ... يسألُ رَبَّ البيتِ من فَيْضِ الكَرَمْ

فزادَهُ عِلْمَ العَرُوضِ فَانْتَشَرْ ... بَيْنَ الوَرَى فَأَقبَلَتْ لَهُ البَشَرْ!

ميزان الذهب: للهاشمي (ص/ ٣).

وهذا كلامٌ غيرُ صحيح، يَرُدُّه واقعُ الخليل نفسِهِ؛ فإنَّه كان قانعًا زاهدًا حتى إنَّه كان يقولُ: «إنِّي أُغْلِقُ البابَ على نَفْسِي، فما يَتَجَاوَزُهُ هَمِّي!».

=

* **عِلْمُ الـمُعْجمِ**: حيثُ أرادَ حَصْرَ الكلماتِ العربيةِ في كتابٍ خاصٍّ على ترتيبٍ لم يُسبَقْ إليه، وهو مَخَارِجُ الحُروفِ حَسَبَ نظام التَّقْلِيبِ؛ فقسَّم الحروفَ إلى مجموعاتٍ، وابتدَأَهَا بالحروفِ الحَلْقيَّة، وابتَدَأَ الحَلْقِيّةَ منها بحرفِ العَيْنِ؛ ولهذا سَمَّى كتابَهُ (العَيْن)، وانتهى بكتابِ الميمِ الذي هو آخرُ الحروفِ الشَّفَوِيَّةِ.

قال حمزةُ الأصبهانيُّ مُعدِّدًا إبداعاتِهِ سوى العَرُوضِ: «ومِنْ تأسيسِهِ: بناءُ كتابِ (العينِ) الذي يَحْصُرُ فيه لغةَ كُلِّ أمةٍ من الأممِ قاطبةً. ثُمَّ مِنْ إمدادِهِ سِيبَوَيْهِ في علمِ النحوِ بما صنَّف كتابَهُ الذي هو زينةٌ لدولةِ الإسلام»[(١)].

وقال أبو الطيِّب عبدُ الواحد بنُ علي اللغويُّ: «أبْدَعَ الخليلُ بَدائعَ لم يُسبقْ إليها، فمِن ذلك تأليفُه كلامَ العرب على الحروف في كتابه المُسمَّى كتابَ (العين)؛ فإنه هو الذي رتَّب أبوابَه، وتوفِّيَ مِن قبل أنْ يَحْشُوَهُ»[(٢)].

* **عِلْمُ الحِسَابِ**: فقد أرادَ تقريبَهُ للعامَّةِ، وأخَذَ على نفسِهِ تسهيلَ هذا العِلْمِ للبُسَطاءِ؛ بحيثُ تَذْهَبُ الجاريةُ إلى البَقَّالِ، فلا يَظْلِمُها مِنْ مَالِها شيئًا!

وكان تفكيرُهُ في هذه المسألةِ سببَ مَوْتِهِ؛ فإنه كان يُفكِّرُ في هذه المسألةِ وهو داخلٌ المسجدَ، فاصطَدَمَ ببعضِ سواري المسجدِ؛ فارتَجَّ مُخُّه، وكان

= **وقال النَّضْرُ بنُ شُمَيلٍ**: «أقام الخليلُ بنُ أحمدَ في خُصٍّ (بيتٌ من شجرٍ أو قَصَبٍ) بالبَصْرةِ، ولا يَقْدِرُ على فَلْسَيْنِ، وتلامذتُهُ يَكْسِبُونَ بعلمِهِ الأموالَ!» ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة (١/ ٣٨٠).

(١) التنبيه على حدوث التصحيف (ص/ ١٢٤).

(٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: للسيوطي (١/ ٦٢).

ذلك سببَ موتِهِ! رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمةً واسعةً[(١)].

- رُوِيَ أنه اجتَمَعَ بابنِ المُقفَّع، فتذاكَرَا ليلةً تامَّةً، فلمَّا افترَقَا، سُئِلَ ابنُ المقفَّع عن الخليلِ، فقال: «رأيتُ رجلًا عقلُهُ أَكْثَرُ من علمِهِ!»[(٢)].

وكان الناسُ يقولون: لم يَكُنْ في العَرَبِ بعدَ الصحابةِ أذكى من الخليلِ بنِ أَحْمَدَ ولا أَجْمَعَ، ولا كان في العَجَمِ أذكى مِنِ ابنِ المقفَّع ولا أجْمَعَ.

ومما يَدُلُّ على فَرْطِ ذكائِهِ: أنه كان عندَ رَجُلٍ دواءٌ لِظُلْمةِ العينِ ينتفعُ به الناسُ، فمات وأَضَرَّ ذلك بِمَنْ كان يستعملُهُ، فقال الخليلُ بنُ أحمدَ: أَلَهُ نسخةٌ معروفةٌ؟ قالوا: لا، قال: فهل له آنيةٌ كان يَعْمَلُ فيها؟ قالوا: نعم، إناءٌ كان يَجْمَعُ فيه الأخلاطَ، فقال: جِيئوني به، فجاؤُوه به، فجعَلَ يَشَمُّهُ، ويُخرِجُ نوعًا نوعًا حتى ذكَرَ خمسةَ عَشَرَ نوعًا، ثم سأَلَ عن جميعِها ومِقْدَارِها، فعرَفَ ذلك ممَّن يُعالِجُ مثلَهُ، فعمِلَهُ وأعطاه الناسَ، فانتفعوا به مثلَ تلك المنفعةِ، ثُمَّ وُجِدَتِ النسخةُ في كتبِ الرَّجُلِ، فوجَدُوا الأخلاطَ ستةَ عشرَ خِلْطًا - كما ذكَرَ الخليلُ- لم يَفُتْهُ منها إلا خِلْطٌ واحدٌ![(٣)].

ومِـمَّا يُروى أيضًا أنَّ مَلِك اليونانِ كتَبَ إلى الخليلِ كتابًا باليونانيةِ - وهو

---

(١) وهو أيضًا أولُ من جمع حروفَ المعجم في بيتٍ واحدٍ فقال:

صِفْ خَلْقَ خَوْدٍ كمِثْلِ الشّمسِ إذْ بَزَغَتْ ... يَحظَى الضّجيعُ بها نَجلاءُ مِعْطارُ

نور القبس المختصر من المقتبس: لليغموري (ص/ ٥٩)، وبغية الوعاة (١/ ٥٥٩)، وشذرات الذهب (٢/ ٣٢٢).

(٢) انظر: إنباه الرواة (١/ ٣٨٠).

(٣) انظر: بغية الوعاة (١/ ٥٥٩).

لا يَعْرِفُها - فخلا بالكتاب شَهْرًا حتى فَهِمَهُ! فقيل له في ذلك، فقال: «إنَّه لا بُدَّ مِنْ أنْ يُفتَحَ الكتابُ بـ«باسمِ الله»، أو ما أشبهه، فبَنَيْتُ أولَ حروفِهِ على ذلك، فاقْتَاسَ لي!»[1].

وقد بلغ في العلم مبلغًا عظيمًا حتى قال خالدُ النجارُ يهجو التوْزي:

يــا مَــنْ يزيــد تمقُّتًــا وتباغُضًــا في كــلّ لحظَــهْ
واللهِ لــو كنــتَ الخليــلَ لمــا رَوينــا عنــكَ لفظَــهْ![2]

ومِنْ غُرَرِ كَلِمِهِ، قولُهُ:

أَبْلِغَــا عَنِّــيَ الْمــنَجِّمَ أَنِّــي كَــافِرٌ بالــذي قَضَــتْهُ الكَوَاكِــبْ
عَــالِمٌ أَنَّ مــا يَكُــونُ ومَــا كَــا نَ قَضَــاءٌ مِــنَ الْمُهَــيْمِنِ وَاجِــبْ[3]

وقال: «ثلاثةٌ تُنسيني المصائبَ: مَرُّ الليالي، والمرأةُ الحَسْناءُ، ومُحَادثاتُ الرِّجال»[4].

وقال: «زَلَّةُ العَالِمِ مضروبٌ بها الطَّبْلُ»[5].

وقال: «لا يَعْرِفُ الرَّجُلُ خَطَأَ مُعَلّمِهِ حتى يُجَالِسَ غَيْرَهُ»[6].

---

(١) انظر: طبقات النحويين واللغويين (ص/ ٥١).
(٢) نور القبس (ص/ ٥٧).
(٣) طبقات الشعراء لابن المعتز (ص/ ٩٨).
(٤) طبقات النحويين واللغويين (ص/ ٥١).
(٥) ربيع الأبرار: للزمخشري (٤/ ٢٨).
(٦) سير أعلام النبلاء (٧/ ٤٣١).

وقال: «تربَّعَ الجهلُ بين الحياء والكِبْر في العلم»[(١)].

وقال: «مَنْ استغنى بما عنده جَهِلَ، ومَنْ ضَمّ إلى عِلمه عِلمَ غيره كان من الموصوفين بنعْت الربَّانيِّين»[(٢)].

وقال: «الرجالُ أربعةٌ: رجلٌ يدري ويدري أنه يدري، فذاك عالمٌ فاتْبَعُوه، ورجلٌ يدري ولا يدري أنه يدري فذاك غافلٌ فنبِّهوه، ورجلٌ لا يدري ويدري أنه لا يدري فذاك جاهلٌ فعلِّموه، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذاك مائِقٌ فاحذروه!»[(٣)].



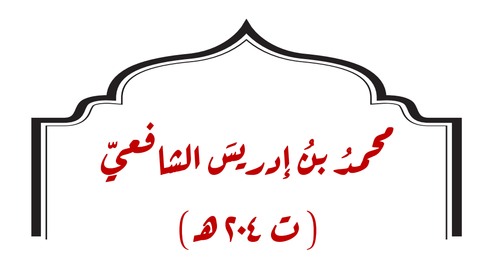
---

(١) طبقات النحويين واللغويين (ص/ ٤٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) معجم الأدباء (٣/ ١٢٦٤).

وانظر المزيدَ عنه في: طبقات الشعراء: لابن المعتز (ص/ ٩٥)، وطبقات النحويين واللغويين (ص/ ٤٩)، ومعجم الأدباء (٣/ ١٢٦٩)، وسير أعلام النبلاء (٧/ ٤٣١)، والوافي بالوفيات: للصفدي (١٣/ ٢٤١).



محمد بن إدريس الشافعيّ
(ت ٢٠٤ هـ)

الإمامُ الجَبَل، والحَبْرُ الـمُجدِّد، كوكبُ العلماءِ اللّامع، ونِبْراسُهُمُ الساطع، ومَنْ يُرْجَعُ إليه في المُشْكِلات، ويُستَصْبَحُ بضوئِهِ في المُعْضلات، أحدُ أذكياءِ الدنيا، وأفذاذِ الدَّهْر[(١)].

جَمَعَ علمًا ما سُبِقَ إليه، وهو **علمُ أصولِ الفقهِ** متمثِّلًا في كتابِهِ (الرِّسالةِ) التي سارتْ مسيرَ الشَّمْس؛ **قال ابنُ خَلدون وغيرُهُ:** الشافعيُّ أولُ من تكلَّمَ في أصولِ الفقهِ[(٢)].

وقال أبو ثَوْرٍ: «كتَبَ عبدُ الرحمنِ بنُ مَهْدِيٍّ إلى الشافعيِّ، وهو شابٌّ، أن يَضَعَ له كتابًا فيه معاني القرآنِ، ويجمعَ قَبُولَ الأخبارِ فيه، وحُجَّةَ الإجماعِ، وبيانَ الناسخِ والمنسوخِ مِنَ القرآنِ والسُّنَّةِ؛ فوضَعَ له كتابَ (الرسالةِ)».

وقد ظهَرَ نُبُوغُه منذ صِغَرِه، فقرَأَ القرآنَ وهو ابنُ سبعِ سنينَ، وحَفِظَ «الموطَّأَ» وهو ابنُ عَشْرٍ! فقَدِمَ على مالكِ بنِ أنسٍ، فقال له: أَحْضِرْ من يقرأُ

---

(١) **انظر ترجمتَه وما ذُكر من أقوال العلماء في:** الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عديّ (١/ ٢٠٦)، والفقيه والمتفقِّه (٢/ ٧٢)، وتاريخ بغداد: للخطيب البغدادي (٢/ ٥٦)، ووفيات الأعيان: لابن خلكان (٤/ ١٦٣)، والوافي بالوفيات: للصفدي (٢/ ١٧١)، والسير: للذهبي (١٠/ ٥)، والبداية والنهاية: لابن كثير (١٠/ ٢٥١).

(٢) **انظر:** مقدمة ابن خلدون (ص/ ٤٩٢).

لك، فقلتُ: أنا قارئٌ، فقرَأ عليه «الموطَّأ» حفظًا، فقال: إنْ يكُ أحدٌ يُفْلِحُ فهذا الغلامُ! وأفتى وهو ابن خَمْسَ عَشْرةَ سنةً، وقيلَ: ابنُ ثمانيَ عَشْرةَ سنةً، أَذِنَ له بذلك شيخُهُ مسلمُ بنُ خالدٍ الزَّنْجيُّ.

قال أبو ثَوْرٍ: «مَنْ قال إنه رأى مثلَ الشافعيِّ في علمِهِ وفصاحتِهِ، ومعرفتِهِ وبيانِهِ وتمكّنِهِ، فقد كَذَبَ!».

وقال محمدُ بنُ عبد الله العُمَريّ: سمعتُ الجاحظَ يقول: «نظرتُ في كُتُب هؤلاء النَّبَغَةِ الذين نبغُوا فلم أرَ أحسنَ تأليفًا من المطّلبي، كأنّ فاه نَظَمَ دُرًّا إلى دُرٍّ!».

وقال يونسُ بنُ عبد الأعلى: «كأنّ ألفاظَ الشافعيِّ كُلَّها سُكَّرٌ!».

وقال الإمامُ أحمدُ: «قد روى أبو هُرَيْرةَ عن النبيِّ ﷺ؛ أنه قال: «يَبْعَثُ اللهُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِئَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»؛ قال: أحمدُ فنَظَرْنا في رأسِ المئةِ الأولى، فإذا هو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، ونظرنا في الثانيةِ، فإذا هو الشافعيُّ».

وقال هارونُ بنُ سعيدٍ الأَيْليُّ: «لو أنَّ الشافعيَّ ناظَرَ على هذا العمودِ الذي هو مِنْ حِجَارةٍ أنه مِنْ خَشَبٍ، لَغَلَبَ؛ لاقتدارِهِ على المناظرةِ».

وكان الزَّعْفَرانيُّ يقول: «كان أصحابُ الحديثِ رُقُودًا، حتى جاء الشافعيُّ، فأيقَظَهم، فتيقَّظُوا!».

وقال ابنُ خَلِّكان[١]: «كان الشافعيُّ كثيرَ المناقبِ، جَمَّ المفاخرِ، مُنْقَطِعَ

---

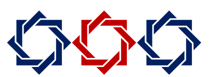
(١) فائدة: أفاد قطبُ الدّين محمد بن أحمد بن محمد النّهرواني الفقيه الحنفي: أنّ لفظَ ابنِ خَلِّكان =

القَرِينِ، اجتَمَعَ فيه من العلومِ بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ الرسولِ ﷺ، وكلامِ الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وآثارِهم، واختلافِ أقاويلِ العلماءِ، وغيرِ ذلك من معرفةِ كلامِ العربِ واللغةِ والعربيةِ والشعرِ - حتى إنَّ الأصمعيَّ مع جَلَالةِ قَدْرِهِ في هذا الشأنِ قَرَأَ عليه أشعارَ الهُذَلِيِّينَ - ما لم يَجْتمِعْ في غيرِهِ».

وقال الشيخُ أحمدُ شاكر: «لو جاز لعالمٍ أن يُقلِّد عالمًا كان أولى الناس عندي أن يُقلَّدَ -: الشافعيُّ.

فإني أعتقدُ - غير غالٍ ولا مُسرفٍ - أن هذا الرجلَ لم يظهرْ مثلُه في علماء الإسلام، في فقهِ الكتاب والسنة، ونُفوذِ النظر فيهما، ودِقّةِ الاستنباط. مع قوّة العارضة، ونور البصيرة، والإبداع في إقامة الحُجَّة، وإفحام مُناظِرِهِ.

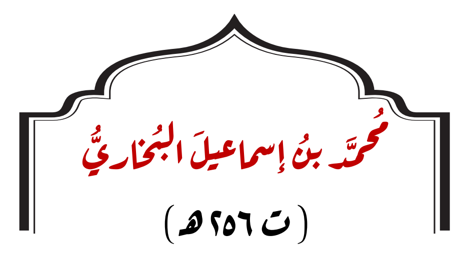
فصيحُ اللسان، ناصعُ البيان، في الذِّروة العُليا من البلاغة. تأدَّب بأدب البادية، وأخذ العلومَ والمعارفَ عن أهل الحَضَر، حتى سما عن كل عالِمٍ قبلَه وبعدَه»[(١)].



=

ضُبط على صورة الفِعلين «خلّ» أمرٌ من التخلية، و«كان» الناقصة. قال: وسببُه أنه كان يُكثرُ قولَ: كان والدي كذا، كان جدّي كذا، كان فلانٌ كذا، فقيل له: (خَلِّ كان) فغَلَبَتْ عليه. انتهى. شذرات الذهب في أخبار من ذهب (١٠/ ٦١٩).

(١) مقدمة الرسالة (ص/ ٥).



بَحْرُ العلمِ الزاخِر، وبَدْرُ العُلَماءِ الزاهِر، أميرُ المؤمنين في الحديثِ، وأُستاذُ الأُستاذِينَ فيه، مُصنِّفُ «الجامعِ الصحيحِ» الذي ما طرَق العالَمَ كتابٌ أفْخَمُ تصنيفًا، ولا أَدَقُّ وَضْعًا، ولا أَلْطَفُ مَأْخذًا منه؛ وهو أصحُّ كتابٍ بعدَ كتابِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

جمَعَ فيه بين الوَحْيَين، وما سبَقَهُ - فيما أعلمُ - إلى ذلك أحدٌ، واستَخْرَجَ منهما دقيقَ المسائل، ولطيفَ النفائس، بما حَيَّرَ الألبابَ، وأَذْهَلَ العقولَ، ولا يُوجَدُ كتابٌ في السُّنةِ اعتنى به العلماءُ كما اعتَنَوْا بهذا الكتابِ، حتى إنَّ بعض المُعاصِرِينَ أَلَّفَ مجلّدًا ضخمًا ذكَرَ فيه الكُتُبَ التي أُلِّفتْ على (الصحيحِ) فقارَبَتْ أربعَ مئةِ كتابٍ![١].

قال البخاريُّ: «ما وضَعْتُ في الصحيحِ حديثًا إلا اغتَسَلْتُ قبلَ ذلك، وصَلَّيْتُ ركعتَيْن!

وقال: أخرَجْتُ هذا الكتابَ من نحوِ ستِّ مئةِ ألفِ حديثٍ، وصَنَّفْتُهُ في سِتَّ عَشْرةَ سنةً، وجعلتُهُ حُجَّةً فيما بيني وبينَ الله تعالى».

---

(١) هو كتاب إتحاف القاري: لمحمد عصام الحسني.

وقال الفضلُ بنُ إسماعيلَ الجُرْجانيُّ:

صــحيحُ البُخــاريِّ لــو أَنصــفُو	هُ لمــا خُــطَّ إلا بمــاءِ الــذَّهَبْ
أســانيدُ مِثــلُ نُجــومِ الســما	ءِ أَمَــامَ مُتُــونٍ كمثــلِ الشُّــهُبْ
فيــا عَالِــمًا أجمــعَ العَــالَمو	نَ علــى فضــلِ رُتبتِــهِ في الرُّتَــبْ
نَفيــتَ السَّــقيمَ مِــن النَّاقِليـــ	ـــنَ ومَــنْ كــانَ مُتَّهمًــا بالكَــذِبْ
وأَثبـــتَّ مَـــنْ عَدَّلتْــهُ الــرُّوا	ةُ وصَـــحَّتْ رِوَايتُــهُ في الكُتُـــبْ
وأَبْــرَزْتَ مِــن حُسْــنِ تَرتِيبِــهِ	وَتَبوِيبِـــهِ عَجَبًـــا لِلعَجَـــبْ

وقال محمدُ بنُ يوسفَ البُخَاريُّ: «كنتُ عندَ محمدِ بنِ إسماعيلَ البخاريِّ بمنزِلِهِ ذاتَ ليلةٍ، فأحصَيْتُ عليه أنه قام وأَسْرَجَ يَسْتَذكِرُ أشياءَ يُعَلِّقها في ليلةٍ ثمانيَ عَشْرةَ مرةً!».

وقال موسى بنُ هارونَ الحَمَّالُ: «لو أنَّ أهلَ الإسلامِ اجتَمَعُوا على أن يَنْصِبوا مثلَ محمدِ بنِ إسماعيلَ آخرَ، ما قَدَرُوا عليه!».

وقال نُعَيْمُ بنُ حَمَّادٍ: «محمدُ بنُ إسماعيلَ فقيهُ هذه الأمةِ».

والحاصلُ: أنَّ أخبارَهُ كثيرةٌ مشهورةٌ فلا نُطيلُ[1].

---

(١) انظر ترجمته في: تاريخ بغداد: للخطيب (٢/ ٤) ووفيات الأعيان: لابن خلكان (٤/ ١٨٨) وتهذيب الكمال: للمزي (٢٤/ ٤٣٠) وتذكرة الحفاظ: للذهبي (٢/ ٥٥٥)، وتحفة الإخباري بترجمة البخاري: للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي.



شيخُ المفسِّرينَ، والمحدِّثُ، المؤرِّخُ، الفقيهُ، الإمام، وصاحبُ التصانيفِ العِظَام[1].

له «**جامعُ البيانْ عن تأويلِ آيِ القرآنْ**»، أجلُّ التفاسيرِ وأجمعُها، وأحسنُها وضعًا وأبدعُها، لم يُؤَلَّفْ مثلُهُ في التفسيرِ - كما ذكَرَ العلماءُ -؛ لأنه جمَعَ فيه بين الروايةِ والدرايةِ أحسنَ جَمْعٍ، ولم يُقَارِبْهُ في ذلك أحدٌ!

قال أبو حامدٍ الإسفرائينيُّ: «لو سافر رجلٌ إلى الصِّينِ[2] حتى يَحصُلَ له

---

(١) **انظر ترجمته في:** تاريخ بغداد (٢/ ١٦٢) ووفيات الأعيان (٤/ ١٩١) وطبقات المفسرين: للداودي (٢/ ١٠٦) وسير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧).

(٢) **لطيفة:** كانت الصينُ في تلك الأزمان أبعدَ البلاد عنهم؛ فلذا كانوا يضربون بها المثلَ في البُعْد!

وممّا جاء في هذا المعنى:

- حديثُ «**اطلبُوا العلمَ ولوْ في الصِّين؛ فَإِنَّ الْعلمَ فَرِيضَةٌ على كلِّ مُسلم**».

وهو حديثٌ مختلفٌ في ثبوته، فقد قال عنه الحافظُ المِزِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ له طرقًا ربما يصل بمجموعها إلى الحسن. وقال الحافظُ الذهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن بعضَ طرقه صالحٌ.

لكنَّ جمهورَ أهل العلم بالحديث قد حكموا عليه بأنه ضعيفٌ من جميع طرقه، وبعضُهم حكم عليه بالوضع.

انظر: المقاصد الحسنة: للسخاوي (ص/ ٩٣)، وكشف الخفاء: للعجلوني (١/ ١٣٨)، =

كتاب تفسيرُ محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيرًا»[(١)].

وقال الخطيبُ: «كان أحدَ الأئمَّةِ، يُحكَمُ بقولِهِ ويُرْجَعُ إلى رأيِهِ؛ لمعرفتِهِ وفضلِهِ، جمَعَ مِنَ العلومِ ما لم يُشَارِكْهُ فيه أحدٌ من أهلِ عصرِهِ، فكان حافظًا لكتابِ اللهِ، بصيرًا بالمعاني، فقيهًا في أحكامِ القرآنِ، عالمًا بالسُّنَنِ وطُرُقِها صحيحِها وسقيمِها، ناسخِها ومنسوخِها، عارفًا بأقوالِ الصحابةِ والتابعينَ، بصيرًا بأيامِ الناسِ وأخبارِهم، له (تاريخُ الإسلامِ) و(التفسيرُ) الذي لم يُصنَّف مثلُهُ».

=

والفوائد المجموعة: للشوكاني (ص/ ٢٧٢)، واللؤلؤ المرصوع: للقاوقجي (ص/ ٤٠)، ومجموع فتاوى ابن باز (٢٦/ ٢٤٠)، والسلسلة الضعيفة (١/ ٤١٥ - ٤١٦).

- وقال أبو بكر الخلّال عن «مسائل عبدوس بن مالك أبو محمد العطار»: «روى عن أبي عبد الله مسائلَ لم يَرْوِها غيرُه، ولم تقعْ إلينا كلَّها، مات ولم تتخرَّجْ عنه. ووقع إلينا منها شيءٌ كثيرٌ أخرجه أبو عبد الله في جماع أبواب السنة، ما لو رحل رجلٌ إلى الصين في طلبها لكان قليلًا». طبقات الحنابلة (١/ ٢٣٨)، ومعجم الكتب: ليوسف بن عبد الهادي (ص/ ٤٣).

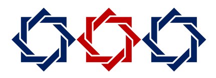
- وقال ابنُ عبد الهادي المقدسي عن كتاب «بيان تلبيس الجهمية، في تأسيس بدعهم الكلامية» لشيخ الإسلام ابن تيمية: «وهو كتابٌ جليلُ المقدار، معدومُ النظير، كشف الشيخُ فيه أسرارَ الجهمية وهتك أستارَهم، ولو رحل طالبُ العلم لأجل تحصيله إلى الصين ما ضاعتْ رحلتُه». العقود الدرّية (ص/ ٤٤).

ضَمِيمَة: قال ابنُ رجب عن وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «صُلِّيَ عليه صلاةُ الغائب في غالب بلاد الإسلام القريبة والبعيدة، حتى في اليمن والصين! وأخبر المسافرون: أنه نُودي بأقصى الصين للصلاة عليه يومَ جمعةٍ: الصلاةُ على تَرْجُمان القرآن». ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٣٢٧).

(١) تاريخ بغداد (٢/ ٥٤٨)، والبداية والنهاية (١٤/ ٨٤٧)، وطبقات الحفاظ: للسيوطي (ص/ ٣٠٧).

وقال الذهبيُّ: «الإمامُ العَلَمُ المجتهدُ، صاحبُ التصانيفِ البديعةِ، كان مِنْ أفرادِ الدَّهْرِ عِلْمًا وذَكَاءً(١) وكَثْرةَ تصانيفَ، قَلَّ أن ترى العيونُ مِثْلَهُ، كان رأسًا في التفسيرِ، إمامًا في الفقهِ والاجماعِ والاختلافِ، عَلّامةً في التاريخِ وأيامِ الناسِ، عارفًا بالقراءاتِ وباللغةِ، وغيرِ ذلك».

ويُقال: إنَّ الخليفةَ الـمُكْتَفِيَ أراد أنْ يُوقِفَ وَقْفًا تجتمعُ أقاويلُ العلماءِ على صِحَّتِهِ، ويَسْلَمُ من الخلافِ، فأجمَعَ علماءُ عصرِهِ على أنه لا يَقْدِرُ على ذلك إلا ابنُ جَرِيرٍ، فأُحْضِرَ فأَمْلَى عليهم كتابًا لذلك، فأُخْرِجَتْ له جائزةٌ سَنِيَّةٌ، فأبى أن يَقْبَلَها.



---

(١) **قلتُ:** ممّا يدلّ على ذكائه الخارق أنه تعلّمَ علمَ العَروض في ليلةٍ واحدةٍ!!

ففي معجم الأدباء (٦/ ٢٤٤٩): «**قال أبو جعفر:** لما دخلتُ مصرَ لم يبقَ أحدٌ من أهل العلم إلّا لقيني وامتحنَني في العلم الذي يَتحقَّقُ به، فجاءني يومًا رجلٌ فسألني عن شيءٍ من العَروض، ولم أكن نَشِطتُ له قبلَ ذلك، فقلتُ له: عَليَّ قولٌ ألّا أتكلمَ اليومَ في شيءٍ من العَروض! فإذا كان في غدٍ فَصِرْ إليّ، وطلبتُ من صديقٍ لي «العَروضَ» للخليل بن أحمد فجاء به، فنظرتُ فيه ليلتي، فأمسيتُ غيرَ عَرُوضيٍّ وأصبحتُ عَرُوضيًّا!!».

- **ويُشبِهُ هذا** ما جاء في ترجمة أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري النحوي، فقد حكى أبو الحسن العَرُوضي، **قال:** «كان ابنُ الأنباري يتردّد إلى أولاد الراضي بالله، فكان يومًا من الأيام قد سألتْه جاريةٌ عن تفسير شيءٍ من الرُّؤيا، فقال: إني حاقنٌ! ثم مضى، فلما كان من الغدِ عاد وقد صار مُعَبِّرًا للرؤيا!! وذلك أنه مضى من يومه، فدَرَسَ كتابَ الكِرْماني». نزهة الألباء في طبقات الأدباء (ص/ ١٩٩).



الشاعرُ الحكيمُ، والباقعةُ[١] الفَحْلُ، مالئُ الدنيا وشاغلُ الناس، صاحبُ المعاني الـمُبتَكَرةِ، والأمثالِ السائرةِ، ومَنْ طُوِّعت له المعاني فأتى منها بالفائق الرائق الذي لم يُسبقْ إليه، ولا يُوجدُ شاعرٌ تجري أبياتُه على ألْسِنة الناس مثلَه![٢].

وكان كثيرٌ من العلماء يحفظونَ ديوانَه، ويأخذونه بالسَّماع، وعدَّهُ نفرٌ من الباحثين أشعرَ شُعراء العرب على الإطلاق؛ **ولهذا قال الثعالبي عنه:** «نادرة الفَلَكِ، وواسطةُ عِقْدِ الدَّهر في صناعة الشعر».

وقال عنه الحافظُ الذهبيُّ: «شاعرُ الزمان»!.

وقال العلّامةُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ: «مِن الشعرِ الذي كان له الأثرُ الذي لا يَنْصُلُ[٣] صَبْغُه من نفسي شعرُ المتنبي؛ لما فيه من فُحُولةٍ وقوةِ أسْرٍ، وسدادِ حكمةٍ، وسَيْرورةِ أمثالٍ، وإصابةِ أهدافٍ، وتخطيطٍ لدَساتيرِ البطولةِ،

---

(١) **الباقعة:** الرجلُ الداهيةُ. تاج العروس (ب ق ع).

(٢) **انظر ترجمته في:** يتيمة الدهر: للثعالبي (١/ ١١٠) وتاريخ بغداد: للخطيب (٤/ ١٠٢) ووفيات الأعيان: لابن خلكان (١/ ١٢٠) والتبيان في شرح الديوان: المنسوب للعكبري (٣/ ٨٥و٨٩) والسير: للذهبي (١٦/ ١٩٩).

(٣) **النَّصْلُ:** النَّزْعُ والإخراجُ. انظر تاج العروس (٣٠/ ٤٩٥).

وتحديدٍ لمواقعِ الكَرَمِ، وتلقينٍ لمعاني الذِّيادِ والحِفاظِ، وتمثيلٍ لبُعْدِ الهِمَمِ، وإنَّ المتنبِّي في بعض ما يصفُ من الذين يقولونَ ما لا يَفعلون!»[١].

ولم يُكتَبْ عن شاعرٍ مثلُ ما كُتِب عن هذا الشاعر؛ فقد جمَع بعضُهم مجلَّدًا ضخمًا في الكتب والدراسات التي تناولتْه[٢].

وكلُّ مَن تعرَّض له المتنبي بمدحٍ - كسيف الدولة - أو هِجاءٍ - ككافورٍ الإِخْشِيدِيِّ - فقد خَلَدَ على مرِّ الزَّمَن.

ومما قِيل فيه[٣]:

مَـا رَأى النَّـاسُ ثـانيَ المُتنبـيْ ... أَيُّ ثَـانٍ يُـرَى لبكْـرِ الزّمـانِ؟!

كـانَ مِـنْ نَفسـهِ الكَبيـرة فِـي جَيـ ... ـشٍ وَفي كِبريـاءِ ذي سُـلطانِ

هُـوَ فِـي شِـعرهِ نَبـيٌّ ولكـنْ ... ظَهـرتْ مُعجزاتـهُ فِـي الْمعَـانِي!

ومن أبياتِه الذائعة، وحِكَمِه الرائعة، قولُه:

وهَبْنِـي قُلـتُ: هـذا الصُّـبْحُ لَيـلٌ ... أَيَعمـى العَـالَمونَ عـنِ الضِّـيَاءِ؟!

أَعَـزُّ مكـانٍ في الـدُّنا سَـرْجُ سَـابِحٍ ... وخيـرُ جَلـيسٍ في الزَّمَـانِ كِتـابُ

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ٣٧٣).

(٢) أفضلُ ما كُتب عن المتنبي - في رأيي المتواضع -: كتابُ «المتنبي» للعلّامة محمود شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) الأبيات لأبي القاسم المظفر بن علي الطّبسي يرثيه بها. انظر: الصبح المنبي عن حيثية المتنبي: للبديعي (١/ ٢٤١)، ويتيمة الدهر: للثعالبي (١/ ٢٧٧)، ومعاهد التنصيص: للعباسي (١/ ٣١).

ووَضْعُ النَّدَى في موضعِ السَّيفِ بالعُلا مُضِرٌّ، كَوَضعِ السَّيفِ في مَوْضِعِ النَّدَى

ولا تحسبنَّ المَجدَ زِقًّا وقَينَةً فما المجدُ إلا السَّيفُ والفَتْكَةُ البِكْرُ

كلّما جادَتِ الظُّنُونُ بوعْدٍ عَنْكَ، جادَتْ يَدَاكَ بالإنجَازِ

إنَّ السِّلاحَ جميعُ النَّاسِ تحملُهُ وليسَ كُلَّ ذواتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

وما بَلَدُ الإنسانِ غيرُ المُوَافِقِ ولا أهلُهُ الأَدْنَونَ غيرُ الأَصَادِقِ

إذا اشتبَكَتْ دُموعٌ في خُدودٍ تبيَّنَ مَنْ بكى مِمَّنْ تَبَاكَى

والهَجْرُ أَقْتَلُ لي مِمَّا أُرَاقِبُهُ أَنَا الغَرِيقُ فَمَا خَوفي من البَلَلِ!

وكمْ رِجَالٍ بِلا أرضٍ لِكثرَتِهِمْ تَرَكتَ جمعَهُمُ أرضًا بِلا رَجُلِ!

خيرُ أَعضائِنَا الرُّؤوسُ ولكِنْ فَضَلَتْهَا بِقَصْدِكَ الأَقْدَامُ!

ولولا احتِقَارُ الأُسْدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ ولكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ في البَهَائِمِ

إذا ترحَّلتَ عن قَومٍ وقد قَدَرُوا ألَّا تُفَارِقَهُمْ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ!

يُعطِيكَ مُبْتَدِئًا فإِنْ أَعجَلْتَهُ أعطَاكَ مُعْتَذِرًا كَمَنْ قَد أَجْرَمَا

قَاضٍ إذا التَبَسَ الأَمْرَانِ عَنَّ لَهُ رَأْيٌ يُخلِّصُ بَيْنَ المَاءِ واللَّبَنِ!

كَفَى بِكَ دَاءً أنْ تَرَى الموتَ شَافِيَا وحَسْبُ المنَايَا أنْ يَكُنّ أَمَانِيَا

لولَا المَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الجُودُ يُفْقِرُ والإِقْدَامُ قَتَّالُ!

ما كلُّ ما يَتمنَّى المرءُ يُدرِكُهُ تَجري الرياحُ بما لا تَشتهي السُّفُنُ

والحقُّ أنَّ شِعْرَ الحِكْمةِ وما جرى مجرى المَثَلِ في شعرِهِ كثيرٌ جدًّا[١]؛ حتى لقد صُنِّفَتْ فيه مصنّفاتٌ مستقلّةٌ[٢]!

ومِنْ لطيفِ شعرِهِ قولُهُ:

أَقِلْ أَنِلْ اقْطِعِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ تَفَضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ!

ويُحكى أنَّ سَيْفَ الدولةِ أعجَبَهُ هذا البيتُ، فوقَّعَ بخطِّهِ تحتَ «أَقِلْ»: «أقلناك»، وتحت «أَنِلْ»: «يحملُ إليه كذا وكذا ألفَ درهمٍ»، وتحتَ «اقْطَع»: «أقطَعْنَاك الضيعةَ الفلانيةَ ببابِ حَلَبٍ»، وتحتَ «احمل»: «يقادُ إليه الفرسُ

---

(١) بل إنّ ابنَ الشجريِّ قال في أماليه (٣/ ٢٦٢ - ٢٦٧): «قد وردتْ لأبى الطيّب أمثالٌ في أعجاز أبياتٍ، منها قولُه...» ثم سَرَدَها وقال: «ولستَ تَقْدِرُ أن تُوجِدَني أمثالًا عددَ أمثالِه، في شعر واحدٍ من نظرائِه وأمثالِه، بل لا تجدُ ذلك لـمُجيدَيْنِ أو ثلاثةِ مُكْثِرين، من المتقدّمينَ والمتأخّرين، وما أحسنَ قولَه:

فجازُوا بتركِ الذّمِّ إن لَم يكنْ حَمْدُ! ....

وأسخفُ شعره القصيدةُ التي أوّلُها:

مـا أنصـفَ القـومُ ضَبّهْ! ....

وفيها:

إنْ أوحشـتْكَ المعـالي فإنهـا دارُ غُربَـهْ

أو آنسـتْكَ المخـازي فإنهـا بـك أشـبه!».

(٢) منها: كتابُ «الأمثال السائرة من شعر المتنبي»: للصاحب بن عبّاد (ت ٣٨٥ هـ). وهو مطبوعٌ.

و«بُلغة المربّي من حِكَم وأمثال المتنبّي»: لعارف الشيخ عبد الله الحسن. وهو مطبوعٌ وصاحبه معاصرٌ.

الفلانيةُ»، وتحت «عِلِّ»: «قد فَعَلْنا»، وتحتَ «سَلِّ»: «قد فعلنا فاسْلُ»، وتحت «أَعِدْ»: «أعدناكَ إلى حالِكَ مِنْ حُسْنِ رَأْيِنا»، وتحتَ «زِدْ»: يُزادُ كذا وكذا»، وتحتَ «تَفَضَّلْ»: «قد فعلنا»، وتحتَ «أَدْنِ»: «قد أدْنيناك»، وتحتَ «سُرَّ»: «قد سَرَرْناك»، فقال أبو الطَّيِّبِ: إنما أردتُّ من التسريةِ! فأمرَ له بجاريةٍ! وتحتَ «صِلْ»: «قد فعلنا».

ولمَّا أنشدَ البيتَ رآهم يَعُدُّون ألفاظَهُ، فقال وزاد فيه:

أَقِلْ أَنِلْ أُنْ صُنِ احْمِلْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشَّ بَشَّ هَبِ اغْفِرْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ!

فرآهم يستكثرون الحروفَ، فقال:

عِشِ ابْقَ اسْمُ سُدْ قُدْ جُدْ مُرِ انْهَ رِ فِ اسْرِ نَلْ
غِظِ ارْمِ صِبِ احْمِ اغْزُ اسْبِ رُعْ زَعْ دِ لِ اثْنِ نُلْ!

وَهَذَا دُعَاءٌ لَوْ سَكَتُّ كُفِيتُهُ
لأَنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيكَ وَقَدْ فَعَلْ

وهذا البيتُ هو الوحيدُ في العربيةِ - حسبَ عِلْمي - الذي اجتَمَع فيه هذا العددُ الكبيرُ من الكلماتِ؛ إذْ بلَغَ عَدَدُها فيه أربعًا وعشرينَ كلمةً!! وهذا ما لم يَقْدِرْ عليه غيرُهُ من الشعراءِ[1].

---

(١) حاول كثيرٌ من الشعراءِ أن يجمعوا أكبرَ عددٍ من الكلماتِ في بيتٍ واحدٍ، لكنَّهم عجزوا أن يَبُزُّوا المتنبيَ في بيتِهِ هذا، بل لم يقاربوه! فمِنْ ذلك:
قولُ أبي العميثلِ الأعرابيِّ:

=

والعجيبُ أنه لم يُعِدْ في البيتِ الأخيرِ أيَّ فعلٍ منَ الأفعالِ السابقةِ في البيتَيْن قبلَهُ!! وهذا يَدُلُّ على تمكُّنِهِ في اللغة، وأخذِهِ بناصيةِ المعجم.

=

أُصْدُقْ وعِفَّ وَفُهْ وَأَنْصِفْ وَاحْتَمِلْ وَاصْفَحْ وَدَارِ وَكَافِ وَاحْلِمْ وَاشْجَعِ

وَالْطُفْ وَلِنْ وَتَأَنَّ وَاحْلُمْ وَاتَّئِدْ وَاحْزِمْ وَجُدَّ وَحَامِ وَاحْمِلْ وَادْفَعِ

وقولُ دِيكِ الجِنِّ:

أُحْلُ وَامْرُرْ وَضُرَّ وَانْفَعْ وَلِنْ وَاخْـ ـشَنْ وَرِشْ وَابْرِ وَانْتَدِبْ لِلْمَعَالِي

وقول أبي الفرج الأصبهاني:

إِسْلَمْ وَدُمْ وَابْقَ وَامْلِكْ وَانْمُ وَاسْمُ وَزِدْ وَأَعْطِ وَامْنَعْ وَضُرْ وانْفَعْ وَصُلْ وَصِلِ

وقول ابن زَيْدون:

تِهْ أَحْتَمِلْ، وَاسْتَطِلْ أَصْبِرْ، وَعِزَّ أَهِنْ وَوَلِّ أُقْبِلْ، وَقُلْ أَسْمَعْ، وَمُرْ أُطِعِ

وقول صفي الدين الحِلِّيِّ:

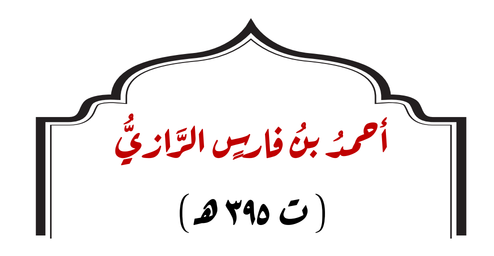
أَقْصِرْ أَطِلْ إِعْذِلِ اعْذِرْ سَلِّ خَلِّ أَعِنْ خُنْ هُنِّ عَنِّ تَرَفَّقْ كُفَّ لُجَّ لُمِ

وقول ابن حِجَّة الحَمَوي:

خَشِّنْ أَلِنْ إِحْزَنِ افْرَحْ إِمْنَعِ اعْطِ أَنِلْ فَوِّفْ أَجِدْ وَشِّ رَقِّقْ شُدَّ حُبَّ لُمِ

وهذا اللونُ من البديع هو ما يُسمَّى عند أربابِ البلاغة: **التفويف**.

انظر: جذوة المقتبس: للحميدي (ص/ ١٣٠)، والحماسة المغربية: للتادلي (٢/ ١٠٥٠)، والذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: للشنتريني (١/ ٣٧٢)، والمختار من شعر شعراء الأندلس: لابن الصيرفي (ص/ ٣٦)، وخزانة الأدب: لابن حجة الحموي (١/ ٢٤٧) وخريدة القصر: للأصبهاني (٢/ ٥٢)، وتحرير التحبير: لابن أبي الإصبع العدواني (ص/ ٢٦١).



إمامُ اللُّغة، وشيخُ العربيَّة، وصاحبُ الاستقراءِ التامِّ والإبداعِ والتألُّق في فقهِ اللغةِ وأسرارِ العربيةِ[(١)].

وإذا ذُكِرَ ابنُ فارسٍ ذُكِرَ معه مُعجمُهُ الفريدُ «مقاييس اللُّغة»، الذي أَدَعُ الحديثَ عنه للأستاذ عبدالسلام هارون رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ حيث قال: «مَفْخَرَةٌ من مفاخر التأليف العربي، بل يكادُ يكونُ الفَذُّ في نوعه من بين المؤلفات اللغوية في المحيط العربيّ، إن لّم يكن في المحيط اللغويّ العالميّ، فنحن لم نعلمْ إلى الآنَ أنَّ مؤلَّفًا لغويًا آخرَ حاول أن يدرسَ موادَّ اللغة في ظل القياس المطَّرد في معظم تلك المواد...كما لم نعلم ـ بعد الاستقصاء والبحث ـ أن لغةً من لغات العالم، كائنةً ما كانتْ، ظفرتْ بمثل هذا التأليف المُبتَدَع، في قديم الزمان ولا في حديثه»[(٢)].

وقال عنه في موضعٍ آخرَ: «إنَّ في التُّراث العربيّ كثيرًا من المعجزات الفريدة التي لم تتكرَّر في عالم التأليف إلى الآن، فكتابُ «مقاييس اللُّغة» لابن فارس يُعَدُّ

---

(١) انظر ترجمته مطولةً في: مقدمة تحقيق كتابه مقاييس اللغة (١/ ٣-٣٧) لعبد السلام هارون.

(٢) قطوف أدبية حول تحقيق التراث (ص/ ٢٠١ فما بعد).

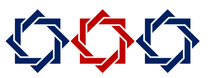
فريدًا في بابه؛ إذْ إنَّ ابنَ فارسٍ استطاع أنْ يَبتدِعَ نظريَّةً لُغويةً دقيقةً تتمثَّل في إرجاع كلِّ مادة لُغوية من مواد المعجم إلى أصلٍ أو أصلين أو عِدَّة أصولٍ معنوية، وقد يكون في المادة الواحدة مئاتُ الكلمات...»، ثم ضرب مثلًا بمادة (رَبَع)، فقال: «إنَّ ابن فارس أعادها إلى ثلاثة أُصول، بينما لو رجعنا إلى «لسان العرب»، لوجدناه يتناول هذه الكلمة في خمسَ عشرةَ صفحةً كاملةً، بحيثُ يَظُنُّ الرائي أنَّ هذه الكلمة لها مئاتُ الدلالات، وهي كُلُّها لا ترجع إلا إلى هذه المعاني الثلاثة أو الأربعة».

وله كتابٌ آخرَ لا يَقِلُّ عن كتابه هذا أهميةً؛ هو كتابُ «مجمل اللغة» الذي ظلّ رَدْحًا من الزمن يتحكّم في الدراسات اللغوية والمعجمية، كما اشتهر كتابُه «الصاحبي» شهرةَ من أهداه له وهو الصاحبُ بنُ عبادٍ[١].

وله مع ذلك أشعارٌ رائقةٌ، منها قولُه لمن يتكاسلُ في طِلَاب العلم:

إذا كانَ يُؤذِيكَ حَرُّ المصِيفِ ... ويُبْسُ الخرِيفِ وبَرْدُ الشِّتَا

ويُلهِيكَ حُسْنُ زَمَانِ الرَّبِيعِ ... فَأَخذُكَ للعِلمِ قُلْ لِي: مَتَى؟!



(١) المرجع نفسه (ص/ ٢٠١) بتصرّف.



أبو منصورٍ الثَّعالبيُّ
(ت ٣٩٥ هـ)

عبدُ الملك بنُ محمدِ بنِ إسماعيلَ الثعالبيُّ، إمامٌ من أئمة اللغة والأدب، وممَّن أبدع في تواليفه، وأغرب في تصانيفه![1].

كان فَرَّاءً يَخيطُ جُلُودَ الثعالب، فنُسِبَ إلى صناعتها، واشتغل بالأدب والتاريخ، فنبغَ وذاع صِيتُهُ.

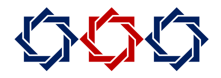
قال ابنُ بسَّامٍ في حَقِّهِ: «كان في وقته راعيَ تَلَعَاتِ العلم، وجامعَ أشتاتِ النثر والنظم، رأسُ المؤلِّفين في زمانِه، وإمامُ المصنِّفين بحُكْم قِرانِه، سار ذِكْرُه سيرَ المثل، وضُربت إليه آباطُ الإبل، وطلعتْ دواوينُه في المشارق والمغارب، طُلُوعَ النجْم في الغياهب، وتواليفُه أشهرُ مواضع، وأبهرُ مطالعْ، وأكثرُ راوٍ لها وجامع، مِن أنْ يستوفيَها حَدٌّ أو وَصْف، أو يُوفِيها حقوقَها نظمٌ أو رَصْف».

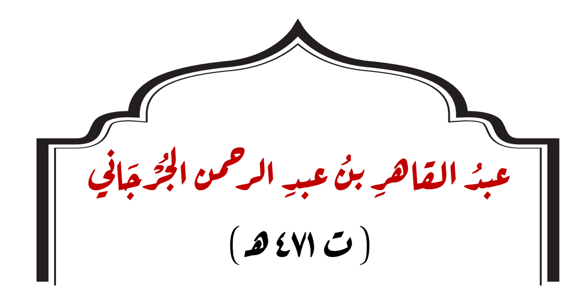
صنَّف الكتبَ الكثيرةَ الماتعةَ؛ منها: «يتيمةُ الدهر في محاسن أهل العصر»؛ في تراجم شعراء عصره، و«فقهُ اللغة»، و«سِحْرُ البلاغة»، و«مَنْ غاب عنه المُطْرِب»، و«لطائفُ المعارف»، و«طبقاتُ الملوك»، و«الإعجازُ والإيجازُ»،

---

(١) انظر ترجمته في: الذخيرة: للشنتريني (٨/ ٥٦٠)، ووفيات الأعيان: لابن خلكان (٣/ ١٧٨)، وشذرات الذهب: لابن عماد (٣/ ٢٤٦)، والأعلام: للزركلي (٤/ ١٦٤).

و«خاصُّ الخاصِّ»، و«نثرُ النظم وحَلُّ العَقْد»، - وهو بديعٌ - و«ثمارُ القلوب، في المضاف والمنسوب»- وهو مِن أبدعها وأمتعها- و«مرآةُ المروءات»، و«أحسنُ المحاسن»، و«أحسنُ ما سمعتُ»، و«اللطائفُ والظرائفُ»، و«يواقيتُ المواقيت»، وغيرُها من التصانيف التي تدلُّ على ذوقٍ عالٍ، وأدبٍ رفيعٍ، وحُسْنِ اختيارٍ.





إمامُ البلاغيِّين، وواضعُ أُصولِ علمِ البلاغة، ومُفتِّق أكمامِ الكلام عن دُرٍّ وياقوتٍ.

كتَبَ قبله في مسائل البيان بعضُ البُلغاء؛ كالجاحظِ، وابن دُرَيْدٍ، وقُدَامةَ بنِ جعفرٍ، لكنهم لم يَبلُغوا فيما بَنَوْهُ أنْ يَجعلوه فنًّا مرفوعَ القواعد مُشْرَعَ الأبواب كما فعل عبدُ القاهر.

وأشهرُ كتُبه في هذا: كتابُ «دلائل الإعجاز»، وكتابُ «أسرار البلاغة»؛ وهما أصلانِ جليلانِ أسَّسَا قواعدَ النَّظر في علمِ بلاغةِ الألسنةِ عامَّةً، وبلاغةِ اللسانِ العربيِّ المبينِ خاصَّةً[1].

قال عنه القِفْطيُّ: «تصدَّر بجُرجانَ، وحُثّت إليه الرِّحالُ، وصنَّفَ التصانيفَ الجليلةَ»[2].

وقال عنه الحُسينيُّ: «أولُ مَن أسَّسَ من هذا الفن قواعدَه وأوضحَ براهينَه، وأظهرَ فوائدَه ورتَّبَ أفانينَه، الشيخُ العالمُ النِّحْريرُ عَلَمُ المحقِّقين عبدُ القاهر الجُرجانيُّ، فلقد فَكّ قيدَ الغرائب بالتقييد، وهَدَّ من سُور المشكلات

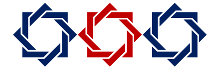
---

(١) **انظر**: مقدمة أسرار البلاغة (ص/ ٣و١١) للشيخ محمود شاكر.

(٢) إنباه الرواة (٢/ ١٨٨).

بالتسوير المَشِيد، وفتحَ أزهارَه من أكمامها، وفَتَقَ أزرارَه بعد استغلاقها واستبهامها، فجزاه اللهُ عن الإسلام أفضلَ الجزاء، وجعل نصيبَه من ثوابه أوفرَ النصيب والإجزاء»[(١)].

ومن لطيف ما ذُكر عنه قولُ السِّلَفي: «كان وَرِعًا قانِعًا؛ دخل عليه لِصٌّ، فأخذ ما وجدَ وهو ينظرُ – وهو في الصلاة – فما قَطَعَها!!»[(٢)].



(١) الطراز (١/ ٤).

(٢) سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٨/ ٤٣٣).



القاسم بن عليٍّ الحريريُّ
(ت ٥١٦ هـ)

العَلَّامَةُ البارعُ، ذُو البلاغتَيْن، صاحبُ (المَقَاماتِ)، وأحدُ أئمَّةِ عصرِهِ في علومِ العربيةِ.

رُزِقَ الحُظْوةَ التامَّةَ في عملِ (المقاماتِ)، حيثُ اشتَمَلَتْ على شيءٍ كثيرٍ مِنْ كلامِ العربِ: مِنْ لُغَاتِها وأَمْثَالِها، ورموزِ أسرارِ كَلَامِها، ومَنْ عرَفَهَا حَقَّ معرفتِها استَدَلَّ بها على فضلِ هذا الرَّجُلِ، وكثرةِ اطِّلاعِهِ، وغَزَارةِ مادَّتِهِ.

قال القِفْطيُّ: «مَنْ تأمَّلها، عَلِمَ أنَّ صاحبَها ومُنْشِئَها كان بَحْرًا في علمِ النحوِ واللغةِ»[١].

وقال القاضي عِياض: «لمّا وصلَ إلى بلدنا كتابُ «المقامات» للحريري -وكنتُ لم أرَها قبلُ- لم أنمْ ليلةَ طالعتُها حتى أكملتُ جميعَها بالمطالعة!»[٢].

وقال زكي مبارك: «مقاماتُ الحريريِّ خدمت الأدبَ واللغةَ خدمةً عظيمةً جدًا، فقد شُرحتْ تلك المقاماتُ مراتٍ كثيرةً، وشغلتْ الأدباءَ واللغويين في المشرق والمغرب، وكُتِبتْ بالذهب مئاتِ المرات! وتهاداها الأمراءُ والملوكُ، وكان لها تأثيرٌ شديدٌ في النهضة الأدبية الحديثة؛ لأنها من أقدم ما نَشرتْ مطبعةُ بولاق»[٣].

---

(١) إنباه الرواة، على أنباه النحاة (٣/ ٢٤).
(٢) التعريف بالقاضي عياض: لولده محمد (ص/ ١٠٩).
(٣) مجلة الرسالة العدد: (٣١٣) (ص/ ١٢٩٢).

وكان سببَ وَضْعِهِ لها ما حكاه وَلَدُهُ أبو القاسمِ عبدُ اللهِ، **قال**: «كان أبي جالسًا في مسجدِهِ ببني حَرَامٍ، فدخَلَ شيخٌ ذُو طِمْرَيْنِ، عليه أُهْبَةُ السَّفَرِ، رَثُّ الحالِ، فصيحُ الكلامِ، حسنُ العبارةِ، فسأَلَتْهُ الجماعةُ: مِنْ أين الشيخُ؟ فقال: مِنْ سَرُوجٍ، فاستخبروه عن كنيتِهِ، فقال: أبو زَيْدٍ، فعَمِلَ أبي المَقَامةَ المعروفةَ بالحَرَاميَّةِ - وهي الثامنةُ والأربعونَ - وعزاها إلى أبي زيدٍ السَّرُوجِيِّ».

وقد اعتنى بشرحِ (المقاماتِ) خَلْقٌ كثيرٌ؛ فمنهم مَنْ طوَّل، ومنهم مَنِ اختَصَرَ، وكان سالفُ العُلَماءِ يعتنون بالمَقَاماتِ دَرْسًا وحِفْظًا[١]، ويأخذونها

(١) ممَّن كان يحفظُ مقاماتِ الحريري:
- أحمدُ بنُ يحيى السُّهْرَوَرْديُّ، الكاتبُ المشهورُ ببغداد. أعيان العصر وأعوان النصر: للصفدي (١/ ٤١٤).
- ومحمدُ بنُ علي بن عمر المازني، الدهان، شمس الدين، الدمشقي، الشاعرُ المشهورُ. المصدر نفسه (٤/ ٦٠٤).
- وصدرُ الدين محمد بن عمر بن المرحّل، حفظها في خمسين يومًا! فوات الوفيات: للكتبي (٤/ ١٤)، وطبقات الشافعية: لابن قاضي شهبة (٢/ ٢٣٣).
- ومحمد بن خلف بن راجح بن بلال بن هلال المقدسي ثم الدمشقي، قال سبطُ ابنُ الجوزي: حفظ مقامات الحريري في خمسين ليلةً، فتشوّش خاطرُه! شذرات الذهب: لابن العماد (٧/ ١٤٥).
- ومحمدُ بنُ محمد بن أبي سعد ابن أحمد بدر الدين أبو حفص الكرماني الأصل النيسابوري. الوافي بالوفيات: للصفدي (١/ ١٦٣).
- ومحمدُ بنُ أحمد بن يحيى بن هبة الله بن الحسن الدمشقي الشافعي. المصدر نفسه (٢/ ٩١).
- وعبدُ المجيد ابنُ أبي الفرج بن محمد، مجدُ الدين الرُّوذْرَاوَري. المصدر نفسه (١٩/ ٨٦).
- وكان عبدُ الصمد بن الحسن بن يوسف الأصبحي المصري الشافعي، يُعرفُ بالمقاماتي؛ =

بالسَّماعِ[١].

=

لكونه يحفظُها! تاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٧٧٣).

- وقال ابنُ معصومٍ الحُسينيُّ عن حسين بن عبد الملك العِصامي: «لـمَّا سمع قولَ بعض السلف: «مَنْ حفظ مقاماتِ الحريري نَظَمَ ونَثَرَ ما أراد، وبلغ من فنون البلاغة الـمُراد». حَفِظَهَا عن ظهر قلبه حِفْظا، وأنصَّ استظهارها معنىً ولفظا. فحَسُنَ انشاؤُه وقريضُه، ودان له من الكلام طويلُه وعريضُه». سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مِصْر (٢/ ٤٦١).

- عبد القادر بن عمر البغدادي (صاحب خزانة الأدب). خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: للمحبي (٢/ ٤٥١).

- وقيلَ إنّ الشيخَ بكرَ أبو زيدٍ (ت ١٤٢٩ هـ) كان يحفظ شيئًا كثيرًا منها.

وغيرُهم.

(١) منهم:

- عيسى بنُ إبراهيم بن عبد ربه بن جهور القيسي، من أهل طلبيرة. الصلة: لابن بشكوال (ص/ ٤١٦).

- وعبدُ الجَبَّار بنُ محمد بن علي المَعَافِري، قرطبيٌّ سكن مصر. التكملة لكتاب الصلة: لابن الأبار (٣/ ١٠٣).

- وأبو الفتح العلوي النيسابوري. تاريخ الإسلام: للذهبي (٣٨/ ٣٥٢).

- ومنوجهر بنُ محمد بن تركانشاه أبو الفضل الكاتب، كاتب الأمير قطب الدين قايماز المستنجدي، روى عنه المقامات مرارًا، وهو آخر مَنْ رواها عنه ببغداد. المصدر نفسه (٤٠/ ١٩٠).

- وعبدُ الله بنُ محمد بن أبي الحسين أحمد بن محمد النقور البغدادي أبو بكر. ذيل التقييد: لابن نقطة (٢/ ٥٠).

- وصلاحُ الدين الصفَدي، قرأها وأُجيزَ فيها من عددٍ من شيوخه. كما في كتابه: أعيان العصر وأعوان النصر (١/ ٧٠) و (٣/ ٤٥٨) و (٤/ ٥٢١) و (٤/ ٦٦٠) و (٥/ ٣٧٢).

وغيرُهم كثيرٌ جدًا.

بَدِيعةٌ: حدَّث عليُّ بنُ جابر بن هبة الله بن علي حاكم ساقية سليمان، قال:«حدَّثني والدي جابر بن هبة الله، أنه قرأ على القاسم بن علي الحَرِيرِيِّ المقاماتِ في شهور سنة أربع عشرة

=

ولم يستطعْ أحدٌ بعدَهُ أنْ يُدَانِيَهُ في صناعةِ المقاماتِ، فَضْلًا عن أن يَجُوزَهُ، على كثرةِ ما أُلِّفَ في المقاماتِ بعدَهُ قديمًا وحديثًا[(١)].

=

وخمس مئة، قال: وكنت أظنُّ أن قوله:

يــــا أَهْـــلَ ذَا الـــمَغْنَى وُقِيــتُمْ ... شَــرًّا وَلَا لَــقِيتُمْ مَــا بَقِيــتُمْ ضُــرَّا

قَــدْ دَفَــعَ اللَّــيْلُ الَّــذِي اكْفَهَــرَّا ... إِلَــى ذُرَاكُــمْ شَــعِثًا مُغْبَــرَّا

أنه «سَغِبًا معترًّا» فقرأتُ كما ظننتُ: سَغِبًا مُعْتَرًّا، ففكَّر ساعةً، ثم قال: والله لقد أجدتَ في التصحيف؛ فإنه أجودُ، فرُبَّ شَعِثٍ مُغْبَرٍّ غيرِ مُحتاجٍ، والسَّغِبُ المعْترُّ مَوضعُ الحاجة، ولولا أنني قد كتبتُ خطِّي إلى هذا اليوم على سبعِ مئةِ نسخةٍ قُرئتْ عليَّ لغيَّرتُ الشَّعِثَ بالسَّغِبِ، والمغْبرَّ بالمعْترِّ!!» معجم الأدباء (٥/ ٢٢٠٣).

(١) كان أبو الحسن عليُّ بنُ الحسن بن عنتر، النحويُّ، اللغويُّ، الشاعرُ المعروفُ بشُمَيْم الحِلِّي (ت ٦٠١ هـ) كثيرَ الإزْراء على المتقدِّمين، ولا يُعجبُه شيءٌ من أدبهم! وكان يصفُ نفسَه بالعلم ويُجهِّلُ الأوائلَ - كما مَرَّ معنا في الفصل الرابع - فلمَّا نُوقشَ مرةً في ذلك قال: كيف أرضى عنهم وليس لهم ما يُرْضِيني؟! إلّا أن يكونَ المتنبِّي في مَديحِهِ خاصةً، وابنُ نُباتَةَ في خُطَبِهِ، وابنُ الحريري في مقاماتِه.

فقيلَ له: عَجَبٌ إذْ لم تصنفْ مقاماتٍ تَدْحَضُ مقاماتِه! فقال: الرجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التمادي في الباطل، عَمِلْتُ مقاماتٍ مرتينِ فلم تُرْضِني، فغسلْتُها، وما أعلمُ أنّ اللهَ خلقني إلّا لأُظهرَ فضلَ ابنِ الحريري!! تاريخ الإسلام: للذهبي (١٣/ ٤٢) بتصرّف.

قلتُ: قد أظهر فضلَ الحريري بشرحه لمقاماتِه.

- وممّا يُشبه هذا أيضًا ما جاء في «نُصرة الثائر على المثل السائر»: للصفدي (ص/ ٦٠ - ٦١) قال: «سمعتُ القاضي شهابَ الدين محمودًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قراءة هذا الكتاب عليه يَحكي أن القاضي الفاضلَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد معارضتَها، وصنع ثلاثَ عشرةَ مقامةً عارض كلَّ فصل بمثله، حتى جاء إلى قول الحريري في المقامة الرابعةَ عشرةَ: «اعلَموا يا مآلَ الآمِلِ. وثِمالَ الأرامِلِ. أنّي منْ سَرَواتِ القَبائِلِ. وسَرِيّاتِ العَقائِلِ. لمْ يزَلْ أهلي وبعْلي يَحُلّونَ الصّدْرَ. ويَسيرونَ القلْبَ. ويُمْطُونَ الظّهْرَ. ويُولونَ اليَدَ. فلمّا أرْدَى الدّهرُ الأعْضادَ. وفجعَ بالجَوارِحِ الأجساد. وانقلَبَ ظهرًا لبَطْنٍ. نَبا النّاظِرُ. وجَفا الحاجِبُ. وذهبَتِ العينُ. وفُقِدَتِ

=

وينبغي لِمَنْ أراد أن يَتَمَهَّرَ في اللغةِ، ويَرتقيَ بأسلوبِهِ الأدبيِّ، أن يعتنيَ بكثرةِ النَّظَرِ فيها، وتَذَوُّقِها، وحفظِ ما يَقْدِرُ عليه منها؛ فإنَّها نِعْمَ المُعِينُ على ذلك.

وإليك طَرَفًا مِنْ مقاماتِهِ (الحلبيَّةِ)، حيثُ ذكَرَ فيها أبياتًا حُروفُها مُهْمَلَةٌ، وأخرى مُعْجَمَةٌ، وأبياتًا أخرى كلمةٌ منها مُعْجَمَةٌ وأخرى مُهْمَلَةٌ... وهكذا!!

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«روى الحارثُ بنُ هَمَّامٍ؛ قال: نَزَعَ بي إلى حلَبْ، شَوْقٌ غَلَبْ، وطَلَبٌ يا لَهُ من طَلَبْ؛ وكنتُ يَوْمَئِذٍ خَفيفَ الحَاذْ، حَثيثَ النَّفَاذْ؛ فأَخَذْتُ أُهْبَةَ السَّيْرْ، وخَفَفْتُ نحوَها خُفُوفَ الطَّيْرْ؛ ولمْ أَزَلْ مُذْ حَلَلْتُ رُبُوعَها، وارْتَبَعْتُ رَبِيعَها؛ أُفانِي الأَيَّامْ، فيما يَشْفِي الغَرَامْ، ويَرْوِي الأُوَامْ؛ إلى أنْ أَقْصَرَ القَلْبُ عنْ وُلُوعِه، واسْتَطارَ غُرَابُ البَيْنِ بَعْدَ وُقُوعِهْ؛ فأَغْرَاني البالُ الخِلْو، والمرَحُ الحُلْو؛ بأنْ أَقصِدَ حِمْصَ لِأَصْطافَ بِبُقعَتِها، وأَسْبُرَ رَقَاعَةَ أهلِ رُقْعَتِها؛

=

الرّاحةُ. وصَلَدَ الزَّنْدُ. ووَهَنتِ اليَمينُ. وبانَتِ المَرافِقُ. ولم يبْقَ لنا ثَنِيّةٌ ولا نابٌ. فمُذُ اغْبرّ العيشُ الأخضَرُ. وازْوَرّ المحْبوبُ الأصفَرُ. اسوَدّ يوْمي الأبيضُ. وابيَضّ فَوْدِي الأسوَدُ. حتى رَثَى لي العَدُوُّ الأزْرق، فحَبَّذا الموتُ الأحْمَر!».

فقال الفاضل: من أين يأتي الإنسانُ بفصلٍ يُعارض هذا؟! ثم إنه قَطَّعَ ما كان عَمِلَه من المقامات ولم يُظهِر. أو كما قال. وناهيك بمن يقول مثلُ القاضي الفاضل في حقّه مثلَ هذا، ويعترفُ له بالعجز.

وأما أنا فكلّما قرأتُ هذا الفصلَ وذكرتُه، أجدُ له نشوةً كنشوة الراح، وبهجةً ولا بهجةَ الساري بطلْعة الصباح. وفي أيِّ ترسُّلٍ تجدُ نظيرَ هذا الفصل الذي له هذه الخفّةُ والطلاوةُ، ولم تُروِّجه الأسجاعُ؟».

فأَسْرَعْتُ إليْها إِسْراعَ النّجْمِ، إذا انْقَضَّ للرَّجْمِ؛ فحينَ خَيَّمْتُ برُسُومِها، ووَجَدْتُّ رَوْحَ نَسِيمِها؛ لمَحَ طَرْفي شَيْخًا قد أقبلَ هَرِيرُهْ، وأَدْبَرَ غَرِيرُهْ؛ وعندَهُ عَشَرَةُ صِبْيانْ، صِنْوانٌ وغيرُ صِنْوانْ؛ فطاوَعْتُ في قَصْدِهِ الحِرْص، لِأَخْبُرَ بهِ أُدَبَاءَ حِمْص؛ فبَشَّ بي حِينَ وَافَيْتُهْ، وحَيَّا بأحسَنَ مِمَّا حَيَّيْتُهْ؛ فجَلَسْتُ إِلَيْهِ لِأَبْلُوَ جَنَى نُطْقِهْ، وأَكْتَنِهَ كُنْهَ حُمْقِهْ؛ فما لَبِثَ أنْ أشارَ بعُصَيَّتِهْ، إلى كُبْرِ أُصَيْبِيَتِهْ؛ وقال لهُ: أَنْشِدِ الأبياتَ العَوَاطِلْ[1]، واحْذَرْ أن تُماطِلْ؛ فجَثَا جِثْوَةَ لَيْث، وأنشدَ مِنْ غيرِ رَيْث:

أَعْدِدْ لِحُسَّادِكَ حَدَّ السِّلَاحْ ... وَأَوْرِدِ الْآمِلَ وِرْدَ السَّمَاحْ

وَصَارِمِ اللَّهْوَ وَوَصْلَ المَهَا ... وَأَعْمِلِ الكُومَ وسُمْرَ الرِّمَاحْ

وَاسْعَ لِإِدْرَاكِ مَحَلٍّ سَمَا ... عِمَادُهُ لَا لِادِّرَاعِ المِرَاحْ

وَاللهِ مَا السُّؤْدَدُ حَسْوُ الطِّلَا ... وَلَا مَرَادُ الحَمْدِ رُودٌ رَدَاحْ

وَاهًا لِحُرٍّ وَاسِعٍ صَدْرُهُ ... وَهَمُّهُ مَا سَرَّ أَهْلَ الصَّلَاحْ

مَوْرِدُهُ حُلْوٌ لِسُؤَّالِهِ ... وَمَالُهُ مَا سَأَلُوهُ مُطَاحْ

مَا أَسْمَعَ الْآمِلَ رَدًّا وَلَا ... مَاطَلَهُ، وَالمَطْلُ لُؤْمٌ صُرَاحْ

وَلَا أَطَاعَ اللَّهْوَ لَمَّا دَعَا ... وَلَا كَسَا رَاحًا لَهُ كَأْسَ رَاحْ

سَوَّدَهُ إِصْلَاحُهُ سِرَّهُ ... وَرَدْعُهُ أَهْوَاءَهُ وَالطِّمَاحْ

---

(١) هي الخالي حروفُهَا من النَّقْط!

وَحَصَّـــلَ المَـــدْحَ لَـــهُ عِلْمُـــهُ مَـا مُهِـرَ العُـورُ مُهُـورَ الصِّـحَاحْ

فقال لهُ: أَحْسَنْتَ يا بُدَيْر، يا رأسَ الدَّيْر! ثُمَّ قالَ لِتِلْوِهِ، الْـمُشْتَبِهِ بِصِنْوِهِ: اُدْنُ يا نُوَيْرَهْ، يا قمرَ الدُّوَيْرَهْ! فدَنَا ولَمْ يَتَبَاطَا، حتى حَلَّ منهُ مَقْعَدَ الـمُعَاطَى، فقال له: اجْلُ الأَبْيَاتَ العَرَائِسْ[1]، وإنْ لّمْ يَكُنَّ نَفائِسْ؛ فبَرَى القلَمَ وَقطَّ، ثُمَّ احْتَجَرَ اللَّوْحَ وَخَطّ:

فَتَنَتْنِـــي فَجَنَّنَتْنِـــي تَجَنِّـــي بِتَجَـــنٍّ يَفْـتَنُّ غِـــبَّ تَجَنِّـــي

شَـغَفَتْنِي بِجَفْـنِ ظَبْـيٍ غَضِـيضٍ غَـنِجٍ يَقْتَضِــي تَغَـيُّضَ جَفْنِــي

غَشِـــيَتْنِي بِـــزِينَتَيْنِ فَشَفَّتْـــــنِي بِــزِيٍّ يَشِــفُّ بَــيْنَ تَثَنِّــي

فَتَظَنَّيْــتُ تَجْتَبِينِــي فَتَجْزِيــــنِي بِنَفْـثٍ يَشْـفِي، فَخُيِّـبَ ظَنِّـي

ثَبَّتَــتْ فِــيَّ غِــشَّ جَيْــبٍ بِتَزْيِيــنِ خَبِيــثٍ يَبْغِـي تَشَـفِّيَ ضِـغْنِ

فَنَــزَتْ فِــي تَجَنُّبِــي فَشَتَتْــنِي بِنَشِـــيجٍ يُشْـــجِي بِفَـــنٍّ فَفَـــنِّ

فلمَّا نظرَ الشيخُ الى ما حَبَّرَهْ، وتَصفَّحَ ما زبَرَهْ؛ قال له: بُورِكَ فِيكَ مِنْ طَلَا، كما بُورِكَ فِي لَا ولَا؛ ثُمَّ هتَفَ: اقْرُبْ، يا قُطْرُبْ؛ فاقْتَرَبَ منهُ فَتًى يَحْكِي نَجْمَ دُجْيَهْ، أو تِمْثالَ دُمْيَهْ، فقال لهُ: ارْقُمِ الأَبْياتَ الأَخْيَافْ[2]، وتَجنَّبِ

---

(١) هي المنقوطُ جميعُ حروفِها!

(٢) هي المنقوطُ منها كلمةٌ دونَ كلمةٍ.

فائدة: هذا النوعُ والنوعان قبلَه من الصناعات اللفظيّة التي تُسمّى عند البلاغيين (المعجم والمهمل).

=

الخِلَافْ؛ فأَخَذَ القَلَمْ، ورَقَمْ:

إِسْـمَحْ فَبَثُّ السَّمَاحِ زَيْنٌ وَلَا تُخِبْ آمِلًا تَضَيَّفْ

وَلَا تُجِزْ رَدَّ ذِي سُؤَالٍ فَنَّنَ أَمْ فِي السُّؤَالِ خَفَّفْ

وَلَا تَظُنَّ الدُّهُورَ تُبْقِي مَالَ ضَنِينٍ وَلَوْ تقَشَّفْ

وَاحْلُمْ فَجَفْنُ الكِرَامِ يُغْضِي وَصَدْرُهُمْ فِي العَطَاءِ نَفْنَفْ

وَلَا تَخُنْ عَهْدَ ذِي وِدَادٍ ثَبْتٍ، وَلَا تَبْغِ مَا تَزَيَّفْ

فقال له: لا شَلَّتْ يَداكْ، ولا كَلَّتْ مُداكْ، ثُمَّ نادى: يا عَشَمْشَمْ، يا عِطْرَ مَنْشَمْ! فلَبَّاهُ غُلَامٌ كدُرّةِ غَوَّاصْ، أو جُؤْذَرِ قَنَّاصْ؛ فقالَ له: اكْتُبِ الأبياتَ المَتائِيمْ[1]، ولا تكُنْ منَ المَشَائيمْ؛ فتناوَلَ القلَمَ المُثقَّفْ، وكتبَ ولم

=

قال الرافعيُّ: «وأوّلُ مَنْ وضعه وبرَّز فيه الحريريُّ صاحبُ «المقامات»، ولم يتكلَّفْه أحدٌ قبلَه فيما نعلم، وإن كان كثيرًا ما يتفق في منظوم الكلام ومنثوره، لكنْ على غير اطِّرادٍ ولغير قصدٍ، فالاطّرادُ والقصدُ إذن هما معنى الاختراع فيه؛ وليس يخلو الكلام بتةً من أحرفٍ مهملةٍ وأخرى معجمةٍ؛ لأنّ بالقسمين جِماعُ مادته وقِوامُ تركيبه». تاريخ آداب العرب (٣/ ٤١٥).

(١) هي الأبياتُ التي جاءت كلُّ كلمتين متجاورتين فيها متشابهةً في الرَّسْم.
قال الرافعي: «هذا نوعٌ من الجِناس اخترعه الحريريُّ وذكر منه أبياتًا في المقامة السادسة والأربعين سماها (الأبيات المتائيم)؛ لأنها مبنيّةٌ على الألفاظ المزدوجة، فكأنها جمعُ مُتْئِمٍ، وهي من النساء التي من عادتِها أن تلِدَ توأميْن....
وأخصُّ صفاتِ هذا النوع أنك إذا أصبتَه عاطلًا من النَّقْط مُغفلًا من الضَّبْط غَمِيَ عليك وجهُ قراءته، فلا تتبينُ من ذلك شيئًا.
وهو نفسُ الجِناس الذي يسميه أهلُ البديع بالمصحَّف، ويقولون في حَدِّه: إنه ما تماثل =

زُيِّنَـــتْ زَيْنَـــبُ بِقَـــدٍّ يَقُـــدُّ وَتَـــلَاهُ وَيْـــلَاهُ نَهْـــدٌ يَهُـــدُّ

جُنْـدُهَا جِيـدُهَا وَظَـرْفٌ وَطَـرْفٌ نَـــاعِسٌ تَـــاعِسٌ بِحَـــدٍّ يَحُـــدُّ

قَـدْرُهَا قَـدْ زَهَـا وَتَاهَـتْ وَبَاهَـتْ وَاعْتَـدَتْ وَاغْتَـدَتْ بِخَـدٍّ يَخُـدّ

فَـــارَقَتْنِي فَـــأَرَّقَتْنِي وَشَـــطَّتْ وَسَـطَتْ ثُـمَّ نَـمَّ وَجْـدٌ وَجَـدُّ

فَـدَنَتْ فُـدِّيَتْ وَحَنَّـتْ وَحَيَّـتْ مُغْضَـــبًا مُغْضِـــيًا يَـــوَدُّ يُـــوَدُّ

فطَفِقَ الشيخُ يَتأمّلُ ما سَطَرَهْ، ويُقلِّبُ فيهِ نَظَرَهْ؛ فلمَّا استَحْسَنَ خَطَّهْ، واستَصَحَّ ضَبْطَهْ؛ قال لهُ: لا شَلَّ عَشْرُكْ، ولا اسْتُخْبِثَ نَشْرُكْ؛ ثُمَّ أَهَابَ بفتًى فَتَّانْ، يُسْفِرُ عنْ أزهارِ بُستانْ؛ فقالَ له: أَنْشِدِ البَيْتَيْنِ الـمُطْرَفَيْن، الـمُشْتَبِهَي الطَّرَفَيْن؛ اللّذَيْنِ أَسْكَتَا كلَّ نَافِثْ، وأَمِنَا أنْ يُعَزَّزَا بِثَالِثْ[(١)]؛ فقال له: اسْمَعْ

= ركناه خطًّا واختلفا لفظًا، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء:٧٩، ٨٠] إلا أنّ هذا النوعَ قد أُضيف على التصحيف فيه التحريفُ باختلاف الحركة، فهو مصحَّفٌ محرَّفٌ؛ ولم يمثِّلوا له بغير قول الحريري». تاريخ آداب العرب (٣/ ٤١٧).

(١) عَجِيبَة: سمع إسماعيلُ بنُ أبي بكر اليماني المعروف بابن الـمُقرئ - صاحبُ كتاب «عنوان الشرف الوافي» المتقدِّمُ ذِكْرُهُ- بعضَ الناس يذكُرُ بيتَيْ الحريري هذَيْن، فقال له ابنُ الـمُقرئ: إنَّ تعزيزَهما بثالثٍ غيرُ ممتنع! ، فنازعه ذلك القائلُ، وطال بينهما النزاعُ، فرجَعَ ابنُ الـمُقرئ إلى بيته وعَمِلَ على هذا النَّمَط توفيةَ خمسينَ بيتًا! وأرسَلَ بها إلى مَنْ جادلَه ، وقال: قد صارا خمسينَ!! وأولُ أبياته:

مَـــنْ كَـــلَّ مَهْـــدِيْ وَدَعَـــا أَحْمَـــدًا أُجِيـــبَ ، مَـــا أَسْـــعَدَ مَـــنْ كَلَّمَـــهْ!

قال الشوكاني: «وقد كان بعضُ المتأخِّرين ممَّن عاصره - قبل عصر صاحب الترجمة - قد عزَّز بيتيْ الحريري بثالثٍ وهو:

وَالْـمَسْ لـِمَهْوَى الضَّـيْفِ خَيْـرَ القِـرَى وَسَـــلِّمِ المَسْـــلَمَ وَالْمَسْلَمَـــــهْ!»

=

لا وُقِرَ سَمْعُكْ، ولا هُزِمَ جَمْعُكْ؛ **وأنشَدَ مِنْ غيرِ تَلَبُّثْ، ولا تَرَيُّثْ:**

سِمْ سِمَةً تَحْسُنُ آثَارُهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى وَلَوْ سِمْسِمَهْ

وَالْمَكْرُ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ لِتَقْتَنِي السُّؤْدَدَ وَالْمَكْرُمَهْ

فقال لهُ: أَجَدتَ يا زُغْلُولْ، يا أبا الغُلُولْ؛ ثمّ نادَى: أَوْضِحْ يا يَاسِينْ، ما يُشْكِلُ مِنْ ذَوِاتِ السِّينْ؛ فنهضَ ولم يَتَأَنّْ، **وأنشدَ بِصَوْتٍ أَغَنّْ:**

نِقْسُ الدَّوَاةِ وَرُسْغُ الكَفِّ مُثْبَتَةٌ سِينَاهُمَا إِنْ هُمَا خُطَّا وَإِنْ دُرِسَا

وَهَكَذَا السِّينُ فِي قَسْبٍ وَبَاسِقَةٍ وَالسَّفْحِ وَالبَخْسِ وَاقْسِرْ وَاقْتَبِسْ قَبَسَا

وَفِي تَقَسَّسْتُ بِاللَّيْلِ الكَلَامَ وَفِي مُسَيْطِرٍ وَشَمُوسٍ وَاتَّخِذْ جَرَسَا

وَفِي قَرِيسٍ وَبَرْدٍ قَارِسٍ فَخُذِ الصْـ ـصَوابَ مِنِّي وَكُنْ لِلْعِلْمِ مُقْتَبِسَا

فقال لهُ: أَحْسَنْتَ يا نُغَيْش، يا صَنَّاجَةَ الجيْش......»إلخ[1].

=

البدر الطالع (١/ ١٤٤).

قلتُ: وقد عَزَّزْتُه أنا بقولي:

وَالهَذْرَ مَهْوىً لِلِّسَانِ الَّذِي دَيْدَنُهُ الإسفَافُ والهَذْرَمَهْ!

وقولي: (والهَذْرَ) بالنصبِ؛ جائزٌ، على تقديرِ فعلٍ محذوفٍ: كاجْعَلْ وما أشبهه، أيْ: واجْعَلْ الهَذْرَ..... إلخ.

(١) انظر ترجمتَه والكلامَ عن مقاماتِه في: مقدمة «مقامات الحريري» طبعة دار بيروت ودار المنهاج، كما أُحيل القارئَ الكريمَ إلى شرح الشَّرِيشِي لمقامات الحريري لمعرفة معاني ما تقدم، وهو شرحٌ في غاية النفاسة.



أَبُو الفَرَجِ ابْنُ الجَوْزِي (ت ٥٩٧ هـ)

عبدُ الرحمنِ بنُ عليٍّ القرشيُّ، الحافظُ المفسِّرُ، إمامُ عَصْرِهِ - بل وعصورٍ كثيرةٍ - في الخَطَابةِ والوَعْظِ[١].

قال عن نفسِهِ: «صار لي اليومَ خمسُ مَدَارِسَ، ومئةٌ وخمسون مصنَّفًا في كلِّ فنٍّ، وقد تاب على يَدَيَّ أكثرُ من مئةِ أَلْفٍ! وقَطَعْتُ أكثرَ من عَشَرةِ آلافِ طائِلةٍ[٢]، ولم يَرَ واعظٌ مثلَ جَمْعي؛ فقد حضَرَ مجلسي الخليفةُ، والوزيرُ، وصاحبُ المَخْزَنِ، وكبارُ العلماءِ، والحمدُ لله على نِعَمِهِ»[٣].

قال ناصحُ الدينِ بنُ الحنبليِّ الواعظُ عنه: «اجتَمَعَ فيه من العُلُومِ ما لم يَجْتَمِعْ في غيرِهِ، وكانتْ مَجَالِسُهُ الوعظيّةُ جامعةً للحُسْنِ والإحسانِ باجتماعِ

---

(١) **انظر ترجمتَه في:** ذيل طبقات الحنابلة: لابن رجب (١/ ٣٩٩)، وسير أعلام النبلاء: للذهبي (٢١/ ٣٦٧) وغيرها.

(٢) لم أقفْ على معنى (طائلة) في شيءٍ من المعاجم القديمة ولا الحديثة، والذي انقدحَ لي أنَّ المرادَ بها: الشُّعورُ الطويلةُ التي يُولَعُ بإرسالها - عادةً - الشبابُ المتميِّعُ!
ثمَّ إنّي - بحمد الله - وجدتُ صوابَ قَدْحِي في كتاب «القُصَّاص والمذكِّرين» للمؤلِّف، حيثُ قال فيه (ص/ ٣٧١): «وإنّي ما زلتُ أَعِظُ الناسَ وأُحرِّضُهم على التوبة، فقد تاب على يديَّ - إلى أنْ جمعتُ هذا الكتابَ - أكثرُ من مئة ألف رجل، وقد قَطَعْتُ من شُعُورِ الصِّبيانِ اللّاهينَ أكثرَ من عشرةِ آلافِ طائلةٍ، وأسلم على يديَّ أكثرُ من مئة ألفٍ».

(٣) **انظر:** تاريخ الإسلام: للذهبي (٤/ ٢٥).

ظِرَافِ بَغْدادَ، ونِظَافِ الناسِ، وحُسْنِ الكلماتِ المسجَّعةِ، والمعاني المودَعَةِ في الألفاظِ الرائجةِ، وقراءةِ القرآنِ بالأصواتِ المرجَّعةِ، والنَّغَماتِ المُطْرِبةِ، وصيحاتِ الواجِدين، ودَمَعاتِ الخاشِعين، وإنابةِ النادِمين، وذُلِّ التائِبين، والإحسانِ بما يُفَاضُ على المستمعين، من رحمةِ أرحمِ الراحمين».

وذكَرَهُ الحافظُ ابنُ الدُّبَيْثِيِّ في «ذيلِهِ على تاريخِ ابنِ السَّمْعانيِّ» فقال: «له في الوعظِ العبارةُ الرائقهْ، والإشاراتُ الفائقهْ، والمعاني الدقيقهْ، والاستعارةُ الرشيقهْ، وكان من أحسنِ الناسِ كَلَامًا، وأتمِّهم نِظَامًا، وأَعْذَبِهم لِسَانًا، وأجودِهِمْ بَيَانًا».

وقال الموفَّقُ عبدُ اللطيفِ: «كان ابنُ الجَوْزيِّ لطيفَ الصورةِ، حُلْوَ الشمائلِ، رَخِيمَ النَّغْمةِ، مَوْزُونَ الحَرَكاتِ والنَّغَماتِ، لذيذَ المفاكهةِ، يَحْضُرُ مَجْلِسَهُ مئةُ ألفٍ أو يزيدونَ... له في كلِّ علمٍ مشاركةٌ، لكنَّه كان في التفسيرِ من الأعيانِ، وفي الحديثِ مِنَ الحُفَّاظِ، وفي التاريخِ من المتوسِّعينَ، ولديه فِقْهٌ كافٍ، وأمَّا السجْعُ الوَعْظِيُّ فله فيه مَلَكةٌ قويةٌ، إنِ ارتجَلَ أجادَ، وإن رَوَى أَبْدَع!».

وقال الذهبيُّ: «كان رأسًا في التذكير بِلا مدافعةٍ، يقول النظمَ الرائقَ، والنثرَ الفائقَ بديهًا، ويُسْهِبُ، ويُعْجِبُ، ويُطْرِبُ، ويُطْنِبُ، لم يأتِ قبلَه ولا بعدَه مِثلَه، فهو حاملُ لواءِ الوعظ، والقيِّمُ بفنونِه، مع الشَّكْلِ الحَسَنِ، والصَّوتِ الطيِّبِ، والوقعِ في النفوسِ، وحُسْنِ السِّيرة».

وقال ابنُ رجبٍ: «وحاصلُ الأمرِ: أنَّ مجالسَةُ الوَعْظيةَ[(١)] لم يكنْ لها

---

(١) وَصَفَ الرحَّالةُ ابنُ جُبَيْرٍ بعضَ مجالسه تلكَ وصفًا بديعًا ، فكان ممّا قال: «ثم شاهدْنا صبيحةَ يوم السبت بعدَه مجلسَ الشيخ الفقيه الإمام الأوحد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرقي... فشاهدْنا مجلسَ رجل ليس من عمروٍ ولا زَيْدْ، وفي جَوْف الفَرَا كلُّ الصَّيْدْ. آيةُ الزمانْ، وقُرَّةُ عينِ الإيمانْ. رئيسُ الحنبليَّة، والمخصوصُ في العلوم بالرتب العليَّة. إمامُ الجماعَة، وفارسُ حَلْبة هذه الصناعَة، والمشهودُ له بالسَّبْقِ الكريمِ في البلاغة والبراعَة. مالكُ أزمَّةِ الكلام في النظم والنثر، والغائصُ في بحر فِكْره على نفائس الدُّرِّ...
ومِن أبهر آياتِه، وأكبر معجزاتِه، أنه يصعد المنبرَ ويبتدئُ القُرَّاءُ بالقراءة - وعددُهم نَيَّفَ على العشرينَ قارئًا - فينتزعُ الاثنانِ منهم أو الثلاثةُ آيةً من القرآن، يتلونها على نسقٍ بتطريبٍ وتشويقٍ، فإذا فرغوا تلتْ طائفةٌ أخرى على عددهم آيةً ثانيةً، ولا يزالون يتناوبون آياتٍ من سورٍ مختلفاتٍ إلى أن يتكاملوا قراءةً، وقد أتوْا بآياتٍ مشْتبهاتٍ لا يكاد المتَّقدُ الخاطر يُحصِّلُها عَدَدًا أو يسمِّيها نَسَقًا. فإذا فرغوا أخذ هذا الإمامُ الغريبُ الشأن في إيراد خطبته عَجِلًا مُبتدِرًا، وأفرَغَ في أصداف الأسماع من ألفاظه دُرَرًا، وانتظَمَ أوائلَ الآياتِ المقروءاتِ في أثناء خطبته فِقَرًا، وأتى بها على نَسَق القراءة لها لا مقدِّمًا ولا مؤخِّرًا! ثم أكمل الخطبةِ على قافية آخر آيةٍ منها، فلو أنَّ أبدعَ مَنْ في مجلسه تكلّف تسميةَ ما قرأ القرَّاءُ به آيةً آيةً على الترتيب لَعَجَزَ عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مُرتجِلا؟! ويُوردُ الخُطبةَ الغراءَ بها عَجِلًا؟! ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦]، فحَدِّثْ ولا حرَجَ عن البَحْر، وهيهات ليس الخَبَرُ عنه كالخُبْر!
ثم إنه أتى بعد أن فرَغَ من خطبته برقائقَ من الوعظ، وآياتٍ بيناتٍ من الذِّكْر، طارت لها القلوبُ اشتياقًا، وذابت بها الأنفسُ احتراقًا. إلى أن علا الضجيج، وتردَّد بشهقاتِه النشيج. وأعلن التائبون بالصِّياح، وتساقطوا عليه تساقطَ الفَرَاش على المصباح. كلٌّ يُلقي ناصيتَه بيده فيَجزُّها، ويمسح على رأسه داعيًا له. ومنهم من يُغْشَى عليه، فيُرفعُ في الأذْرُع إليه، فشاهدْنا هَوْلًا يَملأُ النفوسَ إنابةً وندامةْ، ويُذكِّرها هولَ يوم القيامةْ، فلو لمْ نركبْ ثَبَجَ البَحْر، ونعتسِفْ مفازاتِ القَفْر، إلا لمشاهدة مجلسٍ من مجالس هذا الرجل، لكانت الصفقةَ الرابِحَةْ، والوِجْهةَ المفلِحَةَ الناجِحَةْ، والحمدُ لله على أنْ أبقى مَنْ يَشهدُ =

نظيرٌ، ولم يُسْمَعْ بِمِثْلِها، وكانت عظيمةَ النَّفْعِ، يَتذكَّرُ بها الغافلون، ويتعلَّمُ منها الجاهلون، ويتوبُ فيها المُذْنِبون، ويُسْلِمُ فيها المُشْرِكون، وقد ذكَرَ في «تاريخِهِ» أنه تكلَّم مرةً، فتاب في المجلسِ على يدِهِ نحوُ مائتيْ رجلٍ، وقُطِعَتْ شُعُورُ مئةٍ وعشرينَ منهم».

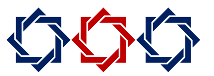
وقد أبدَعَ في كتبٍ كثيرةٍ من مؤلَّفاتِهِ، منها: «زادُ المَسِيرِ»، و«المُدْهِشُ»، و«التبصرةُ»، وغيرُها. أمّا «صَيْدُ الخاطرِ» فهو الإبداعُ بعينِهِ![1].

ومِنْ لطائفِ كَلِمِهِ قولُهُ يومًا على المنبرِ: «أهلُ البدعِ يقولون: ما في السماءِ أحدٌ، ولا في المُصْحَفِ قرآنٌ، ولا في القَبْرِ نبيٌّ؛ ثلاثُ عَوْراتٍ لكم!».

وقولُهُ: «يفتخرُ فرعونُ مصرَ بنهرٍ ما أجْراه، ما أجْراه!».

وقولُهُ: «الأملُ مذمومٌ إلا للعلماءِ، فلولاه ما صنَّفوا!».

وقولُهُ: «مَنْ قَنِعَ طابَ عَيْشُه، ومَنْ طَمِعَ طالَ طَيْشُه!».



=

الجماداتُ بفضلِه، ويَضيقُ الوجودُ عن مثلِه.

وفي أثناء مجلسه ذلك يبتدرون المسائلَ، وتطير إليه الرِّقاعُ، فيُجاوبُ أسرعَ من طرفة عينٍ! وربما كان أكثرُ مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضلُ بيد الله، يؤتيه مَنْ يشاءُ لا إلهَ سواه...» رحلة ابن جبير (ص/ ١٩٦) فما بعد.

(١) تكلَّمتُ عنه بالتفصيل في كتابي الآخَر «التأصيل العلمي».



أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ بنِ عبدِ السلامِ الحرَّانيُّ، شيخُ الإسلام، وعلَمُ الأعلام، قاضي مَحَاكمِ المعقولِ والمنقول، وفَيْصَلُ أحكامِ الفروعِ والأصول، ومَنْ إليه المرجعُ والمآب، في علومِ السُنَّةِ والكتاب.

والحقُّ أني لا أدري كيفَ أَبْدَأُ، ولا أينَ أمضي، ولا متَى أنتهي مع هذا العَلَمِ الفَرْد، فهوَ أُمَّةٌ جَمَعها الله في رجلٍ!

وَلَيْسَ بِـدْعًا وَلَا فِي اللهِ مُمْتَنِعًا ... أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ الكُلِّيَّ في رَجُلِ!

«رفضَ الدُّنْيا وَرَاء ظَهرِه، وعاملَ اللهَ في سِرِّه وجَهْرِه، وصَمَّمَ على دِينِه:

مُصَمِّمٌ ليسَ تَلْوِيهِ عَواذِلُهُ ... في الدِّينِ ثَبْتٌ قَوِيٌّ بأْسُهُ عَسِرُ

وحَوَّمَ على الْمنيَّةِ في نُصْرَة الْحقّ، لا يَخافُ الأسَدَ في عرينِه:

ولا يَلِينُ لغيرِ الْحقِّ يَتبَعُهُ ... حتَّى يَلِينَ لِضِرْسِ الماضِغِ الْحَجَرُ!

وشَمَّرَ عن ساقِ الاجْتِهَاد:

بِهِمَّةٍ في الثُّرَيّا إِثْرُ أَخْمَصِها ... وعَزْمَةٍ ليسَ من عاداتِها السَّأَمُ

ودَمَّرَ ديارَ الأعْداءِ ذَوِي الفساد:

وعَمَّرَ الدِّينَ عزمٌ منه مُعتَضِدٌ ... باللهِ تُشْرِقُ من أنوارِهِ الظُّلَمُ

وصَبرَ والسيفُ يَقْطُرُ دَمَا:

والصَّــبْرُ أجمــلُ إلَّا أنــهُ صَــبِرٌ ... ورُبمَا جَنَتِ الأعقابُ مِن عَسَلِهْ

وبَدَرَ بِجَنَانٍ لا يُخادِعُهُ حُبُّ الحياةِ ولا تَشُوقُهُ ألحاظُ الدُّمَى:

لكنَّــهُ مُغْــرَمٌ بــالْحَقِّ يَتبعُــهُ ... للهِ في اللهِ، هــذا مُنْتَهــى أملِــهْ»[(١)].

أَقَرَّ له بالإمامةِ في الدِّينِ القريبُ والبعيدُ، والموافقُ والمخالِفُ على حدٍّ سواءٍ، مِنْ لَدُنْ عصرِهِ إلى عصرِنا هذا، وكان يَجْلِسُ إليه أتباعُ الطوائفِ والفِرَقِ والمذاهبِ، فيأتيهم بأشياءَ لا يعرفونها في مذاهبِهم! فيستفيدُ كلُّ واحدٍ في مذهبِهِ ما لم يكُن يَعلمُ.

قال ابنُ الزَّمْلَكَانيِّ: «كان إذا سُئِلَ عن فَنٍّ من الفُنُونِ، ظَنَّ السامعُ أنه لا يَعْرِفُ غيرَ ذلك الفَنِّ!».

وقال عنه ابنُ دَقِيقِ العيدِ: «ما أَظُنُّ أنَّ اللهَ بَقِيَ يَخْلُقُ مِثْلَكَ!».

ولقد صدَقَ رَحِمَهُ اللَّهُ، فلم يَأْتِ بَعْدَهُ حتى اليومِ مَنْ يدانيه في علمِه، أو يقاربُه في فهمِه.

إِذَا تَغَلْغَـلَ فِكْـرُ الـمَرْءِ في طَـرَفٍ ... مِـنْ مَـجْدِهِ غَرِقَـتْ فِيـه خَـوَاطِرُهُ!

وهذا الرجلُ لم يَقِفْ على ثُغْرةٍ واحدةٍ من ثُغُورِ الإسلام - كحالِ غيرِهِ من العُلَماءِ - بل وقَفَ على ثُغُورٍ كثيرةٍ، فواجَهَ اليهودَ والنصارى، وواجَهَ عُتَاةَ الفلاسفةِ، وواجَهَ غُلَاةَ الصُّوفيَّةِ، وواجَهَ معظمَ أصحابِ الفِرَقِ المُنْحَرِفةِ؛ كالجهميةِ، والرافضةِ، والمعتزلةِ، والأشاعرةِ، وغيرِهم، وواجه مُقلِّدَةَ الفقهاءِ

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي (٤/ ١٢٧).

والمتعصِّبين منهم... بل وواجه في ميدانِ الحَرْبِ التتارَ، حتى كَسَرَ شَوْكَتَهم في الأخبارِ المشهورةِ عنه.

كان هذا الإمامُ يَكْتُبُ في المسألةِ الواحدةِ مجلَّدًا من المجلَّداتِ الضِّخَام! ويَرُدُّ على الشُّبْهةِ الواحدةِ بِسِفْرٍ من الأسفارِ الفِخَام! يَصْدُقُ على قَلَمِهِ ما قاله بعضُهُم[١]:

قَلَــــمٌ حَــــدُّ شَــــبَاهُ   لِكِتَــابِ العِلْــمِ خَــاصّ

طَــــائِعٌ للهِ جَــــلَّ اللهُ   لِلشَّــيْطَانِ عَــــاصْ

كُلَّمَــا خَــطَّ كِتَابًــا   بِمَعَــانِي العِلْــمِ غَــاصْ!

ومَعَ ذلكَ: فإنه ما سَلِم من كيْدِ بعضِ عُلَماءِ عَصْرِهِ وتأليبِهم عليه، فقد حُبِسَ بسببِهم مَرَّاتٍ عِدَّةً، بل ما كفاهم ذلك حتى سَعَوْا في طلب سفكِ دمِهِ والنِّكَايةِ به!!

تُوفِّيَ رَحِمَهُ اللَّهُ في سِجْنِهِ صابرًا مُحْتَسِبًا في ليلةِ الاثنينِ الموافقِ للعشرينَ من ذي القَعْدةِ من عام (٧٢٨ هـ).

وبكلِّ حالٍ: فالرَّجُلُ أخبارُهُ كثيرة، ومآثرُهُ شهيرة، وقد أَلَّف العلماءُ في سيرتِهِ مؤلَّفاتٍ كثيرة[٢].

---

(١) الأبيات لِحَمْد بن حَمْدون بن عمر القيسي. انظر: الصلة: لابن بشكوال (ص/ ١٥٤)، وجذوة المقتبس: للحميدي (ص/ ١٩٩)، وبغية الملتمس: للضبي (ص/ ٢٧٥).

(٢) منها: «الأعلامُ العَلِيّةُ» للبَزّار، و«العقودُ الدُّرِّيَّةُ» لابن عبد الهادي، و«الشهادةُ الزكيّةُ» للكَرْمي، وغيرُها.



الحافظُ الذَّهبيُّ
(ت ٧٤٨ هـ)

محمدُ بنُ أحمدَ بنِ عثمانَ بنِ قايمازْ الذهبيُّ، شمسُ الدين، أبو عبد الله.

شيخُ المؤرِّخين، وفقيهُ المُتَرْجِمِين، الحافظُ الجِهْبِذُ، الحُجَّةُ في معرفةِ الرجالِ وأخبارِهم وسِيَرِهم.

جَمَعَ «تاريخَ الإسلامِ»، فأربى فيه على مَنْ تَقدَّم؛ بتحريرِ أخبارِ العلماءِ عمومًا، والمحدِّثينَ خصوصًا، وقد اختَصَرَ منه مختصراتٍ كثيرةً منها: «العِبَرُ»، و«طَبَقاتُ الحُفَّاظِ»، و«طبقاتُ القراءِ»، وغيرُ ذلك.

وله «ميزانُ الاعتدال في نَقْدِ الرِّجَال»، أجاد فيه أيضًا، واختصَرَ «تهذيبَ الكمالِ» لشيخِهِ المِزِّيِّ، وخرَّج لنفسِهِ «المعجمَ الكبيرَ»، و«الصغيرَ»، و«المختصَّ بالمحدثينَ»، ورَغِبَ الناسُ في تواليفِهِ، ورحَلُوا إليه بسببِها، وأَوْلَوْهَا العنايةَ التامةَ قراءةً ونسخًا وسماعًا.

قال البَدْرُ النَّابُلُسِيُّ: «كان عَلَّامةَ زمانِهِ في الرِّجَالِ وأحوالِهم، حديدَ الفَهْمِ، ثاقبَ الذِّهْنِ، وشهرتُهُ تغني عن الإطنابِ فيه»[١].

وقال الصَّفَديُّ: «حافظٌ لا يُجَارَى، ولافظٌ لا يُبَارَى، أتقَنَ الحديثَ ورجالَهْ، ونَظَرَ عِلَلَهُ وأحوالَهْ، وعرف تراجمَ الناسْ، وأزالَ الإبهامَ في تواريخِهم

---

(١) انظر: الدرر الكامنة: لابن حجر (٥/ ٦٨).

والإلباسْ، مِنْ ذهنٍ يَتوقَّدُ ذَكاؤُهْ، ويَصِحُّ إلى الذهبِ نسبتُهُ وانتماؤُهْ، جمعَ الكثيرْ، ونفعَ الجَمَّ الغفيرْ، وأكثرَ مِنَ التصنيفْ، ووفَّر بالاختصارِ مُؤْنةَ التطويلِ في التأليفْ، وقَفَ الشيخُ كمالُ الدينِ ابنُ الزَّمْلَكانيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ على تاريخِهِ الكبيرِ المسمَّى بـ (تاريخِ الإسلامِ) جزءًا بعدَ جزءٍ إلى أن أنهاه مطالعةً، وقال: «هذا كتابُ عِلْمٍ»، لم أَجِدْ عندَهُ جُمودَ المحدِّثين، ولا كَوْدَنَةَ[1] النَّقَلةِ، بل هو فقيهُ النَّظَرِ، له دُرْبَةٌ بأقوالِ الناسِ ومذاهبِ الأئمةِ مِنَ السلفِ وأربابِ المقالاتِ، وأعجبني منه ما يُعانيه في تصانيفِهِ من أنه لا يتعدَّى حديثًا يُورِدُهُ حتى يُبيِّنَ ما فيه من ضَعْفِ مَتْنٍ، أو ظلامِ إسنادٍ، أو طَعْنٍ في رواتِهِ، وهذا لم أر غَيْرَهُ يراعي هذه الفائدةَ فيما يُورِدُه، وله في تراجمِ الأعيانِ لكلِّ واحدٍ مصنَّفٌ قائمُ الذاتِ، مثلُ الأئمةِ الأربعةِ ومَنْ جرى مجراهم، لكنَّه أدخَلَ الكُلَّ في (تاريخِ النبلاءِ)»[2].

ومِنْ شعرِهِ الذائعِ قولُهُ:

الْعِلْمُ: قَالَ اللهُ قَالَ رَسُولُهُ ... إِنْ صَحَّ وَالإِجْمَاعُ فَاجْهَدْ فِيهِ
وحَذَارِ مِنْ نَصْبِ الخِلاَفِ جَهَالَةً ... بَيْنَ الرَّسُولِ وَبينَ رَأْيِ فَقِيهِ!

وقولُهُ في ذمِّ عِلْمِ الكَلَامِ:

أَفِقْ يَا مُعَنَّى بِجَمْعِ الخُطَا ... مِ وَدَرْسِ الكَلَامِ وَمَيْنٍ يُصَاغُ

---

(١) الكَوْدَنَةُ: تُطلقُ على البُطْءُ في المشْي. وعلى الهُجْنَة. ولعلّ المراد بها هنا عدم الضبط والتحرير. والله أعلم.
وانظر: أساس البلاغة: للزمخشري (٢/ ١٢٧)، والقاموس المحيط (ص/ ١٢٢٧).
(٢) الوافي بالوفيات: للصفدي (٢/ ١١٤- ١١٥).

وَلَازِمْ تِــلَاوَةَ خَيْــــرِ الكَــــلَا ... مِ وَجَانِـبْ أُنَاسًـا عَـنِ الحَـقِّ زَاغُـوا

وَلا تُخـدَعَنْ عَـنْ صَـحيحِ الحَدِيـ ... ـثِ فَـمَا فِي مُحـِـــقٍّ لِرَأْيِ مَسَاغُ

وَمَـا للتَّــــقِيِّ وَلِلبَــــحْـــثِ في ... عُلُـــــومِ الأَوَائِـلِ يَــــوْمًا فَــرَاغُ

بـــلَاَغًا مِـــنَ اللهِ فَاسْمَـعْ وَعِشْ ... قَنُـــوعًا ، فَـمَا العَـيْشُ إِلَّا بَـلاَغُ

وبكلٍّ: فالرجلُ عُمْدةُ مَنْ جاء بَعْدَهُ من المؤرِّخينَ؛ ولذا تجدُ أكثرَ مَنْ أَلَّف بعدَهُ إنما بدأوا من المئةِ الثامنةِ فما بَعْدُ، لِعِلْمِهم أنهم لن يأتوا بطائلٍ فيما لو أَلَّفوا في القرونِ السبعةِ الأولى بعدَ أنْ أَلَّف فيها الذهبيُّ! والله أعلمُ[(١)].

(١) أحسَنُ مَنْ دَرَسَ حياةَ الإمام الذهبيّ - فيما أعلم -: الدكتورُ/ بَشَّار عَوَّاد معروف في كتابه العظيم: (الذهبيُّ ومنهجُه في كتاب تاريخ الإسلام).



ابنُ قَيِّمِ الجَوْزِيَّة
(ت ٧٥١ هـ)

الإمامُ العَلَمُ، محمدُ بنُ أبي بَكْرِ بنِ أيوبَ بنِ سَعْدٍ الزُّرَعِيُّ الدمشقيُّ، شيخُ الإسلامِ الثاني، بعدَ ابنِ تيميَّةَ الحَرَّاني، وأحدُ كبارِ المجدِّدينَ والمُبْدِعِينَ من العلماءِ.

أُوتِيَ مَقْطعَ الحقِّ، ومَشْعَبَ السَّدَادِ، ومِفْصَلَ الصواب، وفصْلَ الخِطَاب.

وَكَـانَ مِـنَ العُلُـومِ بِحَيْـثُ يُقْضَـى … لَـــهُ فِي كُـلِّ عِلْـمٍ بِـالجَمِيعِ

تتَلْمَذَ على شيخِ الاسلامِ ابنِ تيميَّةَ واختَصَّ به، وناصره وانتصرَ له، وتأثّرَ به حتى لا يكادُ يَخْرُجُ عن شيءٍ مِنْ أقوالِهِ، وسُجِنَ مع شيخِهِ في قَلْعَةِ دِمَشْقَ، وأُهِينَ وعُذِّب بسببِهِ، وطِيفَ به على جَمَلٍ مضروبًا بالعِصِيِّ! وأُطْلِقَ بعدَ مَوْتِ شيخِهِ[١].

---

(١) والسببُ في شِدّة تعلُّقه بشيخه هو ما ذكره في «النونية» من أنه كان السببَ في دلالته على الحق، وأخذه بيده إليه:

يـا قـومِ واللهِ العظـيمِ نصـيحةٌ … مِـنْ مُشـفقٍ وأخٍ لكـم مِعْـوانِ
جَرَّبْـتُ هـذا كلَّـه ووقعـتُ في … تلـك الشـباكِ وكنـتُ ذا طيـرانِ
حتـى أتـاحَ لـيَ الإلـهُ بفضـلِه … مَـنْ لـيسَ تَجزيـهِ يـديْ ولسـاني
حَبْـرٌ أتـى مـن أرضِ حَـرَّانَ فيـا … أهـلًا بمـن قـد جـاء مـن حَـرَّانِ
=

له المصنَّفاتُ العظيمةُ التي ليس لها نظيرٌ في بابِها، والتي تَدُلُّ على مَلَكَاتٍ عِلْميةٍ هائلةٍ؛ منها:

«إعلامُ الموقِّعينَ»، و«زادُ المَعَادِ»، وبهما اشْتَهَرَ وذاع صيتُهُ وساد، و«الطُّرُقُ الحُكْميَّة، في السياسةِ الشرعيَّة»، و«شِفَاءُ العَلِيلْ، في مسائلِ القضاءِ والقَدَرِ والحِكْمةِ والتعليلْ»، و«أحكامُ أهلِ الذمَّةِ»، و«تحفةُ المودودْ بأحكامِ المولودْ»، و«مفتاحُ دارِ السَّعَادةِ»، و«الصَّواعقُ المُرْسَلَة على الجهميَّةِ والمعطِّلة»، و«الكافيةُ الشافيةُ» منظومةٌ طويلةٌ جِدًّا في العقائدِ، نظْمُها من أعذبِ النظمِ وأسناه، و«مَدَارجُ السالكينَ»، و«كتابُ الفروسيَّةِ»، و«الوابلُ الصَّيِّب من الكَلِمِ الطَّيِّب»، و«الرُّوحُ»، و«الفوائدُ»، و«رَوْضةُ المحبِّينَ»، و«حادي الأرواحِ، إلى بلادِ الأفراحِ»، و«إغاثةُ اللهفانِ»، و«اجتماعُ الجيوشِ الاسلامية، على غزوِ المعطَّلةِ والجهميَّة»، و«الجوابُ الكافي»، ويُسمَّى: «الداءَ والدواءَ»، و«طريقُ الهجرتَيْن» و«عِدَةُ الصابرين»، و«هدايةُ الحيارى»، وغيرُها من المؤلَّفاتِ النفيسةِ التي ما زال العلماءُ وطلابُ العلمِ يَنْهَلُونَ منها جِيلًا بعد جِيل، ورَعيلًا بعد رَعيل، حتى يَوْمِنا هذا[1].

=

فـالله يَجزيـه الـذي هـو أهلُـهُ ... مِـنْ جَنّـةِ المـأوى مـعَ الرِّضـوانِ

أخـذتْ يـداهُ يـديْ وسـارَ فلـم نَـرِمْ ... حتـى أرانيْ مَطلَـعَ الإيمـانِ

ورأيـتُ أعـلامَ المدينـةِ حَولَهـا ... يَـزَكُ الهُـدى وعسـاكِرُ القُـرآنِ

الكافية الشافية (ص/ ١٢٩ - ١٣٠).

(١) أعظمُ ما أُلِّفَ في سيرة هذا الحبر البحر كتابُ: «ابن قيمِّ الجوزية حياته آثاره موارده»، للشيخ: بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



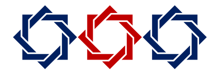
الشَّاطِبِيُّ
(ت ٧٩٠ هـ)

أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ موسى الشاطبيُّ، الأصوليُّ النابهُ، والعالمُ الْـمِفَنُّ، صاحبُ الكتابِ العظيمِ «الموافقاتِ» في أصولِ الفقهِ، الذي لم يَنْسُجْ أحدٌ قبلَهُ على منوالِهِ.

ولْنَدَعِ الكلامَ عن كتابِهِ هذا للشيخِ العلامةِ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ **حيث قال في تقديمِهِ للكتابِ:** «أبو إسحاقَ هو مؤلِّفُ غِرْناطةَ الإبداعيُّ في كتبِهِ: «الموافقاتِ» في أصولِ الشريعةِ ومقاصدِها، و«الاعتصامِ» في السُّنَّةِ وقمعِ البدعةِ..

وهو - رحمةُ الله عليه - في مؤلَّفاتِهِ هذه بعيدٌ عن طرقِ التأليفِ التقليديّةِ، والعملِ المكرورِ، وإنما يَفترعُها افتراعًا، ويُبْدِعُ فيها إبداعًا؛ لأنه قد اتخَذَ القرآنَ والسُّنَّةَ له نِبْراسًا وإمامًا، وحَذِقَ لسانَ العربِ لغةً ونحوًا وفِقهًا واشتقاقًا، بما لم يُدْرِكْ شَأْوَهُ مَنْ لَحِقَهُ، ولم يُنْسَجْ على منوالِهِ ومسلكِهِ؛ فلا جَرَمَ كان نجمًا لامعًا، أضاءَ الأمةَ الإسلاميةَ في المشارقِ والمغاربِ، فلَفَتَ الأنظار، وعكَفَتْ على كتبِهِ الأبصار، واستضاءتْ بأنوارِها بصائرُ أهلِ الأمصار....

والكتـابُ وضَـعَهُ هـذا الإمـامُ ليكـونَ وسـيلةً إلـى فقـهِ الاسـتنباطِ بِحِـذْقِ اللسانِ، وتشـخيصِ علـمِ المقاصـدِ؛ إلا أنـه في حقيقتِـهِ: فِقـهٌ في الـدِّينِ، ومثـالٌ متميِّزٌ في توظيـفِ الاسـتقراءِ الكلـيِّ لفهـمِ نصـوصِ الـوحيَيْنِ، وعِلـمٌ متكامـلٌ بنظامِ الشريعةِ وأُسُسِ التشريعِ ومقاصدِهِ في مصالحِ العبادِ في الدارَيْن»[١].



(١) طُبع كتابُ «الموافقات» مرارًا، ومِن أحسنها الطبعةُ التي حقَّقها الشيخُ: مشهورُ بنُ حسن آل سلمان أثابه الله، كما هذَّبه ولخَّص مباحثَه ومهمّاتِه أكثرُ من واحدٍ.

وانظر ترجمةَ الشاطبيِّ مستوفاةً في: خاتمة تحقيق الشيخ مشهور للكتاب (٦/ ٧-٥٣).



عبدُ الرحمنِ بنُ محمَّدٍ الحَضْرَميُّ، الإشبيليُّ الأصلِ، التُّونُسِيُّ، المؤرِّخُ العظيمُ، صاحبُ المقدِّمةِ الشهيرةِ، التي صارت فيما بعدُ أشهرَ كتابٍ في عِلْمِ الاجتماعِ[١].

قال عنه لسانُ الدين ابنُ الخَطِيبِ: «هذا الرجلُ الفاضلُ حَسَنُ الخُلُق، جَمُّ

---

(١) مقدِّمة ابن خلدون التي اشتهرتْ بهذا الاسم، هي مدخلٌ موسَّعٌ لكتابه الشهير «العِبَر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجَم والبربر، ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» يتصدّرُها ما سُمِّيَ بالمقدمة.
تناول ابنُ خلدون في هذه المقدمة حقائقَ جغرافية ورياضية وعمرانية وفلكية كثيرة. كما تناول التاريخ ومذاهبه وأحوال البشر واختلافات طبائعهم، والبيئة وأثرها في الإنسان، وتطور الأمم والشعوب وأسباب انهيارها... إلى غير ذلك من مسائل العلوم الاجتماعية التي جعلتْ من ابن خلدون مؤسِّسًا لعلم الاجتماع، حيث سبقتْ آراؤُه وأفكارُه ما توصَّل إليه الفيلسوفُ الفرنسيُّ أُوجُوسْت كُونْت بعد ذلك بعدة قرون.
وكانت نظراتُ ابن خلدون في أحوال المجتمع الإنساني أو ما أسماه بأحوال العمران البشري نَقلةً أيضًا في دراسة التاريخ التي لم تعد مجرد سرد للأحداث، وإنما أصبحت ميدانًا للتفكُّر والتحليل والاستنباط.
تُرجمتْ المقدمةُ إلى العديد من اللغات الحيّة، وتُعتبر من أهم منجَزات الفكر العربي الإسلامي، وعليها تقوم أهميةُ ابن خلدون وشهرتُه. وانظر: الموسوعة العربية العالمية (٢٣/ ٥٦٧).

الفضائل، باهِرُ الخَصْل، رَفيعُ القَدْر، ظاهرُ الحياء، أصيلُ المجْد، وَقورُ المجلس، خاصِّيُّ الزِّيّ، عالي الهِمّة، عَزُوفٌ عن الضَّيْم، صَعْبُ المقادَة، قَويُّ الجأْش، طامِحٌ لِقُنَن الرياسة، خاطِبٌ للحَظّ، مُتقدِّمٌ في فنونٍ عقليّةٍ ونقليّةٍ، مُتعدِّدُ المزايا، سَديدُ البحث، كثيرُ الحِفْظ، صحيحُ التصوُّر، بارعُ الخطّ، مُغْرىً بالتجِلَّة، جَوادُ الكَفّ، حَسَنُ العِشْرة، مَبذولُ المشاركة، مُقيمٌ لرُسوم التعيُّن، عاكفٌ على رَعْي خِلال الأصالة، مَفخرةٌ من مفاخر التُّخوم المغرِبيّة»[١].

وقال المَقْرِيزيُّ في وصفِ مقدِّمته: «مقدِّمتُهُ لم نَعْلمْ مِثَالَها، وإنه لعزيزٌ أن يَنَالَ مُجْتهِدٌ مَنَالَها؛ إذْ هي زُبْدَةُ المعارفِ والعُلومْ، ونتيجةُ العقولِ السليمةِ والفُهومْ، تُوقِفُ على كُنْهِ الأشياءْ، وتُعرِّفُ حقيقةَ الحوادثِ والأنباءْ، وتُعبِّرُ عن حالِ الوجودْ، وتُنْبِئُ عن أصلِ كلِّ موجودْ، بلفظٍ أبهى من الدُّرِّ النظيمْ، وألطفِ مِنَ الماءِ مَرَّ به النسيمْ»[٢].

وقال ابنُ عَمَّارٍ- أحدُ الآخِذِينَ عنه -: «الأستاذُ المنوّهُ بلسانِ سيفِ المحاضَرة، وسَحْبانُ أَدَبِ المحاضَرة، كان يَسْلكُ في إقرائِهِ الأصولَ مَسْلَكَ الأقدمينَ كالإمامِ الغَزَاليِّ والفخرِ الرازيِّ، مع الغضِّ والإنكارِ على الطريقةِ المتأخِّرةِ التي أحدَثَهَا طَلَبَةُ العجمِ ومَنْ تَبِعَهم، في توغُّلِ المشاحَّةِ اللفظيةْ، والتسلسلِ في الحَدِّيَّةِ والرَّسْمِيةْ، اللَّذَيْنِ أثارهما العَضُدُ وأتباعُهُ في الحواشي عليه... وله من المؤلَّفاتِ غيرُ الانشاءاتِ النثريةِ والشعريةِ التي هي كالسِّحْرِ:

---

(١) الإحاطة في أخبار غرناطة (٣/ ٤٩٧ – ٤٩٨). **وانظر:** نفح الطيب (٦/ ١٧٢).

(٢) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة (٢/ ٤٠٣).

التاريخُ العظيمُ المُتَـرْجَمُ بـ «العِبَر، في تاريخِ الملوكِ والأممِ والبَرْبَر»، حَوَتْ مقدِّمتُهُ جميعَ العلومْ، وجَلَتْ عن مَحَجَّتِها ألسنةَ الفصحاءِ فلا تَرُوحُ ولا تَحُومْ، ولَعَمْري إنْ هو إلاَّ من المصنَّفاتِ التي سارَتْ أَلْقَابُها بخلافِ مضمونِها؛ كـ «الأَغَاني» للأَصْبَهانيِّ، سمَّاه الأغانيَ وفيه مِنْ كُلِّ شيءٍ، والتاريخِ للخطيبِ سمَّاه «تاريخَ بَغْدادَ» وهو تاريخُ العَالَمِ، و«حِلْيَةِ الأولياءِ» لأبي نُعَيْمٍ سمَّاه «حِلْيَةَ الأولياءِ» وفيه أشياءُ جمةٌ كثيرةٌ»(١).

وقال الأستاذُ أحمدُ الزُّعْبيُّ في مقدِّمةِ تحقيقِهِ لمقدِّمةِ ابنِ خَلْدون: «يَحْتَلُّ ابنُ خَلْدون في التراثِ العربيِّ الإسلاميِّ، وفي الفِكْرِ الغَرْبيِّ المُعاصِرِ(٢)؛ مكانةً متميِّزةً، ويُنظَرُ إليه على أنه صاحبُ رُؤيةٍ حضاريةٍ خاصَّةٍ، سيَّما(٣) فيما يَتعلَّقُ

---

(١) انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (٤/ ١٤٨-١٤٩).

(٢) حيثُ قال عنه المؤرِّخُ الإنجليزيُّ «آرنولْد تونبي»: «ابتكر وصاغ فلسفةً للتاريخ هي بلا ريبٍ أعظمُ ما بلغه الفِكْرُ البَشريُّ في جميع العصور والأمم!».

- وقال المستشرقُ الفرنسيُّ «تياي»: «إنَّ ابنَ خلدون قد ترك لنا تآليفَ قيِّمةً، لم تُغنِ الآدابَ العربيةَ وحدَها، بل التراثَ الثقافيَّ للإنسانية جمعاء؛ فهو مؤسِّسُ علم الاجتماع، وواضعُ منهج الكتابة التاريخية العلمية».

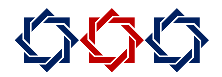
- وقال المستشرقُ الفرنسيُّ «إيفلا كوسْت» عن كتابه: «إنه يمثِّلُ ظهورَ التاريخ كعلمٍ، وهو أروعُ عنصرٍ فيما يمكن أن يُسمّى بالمعجزة العربية!». وانظر كتاب عبقريات ابن خلدون: لعلي عبد الواحد وافي.

- وقال العالمُ الأمريكيُّ «جورج سارتون» في كتابه «مدخل العلم»: «انه لمن المدهش أن يكون ابنُ خلدون قد توصَّل في تفكيره إلى اصطناع ما يُسمّى بطريقة البحث التاريخي».

(٣) فائدة: حَذْفُ (لا) من (لا سِيَّما) غيرُ جائزٍ عند النحاة.

قال أبو حيّان الأندلسي: «ما يُوجدُ في كلام المصنِّفين من قولهم: «لا سيَّما والأمرُ كذلك» تركيبٌ غيرُ عربيٍّ، وكذلك حَذْفُ (لا) من (لا سيَّما) إنما يُوجد في كلام الأدباء المولَّدين =

بدراسةِ التاريخِ البَشَريِّ والمجتمعِ الإنسانيِّ، والعمرانِ الحضاريِّ... ويشارُ إلى ابنِ خَلْدون في مُناسَباتٍ عديدةٍ باعتبارِهِ صاحبَ منهجيَّةٍ في النظرِ والتفكيرِ، والبحثِ والتفسيرِ، مَثَّلَتْ في زمانِهِ قَفْزةً إبداعيةً متميِّزةً، ووُصِفَتْ بعضُ إنجازاتِهِ بأنها غيرُ مسبوقةٍ، باعتبارِهِ مُؤسِّسَها وأنها لم تَكُنْ معروفةً قبلَهُ»(١).



=

لا في كلام من يُحتجُّ بكلامه». ارتشاف الضَّرَب من لسان العَرَب (٣/ ١٥٥٢).

(١) انظر ترجمتَه بالتفصيل في: مقدمة الدكتور/ علي عبد الواحد وافي لكتاب: (مقدِّمة ابن خلدون).

تنبيه: وقعتْ بعضُ الأغلاط والمؤاخذات العلميّة في مقدِّمة ابن خلدون، وسوف أُنبِّه عليها في بحثٍ خاصٍّ -إن شاء اللهُ تعالى-.



الحافظ ابن حجر العسقلاني
(ت ٨٥٢ هـ)

أحمدُ بنُ عليٍّ بنِ محمدٍ الكِنَانيُّ أبو الفضل، إمامٌ من أئمَّةِ العلمِ وحُفَّاظِ الحديثِ الكبارِ، بل قيل إنه خاتمتُهم[(١)].

أُولِعَ الحافظُ بالأدبِ والشِّعرِ في أولِ أمرِهِ، وله ديوانُ شعرٍ مطبوعٌ[(٢)]، ثم أقبَلَ بكلِّيّته على الحديثِ وعلومه، ورحَلَ إلى اليمنِ والحجازِ والشامِ وغيرِها لسماعِ الشيوخِ، وذاعتْ شُهْرَتُهُ؛ فقَصَدَهُ الناسُ للأخذِ عنه، وصارَ حافظَ الاسلامِ في عصرِهِ، حتى إنه إذا أُطلِقَ لقبُ الحافظ عند المتأخِّرين انصرفَ إليه[(٣)].

---

(١) أحسنُ مَنْ ترجمَ الحافظَ ابنَ حجر من المتقدِّمين: تلميذُه الحافظُ السخاويُّ في كتابه العظيم: «الجواهرُ والدُّرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر» وهو مطبوعٌ في ثلاثة مجلدات. ومن المعاصرين: الدكتورُ/ شاكر محمود عبدالمنعم في كتابه الفذّ: «ابنُ حجر العسقلاني مصنَّفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة».

(٢) لكنْ وَصَفَ العلّامةُ محمدُ البشيرُ الإبراهيميُّ زمنَ الحافظ ابن حجر بزمن انحطاط الأدب، ونزوله إلى الدَّرْك الأسفل، وفساد مقاييسه. ثم قال: «حتّى يُصبحَ ابنُ حجر حافظُ السنّة وأفقهُ فقهائها في عصره شاعرًا، وما هو بشاعرٍ!» آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٤/ ١٥٩).

(٣) طَريفةٌ: كنتُ يومًا- بحُكْم موافقة اسْمي لاسْم الحافظ، ومَيْلي للأدب أولَ الأمر مثلَه، واختصاصي بالحديث بعد ذلك- أتشبَّه به في الكُنية واللَّقب، وأحاول جَهدي أَخْذَ مآخذه في العلم والبحث، ولكنْ هيهاتَ هيهاتَ!! فأين الثَّرَى من الثُّريَّا؟! وأين الزُّرْزُورُ من الحُدَيَّا؟! =

له المصنَّفاتُ العظيمةُ التي سارت مَسِيرَ الشَّمْسِ، والتي أبدَعَ في تأليفِها غايةَ الإبداعِ، لا سيَّما كتابُهُ الحفيلُ الجليلُ: «**فتحُ الباري**»، الذي لم يُشْرَحْ «صحيحُ البخاريِّ» بمثلِهِ. قال عنه السخاوي: «وهو أجلُّ تصانيفه مطلقًا، وأنفعُها للطالب مغربًا ومشرقًا، وأجلُّها قَدْرًا، وأشهرُها ذِكْرًا»(١).

وكذا كتابُهُ العُجَابُ: «**الإصابة، في تمييزِ أسماءِ الصحابة**»، الذي مكَثَ في تصنيفِهِ أربعينَ سنةً!!

قال الحافظُ السَّخَاويُّ عن مصنَّفاتِهِ: حَصَّلَها الأعيانْ، وتهادى الملوكُ بها إلى أقصى البلدانْ(٢).

ومن هذه المصنَّفاتِ: «الدُّرَرُ الكامنة في أعيانِ المئةِ الثامنة»، و«لسانُ المِيزَانِ»، و«الكافي الشافْ، في تخريجِ أحاديثِ الكشافْ»، و«تقريبُ التهذيبِ»، و«تهذيبُ التهذيبِ»، و«تعجيلُ المنفعة، بزوائدِ رجالِ الأئمةِ الأربعة»، و«تعريفُ أهلِ التقديسِ»، و«بلوغُ المرامْ، من أدلةِ الأحكامْ»، و«المَجْمَعُ المؤسَّسْ، بالمعجمِ المُفَهْرَسْ»، و «نزهةُ النَّظَرْ، في توضيحِ نُخبةِ الفِكَرْ»،

=

وَكَمْ مِنْ سَمِيٍّ لَيْسَ مِثْلَ سَمِيِّهِ ... وَإِنْ كَانَ يُدْعَى بِاسْمِهِ فَيُجِيبُ!!

ولهذا قلتُ:

أَشْبَهَنِي الشَّيْخُ وَأَشْبَهْتُهُ ... فِي الإِسْمِ والعِلْمِ وَحُبِّ الأَدَبْ

لَكِنَّنِي أَقْصُرُ عَنْ شَأْوِهِ ... لِأَنَّهُ قَدْ حَازَ أَعْلَى الرُّتَبْ!

(١) الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (٢/ ٦٧٥).
وتقدم في الفصل السابع كلامُ الشوكاني وغيرُه عنه.
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٦٥٨) بتصرف.

و«تبصيرُ المُنْتَبِهْ، بتحريرِ المشتَبَهْ»، و«رَفْعُ الإِصْرْ، عن قضاةِ مِصْرْ»، و«إنباءُ الغُمْرْ، بأبناء العُمْرْ»، و«إتحافُ المَهَرَة، بأطرافِ العَشَرة»، و«التلخيصُ الحبيرْ، في تخريجِ أحاديثِ الرافعيِّ الكبيرْ»، وغيرُها من المصنَّفاتِ الجليلةِ.

وقد بلغتْ مؤلَّفاتُهُ كما ذَكَر الدكتورُ/ شاكر محمود عبدالمنعم[(١)]: اثنين وثمانين ومئتيْ (٢٨٢) مصنَّفٍ!!

ومع جَوْدتها وإتقانها إلّا أنّ السخاويَّ نقل عن الحافظ ابن حجر أنه ليس راضيًا عن شيءٍ من تصانيفه إلّا عن سبعةٍ فقط!![(٢)].

لكنْ ذَكَرَ السخاويُّ أنه إنما قال ذلك على سبيل التواضع وهَضْم النفس[(٣)]، رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) **انظر**: كتابه «ابن حجر العسقلاني مصنَّفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه الإصابة» (١/ ١٧٣-٣٨٦).

(٢) **قال السخاوي**: «سمعتُه يقول: لستُ راضيًا عَنْ شيءٍ منْ تصانيفي، لأني عملتُها في ابتداء الأمر، ثم لم يتهيَّأ لي مَنْ يحرِّرُها معي، سوى «شرح البخاري»، و«مقدمته»، و«المشتبه»، و«التهذيب»، و«لسان الميزان». بل كان يقول فيه: لو استقبلتُ مِنْ أمري ما استدبرتُ، لم أتقيَّد بالذَّهبيِّ، ولجعلتُه كتابًا مُبتكرًا، بل رأيتُه في موضعٍ أثنى على «شرح البخاري» و«التغليق» و«النُّخبة»، ثم قال: وأمَّا سائر المجموعات، فهي كثيرةُ العَدَد، واهيةُ العُدَد، ضعيفةُ القُوَى، ظامئةُ الرُّوَى، ولكنها كما قال بعضُ الحفَّاظ مِنْ أهل المئة الخامسة:

وما لِيَ فيه سوى أَنَّني ... أراه هوىً وافقَ المقْصِدا
وأرجو الثوابَ بكَتْبِ الصَّلاةِ ... على السَّيِّدِ المصطفى أحمدا»

الجواهر والدرر (٢/ ٦٥٩).

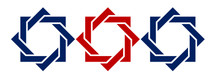
(٣) المصدر نفسه.

وهذه السبعةُ المُرْتضاةُ هي: «هَدْيُ الساري»، و«فتحُ الباري»، و«لسانُ المِيزَانِ»، و«تبصيرُ المُنْتَبِهْ بتحريرِ المشتَبِهْ»، و«تهذيبُ التهذيبِ»، و«نُخبةِ الفِكَرْ»، و«تغليق التعليق».

وقد نظمتُها بقولي:

لَمْ يَرْتَضِ العَسْقلانيْ مِن روائِعِهِ ... جميعِها غيرَ ما أُمْلِيهِ فانْتبِهِ

«هَدْيٌ» و«فَتْحٌ» و«تَهْذِيبٌ» و«نُخْبَتُهُ» ... مَعَ «اللِّسانِ» و«تَغْليقٍ» و«مُشْتَبِهِ»





الخَاتِمَة

وتَتَضَمَّنُ أَهَمَّ النَّتَائِجِ والتَّوْصَيَاتِ

في نهايةِ المَطَافِ أشكُرُ اللهَ ﷻ على ما مَنَّ به عليَّ مِنْ إتمامِ هذا العَمَلِ، مُذَكِّرًا هنا ببعضِ النتائجِ والتوصياتِ التي توصَّلْتُ إليها من خلالِ هذا البحثِ:

١- **أنَّ الإبداعَ العِلْميَّ هو أحدُ الأسبابِ الرئيسةِ للخروجِ بالأمةِ من الذِّلَّةِ والضعفِ والتخلُّفِ الذي حاق بها منذُ أَمَدٍ**، بل إنه مِنْ أعظمِ ألوانِ الجهادِ، وأقوى أسلحتِهِ، وأَشَدِّها مَضَاءً في هذا العصرِ.

٢- **أنَّ الإبداعَ في علمٍ أو فَنٍّ أو مجالٍ لا يَلْزَمُ منه الإبداعُ في بقيةِ العلوم والفنونِ والمجالاتِ الأخرى**؛ فينبغي أن يُدْرِكَ الحريصُ على وقتِهِ هذا الأمرَ مبكِّرًا؛ حتى لا يَضيعَ وَقْتَهُ في أمرٍ يَعْلَمُ أو يَظُنُّ أنه لن يُفْلِحَ فيه، وقد جَعَل اللهُ لكلِّ شيءٍ قَدْرًا.

٣- **أنَّ الإبداعَ -من حيثُ هو- أنواعٌ وأقسامٌ ومستوياتٌ كثيرةٌ**، منها النافعُ والضارُّ، والعسيرُ واليسيرُ، والعامُّ والخاصُّ...

٤- **أنَّ الإبداعَ لا بدَّ له من أُسُسٍ يقومُ عليها**، ولا يُتصوَّرُ وجودُ مُبْدِعٍ دونَها، وهذه الأُسُسُ هي: القُوَّةُ العقليَّةُ، والقوَّةُ النَّفْسيةُ، والقُوَّةُ الجَسَديَّةُ، وأهمُّها هي الأولى، والبقيةُ تَبَعٌ لها.

٥- **أنَّ مِنْ ركائزِ الإبداعِ المهمَّةِ: الشجاعةَ الأدبيةَ**؛ إذِ الإبداعُ في ذاتِهِ لَوْنٌ من ألوانِ الشجاعةِ؛ لأنه شيءٌ جديدٌ على الناسِ، والشيءُ الجديدُ لا تَأْلَفُهُ

النُّفوسُ ولا تَقْبلُهُ العقولُ غالبًا، إلا بعدَ جُهْدٍ جَهيدٍ، ووقتٍ طويل.

٦- **أهميةُ التخصُّصِ الدقيقِ في عمليةِ الإبداعِ العِلْميِّ**؛ ذلكَ لأنَّ طولَ الممارسةِ لفنٍّ مَّا، أو مسألةٍ معيّنةٍ، والانكبابَ على دراستِها، واستفراغَ الوُسْعِ في ذلك، كَفيلٌ بأنْ يُولِّدَ الإبداعَ، ويُنْتِجَ التفوُّقَ.

٧- **أنَّ الإبداعَ لا بدَّ لتحقُّقِهِ من أمرين**: **أولُهما**: سَعَةُ الاطِّلاعِ وكثرةُ البحثِ، **وثانيهما**: دِقّةُ الملاحظةِ وطُولُ التأمُّلِ.

٨- **أنَّ مِنَ الأمورِ المهمَّةِ المنتجةِ للإبداعِ: التصوُّرَ الصحيحَ للفَنِّ والتخطيطَ السليمَ له**؛ لأنَّ العملَ في شيءٍ مّا دُونَ تصوُّرٍ صحيحٍ وتخطيطٍ سليمٍ؛ محكومٌ عليه بالفشلِ في الغالبِ.

٩- **أنَّ الواجبَ على الدولِ الإسلاميةِ أنْ تَعْتَنِيَ أشدَّ العنايةِ بالمُبْدِعِينَ، وتُوفِّرَ لهم الجَوَّ العِلْميَّ الكاملَ**؛ مع توفيرِ الضروريَّاتِ والحاجيَّاتِ والكماليَّاتِ الشخصيّةِ لهم؛ حتى يستطيعوا إنجازَ ما لديهم من مشاريعَ وطموحاتٍ؛ وذلك مِنْ أجلِ النهوضِ بِأُمَّتِهم التي مازالت تَقْبَعُ في مؤخِّرةِ الركبِ الحضاريِّ!

وحَسْبُكَ أنْ تَعْلَمَ أنّ الدراساتِ التي تُجرى دائمًا لترشيحِ أفضلِ الجامعاتِ على مستوى العالمِ، لا يُذْكَرْ فيه - غالبًا - أيةُ جامعةٍ عربيةٍ أو إسلاميّةٍ!!

١٠- **إنشاءُ مراكزَ للإبداعِ العلميِّ في كلِّ مدينةٍ من مُدُنِ العالمِ الإسلاميِّ تكونُ مُنْضَويَةً تحتَ منظَّمةٍ عامَّةٍ**، بشرطِ أن يُوفَّرَ لها الدعمُ الكاملُ والسخيُّ؛ من أجلِ تشجيعِ المُبْدِعِينَ على التفوُّقِ والتألُّقِ، بدلًا مِنْ أنْ تُهَاجِرَ تلك العقولُ الكبيرةُ لبلادِ الغَرْب، فيستفيدَ منها الأعداءُ، وقد تُجَنَّدُ ضدَّنا بطريقةٍ أو بأخرى، والرابحُ أو الخاسرُ مِنْ ذلك كُلِّهِ - في نهايةِ المطافِ - هو الأمةُ الإسلاميةُ كلُّها!!

١١- **عَقْدُ مُؤْتَمَراتٍ مُكَثَّفةٍ تَجمَعُ المُبْدِعِينَ من جميعِ أرجاءِ العالمِ،** لمناقشةِ قضايا الإبداعِ العلميِّ وكيفيةِ تفعيلِهِ والنهوضِ به في واقعِ الأمةِ.

١٢- **إقامةُ مُسابَقَاتٍ متنوِّعةٍ في جميعِ حقولِ المعرفةِ التي تحتاجُ إليها الأمةُ،** ورَصْدُ جوائزَ ضَخْمةٍ لها، وقَصْرُ تلك الجوائزِ على المُبْدِعِينَ من أبناءِ العالمِ الإسلاميِّ فقط.

١٣- **استقطابُ الكوادرِ العلميَّةِ العاليةِ في شتّى العلومِ والمعارفِ، مِنْ جميعِ أرجاءِ المعمورةِ،** لا سيَّما أهلُ الخِبْراتِ الدقيقةِ منهم، وإغراؤُهم بالحوافزِ الماديَّةِ؛ مِنْ أجلِ تطويرِ البرامجِ الإبداعيةِ التي تحتاجُها الأمةُ في الوقتِ الراهنِ، ووَضْعُ الاستراتيجيّاتِ اللّازمةِ لذلك على المَدَى البعيدِ.

١٤- **تذليلُ جميعِ العَقَباتِ والعوائقِ أمامَ عمليَّةِ الإبداعِ والمُبْدِعِينَ؛** سواءٌ العامَّةُ منها أو الخاصَّةُ.

وختامًا: فإنَّ هذه المَعَالمَ - التي لم آلُ فيها جُهْدًا، ولم أَدَّخِرْ فيها وُسْعًا - أَضَعُها بين يديكَ أيّها الموفَّقُ؛ تُنيرُ لك الطريقَ، وتُوضِحُ لك السَّبيلَ، وتُحدِّدُ لك الاتجاهَ في المَسِيرِ، وتكونُ عَوْنًا لك وسَنَدًا على التألّق والإبداعِ.

استَخْلَصْتُ عناصرَها مِنْ مَعِينِ الذاكرةْ؛ فهي عُصَارةُ أفكارْ، وجمَعْتُ مَادَّتَها بالقراءةِ والـمُذاكَرةْ؛ فهي خُلَاصَةُ نَظَرٍ وقراءةِ أَسْفَارْ. «لم أَقْصِدْ في جَمْعِها تَنَبُّلًا على الخَلْق، ولا تَزيُّدًا فيما ليسَ بِحَقّ، وإنما أردتُّ النُّصْحَ ما استَطَعْتْ، والتمحيصَ ما قَدَرْتْ، والعلمُ أمانةٌ مَنْ حَمَلَها فقد حَمَل إِدًّا، وتَجشَّمَ بَهْرَا»[١]، وإنَّ له ذِمَامًا كذِمَامِ النَّسَبِ.

---

(١) الحلل السندسية: لشكيب أرسلان (١/ ١٥).

راجيًا أنْ تَلْقَى هذه المَعَالِمُ والرُّؤَى آذانًا صَاغِيةْ، وقلوبًا واعِيَةْ، ونفوسًا طَامِحَةْ، وعقولًا رَاجِحَةْ، حتى نَلْمَسَ الإبداعَ، ونَحُسَّ التفوقَ، وليس ذلك بعيدَ المَنَالِ لمن جَدَّ في الطلَبِ وواصَلَ السَّيْرَ:

فَمَا هِيَ إلاَّ سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي ... وَيَحْمَدُ غِبَّ السَّيْرِ مَنْ هُوَ سَائِرُ!

فالجِدَّ الجِدَّ، والمُبادَرَةَ المُبادَرَةَ؛ فإنَّ الشمسَ تجري، والساعاتِ تمضي، والأيامَ تَمُرُّ كلمحٍ بالبَصَرِ أو هي أسرعُ!

متمثِّلًا هنا بِبَيْتَيْنِ ذَيَّلَ بهما لَقِيطُ بنُ يَعْمُرَ الإياديُّ قصيدتَهُ المشهورةَ: (**يا دارَ عَمْرةَ من مُحْتَلِّها الجَرَعا**)[1] التي أنذَرَ فيها قَوْمَهُ غَزْوَ كِسْرَى ذِي الأَكْتَافِ:

لَقَدْ بَذَلْتُ لَكُمْ نُصْحِي بِلَا دَخَلٍ ... فَاسْتَيْقِظُوا إِنَّ خَيْرَ العِلْمِ مَا نَفَعَا

هَـذَا كِتَابِي إِلَيْكُمْ وَالنَّذِيرُ لَكُمْ ... لِمَنْ رَأَى رَأْيَهُ مِنْكُمْ وَمَنْ سَمِعَا!

وبعدُ:

فحسبُنا اللهُ وما جاءَ عنْ ... نبيِّهِ الهاديْ ومختارِهِ

صلَّى عليه اللهُ ذو العرشِ ما ... غنَّى هَزَارٌ فوقَ أشجارِهِ

مُسلِّمًا ما دامتِ الأرضُ لا ... تَخْلُو من العلم وأقمارِهِ[2]

---

(١) **انظرها في**: ديوانه (ص/ ٥١)، والحماسة البصرية (١/ ٨٩)، والأوائل: للعسكري (ص/ ٩٥).
قال العسكريُّ: «هي أجودُ قصيدةٍ قيلت في الإنذار».

(٢) النور السافر عن أخبار القرن العاشر: للعيدروس (ص/ ٣٥٠).



الفهارس



فهرسُ أهَمِّ المصَادرِ والمَراجعِ

- القرآن الكريم.
- آثار الشيخ العلّامة عبد الرحمن بن يحي المعلّمي اليماني: اعتنى به: مجموعة من الباحثين، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ.
- آداب الشافعي ومناقبه: للرازي، تحقيق: عبدالغني عبد الخالق، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الآداب الشرعية والمنح المرعية: لابن مفلح المقدسي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، ط٢(١٤١٧هـ).
- الإبداع في التربية والتعليم: لآرثر كروبلي ترجمة: إبراهيم الحارثي ومحمد مقبل.
- الإبداع في الفن والعلم: لحسن أحمد عيسى، ط دار المعرفة، الكويت.
- ابن القيم الجوزية؛ حياته آثاره موارده: لبكر أبوزيد، دار العاصمة، السعودية ط١(١٤١٢هـ).
- ابن حجر العسقلاني مصنفاته ودراسة في منهجه وموارده في كتابه

الإصابة: شاكر محمود عبد المنعم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤١٧هـ).

- **ابن حزم**: لمحمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت.
- **أحكام القرآن**: لابن العربي المالكي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
- **إحياء علوم الدين**: لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
- **الأدب الأندلسي**: لمصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥ (١٩٨٣م).
- **أدب الدنيا والدين**: للماوردي، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، ط١(١٤٠٨هـ).
- **أدب الطلب ومنتهى الأرب**: للشوكاني، تحقيق: يوسف بديوي وحسن سويدان، دار اليمامة، دمشق بيروت، ط١ (١٤٢١هـ).
- **الأدب الكبير**: لعبدالله بن المقفع، دار بيروت للطباعة والنشر (١٤٠٠هـ).
- **أدب الكتّاب**: للصولي، دار الباز، مكة المكرمة.
- **الأرجوزة في الطب** = من مؤلفات ابن سينا الطبية.
- **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**: لشهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس المقري التلمساني، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -

القاهرة، ١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م.

- **الأسرار المرفوعة**: للملا علي قاري: تحقيق: محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، ط٢ (١٤٠٦هـ).
- **الأشباه والنظائر**: للخالديّيْن أبي بكر وأبي سعيد ابنيْ هاشم، تحقيق: د. السيد محمد يوسف، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- **أشراط الساعة**: ليوسف الوابل، مكتبة ابن الجوزي، الدمام، ط١ (١٤٠٩هـ).
- **الأعلام**: للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٦ (١٩٨٤م).
- **أعيان العصر وأعوان النصر**: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: الدكتور علي أبو زيد وآخرين، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.
- **إكمال المعلم بفوائد مسلم**: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق: يحي إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، ط١ (١٤١٩هـ).
- **الإلماع**: للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط٢ (١٣٩٨هـ).
- **الأمنية في إدراك النية**: للقرافي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ (١٤٠٤هـ).
- **إنباه الرواة**: للقفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، ط١ (١٤٠٦هـ).

- **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**: لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **الباعث على إنكار البدع والحوادث**: لأبي شامة المقدسي، تحقيق: مشهور سلمان، دار الراية، الرياض، ط١ (١٤١٠هـ).
- **البداية والنهاية**: لابن كثير، تحقيق: أحمد ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **البدر الطالع**: للشوكاني، دار المعرفة، بيروت.
- **بغية الملتمس**: للضبي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط١ (١٤١٠هـ).
- **بغية الوعاة**: للسيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت.
- **البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة**: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ.
- **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**: لكراتشكوفسكي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢ (١٤٠٨هـ).
- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: لمحمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: عمر عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

- **تاريخ افتتاح الأندلس**: لابن القوطية، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢ (١٤١٠هـ).
- **تاريخ بغداد**: للخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **تاريخ علماء الأندلس**: لابن الفرضي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢ (١٤١٠هـ).
- **التبيان في شرح الديوان**: المنسوب للعكبري، تحقيق: مصطفى السقا وزميليه، دار المعرفة، بيروت.
- **تحت راية القرآن**: للرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٧ (١٣٩٤هـ).
- **تحفة الأحوذي**: للمباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف، دار الفكر، ط٣ (١٣٩٩هـ).
- **تذكرة الحفاظ**: للذهبي، تحقيق: عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.
- **التذكرة الحمدونية**: لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون البغدادي ، دار صادر، بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ.
- **تذكرة السامع والمتكلم**: لابن جماعة، تحقيق: محمد هاشم الندوي، رمادي للنشر، ط١ (١٤١٥هـ).
- **التراتيب الإدارية**: لعبد الحي الكتاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **ترتيب المدارك**: للقاضي عياض اليحصبي، وزارة الأوقاف المغربية.

- **التعالم**: لبكر أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط٤ (١٤١٨هـ).
- **التلقين في الفقه المالكي**: لعبد الوهاب المالكي، تحقيق: محمد ثالث سعيد الغاني، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ).
- **تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد**: لمحمد بن يوسف الحلبي المصري، المعروف بناظر الجيش. تحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرون. دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط١ (١٤٢٨ هـ).
- **التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مئة**: للسيوطي، دار الثقة، مكة المكرمة (١٤١٠هـ).
- **تهذيب الكمال**: للمزي، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤١٣هـ).
- **التوقيف على مهمات التعريف**: للمناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق، ط١ (١٤١٠هـ).
- **جامع بيان العلم وفضله**: لابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الدمام، ط٤ (١٤١٩هـ).
- **الجامع لشعب الإيمان**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد العلي حامد، الدار السلفية، الهند، ط١ (١٤٠٦هـ).
- **جذوة المقتبس**: للحميدي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري واللبناني، القاهرة وبيروت، ط٢ (١٤١٠هـ).

- **الجواهر المضية**: للقرشي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، دار هجر، ط٢ (١٤١٣هـ).
- **حاشية لقط الدرر بشرح متن نخبة الفكر**: للعدوي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط١ (١٣٥٦هـ).
- **الحاوي للفتاوي**: للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٢هـ).
- **الحبل الوثيق في نصرة الصديق** = الحاوي للفتاوي.
- **حكمة الإشراق إلى كتّاب الآفاق**: للزبيدي، تحقيق: محمد طلحة بلال، دار المدني، ط١ (١٤١١هـ).
- **حلية الأولياء**: للأصبهاني ،دار الكتاب العربي، ط٥ (١٤٠٧هـ).
- **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**: لعبد الرزاق البيطار، تحقيق: محمد بهجة البيطار، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق (١٣٨٢هـ).
- **حلية طالب العلم**: لبكر أبو زيد، دار العاصمة، الرياض، ط٥ (١٤١٥هـ).
- **خزانة الأدب وغاية الأرب**: لعلي بن عبد الله الحموي، تحقيق: عصام شعيتو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١ (١٩٨٧م).
- **الخصائص**: لعثمان بن جني الموصلي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة: الرابعة.
- **الدرر الكامنة**: لابن حجر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- **دلائل الإعجاز**: لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، ط٢ (١٤١٠هـ).
- **دليل الإعراب والإملاء**: لأحمد أبو سعد، وحسين شرارة ، دار العلم للملايين ، بيروت، ط٦ ، ١٩٨٣م.
- **دول العرب وعظماء الإسلام**: لأحمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١ (١٩٧٠م).
- **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**: لإبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي**: تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف، مصر (١٩٦٤م).
- **ديوان الشافعي**: تحقيق: مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم، دمشق، ط١ (١٤٢٠هـ).
- **الذريعة إلى مكارم الشريعة**: للراغب الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت (١٤٠٠هـ).
- **الذيل على طبقات الحنابلة**: لابن رجب الحنبلي، دار المعرفة، بيروت.
- **رباعيات مختارة**: لإلياس قنصل، دار الرفاعي، الرياض، ط٢ (١٤٠٢هـ).
- **رحلة ابن جبير**: دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت (١٤٠٤هـ).

- **رسائل ابن حزم الأندلسي**: تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٢(١٩٨٧م).
- **رسائل الجاحظ**: تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- **الرسالة المستطرفة**: للكتاني، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٤ (١٤٠٦هـ).
- **رسالة في فضل الأندلس**= رسائل ابن حزم الأندلسي.
- **روح المعاني**: لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **الروض المعطار**: للحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢ (١٩٨٤م).
- **سُلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مِصْر**: لابن معصومٍ الحُسيني، تحقيق: د. محمود خلف البادي، دار كنان، دمشق، ط١، (١٤٣٠هـ).
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**: لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض (١٤١٥هـ).
- **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**: للمرادي، دار ابن حزم، بيروت، ط٣ (١٤٠٨هـ).
- **سنن ابن ماجه**: تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا.

• **سنن الترمذي**: تحقيق: أحمد شاكر وآخرين، دار الباز، مكة المكرمة.

• **السنن الكبرى**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دار المعرفة، بيروت.

• **سير أعلام النبلاء**: لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق مكتب التحقيق بمؤسسة الرسالة، بيروت.

• **سيكولوجيّة الخُرافة والتفكير العلمي**: للدكتور/ عبد الرحمن عيسوي، منشأة المعارف بالإسكندرية، (١٩٨٢م).

• **شذرات الذهب**: لابن العماد الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

• **شرح العقيدة الطحاوية**: لابن أبي العز الدمشقي، تحقيق: عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٠٨هـ).

• **شرح الكوكب المنير**: لابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي، ونزيه حماد، دار الفكر، دمشق (١٤٠٠هـ).

• **الشعر والشعراء**: لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، ط٢ (١٤٠٥هـ).

• **الشوقيّات**: لأحمد شوقي، تعليق: يحي شامي، دار الفكر العربي، ط١ (١٩٩٦م).

• **الصارم المسلول على شاتم الرسول**: لابن تيمية، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، عالم الكتب (١٤٠٢هـ).

• **صحيح الأدب المفرد**: لمحمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، الأردن، ط١ (١٤١٤هـ).

- **صحيح البخاري**: تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير واليمامة، دمشق، ط٤ (١٤١٠هـ).
- **صحيح مسلم**: تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية ،مصر.
- **صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل**: لعبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٣ (١٤١٣هـ).
- **صيد الخاطر**: لابن الجوزي، تحقيق: عامر علي ياسين، دار ابن خزيمة، ط١ (١٤١٨هـ).
- **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**: للسخاوي، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- **طبقات الحنابلة**: لمحمد بن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت.
- **طبقات الشافعية الكبرى**: للسبكي، تحقيق: محمود الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، هجر للطباعة والنشر، مصر، ط٢(١٤١٣هـ).
- **طبقات الشعراء**: لابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، القاهرة، ط٤.
- **طبقات المفسّرين**: لمحمد بن علي الداودي، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢ ، ١٤١٥ هـ.
- **طبقات النحويين واللغويين**: للزبيدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ط٢.

- **الطِّراز، لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز**: ليحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلويّ الطالبي، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ.
- **الطريق إلى العبقرية**: لمقداد يالجن، دار الهدى، الرياض، ط١ (١٤٠٧هـ).
- **علوم الحديث**: لابن الصلاح، تحقيق: نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط٣ (١٤٠٤هـ).
- **عنوان الشرف الوافي**: لإسماعيل بن أبي بكر المعروف بابن المقرئ، تحقيق: عبدالله الأنصاري، مكتبة جدة، ط٥ (١٤٠٦هـ).
- **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**: لأحمد بن القاسم ابن أبي أصيبعة السعدي، دار الثقافة، بيروت، ط ٣ ، ١٤٠١ هـ.
- **غذاء الألباب**: للسفاريني، مؤسسة قرطبة، مصر.
- **الغُنية، فهرست شيوخ القاضي عياض**: لعياض بن موسى اليحصبي، تحقيق: ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط١ ١٤٠٢هـ.
- **فتح الباري**: لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، ط٣ (١٤٠٧هـ).
- **فتح المغيث**: للسخاوي، تحقيق: عبدالكريم الخضير ومحمد آل فهيد، دار المنهاج، الرياض، ط١ (١٤٢٦هـ).

- **فُتيا فقيه العرب**: لأحمد بن فارس الرازي، ضمن مجموع رسائل العلّامة ابن فارس، دار الإمام البخاري، الدوحة - قطر، الطبعة الأولى، بدون تاريخ.
- **فضل الأندلس وذكر رجالها** لابن حزم = رسائل ابن حزم الأندلسي.
- **الفوائد المجموعة**: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبدالرحمن المعلمي، المكتب الإسلامي، ط٣ (١٤٠٧هـ).
- **فيض القدير**: للمناوي، دار الفكر، بيروت.
- **القاموس المحيط**: للفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨ (١٤٢٦هـ).
- **قضية التخلّف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر**: لزغلول راغب النجّار، كتاب الأمة، قطر، ط١ (١٤٠٩هـ).
- **قطوف أدبية حول تحقيق التراث**: لعبد السلام هارون، مكتبة السنة، القاهرة، ط١ (١٤٠٩هـ).
- **كارثة في العالم الإسلامي**: لمحمد عبدالعليم مرسي، دار الصحوة للنشر، القاهرة، ط١ (١٤٠٧هـ).
- **الكلّيات**: للكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١ (١٤١٢هـ).
- **كناشة النوادر**: لعبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١ (١٤٠٥هـ).

• **كواشف زُيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة**: لعبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١ (١٤٠٥ هـ).

• **الكواكب النيرات**: لابن الكيال، تحقيق: عبد القيوم عبد رب النبي، دار المأمون، ط١ (١٤٠١هـ).

• **لسان العرب**: لابن منظور، دار صادر، بيروت.

• **ما تلحن فيه العامة**: للكسائي، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط١ (١٤٠٣هـ).

• **المتنبي**: لمحمود شاكر، مطبعة المدني، ط١(١٤٠٧هـ).

• **مجاني الأدب في حدائق العرب**: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح شيخو ، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت ، ١٩١٣ م.

• **المجروحين**: لابن حبان، تحقيق: محمود زايد، دار الباز، مكة المكرمة.

• **مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي**: لأحمد قبّش، دار الرشيد، ط٢ (١٤٠٣هـ).

• **مجموع الفتاوى**: لابن تيمية، جمع عبدالرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف (١٤١٥هـ).

• **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ.

• **المحدِّث الفاصل**: للرامهُرمُزي، تحقيق: محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ط٣ (١٤٠٤هـ).

• **مدارج السالكين**: لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت(١٣٩٢هـ).

• **مداواة النفوس**= رسائل ابن حزم الأندلسي.

• **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي**: للطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١ (١٤٠٥هـ).

• **المرافق على الموافق**: للشيخ ماء العيْنيْن بنُ مَامَيْن، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن القيم، ط١ (١٤٢٥ هـ).

• **المستدرك على الصحيحين**: للحاكم، دار المعرفة، بيروت.

• **المستطرف**: للأبشيهي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ (١٤٠٦هـ).

• **مسند أحمد بن حنبل**: تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، ط١ (١٤٢٠هـ).

• **معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى**: لمحمد التميمي، أضواء السلف، ط١ (١٤١٩هـ).

• **المعتمد في الأدوية المفردة**: ليوسف بن عمر التركماني، دار القلم، بيروت.

• **معجم الأدباء**: لياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ (١٩٩٣م).

- **المعجم الأوسط**: للطبراني، تحقيق: محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض، ط١ (١٤٠٧هـ).
- **معجـم البلاغـة العربيـة**: لبـدوي طبانـة، دار المنـارة، جـدة، ط٣ (١٤٠٨هـ).
- **معجم المؤلفين**: لعمر رضا كحّالة، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- **المعجم الوسيط**: مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط٤ (١٤٢٦هـ).
- **معجم مقاييس اللُّغة**: لأحمد بن فارس، تحقيق: عبدالسلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢ (١٣٩٠هـ).
- **معرفة القرّاء الكِبار**: للذهبي، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢(١٤٠٨هـ).
- **المغـرب في حلـى المغـرب**: لعلـي بـن موسـى بـن سـعيد المغربـي ، تحقيق: د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣.
- **مفتـاح دار السـعادة**: لابـن القـيم الجوزيـة، تحقيـق: علـي بـن حسـن الحلبي، دار ابن عفان، الخبر، ط١، ١٤١٦هـ.
- **المقامات**: للحريري، دار بيروت للطباعة والنشر(١٤٠٥هـ).
- **مقدّمة لتاريخ التفكير العلمي في الإسلام**: أحمد سليم سعيدان، سلسلة عالم المعرفة، الكويت(١٤٠٩هـ).
- **مِن مؤلفات ابـن سـينا الطبيـة**: تحقيـق: محمـد زهيـر البابـا، منشـورات

جامعة حلب (١٤٠٤هـ).

• **المنار المنيف**: لابن القيم الجوزية، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢ (١٤٠٣هـ).

• **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**: لابن الجوزي، الناشر: خانجي وحمدان، بيروت، ط٢.

• **مناقب الشافعي**: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط١(١٣٩٠هـ).

• **المنثور في القواعد الفقهية**: لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي. وزارة الأوقاف الكويتية، ط٢ (١٤٠٥هـ).

• **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**: للنووي، تحقيق: خليل شيحا، دار المعرفة، بيروت، ط٧(١٤٢١هـ).

• **منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد**: لعثمان علي حسن، مكتبة الرشد، الرياض، ط١ (١٤١٢هـ).

• **منهج التربية الإسلامية**: لمحمد قطب، دار الشروق، بيروت، ط٤(١٤٠٠هـ).

• **المؤتلف والمختلف**: لمحمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، المعروف بابن القيسراني ، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية – بيروت ، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

• **الموافقات**: لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير

بالشاطبي، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الخبر، ط١(١٤١٧هـ).

• موسوعة العلماء والمخترعين: إبراهيم بدران ومحمد فارس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط٣ (١٩٨٧م).

• موسوعة أهل السنة: لعبدالرحمن دمشقية، دار المسلم، الرياض، ط٢ (١٤٢٢هـ).

• ميزان الاعتدال في نقد الرجال: لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق: علي محمد معوض ، عادل أحمد عبد الموجود ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٥م.

• النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

• النحو والصرف في مناظرات العلماء ومحاوراتهم: لمحمد آدم الزاكي، الفيصلية، مكة المكرمة (١٤٠٤هـ).

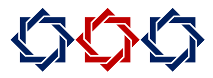
• ندوة الإمام مالك/ دورة القاضي عياض: المغرب، مراكش، وزارة الأوقاف المغربية (١٤٠١هـ).

• نفح الطيب: لأحمد بن محمد المقّري التلمساني، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٤٠٨هـ).

• هجرة العلماء من العالم الإسلامي: لمحمد عبد العليم مرسي، دار

عالم الكتب، الرياض (١٤١١هـ).

- **هكذا علمني وردزورث**: لأبي عبدالرحمن بن عقيل الظاهري، تهامة، جدة، ط١ (١٤٠٤هـ).
- **وفيات الأعيان**: لابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت (١٣٩٧هـ).
- **يتيمة الدهر**: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار الكتب العلمية، ط١ (١٣٩٩هـ).





فهرس المواضيع والفوائد

المقدِّمة

الفصل الأول

معنى الإبداع

الفصل الثاني

حقيقة الإنسان المبدع

الفصل الثالث

أنواع الإبداع

الفصل الرابع

أقسام الإبداع

الفصل الخامس
أُسُس الإبداع العلمي

الفصل السادسِ

مقوِّمات الابداع العلمي

الفصل السابع

حوافز الإبداع العلمي

الفصل الثامن

عوائق الابداع العلمي

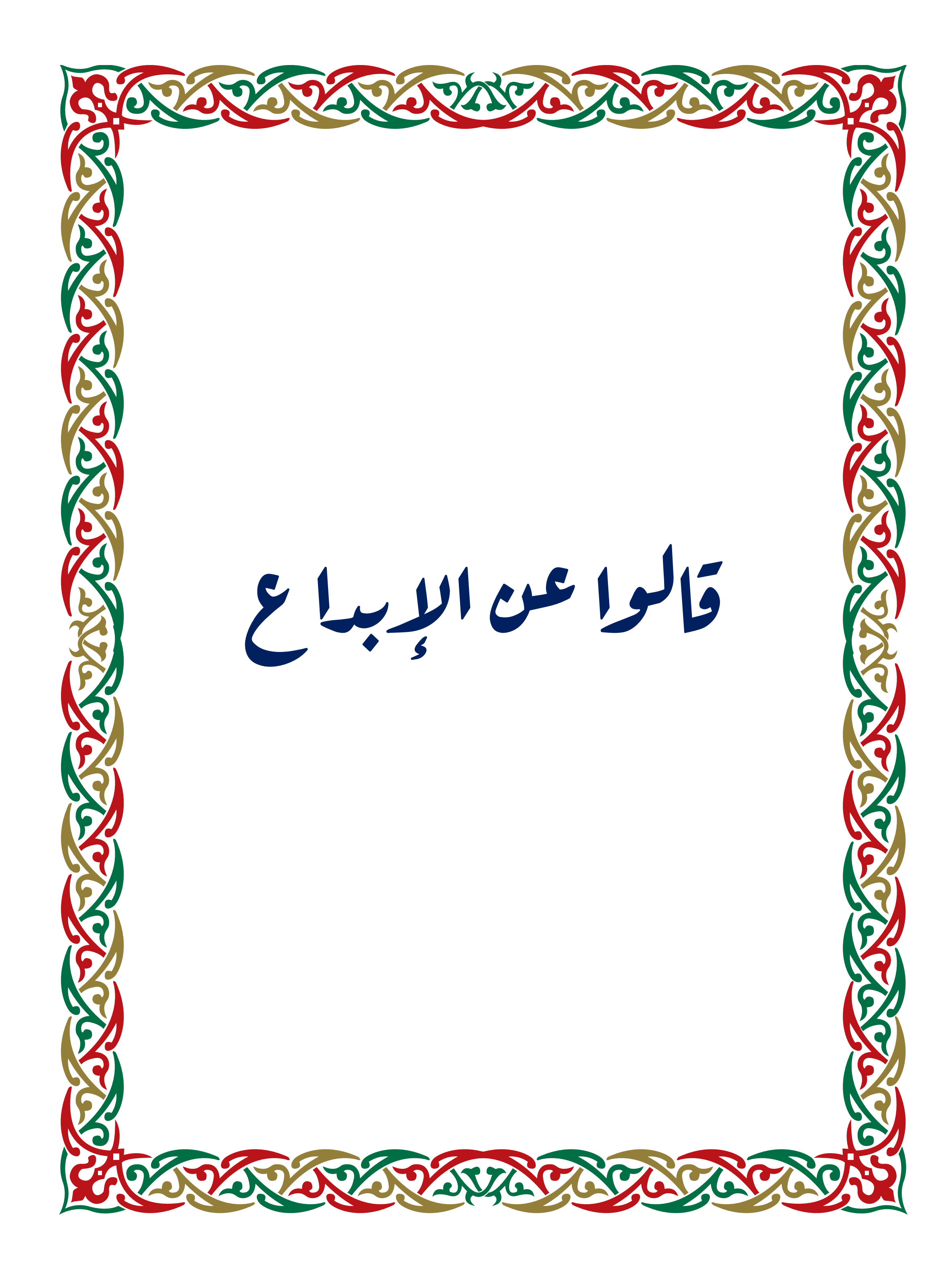
الفصل التاسع

الإبداع وعلاقته بالدين

الفصل العاشر

انحراف الإبداع عن مساره الصحيح

الفصل الحادي عشر
نجومٌ ساطعةٌ في سماء الإبداع العلمي



قالوا عن الإبداع



الحمدُ لله وكفى، وصلاةً وسلامًا على عباده الذين اصطفى.

أمّا بعدُ،

فهذا هو المُلْحَقُ الذي أفرَدتُهُ لِتقارِيظِ العُلَماءِ الفُضَلاءِ الذين قرأوا هذا الكتابَ في طبعته الأولى وقرَّظوه - والذي سبقَ أنْ نبّهتُ عليه في المقدِّمة -، سائلًا المولى جَلَّ وَعَلَا أنْ يَجزِيَهم عنِّي خيرَ الجزاءِ وأوْفاه، وأنْ يَجعَلَني ومُؤلَّفاتي عند حُسْنِ ظنِّ العلماءِ والباحثينَ، وأنْ يَنفعَ بها طُلَّابَ العلمِ في أصقاعِ المعْمُورةِ، وأنْ يَجعلَها خالصةً لوجهه الكريم، إنه أكرمُ مَسْئُولٍ، وأعظمُ مَأْمُولٍ.

ويرحمُ اللهُ أحمدَ شوقي إذْ يقول:

تقــــريظُ أعيــــانِ الكتـــــبْ	بـــــابٌ يُعَــــدُّ مـــــن الأدبْ
فيــــه اســــتزادةُ مُحسـِــــنٍ	وقضـــــاءُ حـــقٍّ قـــد وَجَـــبْ
وتبــــرُّعٌ بالفضـــــلِ مـــــنْ	متـــــأدِّبٍ يرعـــــى الســــببْ
أدبُ الأُلــــى ســــلفوا فليْـــــ	ـــس بمــن تحــدَّاهم عَجَــبْ [١]

(١) الشوقيات (٩/ ١٦٦).

وفائدةُ ذِكْرِ هذه التقاريظِ: السَّيْرُ على سَنَنِ بعضِ العلماء في ذلك[١]. والاستفادةُ من آراءِ هؤلاءِ الأساتذةِ الفضلاءِ ونظراتِهم العميقةِ لموضوع الكتاب. وتحفيزُ القُرَّاء على قراءة الكتاب. والاطْمئنانُ إلى صواب ما كتبتُ[٢]، وهذا ما كان بفضل الله ومنِّه، إذْ كلُّهم قد واطأني عليه.

ولا يفوتُني هنا أنْ أتقدّمُ بجزيل الشُّكْرِ للشيخ البحَّاثة/ **عَمْرِو بنِ عبدِ العظيم الحُوَيْني**، على اهتمامِه البالِغ بالكتابِ، ودَلالَتي على التقاريظ التي قِيلَتْ فيه أو كُتِبَتْ عنه في شرقِ الأرض وغربِها، ولا غَرْوَ؛ فالشيخُ من أهل العلمِ ومحبِّيه، والعِلمُ رَحِمٌ بين أهلِهِ وذَويه.

وههنا أمرانِ أَوَدُّ التنبيهَ عليهما:

أوّلُهما: أنني وقعتُ في الحَرَج أولَ الأمرِ بسببِ كيفيّةِ ترتيبِ تقاريظِ

---

(١) تقدَّم ذِكرُ طائفةٍ منهم في المقدِّمة.

(٢) فإنّ الإنسانَ قليلٌ بنفسه كثيرٌ بإخوانه، والمؤمنُ مِرآةُ أخيه، **ولقد أحسنَ الإمامُ الشافعيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيثُ يقول: «صنّفتُ هذه الكتبَ وما ألَوْتُ فيها جُهدًا، وإني لأعلم أنّ فيها الخطأَ؛ لأنّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]». السراج المنير: للشربيني (٤/ ٣٠١).

- **وقال العلّامةُ البقاعيُّ** في مقدّمة كتابه: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (١/ ١١٢) - بعد أنْ بيّنَ أنّ كتابَه هذا قد تنازع فيه علماءُ عصره ما بينَ موافقٍ ومخالفٍ، وأنه طلب من المخالفين إبداءَ ملاحظاتهم على كتابه، حتى إنه قال: **وواللهِ الذي جَلَّتْ قُدرتُه، وتعالتْ عظمتُه، لو أنّ لي سَعَةً تقوم بما أُريدُ، لكنتُ أبذلُ مالًا لمن يُنبّهني على خطأي، فكلّما نبّهني أحدٌ على خطأٍ أعطيتُه دينارًا!** -: «فعند ذلك عَرَضْتُ الكتابَ على قُضاةِ القُضاةِ وغيرِهم من علماء، فكتب عليه قاضي القضاة، شيخُ الإسلام شرفُ الدين، يحيى بن محمد المناوي الشافعي، أعلى الله درجته، ورفع منزلته...» ثم سَرَدَ تقاريظهم لكتابه.

العلماءِ؛ إذْ جميعُهم من مَشْيَخَةِ العَصْرِ، ومن أهْلِ الفضْلِ والنُّبْلِ - وإنْ كان بعضُهم أسنَّ من بعضٍ -، لكنْ استقرَّ الرأْيُ بعدُ على ترتيب أسمائهم على حروف الهِجاء؛ دَرْءً للحَرَج.

وثانيهما: أنني لم أستطعْ - أحيانًا - ذِكرَ التقريظِ كاملًا؛ نظرًا لِطُولِهِ من جهةٍ[1]، ولكثرةِ التقاريظِ وضِيقِ المساحةِ من جهةٍ ثانيةٍ. فحذفتُ الاستهلالَ من كلماتِهم وبدأتُ بالمقصودِ مباشرةً؛ لذا جرى التنبيهُ، مع رجاءِ قبولِ العُذْرِ من الجميع، واللهُ الموفِّقُ.

***

وإليكَ بعضَ تلكَ التقاريظ:

* لـمّا وصلني كتابُ «**الإبداع العلميّ**» للدكتور/ أحمد بن علي القرني أولُ ما أعجبني فيه عنوانُه، ورَجوْتُ أنْ يوُافقَ الخُبْرُ الخَبَرَ، فلما تصفّحْتُه زاد إعجابي بموضوعه، ورأيتُ مؤلِّفَه حسَنَ التصوُّر لما اختارَه.

وزاد من اغتباطي ما اختارَهُ مِن نُجومِ الأئمّةِ في سماءِ الإبداع، لا سيِّما الخليلُ بنُ أحمد الفراهيديّ، الذي بدأ به، فإنّ هذا الإمامَ لا نظيرَ له، وارتباطي به من قديمٍ في مطلع الشباب، لـمّا كنتُ أَقْرِضُ الشِعْرَ وأُعانيه، وبدأتُ وقتَها أدْرُس مع نفسي بُحورَ الشِعْر العربيّ، وعرفتُ وقتَها أنّ الخليلَ هو الذي اخترع هذا العلِمَ الجليلَ، وجرَّني هذا إلى كتاب «**العين**» وهو أ ولُ

---

(١) مِن ذلك أنّ بعض الفضلاء كتب عن الكتاب خمسَ صفحاتٍ كاملةٍ، أبدى فيها إعجابَه البالغَ به، وذلك في رسالةٍ خاصةٍ أرسلها إليّ بتاريخ ٨/ ١١/ ١٤٣٦ هـ.

مُعجمٍ عربيٍّ -، ولم أفْهمْه حَقَّ فهْمِه أيامَها، ولكنّي تعلَّقْتُ به، وما زِلتُ مع الأيام أُعاني فهْمَه حتى تشرَّبْتُهُ، وكِدْتُ أصرُخُ في الناس لينتبهوا إلى هذا الإمام الجليل الذي قَلَّ نَظيرُهُ، وكم في أمتنا من مثلِهِ.

فالعِلمُ في فهْمي هو التحريرُ، أعني تحريرَ المادّة العلمية، وليس مجرَّدَ النَّقل من كتب الناس، وكلُّ دُروسي مع تلامذتي تدور حولَ هذا المعنى، وساعدني على ذلك أنني جعلتُ دراستي في علم الحديث، الذي لا يَقبلُ التقليدَ إلا في حدودٍ ضيِّقةٍ، فمجالُ الإبداع فيه واسعٌ لمن تَمَهَّر فيه، شأنُه في ذلك شأنُ سائر العلوم.

والمبدعون في أمّتنا أكثرُ من أنْ نُحصيهم، والأسماءُ التي اختارها المؤلفُ هي مجرَّدُ نماذجَ، وكنتُ أرجو أن يضُيفَ إليهم الإمامَ **الخطيبَ البغداديَّ**؛ لما له من المِنَّة على كلِّ مَنْ جاء بعدَه في علم الحديث، فهو صاحبُ المبتكَراتِ والدُّرَرِ الغَوالي(١).

وكنتُ في هذا السبيل - أعني سبيلَ الإبداعِ العلميِّ -، ذكرتُ في مُقدمة كتابي «تنبيه الهاجد» أبياتًا من الشعر، ذكرتُ فيها بعضَ المبدعين، وأنني اقتفيتُ أثرهَم وتعلمتُ منهم، فقلتُ:

---

(١) أصاب الشيخُ فيما قال؛ فإنّ الحافظَ الخطيبَ البغداديَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقف في مصافِّ كبار المبدعين، لكنَّني إنما ذكرتُ هنا نماذجَ فحسْب؛ لئلّا يتضخّمَ حجمُ الكتاب. وموعدُ الحافظِ الخطيبِ قريبٌ إن شاء اللهُ تعالى في كتابي الآخَر «معجم المؤلَّفات الإبداعيّة»، فله فيه نصيبٌ وافرٌ.

مَضَى «الجُعْفِيْ»[١] في حَلْبَةِ العلمِ سابقًا وأدْرَكَ لم يُسبَقْ، ولم يَأْلُ «مُسلِمُ»[٢]

وباراهمُا «النَّسْوِيُّ»[٣] فانْتَصَبتْ له رُواةٌ عليه بالثناءِ تكلَّمُوا

وأبدَعَ في القولِ «الخطيبُ»[٤] فكُتْبُهُ على ما تراهُ العينُ دُرٌّ مُنظَّمُ

وأدْرَك في التَّصنيف «أحمدُ»[٥] غايةً تَبُزُّ الخُطَى ما بَعْدَها مُتقَدَّمُ

وسِرْتُ على آثارِهم، ولرُبَّما فَطِنْتُ إلى أشياءَ، واللهُ أعلمُ

أصلُ هذا الشعر لمحمود سامي البارودي باشا، ذكره في ديوانه، وقد غيَّرْتُ الأسماءَ التي ذكرهَا، وبعضَ كلماتِ الأبياتِ لِتناسبَ المعنى الذي أردتُه.

شكرَ اللهُ للمؤلِّف حُسْنَ اختيارِه، وأرجو دوامَ توفيقِه. وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

الشيخُ المحدِّثُ / أبو إسحاقَ الحُوَيْني - مِصر

***

* «الإبداعُ العلميُّ»، عنوانٌ أخّاذٌ جميل، لموضوعٍ حَفيلٍ جَليل، وإبداعٌ في الحديثِ عن الإبداع، يأخذُ بأيْدِي الشُّدَاة، ليَصيروا قادةً هُداة.

---

(١) الإمام محمد بن إسماعيل البخاري.

(٢) الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري

(٣) الإمام أحمد بن شعيب النسائي.

(٤) الإمام الخطيب البغدادي.

(٥) الحافظ ابن حجر العسقلاني.

حَلَّلَ ومَحّصَ، وبحثَ وفحَصَ، فهو كتابُ علمٍ وعملٍ، وتخطيطٍ وتطبيقٍ، أبانَ عن مكامِنِ العِلَل، ووصف الدواءَ وشفى الغُلَل، فلا بدّ فيه من عَلَلٍ بعد نَهَل، فهو حريٌّ بالقراءة والمدارَسَة، وجديرٌ بالتنفيذ والممارسة.

أ.د. أبو بكر بن الطيب كافي

أستاذ الحديث وعلومه بكلية أصول الدين بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة - الجزائر

***

* الإبداعُ لغةً: هو الإتيانُ بجديدٍ لم يُسبَقْ إليه المبدِعُ. وهو عند المؤلِّف «مَلَكَةٌ فائقةٌ يتأتّى من خلالِها اكتشافُ شيءٍ جديدٍ لم يُسبَقْ إليه المبدِعُ».

ومِن مُشكلاتِنا في التصنيفِ قديمًا وحديثًا كثرةُ التكرارِ والاجترارِ، فقلَّ أنْ تجدَ كتابًا أتى بجديدٍ لم يُسبَقْ إليه.

والكتابُ الذي بين أيدينا أراد مؤلِّفُه البحَّاثةُ الدكتور/ أحمد بن علي القرني أنْ يتناولَ الإبداعَ العلميَّ والحثَّ عليه.

وقد استوْحى مادةَ الكتابِ معانيَ وأفكارًا من تجاربِه الخِصْبةِ في الحياةِ وقراءاتِه الغزيرةِ، فنَخَلَ كتبًا كثيرةً، ومِن بينِها الكتبُ الضخمةُ ذواتُ المجلَّداتِ الكثيرةِ. وقد وزَّع الكتابَ على أحدَ عشرَ فصلًا بعددِ الكواكبِ التي رآها يوسفُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في منامه.

ومِن أهمِّ محاسنِ هذا الكتابِ جَمْعُه بين القديمِ والجديدِ وبين التراثِ والمعاصرة؛ ليأتيَ كتابًا سويًّا. فتحدَّث عن مفهومِ الإبداعِ، وأنواعِه، وأقسامِه،

وأُسُسِه، ومقوِّماتِه، وحوافزِه، وعوائقِه، والإبداعِ وعلاقتِه بالدينِ، وانحرافِه عن مسارِه الصحيحِ، وخَتَمَه بذِكر أعلامٍ أبدعوا في القديم.

وبعدُ، فهذا كتابٌ بديعٌ، وكلُّه مُعْجِبٌ مُطْرِبٌ، أدعو القُرَّاءَ لاقتنائِه وقراءَتِه. ولقد نَعِمْتُ ساعاتٍ مع هذا الكتابِ الجميلِ، وتنقّلتُ بين أزهارِ موضوعاتِه وأفكارِه حتى حَسِبْتُ أني في رَوضٍ مُرْبِعٍ.

الأستاذ/ أحمد العَلاونَة - الأردن

***

* إنّ البحثَ في موضوعِ الإبداعِ العلميِّ، وتَقصِّي شُروطِه، وكيفيّةِ توسيعِ دائرةِ المعنيِّينَ به، مِن أهمِّ ما تَقتضيهِ نهضةُ العربِ والمسلمينَ الحديثةُ، والتي بدأتْ منذُ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولكنها وُوجِهتْ بمُعوِّقاتٍ شتَّى داخليةٍ وخارجيةٍ، واحتارَ الدارسونَ لظروفِها في تعليلِ إخفاقِها رُغمَ استغراقِها زمنًا طويلًا تمكَّنتْ خِلالَه أُمَمٌ أخرى من العُبورِ إلى التحديثِ، والعبورِ إلى رَكْبِ الحضارةِ الحديثةِ، كاليابانِ والصِّينِ، وكذلك انهارتْ أُمَمٌ كألمانيا في الحربِ العالميةِ الثانيةِ ثم قامتْ وواصلتْ تقدُّمَها حتى وصلتْ إلى مرتبةِ الاقتصادِ الأولِ في أوربا!

ولم تكنْ أُمّةٌ من أُمَمِ العالمِ تملكُ ما امتلكَهُ المسلمون في عصورِ ازدهارِهم من حضارةٍ وقِيَمٍ محفِّزةٍ للنهوضِ العلميِّ والثقافيِّ، ممّا تُحاولُ هذه الدراسةُ أن تجلِّيَ جذورَه التاريخيةَ؛ لتذكيرِ الأمةِ بضرورةِ العودةِ إلى **الإبداعِ العلميِّ والثقافيِّ**، ورَسْمِ المناهجِ القادرةِ على تحقيقِ النهضةِ الشاملةِ من جديدٍ.

وإذا تأمَّلْنا في الطاقةِ البشريةِ الهائلةِ وأحْسَنَّا تَوجيهَهَا عِلْميًّا وثقافيًّا، وإلى مصادرِ الطاقةِ التي وهبها اللهُ لنا، مع المساحةِ الجغرافيةِ الشاسعةِ والمتَّصلةِ بينها، أدركْنا أنَّ الإمكاناتِ اللّازمةَ لبناء حضارةٍ متوازنةٍ تُسهِمُ في إمدادِ البشرية بأنواعٍ مُتجدِّدةٍ من الخير والتقدُّم.

وهذه الدراسةُ التي أتحفنا بها الدكتورُ/ أحمدُ بنُ علي القرني تكشفُ عن مصادر الإلهام في حضارتنا؛ لتكون نبراسًا لحضارتِنا المقبلةِ إن شاء اللهُ.

أ.د. أكرم ضياء العُمَري

الحائز على جائزة الملك فيصل العالميّة - العراق

***

* طالعتُ كتابَ «الإبداع العلميّ» للدكتور الفاضل/ أحمد بن علي القرني، فوجدتُه من الكتب النافعة، المفيدة، المهمّة، ومُتميِّزٌ في موضوعه.

وقد بذل فيه الدكتورُ الفاضلُ جُهْدًا طيبًا مشكورًا في جمع مادّتِه العلميةِ، وأبدعَ في ذلك. وفّق اللهُ الدكتورَ لما يحبُّه ويرضاه، وجعلَه في موازين أعماله الصالحة.

أ.د. باسم فيصل الجوابرة

أستاذ الحديث بكلية الشريعة بالجامعة الأردنية - الأردن

***

* قال اللهُ عَزَّ اسمُه، وتعالى جَدُّه: ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١].

هنيئًا للأستاذ الدكتور/ أحمد بن علي القرني على كتابِه النفيسِ: «**الإبداعِ العلميِّ**» الذي أبدع فيه حقًّا، وتسلَّق فيه صرحَ البحث العلميّ المفيد باقتدارٍ واتزانٍ، في ظرفٍ يُزَنُّ فيه المسلمونَ عامةً وحَمَلَةُ الشريعة خاصةً بالاجترار والتكرار، وعدم القدرة على الابتكار والريادة التي كانت لأوائلهم، الذين ارتادوا مجاهلَ سحيقةً، واكتشفوا مَهَامِهَ مُقْفرةً، في وقتٍ كانت فيه البشريةُ والغربُ بالخصوصِ في سُباتٍ عميقٍ!

فهذا الكتابُ يَدْحضُ هذه الفِرْيةَ المرسَلَةَ على عواهِنِها دون قيدٍ، ويُبينُ أنّ بمُكْنةِ الأبناء أن يترسَّموا خُطَى الآباءِ إذا توفّرت شروطٌ موضوعيةٌ، وبيئةٌ صالحةٌ حاضِنةٌ.

أولئــكَ آبــائي فجِئْنــي بمــثلِهم إذا جمعتْنــا يــا جَريــرُ الــمَجامِعُ

إنّ هذا الكتابَ بحقٍّ يُعدُّ لَبِنةً من لبناتِ النهوضِ بالاجتهادِ العلميِّ من جديدٍ، ويؤسِّس لنهضةٍ علميةٍ حقيقيةٍ يستهدي فيها العقلُ بالوحي فيما يؤسِّسُه ويُبدعُه.

ومِن مَنحىً آخرَ فهو يُوقِظُ الشعورَ، وينبّهُ الغافلينَ، ويحرِّكُ هِمَمَ اليائسينَ، ويُعيدُ الأملَ للنفوس في إمكان استئناف مسيرةٍ علميةٍ رائدةٍ جديدةٍ، بعيدةٍ عن فُشَارِ ما يُسمّى بالبحث العلمي الذي يُمكَّنُ له هنا أو هناك، وصُنِعَتْ له منابرُ هزيلةٌ ماتتْ منذُ أنْ وُلِدتْ؛ لأنّ عناصرَ البقاء التي تُستمَدُّ من وحي السماء لم تكن رائدة، وما لم يكنْ باسمِ الله وبإذنه فلا يُباركُه اللهُ، وإنْ نَعَقَ به الناعِقُون، وأزْبَدَ وأرْغى به الـمُتفَيْهِقُون، وطبَّلَ له الرُّوَيْبِضَاتُ، وسانده الجَنَفُ الخَفِيّ!

فهنيئًا للأستاذ تارةً أخرى بهذه الَّلبِنَةِ الرَّصِينةِ، وتقبَّل اللهُ منه، وقوَّاه على المزيد، ومواصلة السير في هذا الدرْب الّلاحب، والله يتولّاهُ ويرعاهُ.

الدكتور/ الحسين أيت سعيد

أستاذ التعليم العالي بجامعة القاضي عياض بمراكش - المغرب

***

* الأمةُ الإسلاميةُ هي أمةُ الإبداعِ في شتّى المجالاتِ، وبخاصةٍ في مجالِ الإبداعِ العلميِّ، وكيف لا تُبدِعُ أمةٌ مَرجِعُها الوَحْيُ المعصومُ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِه ﷺ؟! وما احتوى عليه من حَضٍّ على البحثِ والنظرِ في الأنفسِ والآفاقِ؛ لاكتشافِ نَوامِيسِ الكَونِ، وتحقيقِ مقتضى تسخيرِ ما فيه لعمارةِ الأرضِ.

وكيفُ لا تُبدعُ أمةُ الرسالةِ الخاتِمةِ، التي كُلّفتْ بفريضةِ تبليغِ دينِ الله إلى البشريّة، ودعوتِهم إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه وتطبيقِ شريعتِه؟! إذْ لا يُمكنُ أنْ تقومَ بواجبِها على الوجهِ الأكملِ إلّا إذا تمكَّنتْ من ناصيةِ القوّةِ المستلزمةِ للإبداعِ، فإنّ الأممَ غيرَ المسلمة لا تحترمُ الضعيفَ ولا تقبلُ منه.

ولذا يُمكنُ القولُ بأنّ **الإبداعَ العلميَّ** من الواجباتِ المفروضةِ على أمةِ الرسالةِ الخاتِمة من بابِ ما لا يَتِمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ.

وجزى اللهُ خيرًا الدكتورَ/ أحمد بن علي القرنيّ على بحثِ هذا الموضوعِ القيّمِ، فقد أحسنَ مُذكِّرًا بأهميتِه، وأجاد باحثًا ومقرِّرًا لمسائلِه، وأفاد فيما أوردَه من المادةِ العلميةِ الثريّةِ، كلُّ ذلك بمنهجٍ علميٍّ متميِّزٍ، وأسلوبٍ لغويٍّ بديعٍ، كما أنه كان ناصحًا أمينًا فيما أورده من التوصياتِ.

نسألُ اللهَ ﷻ أنْ يُجزلَ له المثوبةَ، وأن يُوفّقَ كلَّ راعٍ إلى الرقيِّ برعيّتِه في مجال الإبداع العلمي.

أ.د. الحسين بن محمد شواط - تونس

***

* كان لي شرفُ قراءة كتاب «**الإبداع العلمي**» للشيخ الدكتور/ أحمد بن علي القرني، فوجدتُه حَوَى كُلَّ الصَّيْدِ في جَوْفِ الفَرَا، ووجدتُ صاحبَه عالمًا ضَخْمًا يَكتبُ عن الضِّخَام، متميِّزًا، فريدًا في طَرْحِه.

والكتابُ في بابه أقربُ نسبةً إلى اسمِهِ، وهو بديعٌ، فريدُ، متميِّزٌ في ترتيبِه وفكرتِه.

ولقد قال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما ضَيّعَ المسلمونَ ثلثَ العلم بتضييعِ علم الطبِّ وتَرْكِهِ لليهود والنصارى!

ولقد أحسن هاشمُ الرِّفاعيُّ حيث قال:

مَلَكْنا هذه الدنيا قُرُونَا ... وأخْضعَها جُدُودٌ خالِدُونَا

وسَطَّرْنا صحائفَ مِنْ ضياءٍ ... فما نَسِيَ الزَّمانُ ولا نَسِينَا

واللهَ أسألُ أنْ يجعلَ أجرَ المؤلِّف مَوْفورًا مَوْفورًا، وأنْ يجعلَ جُهدَه مشكورًا، إنه وليُّ ذلك والقادرُ عليه.

الشيخ الدكتور/ سيّد بن حسين عفّاني - مصر

***

* إنّ الإبداعَ والعبقريّةَ والاختراعَ والابتكارَ من أسمى الوسائلِ للنهوضِ

بالأمةِ إلى مَصَافِّ الدولِ المتقدِّمةِ التي تتصدّرُ صُنْعَ القرارِ في العالَم.

والأمـةُ لا تسـتطيعُ أنْ تتجـرَّدَ مـن التبعيّـةِ والتخلُّـفِ في مجـالِ العلـومِ والمعـارفِ والتكنولوجيـا إلّا باسـتغلالِ هـذه المواهـبِ التـي تُسـاعدُها علـى مسايرةِ الرَّكْبِ الحضاريِّ المعاصرِ مع الحِفاظِ على دينِها وعقيدتِها. «وكـم ترك الأول للآخر».

وإنّني اندهشتُ ممّا رأيتُ في كتابِ «**الإبداعِ العلميِّ**» لفضيلة الدكتور/ أحمد بن علي القرني، حفظه اللهُ (عُضْوُ هيئةِ التدريسِ بالجامعةِ الإسلاميةِ بالمدينةِ المنورةِ)، مِن حُسْنِ استقصاءِ أُسُسِ التفوُّقِ والتألُّقِ والنجاحِ في مجال العلم ومقوِّماتِه ووسائلِ تحصيلِه.

ولا يَفوتُني أنْ أذْكُرَ أنّ ما وصلَ إليه المؤلِّفُ الفاضلُ من النتائج وما قَدَّمَه من التوصياتِ في آخرِ الكتابِ لَهُو جديرٌ بالعناية به لدى الجهاتِ المعنيَّةِ، لصالحِ أمتِها وعقيدتِها ودينِها. واللهُ الموفقُ!

الشيخ / صلاح الدين مقبول أحمد - الهند

***

* اطّلعتُ على كتابِ «**الإبداعِ العلميِّ**» للدكتور/ أحمد بن علي القرني حفظه اللهُ، فأعجبني موضوعُه، وتناوُلُ المؤلفِ له، وبراعتُه في تأصيلِه وتمثيلِه، فإنّ مجرَّدَ التصنيفِ في الإبداعِ العلميِّ هو في حدِّ ذاته إبداعٌ؛ لقلَّة المبدِعينَ على مَدارِ العُصُورِ والسنين، بما يَصعُبُ وَضْعُ ضوابطَ ومفاهيمَ واضحةً للإبداعِ.

وقد وُفِّق المصنِّفُ في تحقيقِ ذلكَ إلى حَدٍّ كبيرٍ في كتابه هذا، فأَسأَلُ اللهَ تعالى له التوفيقَ والسَّدادَ في أعمالِه العِلْميَّةِ كُلِّها، وأنْ يُوفِّقَهُ إلى كثيرٍ من الإبداعِ والبراعةِ، واللهُ مِن وراءِ القَصْدِ.

الشيخ المحدِّث / أبو معاذ، طارق بن عوض الله – مصر

❊❊❊

❊ هذه الكلماتُ ليستْ مقدِّمةً لهذا الكتابِ الفَذِّ، ولا تَقْريظًا له، إنما هي سوانحُ من طَرَفِ القلمِ، أتاح لي كتابتَها فضيلةُ أخي الأستاذُ الدكتورُ: أحمدُ بنُ عليٍّ القرنيُّ زاده اللهُ توفيقًا وسَدادًا.

لقد دَبَّجَتْ يَرَاعتُه حفظهُ اللهُ تعالى هذا العِلْقَ النفيسَ عن **الإبداع العلميِّ**، فكان كتابُه هذا إبداعًا علميًّا عديمَ النَّظيرِ، فهو أشبهُ بحديقةٍ غَنَّاءَ، تُشاهدُ فيها ما يُذهِلُكَ من جَمالِ الأزهارِ وطَيِّبِ الثِّمارِ، وتسمعُ فيها ما يُطرِبُكَ من تَغْريدِ الأطيارِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ، وفي هَزِيجِ الليلِ وهَدْأَةِ الأسحارِ.

لقد جمع اللهُ تعالى لفضيلةِ الشيخِ أحمدَ بينَ شتّى المواهبِ، فهو عالمٌ بالشريعةِ، وشاعرٌ مُجِيدٌ ، وأديبٌ صاحبُ قلمٍ سيَّالٍ، يَثِجُّ بالسِّحْرِ الحلَالِ، مَعَ حُسْنِ الانتقاءِ والاختيارِ.

وكانتْ نواتُه محاضراتٍ ألقاها قبلَ سنواتٍ، وقد تَمَنَّيْنا بعدَ سماعِها والانتفاعِ بما فيها من تأصيلٍ فريدٍ، وجمعٍ سديدٍ أن يَجمعَها كتابٌ حافظٌ، ثم حقَّقَ اللهُ هذه الأُمنيةَ، فصدرتْ طبعتُه الأولى عام ١٤٢٨هـ، ثمّ الثانيةُ عام ١٤٣٥هـ، وتلقَّاها أهلُ العلم بشغفٍ كبيرٍ، وتدارَسُوهُ بينَهُم، ودرَّسُوهُ في المساجدِ والجامعاتِ؛ وذلك لأنهم وجدوا فيه بُغْيَتَهُم وضالَّتَهُم المنشُودةَ،

فهو كنزٌ يجمعُ بين أجملِ المنثورِ وأعذبِ المنظومِ في صياغةٍ فريدةٍ، يَزينُها التوثيقُ لكلِّ معلومةٍ من معلوماتِه القيّمةِ.

ونحنُ الآنَ نشتارُ جَنَى طبعتِه هذه، وهي طبعةٌ حافلةٌ بزياداتٍ كثيرةٍ، وإضافاتٍ جِدِّ نافعةٍ يُرحَلُ إليها، وحُقَّ للشيخِ أحمدَ أنْ يَستشهدَ بقولِ أبي العلاءِ المَعَرِّيِّ:

وإنّي وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُهُ لَآتٍ بما لم تَسْتَطِعْهُ الأوائلُ

ولنْ يَجدَ مَنْ يُعَجِّزُه كما عُجِّزَ المَعَرِّيُّ.

وبعدُ، فلْتَقَرَّ أعينُ طُلّابِ العلمِ بهذه الطبعةِ الفريدةِ، ولْيفرحُوا بما حَوَتْهُ من طَيِّبِ القولِ وثمراتِه، ولْتَقَرَّ عَيْنَا مؤلِّفِه بما أودعَه فيه من علمٍ نافعٍ.

تقبَّل اللهُ من الشيخ هذا العملَ الجليلَ، ونفعَ به الأجيالَ جِيلًا بعد جيلٍ، ووفَّقَه في قادمِ الأيامِ إلى مزيدٍ من الأعمالِ العلميّةِ المبتكَرَةِ.

الشيخ الدكتور/ عبدالله بن محمد (سفيان) الحكَمي - الرياض

❋❋❋

❋ كتابُ «الإبداعِ العلميِّ» هو بِحَدِّ ذاتِه إبداعٌ علميٌّ، تلقّاه الباحثونَ والعلماءُ، بعظيمِ وجميلِ الثّناءِ، وحَظِيَ لديهمْ بمنزلةٍ رفيعةٍ ساميةٍ، وقُرِّرَ ببعضِ الجامعاتِ على طُلَّابِ الدّراساتِ العاليةِ، فزادَ اللهُ مؤلِّفَهُ مِن جزيلِ عَطائِهِ، وأسبغَ عليهِ جَليلَ نَعْمائِهِ.

الشيخ / عبد الحليم توميات - الجزائر

❋❋❋

* عندما يَكْتُبُ عن (العلم) - وَقَوانينِه، وآدابِه - عارفٌ به، مُبدِعٌ فيه، مُحِبٌّ له؛ فإنَّ الإتْقانَ فيما سَطَّرَ - قد يَبْلُغُ الذِّرْوَةَ - بتوفيقٍ وتَسديدٍ مِن الله - تعالى - وَحْدَه..

وعندما يكونُ هذا - كُلُّهُ - قائمًا على اهْتِبالِ أَحاسِنِ الأَوقات، ومَبْنِيًّا على ضَبْطِ مَحاسِنِ الشخصيّةِ العِلْميّةِ بأَجملِ الكَمالاتِ؛ فهُو ما يَجِبُ أَنْ تُعْمَلَ له الْمَطِيّ، وَيَتَطَلَّبُهُ كُلُّ طَالِبٍ ذَكِيّ. وبِهِما يَجْمُلُ «**الإبداعُ العلميّ**» - وَيَحْسُنُ.

.. بُورِكَتْ يُمْناكَ - أَيُّها الأَخُ المُحِبُّ الغالي الدكتورُ الشيخُ أحمدُ - ..

وَقَـدِّمِ الأَهَـمَّ إِنَّ العِلْـمَ جَـمّ فَـالعُمْرُ ضَـيْفٌ زارَ أَوْ طَيْـفٌ أَلَـمّ

الشيخ/ علي حسن عبد الحميد الحلبي - الأردن

***

* هاجِسٌ عظيمٌ شَغَلَ صاحبَ كتابِ «**الإبداعِ العلميِّ**» فصَدَرَ عنه؛ لِيُثيرَ قضيةَ الإبداعِ، التي هي أَلزمُ ما تحتاجُه الأمةُ لِتَستعيدَ الرايةَ، وتَحْضُرَ من جديدٍ في الكون الذي خلق اللهُ، وتَستجيبَ لأمرِ الاستخلافِ.

ولقد أحاطَ الكتابُ بالقضيّةِ من جوانبَها.

ولعلّ أخطرَ هذه الجوانب؛ جانِبانِ على الرُّغْمِ من أنهما سَلْبيَّانِ: الانحرافُ، والعوائقُ؛ وما ذاك إلّا لأنهما احترازانِ لازِمانِ - بعد الفهمِ وصِدْقِ العزيمةِ - لحمايةِ الفِكرةِ من الارْتكاسِ والتعطُّلِ.

د. فيصل الحفْيان

مدير معهد المخطوطات العربية بجامعة الدُّول العربية - مصر

***

* إنَّ هذا المصنَّفَ للأستاذ الدكتور/ أحمد بن عليّ القرني؛ فريدٌ في بابه، جديدٌ في موضوعه، وقد دَلَّلَ وأثْبَتَ أنَّ الأمةَ الإسلاميةَ ولَّادَةٌ في الإبداع والتَّجْدِيد، والتحرير والتحقيق، وفي ضِمْنِهِ يَحُثّ ويَحُضّ أبناءَ جيلِهِ على الإبداع، بَعْدَ تكوين المَلَكَةِ وحُصُول الأهليّة التامّة، والاطِّلَاع الدائم والبحث المُسْتَمِرّ.

وكلُّ مَنْ يتوهَّم أنَّ الإبداعَ معناه تغييرُ الثوابت، والطعنُ في المُسَلَّمَاتِ، والتَّشْكِيكُ في القَطْعِيَّاتِ؛ فإنَّ عِلْمَهُ وَبَالٌ عَلَيْهِ، ولم ينتجْ مطلوبَهُ، وقد أضَلَّهُ اللهُ وخَذَلَهُ؛ فَإِنَّ آفاقَ الإبداع فسيحَةٌ، وساحاتِهَا رَحْبةٌ، وميادينَها متنوِّعَةٌ؛ فليَضْرِبْ كلُّ مبدعٍ فيها بسَهْمٍ وافرٍ، يُجَدِّد معارِفَ الأمة ومعالِمَهَا؛ في ظِلِّ دعواتِ الحداثة والعَلْمَنَة والإلحاد، واستِئْصَالِ إرثٍ عظيمٍ لا يُقَدَّرُ بالأثمان، ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون.

فجَزَى اللهُ الدُّكتورَ على ما قام به مِنْ جُهْدٍ في الكِتَاب، وما سَطَّرَهُ من أفكار، وصلى الله على محمَّد وآلِهِ وصحبه أجمعين.

خادمة العلم الشريف د. كاملة الكواري - قطر

***

* إنّ كتابَ أخي الأستاذ الدكتور/ أحمد بن علي القرني - وفَّقهُ اللهُ، ونضَّرَ وجهَهُ في الدَّارَيْن - «**الإبداعَ العلميّ**» كتابٌ قرأتُه مِرارًا، وعاشَ معيَ طويلًا في دروسي ومحاضراتي ودَوراتي العِلْميةِ.

والكتابُ سَهْلُ المادّة، غَزِيرُ الفائدةِ، جَمُّ الفوائدِ، دلَّل على عقليّةٍ فذَّةٍ، وجمعٍ حسنٍ، ورسوخٍ في العلمِ، مع الفكرِ المستنيرِ لأمورِ التاريخِ وحالِ المبدِعينَ فيه، فجزى اللهُ كاتبَه وطابعَه خيرَ الجزاء.

وهذا الكتابُ صِنْوٌ لكتابِ الشيخِ/ بكر بن عبدالله أبو زيد: «**حِلْية طالب العلم**» ، وهما كتابان يعلِّمان المتعلِّمَ طريقَ التعلُّم.

وجاء هذا الكتابُ «**الإبداعُ العلميُّ**» بنَقْلةٍ مهمّةٍ لأجل أن يكونَ الإنسانُ مُبدِعًا، خادمًا لدينِه، نافعًا لنفسِهِ في حياتِهِ وبعدَ مماتِهِ، حيًّا بعِلمِهِ؛ لأنّ الحريصَ الذي يَحرِصُ أن لّا تنقطعَ حسناتُه بعد مماتِهِ.

ثم إني أغتنمُ الفُرصةَ وأُوصِي القارئَ بأن يَسيرَ على طريق المبدِعينَ في هذا الكتاب، وأُوصِيهِ بثلاثةِ علومٍ رئيسةٍ: تفسيرِ القرآن العظيم ، وأن يفهمَ المرءُ جميعَ الآياتِ. وحديثِ النبيِّ ﷺ درايةً وروايةً. والفقهِ الإسلاميِّ الذي هو ثمرةُ العلومِ الشرعيةِ، وأنْ يجعلَ المرءُ هدفَه الأكبرَ في هذه الحياة الدنيا أداءُ حقِّ اللهِ، ومِن ذلك: الدعوةُ إلى الله، وأن لّا نُفوِّت أنفسَنا فُرصةً تقرِّبنا إلى الله.

وفي الختام، نسأل اللهَ أنْ يَنفعَ المؤلِّفَ، وأنْ يَنفعَ بالمؤلَّفِ ومَنْ قرأ الكتابَ، وأنْ يُيسِّرَ اللهُ لنا أجمعينَ عِلمًا نافعًا، وعملًا صالحًا متقبَّلًا.

الشيخ الدكتور/ ماهر بن ياسين الفَحْل – العراق

❊❊❊

❊ يُصبحُ قولي مجروحًا عندما أتحدَّثُ عن تراثنا العربيِّ والاسلاميِّ المتنوّعِ لتخصُّصِي وعملي فيه سنينَ، ولاسيَّما العِلْميَّ، ذاك الذي كان في خلالِ القُرونِ من ٣٠٠هـ (٩٠٠م) إلى ٦٠٠هـ (١٢٠٠م) يومَ كانتْ القُرون

يُكتبُ فيها كلُّ شيءٍ بالعربيةِ، ويتعلَّمُها الناسُ حتى يَستطيعوا أنْ يَنْهلُوا من العلومِ الإنسانيةِ المختلفةِ، حالَ اللغةِ الإنكليزيةِ اليومَ! أقصِدُ بقولي: كلُّ مَن لّا يتكلَّمُ العربيةَ عليه أنْ يتكلَّمَ بها حتى يَنتسبَ إلى جامعاتِها آنذاكَ..

و«**شَمْسُ العَرَبِ تَسْطَعُ على الغَرْبِ**» للمستشرقة الألمانية/ سيغريد هونكة، ركَّزتْ فيه على علوم العرب والمسلمين في خدمة الإنسانية. وقد كتبَ غيرُها من المستشرقينَ كما كتبتْ.

لكنّ شَمْسَ العَرَبِ لمْ تَغرُبْ ولنْ تَغرُبَ ما دامَ هناكَ مَنْ يَكتبُ في علومِهِم، ويَعتزُّ بها، ويُذكِّرُ الأجيالَ بها، مِن أمثالِ مُؤلِّفِ كتابِ: «**الإبداعِ العلميِّ**» الدكتور/ أحمد بن علي القرني، نفع اللهُ به وبما كتبَ. واللهُ المستعانُ.

محمد بن إبراهيم الشيباني

مدير مركز المخطوطات والتراث والوثائق - الكويت

***

* لقد أبدعَ المصنِّفُ - حفظه اللهُ - في تناولِه الشاملِ لموضوعِ «**الإبداعِ العلميِّ**» وأعادَ الاعتبارَ لمفهومِ «الإبداعِ» حين حرَّرَهُ من تخليطِ أصحابِ الأهواءِ الذين يَنظِمونَ في سِلْكِهِ الإبداعَ الضارَّ الذي يَزْحَفُ نحوَ الثوابتِ لِيهدمَها ويُشكِّكَ فيها!

وهذا الكتابُ يَصلُحُ - إنْ صَحّتْ العزيمةُ - لأنْ تُستَنبَطَ منه «خارِطةُ طَريقٍ» يقومُ على تَصْمِيمِها وتَطْبيقِها النوابغُ المبدعونَ، وهم القِلّةُ التي تُنقِذُ الموقفَ، وتُباشرُ - باقتدارٍ - مُهمَّةَ الانتشالِ السريعِ للأمّةِ مِن وَهْدَةِ التَّخلُّفِ،

وتَضعُها مِن جديدٍ على طريقِ النهوضِ ، وصِناعةِ الحياةِ.

الشيخ الدكتور/ محمد بن إسماعيل المقدَّم – مصر

❊❊❊

❊ كتابٌ مُبدِعٌ في (الإبداعِ العلميِّ)، مفهومُه، وأنواعُه، وأقسامُه، وأُسُسُه، ومُقوِّماتُه، وحَوافزُه، وعَوائقُه، وبعضُ النُّجومِ المتلألِئةِ في سمائِه، يُؤكِّد أنّ الإبداعَ أن لّا تكونَ نُسخةً مُكرَّرةً، بل أنْ تكونَ رائِدًا مُتفرِّدًا مُتطلِّعًا إلى الأعلى دائمًا في الإبداع: التعبيري، والإداري، والإنتاجي، والاختراعي، والابتكاري.

وما أحوجَ الأمةَ الآنَ إلى الإبداعِ على المستوى الفرديِّ والجَماعيِّ، فلنْ تستطيعَ أنْ تَشُقَّ لنفسِها طريقًا من العِزَّةِ والمكانةِ والكرامةِ وَسْطَ أحجارِ النظامِ العالميِّ الجديدِ إلّا بالإبداعِ العلميِّ في شتّى جوانبِ الحياةِ.

وإذا كانـــتْ النُّفـــوسُ كِبـــارًا تَعِبـــتْ في مُرادِهـــا الأجْسَـــامُ!

شُكرًا لأخي المبدعِ الدكتور/ أحمد بن علي القرنيّ، وزاده اللهُ إبداعًا.

الشيخ الدكتور/ محمد حسّان – مصر

❊❊❊

❊ إنّ الكلامَ عن الابداعِ لَاحِبٌ، وضَبْطُه، مع أنواعِه، وأقسامِه، وأُسُسِه، ومقوّماتِه، وحَوافِزِه، وعَوائِقِه، وانحرافِه عن مسارِه، معَ نُجومِه المضيئةِ على مرِّ التاريخ، هو موضوعُ بحثِ الأخِ الدكتورِ الباحثِ المبدعِ/ أحمد بن علي القرنيّ، فجمعَ فيه الكلامَ على الإبداعِ، ولَـمْلَمَ أطرافَه في هذا الكتابِ، صغيرِ الحَجْمِ ، غَزيرِ العلمِ، كثيرِ الفائدةِ، فأبدعَ في تقسيمِه ، وأحسنَ عَرْضَه ، وأبعدَ عن الحَشْو والتطويلِ، وَوَصَلَ مُرادُه للقارئِ بأقربِ طريقٍ، وأسهلِ أُسلوبٍ،

فجزاه اللهُ خيرًا، ونفعَ به، ويسَّرَ له الخيرَ حيثُ كان، وجعلَه مُباركًا، ونفعَ بكتابِه، ورزقَنا وإيّاهُ شُكْرَ نعمتِه، والمزيدَ من فضلِه.

الشيخ / مشهور بن حسن آل سلمان - الأردن

***

* إنَّ الإبداع نشأ في هذهِ الأُمَّة من أوَّلِ يومَ نزلَ فيه الوَحْيُ على قَلبِ رسولِ اللهِ ﷺ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١- ٥].

وهكذا تقدَّمتِ البشريَّةُ في ظِلِّ المنهجِ الرَّبانيِّ الفريدِ الَّذي جاءَ بهِ الوحيُ الرَّبانيِّ، وَجَنَتْ ثِمارَ الإبداعِ الإسلاميِّ في كافَّة الْمَجالاتِ الفِكْريَّةِ، والاجتماعيَّةِ، والسِّياسيَّةِ، والاقتصاديَّةِ، وكافَّةِ شُؤونِ الحياةِ، من خلالِ التَّصوُّرِ الصَّحيحِ عن الإنسانِ ووُجودِهِ، واستطاعَ المسلمونَ أنْ يَبْنُوا حضارةً ماديَّةً متطوِّرةً، قائمةً على الاعتقادِ السَّليم، فبَرَزَ عُلماءُ المسلمينَ في كافّةِ العُلومِ الماديَّةِ، وغدَتْ الأندلُسَ قِبلةَ العالَمِ الأوربيِّ يُرسِلونَ مُفكِّريهم وأبنائِهم من أجلِ اقتباسِ العُلومِ من المسلمينَ.

وكتابُ الأستاذِ الدكتورِ/ أحمدَ بنِ عليٍّ الْقَرْنيّ «**الإبداعُ الْعِلْميُّ**»، هو مُحاولةٌ جادّةٌ مباركةٌ لتذكيرِ الأُمَّةِ بتاريخِها المُبدِعِ، بعدَ أنْ كَسَدَ مَفهومُ الإبداعِ لَدَى الكثيرِ مِن أبناءِ المسلمينَ، ولقد كانَ الدكتورُ في أُطروحاتهِ لَبيبًا، مَليحَ اللَّفْظِ، جيِّدَ الطَّرحِ، كَدَّ قَريحتَهُ في التَّرتيبِ والتَّنظيمِ، جَيّدًا في الإبداعِ وحُسْنِ الاستخراجِ، قويَّ المشاركةِ في المجالِ المعرفيِّ والتربويِّ، صادقَ النَّقْلِ، مُحِبًّا للحضارةِ الإسلاميّةِ، حَريصًا على إبرازِ مصدرِ قوّتِها وَتَقَدُّمِها، مُسْتبشرًا، واضحَ المنهجِ، مُتَّبعًا في سائرِ كلامهِ.

وكتابُ «الإبداع الْعِلْميِّ»، مُحاولةٌ من الباحثِ لإزالةِ غُبارِ الزَّمانِ عن المسلمينَ، مِن خلالِ إبرازِ مَفهومِ الإبداعِ، وأَثَرِ هذه الأُمَّةِ المحمودِ على بقيّةِ الأُممِ والشُّعُوبِ، وبيانِ طريقِ الإبداعِ والرِّفْعَةِ ووسائِلِها على الرُّغْمِ من صُرُوفِ الدَّهرِ.

ولقد مُنِحَ هذَا الكتابُ التَّوفيقَ، ونالَ الاسْتحسانَ، فكَثُرَ الإقبالُ عليه.

أسألُ اللهَ تعالى السَّدادَ والرَّشادَ لمؤلِّفِ الكتابِ وَلِقُرَّائهِ، وأنْ يُعيدَ لهذهِ الأُمَّةِ مَناقِبَها وَعِزَّ سُلْطانِها.

أ.د. موفّق بن عبد الله بن عبدالقادر

أستاذ الحديث وعلومه بجامعة أم القرى - مكة المكرّمة

***

* وَقفتُ على كتابِ «**الإبداعِ العلميِّ**» للدكتورِ/ أحمدَ القرنيّ حفظه اللهُ، فوجدتُه جديدًا في موضوعِه، فريدًا في بابِه، فتحَ مجالاتٍ رَحْبةً للعقلِ لِيبتكِرَ ويُبْدعَ ما ينفعُ أمّتَهُ، فهو في ذاتِه (إبداعٌ علميٌّ).

وقد وَضَعَ ضوابطَ شَرعيةً للإبداعِ، وشَجَّعَ شَبابَ المسلمينَ لِيدخُلُوا هذا المجالَ من جميعِ أبوابِه.

فجزاهُ اللهُ خيرًا، وأسألُ اللهَ أنْ يَفتحَ للأمةِ الإسلاميةِ أبوابَ العِزِّ والمجدِ في الدنيا، ورضوانَ اللهِ في الآخرةِ.

الشيخ / وحيد بن عبد السلام بالي - مصر

***